موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

الندوات الاذاعية

الاعجاز العلمي-
منهج التائبين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 01 - 30 : مقدمة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-10-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل خلق هذا الكون، وسخره للإنسان تسخير تعريف وتكريم، ردّ فعل التعريف أن نؤمن، وردّ فعل التكريم أن نشكر، فالإنسان حينما يؤمن، وحينما يشكر يحقق سر وجوده في الحياة، بدليل أن الله عز وجل يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

(سورة النساء)

إنكم حينما تحققون علة وجودكم من أجل أن تعرفوا الله، وتعبدوه، وتسعدوا بعبادته في الدنيا والآخرة، ذلك أن من أدق تعريفات العبادة أنها طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية، ففي هذا التعريف الدقيق جانب معرفي، هو السبب، وجانب سلوكي هو الأصل، وجانب جمالي هو الثمرة، فالله عز وجل خلقنا ليسعدنا، على خلاف ما يتوهم بعض الجهلة، بدليل قول الله تعالى:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود)

المدرسة حينما تؤسس من أجل أن تخرج قادة للأمة، الطالب حينما يقصر يعاقب، فإذا توهم هذا الطالب المقصر أن هذه المؤسسة التربوية الضخمة أنشئت لتعذيب الطلاب فهو جاهل جهلاً فاضحاً، فالله عز وجل خلقنا ليسعدنا سعادتنا اللامتناهية، تحتاج إلى معرفة، والمعرفة من لوازمها الطاعة .

إنك حينما توقن أن الذي أمر أمره يطولك، وقدرته تطولك، فلا بد من أن تطيعه، الكون مظهر لأسماء الله الحسنى، وتجسيد لهذه الأسماء، والصفات العلا، الله عز وجل لا تدركه الأبصار، ولكن كل شيء في الكون ينطق بوجوده ووحدانيته وكماله .

والله عز وجل حينما خلق الإنسان جعله مكرماً، قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (70))

(سورة الإسراء)

هذه الآية تبيّن تكريم الإنسان، وفي آية أخرى تبيّن تكليفه:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات)

وفي آية ثالثة تبيّن أنه المخلوق الأول رتبة، بدليل قوله تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب)

فهو المخلوق الأول رتبة، لأنه قبل حمل الأمانة، والأمانة نفسه التي بين جنبيه ،

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس)

أي يفلح هذا الإنسان، وينجح، ويسعد إلى أبد الآبدين حينما يزكي نفسه، أي يعرّفها بربها، ويحملها على طاعته، هذا هو الامتحان، لكن الله جل جلاله ما كلفنا حمل الأمانة إلا بعد أن أعطانا مقوماتها .

والحقيقة أنّ هذا الموضوع هو تمهيد شديد الصلة بمحور هذه الحلقات القادمة إن شاء الله تعالى، ما كلفنا حمل الأمانة إلا بعد أن أعطانا مقوماتها .

أول مقوم من مقوم حمل الأمانة: هذا الكون الذي ينطق بوجود الله ووحدانيته وكماله .

المذيع:

ما دمنا فضيلة الدكتور نتحدث عن طاعة المخلوق، فهل التعرف إلى الله سبحانه وتعالى من خلال آياته الكونية والقرآنية تعطي دافعًا للمؤمن والمسلم على طاعة الله عز وجل، واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ؟

الأستاذ:

حينما نقول هذه المقولة الأساسية: أنت حينما تعرف الآمر، وتعرف الأمر تتفانى في طاعة الآمر، أما حينما لا تعرف الآمر، وتعرف الأمر تتفنن في التفلت من هذا الأمر، فحلقة اليوم محورها: " كيف نعرف الآمر "، فالله عز وجل حينما كلفنا أن نعرفه، وحينما كلفنا أن نطيعه من أجل أن نقطف ثمار هذه الطاعة سعادة وسلامة في الدنيا والآخرة، كيف نعرفه ؟ هذا الكون مظهر لأسمائه الحسنى، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

إلا أن الإنسان ما لم يتخذ قراراً أوّلياً لطلب الحقيقة، فلو كان في أكبر محطة فضاء في الأرض لا يؤمن بالله، ولو كان في أضخم مجهر إلكتروني وهو يرى الخلية لا يؤمن بالله، لكن يؤمن بالله إذا اتخذ قراراً أوّلياً بطلب الحقيقة ! الإنسان هو المخلوق المتميز عن بقية المخلوقات بقوة إدراكية، فإن لم يطلب الحقيقة، ولم يبحث عنها هبط من مستوى إنسانيته إلى مستوى آخر لا يليق به .

المذيع:

قد يقول البعض: إن الإعجاز لا بد منه للإقناع، ولكن قد يذكر البعض أننا لسنا بحاجة لإعجاز، بل هي

فقط للعوام، ولكن الخواص لهم إعجاز آخر، وهم يطيعون من دون إعجاز، ومن دون هذا الإقناع .

الأستاذ:

كلام طيب، الإنسان حينما يعبد الله من دون أدلة قوية جداً يعبد الله بفطرته، الفطرة السليمة تدعونا إلى أن نعبد الله، بل إن الإنسان لا يجد نفسه إلا إذا عبد الله، الإنسان لا يحقق توازنه، ولا يستريح إلا إذا عبد الله، لكن هذه العبادة التي لا تدعم بأدلة قوية جداً عبادة هشّة، لا تقاوم ضغطاً شديداً، ولا إغراءً شديداً، فلعله في عصور سابقة الفتن نائمة، والشهوات مستترة، فيمكن أن نكتفي بعبادته فكرياً، أما الآن الضلالات فلا تعد ولا تحصى، والشبهات على الأديان لا تعد ولا تحصى، والمصالح صارخة، وكل شيء يدعو إلى المعصية، في مثل هذا الجو الصعب جداً لا بد من أدلة قوية تقوي مناعتنا ومقاومتنا للضغوط والشهوات .

فالمؤمن الصادق لا يتحول عن منهجه، لا تحت سياط الجلادين اللاذعة، ولا أمام بريق سبائك الذهب اللامعة، هو مؤمن متمسك بدينه وثوابته ومبادئه، كما قال الله عز وجل:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (23))

(سورة الأحزاب)

أول مقوِّمٍ من مقوِّمات حمل الأمانة هذا الكون، لكنه يحتاج إلى عقل وأداة معرفة، ومن بديع خَلْق الله عز وجل أن هذا الكون صمم وفق نواميس، أحدها السببية، فما من شيء في الأرض إلا وله سبب **!** من أجل أن يقودنا مبدأ السببية إلى مسبب الأسباب، لو تصورنا أن هذا الكون نظامه بلا مبدأ السببية نجد الشيء بلا زراعة، نجد الماء بلا حفر بئر، لتوهمنا أن هذا الكون بلا خالق، لأن الله صمم هذا الكون وفق نظام السببية، فنظام السببية نفسه يقود إلى معرفة الله عز وجل، فالعقل من أبرز مبادئه السببية والغائية وعدم التناقض، فكل شيء له سبب، وله غاية، ولا يقبل العقل البشري أن يكون إنسان في دمشق وفي بيروت في وقت واحد، نظام العقل البشري متوافق مع نظام الكون، فكما أن الله عز وجل جعل هذا الكون مظهراً لأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى جعل مبادئ العقل متوافقة مع نظام الكون، فالمقوِّم الثاني هو العقل، وتكاد تكون آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن العقل تقترب من ألف آية **!**

وأسوق هذه القصة التي وردت في صحيح البخاري، فعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً، فَاسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ، فَقَالَ: أَلَيْسَ أَمَرَكُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُطِيعُونِي ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا، فَجَمَعُوا، فَقَالَ: أَوْقِدُوا نَارًا، فَأَوْقَدُوهَا، فَقَالَ: ادْخُلُوهَا، فَهَمُّوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا، وَيَقُولُونَ:

فَرَرْنَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ النَّارِ، فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتِ النَّارُ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))

(البخاري)

في منهج الإسلام العظيم العقل لا يعطّل أبداً ! الآن: أعطانا كونا ينطق بعظمته، ووحدانيته، وبعلمه، وبرحمته، وبلطفه، كل أسماء الله الحسنى مجسدة في الكون، ولكن علينا أن نبحث عنها، وإن شاء الله تكون الحلقات القادمة حول هذا المحور، ثم إن الله سبحانه وتعالى أعطانا فطرة، العقل مقياس علمي، لكن الفطرة مقياس نفسي، نكشف به أخطاءنا، الإنسان حينما يخطئ، وحينما يخرج عن جبلته ومبادئ فطرته، وعن إنسانيته يتألم أشد الألم، سمّي هذا كآبة شعوراً بالذنب أو بالنقص، إنه ألمٌ نفسي، هذه الفطرة، والدليل على وجود الفطرة الآية الكريمة:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس)

أي إنه ألهمها أنها حينما تفجر أنها تفجر، والعياذ بالله لا يمكن أن تفهم الآية كما يفهمها بعض الجهلة، أن الله خلق فيها الفجور، لكن الآية تعني أن برمجة هذه النفس في مستوى رفيع جداً، حيث لو أخطأت تتنبأ أنها أخطأت، كيف أن بعض الآلات الحديثة جداً كيف يصيبها خلل يظهر على الشاشة موضعُ الخلل، كذلك النفس الإنسانية حينما تفجر تعرف أنها فجرت، وحينما تتقي تعرف أنها اتقت، هذه الفطرة ميزان نفسي، فأنا بالعقل أتعرّف إلى الله، وبالفطرة أكشف خطئي .

إنسان لو كان بجزيرة نائية لم تصل إليه رسالة إطلاقاً، لو أنه فعل شيئاً قبيحاً تنكره الأديان كلها لعرف أنه فعل قبيحاً ! بشكل ذاتي فطري، فأول مقوِّم الكون، والحديث عنه في الحلقات القادمة إن شاء الله، وثاني مقوِّم العقل بمبادئه الثلاثة، السببية، والغائية، وعدم التناقض، والمقوم الثالث الفطرة السليمة، الآن الإنسان من دون شهوة كتلة جامدة، لولا أن الله أودع فينا الشهوات لما رأيت شيئاً على وجه الأرض، الحركة تحتاج إلى دافع، فالدافع للطعام والشراب يحتاج إلى أن تتعلم، وتكسب وظيفة تعيش منها، الدافع للطعام والشراب يدفعك لتكون تاجراً، أو صناعياً، أو طبيباً، مهندساً معمارياً، أو بائعاً، فالحاجة الأولى في الإنسان هي الطعام والشراب، هي حاجة لحفظ الفرد، والحاجة الثانية هي الحاجة للطرف الآخر، حاجة الجنس، هذه حاجة لحفظ النوع، والحاجة الثالثة لخلود الذكر، وهي تأكيد الذات، الإنسان يبدأ فيأكل، ثم يتزوج، ثم يحب أن يؤكد للناس أنه متفوق، هذه الدوافع الثلاثة جاءت بشكل آخر في القرآن الكريم، قال تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة آل عمران)

فهذه الشهوات أودعها الله فينا لتكون قوة دافعة، لكنها حيادية، بمعنى أنك إن وظفتها وفق منهج الله كانت قوة دافعة نافعة، أما إذا وظفتها في الشر كانت قوة مدمرة، أرأيت إلى البترول السائل البنزين إذا وضع في مستودعات محكمة، وسار في الأنابيب المحكمة، وانفجر في الوقت المناسب، وفي المكان المناسب ولّد حركة نافعة، نقلتك إلى مكان جميل أنت وأهلك، أما إذا وضع هذا السائل المتفجر على المركبة، وأصابها عود ثقاب أحرق المركبة ومن فيها، والمادة هيَ هِيَ، فالشهوات حيادية، وهي سلّم نرقى بها إلى أعلى عليين، أو نهوي بها إلى أسفل سافلين، أدق كلمة في الشهوات أنها حيادية، المال يوظف في الخير والشر، والمرأة توظف في الخير زوجة، في الشر زنى، وما من شهوة أودعها الله في الإنسان ـ وهذه حقيقة دقيقة ـ إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها .

الشهوات قوى محركة، أو قوى مدمرة، لأن الإنسان مخير فكل خصائصه وحظوظه حيادية، لو أن إنسانا سأل: هل المال نعمة ؟ ليس نعمة ! نقمة ؟ ليس نقمة ! المال قيمة موقوفة على طريقة توظيفه، عن وظفته في الخير كان سبباً إلى أعلى مقامات الجنة، وإن وظف في الشر كان سبباً لبلوغ أسفل دركات النار .

المال، والمرأة، والعلو في الأرض هذه كلها قيم حيادية، لذلك يوجد ملمح لطيف في قوله تعالى:

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16))

(سورة الفجر)

جاء الردع:

(كَلَّا)

ليس عطائي إكراماً، ومنعي حرماناً، عطائي ابتلاء، وحرماني دواء، فالشهوات يمكن أن نرقى بها، ويمكن أن نهوي بها، فصار الكون والعقل والفطرة والشهوة من مقومات التكليف، بقي من المقوِّمات حرية الاختيار، لولا أن الإنسان مخير لم تكن لعمله قيمة، لو أن الله عز وجل أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً .

يروى أن رجلاً شارب خمر جيء به إلى سيدنا عمر ليقام عليه الحد، فقال: " والله يا أمير المؤمنين، إن الله قدر علي ذلك، أجبره على أن يشرب الخمر، فقال: أقيموا عليه الحد مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله، قال: ويحك يا هذا إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار " .

وفي أيّ ثانية نعتقد أن الإنسان مجبر ومسير في كل شيء نكون قد ألغينا الثواب والعقاب، والجنة والنار، والتكليف والمسؤولية، ولأوقعنا أنفسنا في عقيدة فاسدة تشف أن هناك مهزلة في الكون ! هل تصدق أن مدير مؤسسة يريد وظيفة فيجري مسابقة يتقدم إليها الآلاف، وفي ذهنه واحدا سيعيّنه في النهاية، هذه تمثيلية سمجة، فالإنسان مخير:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3))

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة)

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148))

(سورة الأنعام)

هذه الآية أصل في أن الإنسان مخيّر، لكن حينما نتوهم أن هذه الآية تعني أنه مسيّر فقد قال العلماء: الآيات المتشابهة مهما كثرت تُحمَل على الآيات المحكمة مهما قلّتْ، فإذا قرأنا آية: } يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ {، قال العلماء: هذا الإضلال الجزائي مبني على ضلال اختياري، وما من مثل يوضح هذه الآية كطالبٍ لم يتقدم على الامتحان، ولم يداوم ولا ساعة، وجاءه إنذار أول، وثانٍ، وثالث، ولم يستجب، فصدر قرار بطرده من الجامعة، هذا القرار تجسيد لرغبته بترك الدراسة، فإذا قرأنا آية يُشَمّ منها رائحة الجبر فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، كقوله تعالى:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف)

الكون والعقل والفطرة والشهوة والاختيار مقوّمات التكليف، بقي شيء واحد، هو المنهج فضلاً عن أن العقل أداة معرفة الله، وعن أن الفطرة تكشف لك خطأك، وأن الشهوات قوى دافعة أو مدمرة، أعطاك منهجًا، افعل ولا تفعل، هذا المنهج هو هذا الكتاب الذي أنزله الله على نبيه الكريم، وكذلك الكتب السماوية التي نزلت على أنبياء الله الكرام .

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 02 - 30 : مقدمة2.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-10-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الله جل جلاله خلق هذا الكون كما قلت في اللقاء السابق: كمظهر لأسمائه الحسنى، وصفاته الفضلى، لكن هناك قاعدة رائعة من مسلّمات العقل، أن كمال الخَلق يدل على كمال التصرف، فلا بد من تناسب بين تفوق فكري وبين تفوق سلوكي، فإذا ظهرت حكمة الله عز وجل وعلمه ورحمته في خَلقه ألا يقتضي هذا الكمال الإلهي الذي بدا صارخاً في خلقه أن يكون ما يقابله من كمال في إرشاد العباد إلى سر وجودهم وغاية وجودهم ؟

بشكل مبسط، أنت أب مثالي، رأيت ابنك يتجه نحو المدفأة، وهي مشتعلة، هل تبقى صامتاً ؟ ألا ينبغي أن تتحرك، أو تقول كلمة، أن تزجره، وترشده، لذلك الحقيقة المسلَّم بها أن كمال الخلق يدل على كمال التصرف، مع أن الله سبحانه وتعالى أعطى عباده كل مقوِّمات إيمانهم، وطاعتهم، وسعادتهم، لكنه تفضل عليهم برسالات الأنبياء، والدليل:

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

(سورة آل عمران)

المن هو العطاء الزائد، مثلاً: ابنك في مدرسة، اخترت له أفضل مدرَسة، وأفضل مدرِّسين، وكل الوسائل مؤمَّنة في أعلى مستوى، وفوق كل ذلك جعلت له أستاذاً خاصاً يأتيه إلى البيت، فهذا الأستاذ الخاص ليس من حقه، الوسائل الأساسية كافية لتفوقه، ولكنك تفضلت عليه بوسيلة استثنائية، فبعثة الأنبياء هي مَنٌّ مِنَ الله لعباده، لكن العقل يدل على الله، والفطرة تدل، والكون يدل، وكل شيء خلقه الله يدل عليه، فمن كمال الخَلق لا بد من أن يكون منه كمال التصرف، فمن هنا بدأت بعثة الأنبياء.

المذيع:

كمال الخلق لله عز وجل، وهنا يجب على المؤمن والمسلم التصرف السليم، مطلوب منه الكمال.

الأستاذ:

الله عز وجل لو جعل أنبياءه ملائكة لسقطت الحجة، يا أخي، أنت مَلك، وأنا بشر، أنا عندي شهوات، لحكمة أرادها الله جعل أنبياءه ورسله من بني البشر، ولولا أن النبي بشر يعاني ما يعانيه البشر، وتجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، ولما كان حجة أمامنا، لو أن النبي مَلك لا

يشتهي، لا يتألم، لا يخاف، كيف يكون قدوة لنا ؟ فلا بد من أن يكون هذا الرسول، أو ذاك النبي من بني البشر، يعاني ما يعانيه البشر.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)

(سورة الكهف)

المذيع:

هناك تميّز للنبي صلى الله عليه وسلم.

الأستاذ:

لكن هذا التميّز مبني على التفوق، والدليل:

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33))

(سورة آل عمران)

في النبوة جانب كسبي، وجانب وهبي، ليس من المعقول أن تقول: النبوة كلها جانب وهبي، إنسان عادي جداً يجعله الله نبياً بلا سبب ؟

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33))

فهناك جانب من النبوة كسبي، الله عز وجل اصطفى أنبياءه من قمم البشر، الآن بعد أن اصطفاهم منحهم الوحي، والمعجزات، والبيان، والتذكر التام:

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6))

(سورة الأعلى)

أعطاهم وسائل النبوة، تماماً كما لو أنك أردت أن تضع سفيراً في أقوى دولة في العالم تحتاجه متفوقاً في اللغة الأجنبية، في العلوم، والآداب، وذكاء اجتماعي، وله شكل مقبول، بعد أن تتوافر فيه سياساته الأساسية، دراساته من كسبه، تمنحه جواز سفر، وحقيبة دبلوماسية، وشيكًا مفتوحًا، هذه كلها تأتي بعد الاختيار، فكأن الله عز وجل اصطفى أنبياءه وهم قمم البشر، ثم منحهم وسائل الدعوة إليه.

المذيع:

فضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي، نرى في معجزات كل نبي تميُّزًا، وهناك تمايز في المعجزات، هل هناك من هدف من وراء ذلك ؟

الأستاذ:

نعم، سآتي إلى هذا الموضوع بعد قليل، فالله عز وجل اختار الأنبياء من بني البشر، لأن النبي يشعر كما يشعر البشر، لكنه انتصر على بشريته، نحن خلقنا جميعاً لنكون على شاكلة محمد عليه الصلاة والسلام، لأنه بشر فيه كل صفات البشر، لكنه انتصر على بشريته، واستحق هذه المرتبة العليّة.

المشكلة الآن أن هذه الديانات الوضعية فيها ولاء فقط الآن وطقوس تؤدى بسهولة، لذلك الأتباع بمئات الملايين، لا يوجد جهد، ولا ثمن، يكفي أن أعلن ولائي لهذا الإله المزعوم، وأن أمارس بعض الطقوس، حركات، وسكنات، وتمتمات لا معنى لها، هذه الطقوس، أما في منهج الله عز وجل ففيه افعل، ولا تفعل، الفكرة دقيقة: الإنسان أودعت فيه الشهوات، كما قلت في الحلقة السابقة، فهي تمهيد لكل الحلقات إن شاء الله، فالإنسان أودعت فيه الشهوات، وهو مخيّر، بإمكانه أن يمارس هذه الشهوة بمئة وثمانين درجة، جاء المنهج الإلهي، وسمح لك بثمانين درجة فقط، المرأة زوجتك، المال دخل حلال، فالشهوات واسعة جداً، وأنت حر، لكن المنهج الإلهي أعطاك زاوية مسموحٌ من خلالها أن تمارس هذه الشهوة.

أقوى دليلٍ على ذلك:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص)

المعنى المخالف: أنه لو اتبع هواه وفق هدى الله فلا شيء عليه، لو أن الإنسان اتبع هواه في حب المرأة، فتزوج امرأة تحصنه من أن ينظر إلى غيرها، فلا بأس في ذلك، اشتهى المال ليأكل ويشرب هو وأولاده، ليسكن في بيت، فعمل في تجارة مشروعة إسلامية، لا شيء فيه، فالأنبياء حينما أرسلهم الله عز وجل معهم منهج، معهم افعل ولا تفعل، منهج الله يحدّ من شهوات المعرضين، هذا الإنسان المعرض مصلحته في أن يمارس هذه الشهوة بأوسع أبوابها، فجاءه منهج يقول له: غضّ البصر، دع الربا، والغيبة، والنميمة، والتباهي بالآباء والأجداد، فردُّ فعل هؤلاء الذين يتحركون أوسع زاوية في شهواتهم، الموقف الطبيعي لهم أن يكذبوا هذا النبي.

الله عز وجل أرسل أنبياء من بني البشر، ومنحهم تفوق في كل شيء، لكن معهم منهج، هذا المنهج يقتضي أن يحد من شهوات الناس، فرد فعل الغارقين في شهواتهم تجاه هذا المنهج أن يكذبوا الرسول، كيف يثبت الرسول أنه رسول ؟

هنا موضوع الحلقات: كيف يثبت هذا الرسول الذي أرسله الله، ومعه منهج لهؤلاء البشر الضالين الضائعين، وقد كذبوه، وادعوا أنه ساحر، وكاهن، ومجنون، وشاعر، وهو رسول في الحقيقة، فكيف يثبت هذا الرسول لهؤلاء المعرضين الكافرين أنه رسول ؟

المذيع:

المعجزة كما ذكرنا سبب لعدم تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم.

الأستاذ:

هذا هو السبب، أو كيف يشهد الله لهذا الإنسان أنه رسول ؟ إن شئت أن تقول: كيف يثبت هذا النبي

الكريم لقومه الذين كذبوه أنه نبي أو رسول، أو كيف يشهد الله لعباده أن هذا الذي أرسله هو نبي، أو رسول، لا بد من أن يؤيده بالمعجزات، هنا بدأ محور هذه الحلقات المباركة إن شاء الله.

المعجزة خرق للنواميس وللقوانين وللعادات، لا بد لإنجاب الولد من أب وأم، فإذا جاء الولد من أب بلا أم، أو من أم بلا أب، أو من غير أب وأم فهذا خرق للنواميس، المعجزة لا تقبلها العادات، ولكن العقل يقبلها، لماذا لأن الذي قنن هذا القانون عدّله، الذي نظّم هذا النظام بدّله، فالمعجزة هي خرق للنواميس.

هناك ملمح لطيف جداً في هذا المجال، وهو أن الله لحكمة أرادها جعل لكل شيء سبباً، لكن الناس أحياناً يؤلّهون السبب، ويعتمدون عليه، ويستغنون عن رحمة الله، فقد تأتي المعجزات أو خرق النواميس تذكيرًا للناس، من أن السبب لا يخلق النتيجة، لكن الله يخلق النتيجة، فأحياناً الأمطار لا تنزل، مع أن المنطقة ساحلية والمنخفضات كثيرة جداً، لكنها لا تمطر، فحينما نعتمد على السبب، ونؤلّهه فقد وقعنا في الشرك، وهذا مرض الغربيين، وحينما لا نأخذ به هذا مرض الشرقيين، ولكن نريد أن نفرق دكتور بين العلم، وأن نتبع العلم كما هو، وطبعاً أن نتبع بشكل أعمى، هنا نريد أن نفرق بهذه النقطة حتى لا نتجنى على العلم.

أنا حينما أرى زلزالا، هناك حقائق علمية وراء الزلزال، هناك حركة باطنية في الأرض، وطبقات انزاحت عن مكانها، فسببت هذا الزلزال، هذا التفسير العلمي الحقيقي الواقعي لا يتناقض مع التفسير الإلهي للزلزال.

فالله إذا أراد إهلاك قرية زلزل أرضها فرضاً، فالله مسبِّب الأسباب، لا أرى تناقضاً بين التفسير الإلهي التوحيدي للزلزال والتفسير العلمي، لأن الله حينما يكرم يكرم بسبب، وحينما يهلك يهلِك بسبب، إن أراد إهلاك قرية بالزلزال تتحرك الطبقات الباطنية، وتصبح زلزالاً فتدمر القرية، هل يتناقض التفسير العلمي مع التفسير التوحيدي ؟ القرآن لا يتناقض إطلاقاً.

لكن أريد أن أقول: هذه المعجزة خرق للنواميس، يقبلها العقل، ولا تقبلها العادة، أنا أَلِفْتُ أن النار تحرق، فإذا ألقي إنسان في النار، ولم تحرقه النار فهذا خرق للنواميس، الذي أعطى النار فاعلية الإحراق عطّل هذه الفاعلية، والآية الدقيقة جداً:

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً)

(سورة الأنبياء)

لو قال الله: كوني برداً لمات من البرد، ولكنه قال:

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً)

لنجى، ولتعطّل مفعول النار إلى لأبد، ولكن خصص فقال:

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69))

فالذي خلق القانون يعطله، أو يغيره، أو يبطله، فالمعجزة في الأصل خرق للنواميس، الأنبياء السابقون، ولحكمة أرادها الله عز وجل كانت معجزاتهم حسية، أي إنها كعود الثقاب، يتألق مرة، ويصبح خبراً يصدقه من يصدقه، ويكذبه من يكذبه، لكن لأن النبي عليه الصلاة والسلام آخر الأنبياء، ورسالته خاتمة الرسالات، وهو للعالمين قاطبة، وهو رحمة للعالمين جميعاً، رسالته لكل البشر، فلا بد من أن تكون معجزته مستمرة، معجزات الأنبياء السابقة هي معجزات حسية، لأن لكل قوم هاد، هذه المعجزة لهؤلاء القوم، ولهم نبي، أما معجزة النبي عليه الصلاة والسلام، لأنه لكل البشر، ولكل أهل الأرض ينبغي أن تكون متميزة، من هنا كما تفضلت قبل قليل تميزت معجزة النبي عليه الصلاة والسلام عن بقية المعجزات بأنها مستمرة، فكانت علمية، ولم تكن حسية، حسية تقع مرة واحدة، ولن تقع بعدها، تصبح خبراً يصدقه من يصدقه، ويكذبه من يكذبه، لكن معجزة النبي الكريم معجزة مستمرة باقية إلى أبد الآبدين، أو نهاية الدوران، لذلك هي معجزة علمية، ففي هذا القرآن الكريم ألف وثلاثمئة آية تتحدث عن الكون، وعن المجرات، والشمس والقمر، والليل والنهار، وعن الجبال وعن البحار، والأنهار والأمطار، والأسماك والأطيار، تتحدث عن خلق الإنسان، هذا الكم الكبير من آيات القرآن الكريم الشيء الذي لا يصدق أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يشرحها أبداً ! لحكمة بالغة، إما باجتهاد منه أقره عليه الوحي، أو بوحي من الله، لماذا ؟

المذيع:

العجيب فضيلة الدكتور أن الصحابة كانوا يسألون عن أشياء كثيرة، إلا هذه الأشياء.

الأستاذ:

يسألون عن أحكام العبادات، لأنها هي التي تقربهم إلى الله عز وجل، هم عاشوا مع النبي ، ومع الوحي، عاشوا الإسلام بأقوى مظاهره، لذلك هم بحاجة إلى طاعة الله عز وجل، أما نحن ف أصل الدين عندنا مهزوز، ولا بد من أدلة قوية، لذلك نبحث عن الإعجاز.

فالنبي عليه الصلاة والسلام لو تصورنا أنه شرح هذه الآيات الألف والثلاثمئة بطريقة كما أراه الله آيات الكون.

(لَقَدْ رَأَى مِنْ آَيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18))

(سورة النجم)

لو شرحها شرحاً مبسطاً جداً يتناسب مع بيئات العصر ومعطيات العلم في وقت النبي الكريم لأنكرنا عليه، الحكمة التي لا تصدق أنها تركت بلا شرح، ليتحرك العلم، ويكشف في كل وقت وزمن أسرار

هذه الآيات، وتلك المعجزات، فكان هذا القرآن بحق معجزة النبي عليه الصلاة والسلام المستمرة، ولكن لا بد من تعليق بسيط:

مثلاً: لو كان هناك إعجاز في أن الكمبيوتر في عصر سيدنا عيسى لا قيمة له، لا بد من أن يكون الإعجاز في مجال تفوق به الكون، تفوقوا في الطب لدرجة مذهلة، فجاءت معجزة سيدنا عيسى إحياء الميت، وهذا فوق مقدور الطب، في عهد سيدنا موسى كان السحر عصا تصبح ثعبان مبيناً، هذا فوق عمل السحرة ! فيجب أن تكون المعجزة في موضوع تفوق فيه الكون، وتحداهم الله به، هذا الذي أريد أن أوضحه في موضوع المعجزات.

المذيع:

التميز، طبعاً معجزات الأنبياء، أو النبي بحسب كل قوم يأتون إليه، فضيلة الدكتور، ما دمنا في هذه الحلقات الأولى من البرنامج نريد أن تحدثنا عن تقسيم الموضوعات للحلقات القادمة.

الأستاذ:

الكون مصطلح علمي حديث، يقابله في القرآن السماوات والأرض، وهو مصطلح قرآني يعني الكون، فهذه المعجزات، أو آيات الإعجاز العلمي للكتاب والسنة هي في حيز الكون كله، فإذا بدأنا بالمجرات بالكازارات، بالمذنبات، بالمجموعة الشمسية، بالشمس، بالقمر، بالليل والنهار، بالأرض، بجبالها، ببحارها، وبحيراتها، وأنهارها، وأمطارها، بصحاريها، بحيواناتها، بأسماكها، بأطيارها، بالإنسان، بأجهزته، وطبعه، فالحقيقة أن موضوع الإعجاز يشمل كل هذه الموضوعات، ونحن قد نأخذ بها بتسلسل، أو بغير تسلسل، العبرة أن كل موضوع يعد وحدة قائمة بذاته تدل على الله.

ملاحظة لطيفة – قد يسأل سائل – لِمَ لم يكن القرآن مبوباً على الأبواب ؟ باب الكون، باب التشريع، باب التاريخ، باب الجنة والنار، إن كان كذلك فهو ليس كتاب هداية، هذا الترتيب ترتيب موضوعي، لكن الترتيب ترتيب سيكولوجي، هو أقرب إلى النفس البشرية، فأنت في سورة واحدة تقرأ آية كونية، وقصة من قصص الأقوام الغابرة، ومشهداً من مشاهد الجنة أو النار، ثم حكماً شرعياً، ثم توجيهاً إلهياً، ونحن حينما نتنقل من بحث إلى بحث، من إنسان، إلى طائر، إلى حيوان، إلى جبل، إلى نهر، إلى كون، إلى مجرة، هذا وفق الترتيب القرآني.

فالعبرة أن كل حلقة إن شاء الله سوف تختص بموضع متكامل يعطي الإنسان دفعة إيمانية يتأثر بها في معرفة ربه، وأنا أقول دائماً: إن هذه الآيات الكونية أقصر طريق إلى الله، وأوسع باب ندخل منه على الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 03 - 30 : الله الذي رفع السماوات.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-10-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا :

الأستاذ :

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

أستاذ عبد الحليم، جزاك الله خيراً على هذه الندوات، هذه الآية لا بد لها من تمهيد، قلت في الحلقة الأولى: إن العقل البشري أداة معرفة الله عز وجل، لكن قدراته محدودة، بمعنى أن العقل إذا جال في الكون جولة يستنبط أنه لا بد لهذا الكون من خالق، يأتي الوحي، ويجيب العقل عن هذا السؤال الذي قلت: إنه لا بد له من خالق، إنه الله، الله الذي رفع السموات، فالحقيقة أنّ كلمة : { اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا } هي في مضمونها إجابة لتساؤل العقل من أن هذا الكون لا بد له من خالق، فهذه هي الإجابة :

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً)

[سورة الملك]



(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

[سورة الرعد]

لا بد من تكامل بين العقل والنقل، سأوضح هذا بمثل: إذا دخلت إلى جامعة فرأيت أبنيتها، وقاعات المحاضرات والمخابر، وبيوت الطلبة، والحدائق الغناء والملاعب، عقلك يستنبط عشرات الحقائق من هذا الذي رأيته.

الآن الملاحظة، لاحظت دقة في الأبنية، وتناسب الأبنية مع أهداف الجامعة، وقاعات المحاضرات، فيها

عزل للصوت، ومدرج، وسبورات تمسح آلياً، بيوت الطلبة حولها حدائق، وموقع الجامعة بعيد عن الضوضاء، والمخابر العملاقة، تستنبط أن هناك إدارة وجامعة وتخطيطًا وهندسة، ولكن هل تستطيع أن تستنبط من هو عميد الكلية؟ من هو رئيس الجامعة من هذه الأبنية؟ هل لك أن تستنبط نظامها الداخلي؟ متى ينجح الطالب ومتى يرسب؟ هل لك أن تستنبط أسماء الأساتذة؟ مستحيل، فالنظر في أبنية الجامعة ينبئك أن وراء هذه الأبنية مهندسين وعلماء، لكن من هم؟ ما أسماؤهم؟ ما النظام الذي يحكمهم؟ كيف ينجح الطالب؟ هذا لا بد من كتيب عن الجامعة، فالنظر في الكون يكمله الوحي، التأمل والتفكر في خلق السموات والأرض يكمله وحي السماء، فأنت بالعقل إذا جال في الكون تعرف أنه لا بد لهذا الكون من خالق، يأتي الوحي ويقول لك :

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

العقل لا قيمة له من دون وحي ينير له الطريق :

شيء آخر مهم جداً، الوحي ينقل لك مراد الله منك! لماذا خلقك؟ ولماذا جعل الدنيا محدودة وجعلها قصيرة؟ لماذا جعلها ممرًّا للآخرة؟ فكل هذه التساؤلات يأتيك الجواب عنها في الوحي، فنحن لا يمكن أن نعتمد على العقل وحده في الإيمان، تماماً كهذه العين، فلو أن إنسانًا يملك عينًا في أعلى مستوى من الرؤية، ما قيمتها من دون ضوء؟ لا قيمة لها إطلاقاً، لو جلس إنسان يبصر في غرفة مظلمة، وإنسان لا يبصر فهما يستويان، فكما أن هذه العين لا قيمة لها من دون ضوء يتوسط بينها وبين الأشياء، كذلك هذا العقل لا قيمة له من دون وحي ينير له الطريق، أقول: العقل من دون وحي:

العقل محدود

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ)

[سورة المدثر]

العقل وحده لا يكفي فهو محدود، لا بد للعين من ضوء، ولا بد للعقل من وحي، فالله عز وجل يجيب العقل الذي تساءل عن أن هذا الكون يحتاج إلى خالق، أجابه، وقال :

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

بمعنى أنه رفعها بعمد لا ترونها، وما من تفسير لنظرية التجاذب في الكون إلا هذه الآية.

في الكون قوى تجاذب لا يراها الإنسان :

في الكون قوى تجاذب لا نراها، لو أنك جئت بورقة، ووضعت عليها مسمارًا، وفي أسفل الورقة دون أن نرى المغناطيس حركت هذا المغناطيس فتحرك المسمار، بين الورقة والمغناطيس قوى تجاذب، لكنها غير مرئية، لا تُرى بالعين، فأنت على وجه الأرض مرتبط بقوى التجاذب، ما هو وزن الإنسان في الأساس؟ هو قوة جذبه نحو مركز الأرض، الوزن كله، بدليل أن الإنسان فيما بين الأرض والقمر تنعدم الجاذبية، فيصبح لا وزن له، رواد الفضاء يستيقظون، فإذا هم في سقف المركبة، تنعدم الجاذبية، فالآية :

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

من حكمة الله عز وجل أن الأرض تدور حول الشمس، هذا شيء بديهي، سرعتها في دورانها حول الشمس ثلاثون كيلو مترًا في الثانية! نحن من أول هذا اللقاء إلى الآن قطعنا مئات ألوف الكيلومترات، وهذا شيء يقيني، الأرض تدور حول الشمس في مسار إهليلجي بيضوي، والمسار البيضوي له قطران، صغير وكبير، الشكل البيضوي لو أخذنا مركزه، عندنا نصف قطر طويل، ونصف قطر قصير، ليس كالدائري، كالبيضة تماماً، فالأرض تدور حول الشمس بمسار إهليلجي، وهذا المسار له قطر صغير وقطر كبير، أو نصف قطر صغير، ونصف قطر كبير، في أثناء سير الأرض حول الشمس، وعلى هذا المسار إذا اقتربت من نصف القطر الصغير قلّت المسافة بينها وبين الشمس، وتعلمون أستاذ عبد الحليم - جزاكم الله خيراً - أن قانون الجاذبية يتناسب مع الكتلة والمسافة، فإذا قلّتْ المسافة ازداد الجذب، فبديهي أن الأرض حينما تقترب من الشمس في هذا المكان الذي قطره صغير لا بد من أن تنجذب إلى الشمس، ما الذي يحصل؟ ترفع الأرض من سرعتها، وكأنها عاقلة، ترفع هذه السرعة لينشأ من هذه السرعة الزائدة قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة كيف؟ لو حملت وعاء ماء وملأته ماء، ودورته، الماء لا يسقط، لماذا؟ لأنك حينما تدير

هذا الوعاء ينشأ من هذا الدوران قوة نبذ بعيدة عن المركز، فالماء لا يسقط، فالأرض حينما تصل إلى هذه المرحلة الحرجة، والتي يخشى منها أن تنجذب إلى الشمس ترفع سرعتها، حيث ينشأ من هذه السرعة الإضافية قوة نبذ استثنائية تكافئ قوة الجذب الاستثنائية، فتبقى في مسارها، وهي مادة غير عاقلة.

آيات الله عز وجل في الآفاق :

هل تصدق مركبة في طريق ليس فيها سائق؟ سيارة من حديد توقفت عند الإشارة الحمراء، مرّ طفل فأطلقت بوقها، عند المنعطف انحرفت نحو اليمين، هل تصدق ذلك؟ هل تعد المادة عاقلة؟ هذا شيء مستحيل، شيء من صخر، لماذا رفعتْ من سرعتها؟ ولماذا تابعتْ سيرها؟ لأن هناك إدراكًا بالجذب القوي، لأن هناك خالقًا يسيّرها اسمه اللهُ، لكن الشيء اللطيف لو أنّ هذه الأرض رفعت سرعتها فجأة لانهدم كل ما عليها، لكن الحكمة البالغة أن التسارع بطيء، ليبقى كل شيء في مكانه، تماماً لو وضعت بضع علب في شاحنة، وأقلعت فجأة تقع العلب، أو وقفت فجأة تقع العلب، السبب أن في قانون العطالة الجسم المتحرك يرفض السكون، والجسم الساكن يرفض الحركة، لماذا حزام الأمان في السيارة؟ لأنها إذا توقفت فجأة بسبب حادث فأنت تركب معها، فأنت يحكمك مبدأ العطالة، تريد ألا تقف، فتبقى متحركًا، فيقع الحادث، لذلك وجد حزام الأمان لتكون مرتبطًا بالسيارة، فهذه الأرض حينما تصل إلى هذا المكان الحرج ترفع سرعتها، فينشأ من رفع هذه السرعة قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة، فتبقى في مسارها.

الآن الأرض تمشي، وصلنا إلى القطر الأعظم، المسافة طالت بينها وبين الشمس، والجاذبية ضعفت، يوجد خطر من تفلت الجاذبية للشمس، الآن خطر آخر، نوع آخر، أول خطر هو خطر الانجذاب إلى الشمس، والأرض إذا ألقيت في الشمس تبخرت في ثانية واحدة، الخطر الثاني خطر التفلت من جاذبية الشمس، فإذا سارت الأرض في الفضاء الكوني أصبحت الحرارة مئتين وسبعين تحت الصفر، ولمات كل ما على الأرض، برودة لا تحتمل!! خطر الانجذاب إلى الشمس بالاحتراق، وخطر التفلت من الشمس بالتلف الناتج عن البرودة الكبيرة جداً.

الآن: الأرض في هذا المكان الثاني تبطئ من سرعتها لينشأ من بطء السرعة ضعف في قوة النبذ يكافئ ضعف الجاذبية، فتبقى في مسارها.

لا بد لهذا المسار والمسير من قدرة إلهية محكمة بحركة الأرض، الآن التسارع بطيء والتباطؤ بطيء، وهذا يعبر عن اسم "اللطيف".

أحياناً تركب مع سائق أرعن، يوقف المركبة فجأة، فيقلب الركاب، يقلع فجأة فيزعجهم، السائق اللطيف لا تشعر بشيء مزعج معه.

تركب طائرة، الطيار يهبط بخط انسيابي، وهناك طيار ينزل بك بالطائرة، وكأنك في درج فهذا من اسم "اللطيف".

المذيع :

فضيلة الدكتور، سنعود للسماء والعمد الذي تحدثنا عنه، أنها بغير عمد، هكذا ذكر الله سبحانه وتعالى، إن كان هناك عمد فهي كما ذكرتم قوة الجاذبية ولكن غير مرئية.

الحكمة من رفع السموات بغير عمد نراها :

الأستاذ :

لو أن الأرض تفلتت من جاذبية الشمس، وسارت في الفضاء الكوني، وأردنا أن نرجعها فلا بد من مليون مَليون حبل تربط بها إلى الشمس، ومن المعلوم أن أمتن حبل في الكون هو الفولاذ المضفور، ونحن من أجل أن نعيد الأرض إلى مسارها حول الشمس لا بد من أن نربطها بمليون مليون حبل فولاذي، قطر كل حبل خمسة أمتار، والمعلوم أن الحبل الفولاذي قطره خمسة أمتار يحمل مليوني طن، قوى الشد في هذا الحبل تساوي مليوني طن، نحن الآن سنغرس مليون مليون حبل على سطح الأرض كي نشدها إلى الشمس، لو زرعنا هذه الحبال لفوجئنا أنه بقي بين كل حبل وحبل مسافة حبل واحد، نحن أمام غابة من الحبال تعيق الحركة، والبناء، والطرق، وتعيق ضوء الشمس، إذاً ستنتهي الحياة، لكن حكمة الله أنه رفع السموات بغير عمد ترونها، بقوى تجاذب!!!

معنى ذلك أن الأرض مرتبطة بالشمس باثنين مليون ضرب مليون مليون، هذه قوة جذب الشمس للأرض، كل هذه القوة من أجل أن تحرف الأرض ثلاثة مليمترات كل ثانية، هذا الشكل الإهليلجي الذي هو مسارها حول الشمس.

هذه القوة من أجل أن تحرف الأرض ثلاثة مليمترات كل ثانية، هذا معنى قوله تعالى :

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

المذيع :

هذا الحديث يذكرنا بما ذكره بعض العلماء في السابق عن شكل الأرض، وأنها على شكل بيضوي وليست مسطحة، هذا إعجاز، فبعد أن تحدثنا عن قوة الجذب بين السماء والأرض، الآن نتحدث عن

السماء ذات الرجع، وهذه آية مختلفة ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، أيضاً التفسير هنا نراه بشكل معجز.

تفسير قوله تعالى : وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ :

الأستاذ :

كان يفهم من هذه الآية أنه إذا صعد بخار الماء إلى السماء رجع مطراً، هذه المعطيات الأولية، ثم اكتشفوا أن هذا البث الإذاعي لولا أن هناك طبقة في الجو اسمها الأثير تعيد هذه الموجات إلى الأرض لما كان هناك بث إذاعي في الأرض، ثم اكتشف أن الحقيقة التي تنتظم الكون كله هي قوله تعالى :

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

[سورة الطارق]

أي إن كل نجم أو كل كوكب ينطلق في مسار مغلق، ويعود إلى مكان حركته الأولى المصطلح عليها، كل كوكب يدور في مسار مغلق يعود إلى مكان انطلاقه الأول، المسار المفتوح هو الحلزوني، أما المسار المغلق فأن هذا النجم يعود إلى مركز انطلاقه الأول تماماً، بدليل أن ساعة [بيك بين] تضبط على حركة نجم، وقد تختلف في العام ثانية أو ثانيتين، والنجم أدق من أي ساعة في الأرض.

صورة رقمية لحركة النجوم المغلقة

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

أي إن كل كوكب يتحرك، لو تصورنا أن الكون كواكبه لا تتحرك، بحسب قانون الجاذبية لا بد من أن يصبح الكون كتلة واحدة، كل نجم أكبر يجذب الأصغر، وتنتهي الحياة، لولا هذه الحركة لما كانت حركة في الكون، فحركة النجم في مسار مغلق، أي يعود إلى مكان انطلاقه الأول، هذه الحقيقة تنتظم الكون كله:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)

[سورة الطارق]

المذيع :

نسبح الله سبحانه وتعالى بهذه الكلمات، ونرى هذه الآيات المعجزة التي نزلت في القرآن الكريم منذ ألف وأربعمئة سنة، يكتشفها الآن العلماء في خلال هذه السنوات، ومن خلال الميكروسكوبات، والمركبات الفضائية التي نراها.

اكتشاف الآيات المعجزة التي نزلت في القرآن الكريم منذ ألف وأربعمئة سنة :

الأستاذ :

هذا مصداق قوله تعالى :

(سَنُرِيهِمْ)

[سورة فصلت]

السين للاستقبال، و الميم للغائب، الله هو المتكلم، والمؤمن مخاطب، والطرف الآخر هو الغائب، مصداقاً لهذا الدين العظيم :

(سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)

[سورة فصلت : 53]

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 04 - 30 : مواقع النجوم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-10-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الحق دائرة يتقاطع فيها أربعة خطوط :

الأستاذ:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

أن الحق دائرة يتقاطع فيها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، وخط العقل الصريح، وخط الفطرة السليمة، وخط الواقع الموضوعي، العقل الصريح أداة معرفة الله، والنقل الصحيح الوحيان- الكتاب والسنة- والواقع الموضوعي خلقه، والفطرة جِبِلَّة أودعت فينا، إذاً كل هذه البنود من أصل واحد، إنه الله عز وجل، والقاعدة أن الأصل إذا اتحد فالفروع متساوية فيما بينها.

فالحق لا بد من أن يتطابق مع ما في القرآن الكريم وهو كلامه، مع قوانين خلقه، مع جبلة الإنسان، مع الواقع الموضوعي، هذا المنطلق يبيّن أن العلم كلما تقدم كشف عن جانب في القرآن الكريم.

ظاهرة انتثار الضوء :

كان هناك عالم من علماء الفلك في زيارة مركز من مراكز إطلاق المراكب الفضائية في بعض الدول المتقدمة، وهو في زيارة هذا المركز الذي ظلّ على اتصال مستمر بمركبة فضائية أُطلقت قبل زيارته، فإذا برائد الفضاء الذي على المركبة يتصل بمركز انطلاق المركبة، ويخبرها أنه أصبح لا يرى شيئاً! لقد أصبحنا عمياً!! لا نرى شيئاً، والغريب أن المركبة قد انطلقت في وضح النهار، وبعد وقت قليل تجاوزت هذه المركبة الغلاف الجوي، ودخلت في منطقة لا هواء فيها،

ظلمة الفضاء

وأصبح الجو مظلماً ظلاماً كلياً، فصاح هذا الرائد: لقد أبحنا عمياً، لا نرى شيئاً، ما الذي حصل؟ مركبة انطلقت في وضح النهار، وضح النهار في الأرض معروف، كل شيء مكشوف وواضح بأشعة الشمس، أو من دون أشعة الشمس، لكن هناك أصبح الظلام مسيطراً، ولا يرى هذا الرائد شيئاً! الذي حصل أن أشعة الشمس إذا وصلت إلى الغلاف الجوي تتناثر، بمعنى أن كل ذرة في الهواء تعكس على أختها بعض أشعة الشمس! فانتثار الضوء ظاهرة علمية، أساسها أن أشعة الشمس تنعكس على ذرات الهواء، وكل ذرة تعكس على أختها من أشعة الشمس شيئاً، في الأرض يوجد ظاهرة، أن هناك منطقة فيها ضياء وليس فيها أشعة شمس، فنقول فيها: الجو نهار، ونرى كل شيء، والشمس في بعض الأماكن نرى أشعتها، بينما في الفضاء الجوي لا هواء، أي لا انتثار للضوء، فالجو ظلام تام دامس، لا يرى في الفضاء الخارجي إلا قرص الشمس فقط، فحينما نظر هذا الرائد من نافذة المركبة رأى ظلاماً دامساً مطبقاً فصاح: أصبحنا عمياً، لا نرى شيئاً، هذه الحقيقة، أن الفضاء الخارجي ليس فيه هواء، وبالتالي ليس فيه انتثار ضوء.

المذيع:

هنا نريد أن نفسر حقيقة علمية، أنه لولا الغلاف الجوي لما كان هناك ضياء.

الأستاذ:

نعم هذا كلام دقيق، الآية الكريمة:

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ، لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

[سورة الحجر: 14-15]

المذيع:

هنا أتينا إلى القرآن الكريم الذي يفسر هذه الظاهرة العلمية.

القرآن كلام الله عز وجل و إعجازه :

الأستاذ:

نعلم إن الطيران اكتشف أخيراً، وما من أحد في عهد النبي صعد إلى الفضاء، فهذه الحقيقة لا يمكن أن تُكتشف وقتها، فجاءت بها آية كريمة، الآن حينما سافر الإنسان إلى الفضاء، ورأى كيف أن الفضاء الخارجي فيه ظلام دامس مطبق، تطابقت رؤية رائد الفضاء مع الآية الكريمة، هذا الكلام ليس كلام النبي عليه الصلاة والسلام، إنما هو كلام الله، ولعل أقوى دليل على أن القرآن كلام الله و إعجازه، فلذلك يقول الله عز وجل:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)

[سورة فصلت: 53]

وكأن هذه الآيات شهادة الله للناس أن هذا الإنسان الذي جاء بالقرآن إنما هو رسوله.

فائدة الغلاف الجوي

الشيء الدقيق أيضاً هو أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما لم يشرح هذه الآيات، وحينما تركت للتطور العلمي إذاً أصبحت آيات القرآن الكريم معجزات مستمرة إلى نهاية الدوران.

المذيع:

الآن سننتقل إلى موضوع آخر، وما دمنا مع الفضاء، وهذه الأمور التي نراها في السماء.

في الليل نرى نجوماً، وفي النهار لا نراها، وذلك لكثرة الضياء، ذُكِرت النجوم في آيات الله وكتابه العزيز:

(فلا أقسم بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[سورة الواقعة: 75]

فما هي هذه المواقع؟ ذُكِرت مواقع النجوم، ولم يذكر: لا أقسم بالنجوم مثلاً، لماذا؟

آيات الله في الكون :

الأستاذ:


معنى مواقع النجوم

أنا أعتقد أن هذه الآية لو قرأها عالم فلك لخرّ ساجداً لله من كلمة واحدة فيها، ألا وهي كلمة مواقع، ولكن قبل شرحها لا بد من تمهيد.

بين الأرض والقمر ثانية ضوئية واحدة، أي إن الضوء يقطع المسافة بين الأرض والقمر والتي تصل إلى ثلاثمئة ألف كيلو متر في ثانية واحدة، لأن أعلى سرعة في الكون هي سرعة الضوء ثلاثمئة ألف كيلو متر في ثانية

واحدة، فبين الأرض والقمر ثانية ضوئية واحدة، والإنسان عنده غرور شديد، فحينما وصل بمركبته للقمر قال: غزونا الفضاء، بين الأرض والشمس ثماني دقائق ضوئية، يوجد مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر، يقطعها الضوء في ثماني دقائق، بين الأرض وأقرب نجم ملتهب للأرض أربع سنوات ضوئية!

عظمة المسافات بين الكواكب

طبعاً طالب ثانوي بإمكانه أن يحسب المسافة، لأن الضوء يقطع ثلاثمئة ألف كيلو متر في الثانية، ضرب ستين بالدقيقة، ضرب ستين بالساعة، ضرب أربعة وعشرين، باليوم ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين بالسنة، ضرب أربع بأربع سنوات، هذا الرقم كم يقطع الضوء، وأقرب نجم إلى الأرض.

لو أننا نركب مركبة أرضية بسرعة مئة، قسمنا هذا الرقم على مئة كم ساعة؟ على أربع وعشرين كم يومًا؟ على ثلاثمئة وخمسة وستين، كم سنة؟ يتضح أننا نحتاج لنصل لأقرب نجم ملتهب إلى الأرض إلى خمسين مليون سنة، لو أردت أن تصل لأقرب نجم ملتهب إلى الأرض بمركبة أرضية تحتاج إلى خمسين مليون سنة.

الآن نجم القطب يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية، كم سنة نحتاج؟ الأربع سنوات يحتاجون إلى خمسين مليون سنة! الأربعة آلاف مليون سنة، شيء مخيف، المرأة المسلسلة هذه المجرة تبعد عنا مليوني سنة ضوئية، أحدث مجرة اكتشفت تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية!.

فلا أقسم بِمَوَاقِعِ النُّجُوم آية من آيات الله الدالة على عظمته و إعجازه :

هذه المجرة، ولو فرضناها كوكباً كان في هذا المكان قبل عشرين مليار سنة، وأرسل أشعته للأرض، وبقي ضوء هذا النجم العملاق يمشي عشرين مليار سنة حتى وصل إلى الأرض، فرأيناه نحن، لكنه ينطلق

مجرة المرأة المسلسلة

بسرعة مذهلة، سرعة المجرات البعيدة مئتان وأربعون ألف كيلو متر في الثانية، فإذا كان من عشرين مليار سنة في هذا المكان، وسرعته مئتان وأربعون ألف كيلو متر في الثانية، أين هو الآن؟ ما الكلمة التي تعبر عن هذا المكان و ليس فيه صاحب المكان؟ الموقع، لو أن الله قال مثلاً: فلا أقسم بالمسافات بين النجوم ليس قرآناً، وليس كلام خالق الكون، لكن لأنه قال:

(فلا أقسم بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[سورة الواقعة: 75]



النجم متحرك، تغير موقعه من موقع إلى آخر، انتقل لمكان آخر، أما حينما أطلق أشعته فكان في هذا الموقع وتركه، هذا الموقع انطلقت منه الأشعة نحو الأرض،

وهذا ما رأيناه، من كلمة موقع وحدها يخر عالم الفلك ساجداً لله عز وجل:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة: 75-76]

إذا كان خلق الله غير متناهٍ، فكيف بالذات الإلهية؟ الكون نظرياً له حدود، لأنه ما سوى الله، تعلمون أن الله عز وجل واجب الوجود، وأن ما سواه محتمل الوجود، يمكن أن يوجد على ما هو عليه، أو على غير ما هو عليه، أو ألاّ يكون موجوداً، هذا خلق الله يبدو لنا لا نهائياً.

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ آية أخرى من آيات الله الدالة على عظمته :

يوجد آية ثانية، أن الله عز وجل حينما قال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

[سورة البروج: 1]



هناك بروج في السماء، برج الجوزة، برج العقرب، وفي هذه البروج نجوم كثيرة، أحد هذه البروج برج العقرب، وفيه نجم صغير، اسمه قلب العقرب، هذا النجم أحمر متألق، شيء لا يصدق! بين الأرض والشمس مئة

وستة وخمسون مليون كيلو مكتر، والشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة، أي إن جوف الشمس يتسع لمليون وثلاثمئة ألف أرض! الآن هذا النجم الصغير قلب العقرب يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما!!! هذا معنى قوله تعالى:

(سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)

[سورة فصلت: 53]

المذيع:

شيء مذهل، فضيلة الدكتور هذه المسافات وهذا الحجم الهائل.

علم الله وخبرته لا نهاية لهما :


فضل العلم

الأستاذ:

لذلك نقول نحن اصطلاحاً: مسافات فلكية، أرقام فلكية، إن أردنا أن نبالغ في شيء في الأرض نقول: رقم فلكي، شيء لا يصدق، هذا الإله العظيم يعصى؟ ألا يخطب وده؟ هل يستغنى عن منهجه؟ هل يتهم كتابه بالمبالغات وأن هذا الحكم لا يتناسب مع هذا العصر؟ إن علم الله وخبرته لا نهاية لهما، هذا معنى قوله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة: 75-76]

لو تعلمون، لذلك قال تعالى:

(كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر: 28]


نعمة قوة الادراك

وليس أحد غيرهم يخشى الله عز وجل، لذلك إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا

أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً، و يظل المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل.

والإنسان من دون علم يقترب من حياة البهائم، وفضل الله على هذا الإنسان أنه كرمه بالقوة الإدراكية، لولا هذه القوة الإدراكية لكنا أمثال مخلوقات لا تليق بنا.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 05 - 30 : خلق الإنسان - جهاز المناعة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-10-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

في قوله تعالى:

(سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

(سورة فصلت)

فكما أن الإنسان مكلف أن يجول جولات وجولات في أرجاء الكون مكلف أيضاً أن يجول جولات وجولات في دقائق خلقه، بل إن الآيات التي في خلقه أقرب شيء إليه، وهذا معنى قوله تعالى:

(سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

هناك في حياة كل منا آيات معجزة صارخة دالة على عظمة الله عز وجل، منها جسمنا الذي هو أقرب شيء إلينا، ففي رأس كل منا ثلاثمئة ألف شعرة، لكل شعرة بصلة، ووريد، وشريان، وعضلة، وعصب، وغدة دهنية، وغدة صبغية، وفي شبكية العين عشر طبقات، في آخرها مئة وأربعون مليون مستقبل للضوء، ما بين مخروط، وعصية، ويخرج من العين على الدماغ عصب بصري يحتوي على خمسمئة ألف ليف عصبي، وفي الأذن ما يشبه شبكية العين، ففيها ثلاثون ألف خلية سمعية لنقل أدق الأصوات، وفي الدماغ جهاز يقيس التفاضل الزمني لوصول الصوت إلى كل من الأذنين، وهذا التفاضل يقلّ عن جزء وألف وستمئة جزء من الثانية، وهو يكشف للإنسان جهة الصوت، وعلى سطح اللسان تسعة آلاف نتوء من أجل تذوق الطعام، لمعرفة الطعم الحلو والحامض، والمر والمالح، وإن كل حرف ينطق به الإنسان يسهم في تكوينه سبع عشرة عضلة، فكم عضلة تسهم في خطبة تلقى في ساعة؟

في كل حرف يسهم في صنعه سبع عشرة عضلة، ويضخ القلب من الدم في عمر متوسط ما يمل أكبر ناطحات سحاب في العالم، وفي دماغ الإنسان أربعة عشرة مليار خلية قشرية، ومئة مليار خلية استنادية لم تعرف وظيفتها بعد، بل إن دماغ الإنسان هو أعقد ما فيه، ومع ذلك فهو عاجز عن فهم ذاته.

إن في جدار المعدة مليار خلية تفرز من حمض كلور الماء ما يزيد على عدة ليترات في اليوم الواحد، وقد جهد العلماء في حل اللغز، لمَ لا تهضم المعدة نفسها ؟ أليست المعدة معجزة ؟ وفي الأمعاء ثلاثة آلاف وستمائة زغابة معوية للامتصاص في كل سنتيمتر مربع، وهذه الزغابات تتجدد كلياً كل ثمانٍ وأربعين ساعة.

إن تحت سطح الجلد ستة عشر مليون مكيف لحرارة البدن، وهي الغدد العرقية، وفي الكبد ثلاثمئة مليار خلية يمكن أن تجدد كلياً خلال أربعة أشهر، ووظائف الكبد خطيرة وكبيرة ومدهشة، حيث لا

يستطيع الإنسان أن يعيش بلا كبد أكثر من ثلاث ساعات، وفي الكليتين مليونا وحدة تصفية، طولها مجتمعة مئة كيلو متر يمر فيها الدم في اليوم الواحد خمس مرات، هذا جسمنا الذي نحن نعيش معه هذا أقرب شيء إلينا، هذه حقائق مسلَّم بها عرفها الأطباء من عشرات السنين، وليست خاضعة للمناقشة إطلاقاً، قال تعالى:

(سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

المذيع:

فضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي، تكلمت أن لكل إنسان عددًا معيَّنًا من الخلايا، سواء في الدماغ أو العين، إلى ما هنالك من أجهزة في الجسد، ولكن هناك تمايز بين الناس، نرى هناك أشخاصًا بشرتُهم صفراء، وبعضهم بشرته سوداء، فهناك تمايز وتفاضل بين الناس، والإعجاز في هذا الكلام الذي نتحدث عنه.

الأستاذ:

الإنسان مكرم عند الله، ولكرامته عند الله أعطاه بعض صفاته، فالله عز وجل فردٌ، والإنسان فرد، وهذا بحث علمي دقيق، الآن اكتشف أن لكل إنسان زمرة نسيجية، لا يمكن أن تتوافق زمرتان في الأرض، ستة آلاف مليون إنسان، لكل إنسان زمرة نسيجية، والآن اكتشف أن قزحية العين لا يمكن أن تشبه قزحية إنسان آخر، وقبل أشهر صدر قرار بوضع سمة قزحية العين على الجواز، فإذا دخل إنسان بلدًا أوروبيًّا تفحص قزحية عينيه، ويؤخذ رسمهما، فإذا لم تتطابق فالجواز مزور **!!** الآن هناك أقفال في أمريكا تصنع على قزحية العين، يكفي أن تضع عينك على نافذة فيفتح الباب، ولا يمكن أن يفتحه أحد غيرك، فالقزحية ينفرد بها الإنسان، ورائحة الجلد، ولولا هذا الانفراد لما كان هناك من فائدة من الكلاب البوليسية **!** والبصمة أيضاً فيها مئة علامة، لو تشابهت سبع علامات مع إنسان آخر لكانتا لإنسان واحد، بل إن بعض المجرمين في أميركا خلعوا جلد بصمتهم، وصنعوا جلوداً من أرجلهم بعد حين ظهرت علامات البصمة على هذا الجلد الجديد، البصمة هوية، فلكرامة الإنسان عند الله جعل له زمرة نسيجية يتميز بها، وجعل له قزحية يتميز بها، ورائحة جلد يتميز بها، وتركيبًا دمويًّا خاصًّا به، هذه ينفرد بها الإنسان، وجعل له بصمة يتميز بها، بل إن نبرة صوته يتميز به، ولا يمكن لإنسان أن يكون له نبرة كنبرة إنسان آخر، هذه الصفات التي ينفرد بها الإنسان تؤكد أنه فرد، والفردية من صفات الله عز وجل، ولكرامته عنده أعطاه هذه الصفة.

شيء آخر، الله مبدع، لكنه لكرامة الإنسان عنده من حيث الخلق والجينات والمورّثات سمح له أن يبدع، فالإنسان طوّر وردة، جعلها سوداء، وطوّر بعض الأشجار العملاقة، جعلها مقزّمة، طوّر بعض الخضراوات والفواكه، مهجّنة من صنفين، والآن البذور تحتل المرتبة الأولى في العالم، لكرامته عند

الله جعله يبدع، ولأن بعض النصوص ظنية الدلالة أيضاً لكرامته عند الله سمح له أن يشرّع، وقد قبل الله أن نعبده باجتهاد العلماء، فالإنسان يشرع، ويبدع، وهو فرد، ثم لكرامته عند الله جعله مختاراً، أنت مخير وبقية المخلوقات مسيَّرة.

المذيع:

التمايز بين الأفراد هذا إعجاز فعلاً، فالبصمة تختلف عن مختلف الناس، أو كما ذكرنا عن قزحية العين، ولكن هناك فضيلة الدكتور تمايز ليس فقط على صعيد الأفراد، بل على صعيد اللون والألسنة، وما إلى هنالك، نرى أن هناك شعوباً كلها تحمل تمايزًا، ولكن هذا بين شعوب، وليس بين أفراد.

الأستاذ:

يوجد وراء هذه الظاهرة حقيقة علمية رائعة، ذلك أن الجينات التي تشكل الجنين تقسم على قسمين قسم يشكل الجنين وقسم يودع في جهاز الجنين التناسلي، من أجل أن تكون الشعوب على لون واحد، ونمط واحد، وبصمات واحدة، فالصينيون لهم سمة واحدة، حينما ترى شخصًا من الصين تعرف أنه من الصين، لأن هذه الجينات التي تساهم في تشكيل الجنين تنقسم إلى قسمين، قسم يسهم في تشكيله، وقسم يودع في جهازه التناسلي، ليكون الابن مشابهاً لأبيه، لتكون الشعوب ذات سمة موحدة، هذا أيضاً من عظمة الله عز وجل.

المذيع:

فضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي، كلما مر بنا الزمن نرى أمراضًا تتجدد، وحوادث كثيرة تصيب الإنسان، فمنها جهاز المناعة الذي يصاب عند الإنسان، فما هو الإعجاز في ذلك ؟

الأستاذ:

جهاز المناعة المكتسب جهاز عجيب، هذا الجهاز ـ ولا أبالغ ـ هو يشبه جيشاً بكل ما في هذه الكلمة من معنى ! جيش يدافع عن الإنسان، عن أنسجته، وأعضائه، هذا الجيش مؤلف من خمس فرق، الفرقة الأولى فرقة الاستطلاع، هذه مهمتها معلوماتية فقط، لو دخل إلى الجسم جرثوم تنتقل إليه لتأخذ شفرته الكيماوية، وتأخذ نقاط ضعفه، وتعود إلى معامل تصنيع السلاح، وتعطي تقريراً عن نتائج هذا الجرثوم، وعن خصائصه، وتركيبه، ونقاط ضعفه، في فرقة ثانية مهمتها تصنيع المصول المضادة للجراثيم، هي بمنزلة معامل الأسلحة، فالفرقة الأولى استخبارية استطلاعية، مهمتها نقل المعلومات، تنطلق إلى الجرثوم، وتأخذ شفراته الكيماوية، وتأخذ نقاط ضعفه وخصائصه، وتعود على العقد الليمفاوية، وهي مكان تصنيع المصول، الفرقة الثانية تصنع السلاح، أعجب ما في هذه الفرقة أنها تتمتع بذاكرة عجيبة، لو أن طفلاً أصابه مرض، ثم أخذ أفراد الفرقة الأولى المعلومات الدقيقة عن هذا الجرثوم أعطوها للعقد الليمفاوية مكان تصنيع السلاح، وصنعت سلاحًا مضادًا لهذا الجرثوم، أو بالتعبير الطبي مصلا مضادًّا،

هذه الفرقة فرقة تصنيع السلاح تتمتع بذاكرة عجيبة، لو أن هذا المرض شفي منه هذا الطفل، وعاد إلى صاحبه بعد سبعين عاماً وأكثر ملف هذا الجرثوم محفوظ في ذاكرة هذه الفرقة، فلا يضطر لأخذ معلومات جديدة، بل إنه يستخدم معلومات هذا الملف في تصنيع مواد مضادة لهذا الجرثوم، ولولا هذه الذاكرة العجيبة لما كان هناك من فائدة إطلاقاً، لألغي التلقيح، ففائدة التلقيح أن يعطى الإنسان جرثومًا مضعفًا، فيصنع جرثوم المناعة المكتسب مصلاً مضاداً له، في أي وقت عاد الجرثوم فالمصل جاهز، ويكافح به الجرثوم مباشرة.

أما الفرقة الثالثة فهي فرقة المشاة، تحمل السلاح، وتقاتل به، هذه كلها كريات بيضاء، لكنها متمايزة، بعضها استخباراتية، بعضها لتصنيع سلاح، بعضها مقاتلة.

بقيت هناك فرقة أخرى، فرقة خدمات سلاح المهندسين، مد الجسور، تنظيف أرض المعركة من الجثث وآثار الدماء، هذه فرقة الخدمات، فرقة رابعة.

في عام ألف وتسعمئة وسبعة وستين اكتشفت فرقة خامسة من أخطر هذه الفرق اسمها فرقة المغاوير، بالتعبير الأجنبي الكومندوس، هذه الفرقة لولاها لكان السرطان شائعاً في كل الناس، ثبت الآن علمياً أن في كل إنسان خلايا سرطانية، لكن عليها قامع يمنعها من أن تفعل فعلها المؤذي، هذه الفرقة تكتشف الخلايا السرطانية في وقت مبكر جداً، وتنتهي منه.

لذلك حينما يصاب جهاز المناعة المكتسب عن طريق مرض الإيدز ما الذي يحصل ؟ يظهر السرطان، وتسعون بالمئة من المصابين بمرض الإيدز مصابون بالأمراض الخبيثة، لأن فرقة المغاوير تعطلت عن التهام خلية سرطانية.

المذيع:

لذلك تضعف هذه الخلايا وتظهر هذه السرطانات.

الأستاذ:

مرة كنت في أمريكا، أحد طلابي جزاه الله خيراً تخصصه في الغدد الصماء، أنبأني عن حقيقة مفيدة جداً، هي أن كل خلية سرطانية عليها قامع يمنعها من أن تكون فعالة، ما الذي ينزع هذا القامع عنها ؟ ذرة البترول، فكل إنسان يعمل في إصلاح السيارات إذا تناول طعامه، وهو في أثناء العمل، وفي يديه آثار البنزين أو مواد بترولية احتمال إصابته بالسرطان كبيرة جداً، فذرات البترول تنزع القامع عن خلية سرطانية.

الشيء الثاني البلاستيك، إذا تفاعل مع الحرارة، وانصهر أحد أجزائه كشرب كوب شاي بوعاء بلاستيكي خطير، أو مع الحامض كالسَّلطات توضع في وعاء بلاستيك، الحمض قد يذيب أحد أجزاء الوعاء، أو حينما نقشط كيساً فيه لبن، ونأخذ من الكيس دون أن نشعر بالسكين بعض ذراته فممنوع أن

نستعمل البلاستيك مع الحرارة والحمض والقشط الميكانيكي، هذا كله يسبب نزع القامع عن الخلية، ثم إن الإشعاع الذري له علاقة بنزع القامع، فكل مكان فيه بقايا إشعاع هذا يؤثر في جسم الإنسان، فيصاب بالسرطان، أما أقوى شيء الشدة النفسية، كالخوف، والقلق، هذا يسبب سرطان، لأن الخوف والقلق يضعف جهاز المناعة المكتسب.

لذلك التوحيد صحة، والشرك ضعف، الشرك أن تخاف من كل إنسان، كالتهديد أو التربص لك من إنسان، إذا استمر الخوف ينتج منه ضعف في جهاز المناعة، لذلك أنت حينما توحّد، وترى أن الأمر بيد الله وحده، وأن الله لن يسلمك لمخلوق شرير، أمرك بيده، قال الله عز وجل:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود)

هذا الذي يملأ نفس الإنسان طمأنينة، وصحته تكون في استقرار مستمر.

ثبت الآن أن الإنسان المتوازن المتصل بالله عز وجل الذي تلقى وعد الله بالحفظ والرعاية، والذي تلقى قوله تعالى:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123))

(سورة طه)

الذي قرأ قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا)

(سورة النحل)

وكلمة (مع) تعني أنه معه بالحفظ والتأييد والتوفيق، فهذه المعاني الإيمانية تنعكس تفاؤلاً وصحة، وجهاز المناعة المكتسب ما الذي يقويه ؟ الحب والود والشعور بالأمن، قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81))

(سورة الأنعام)

الذين آمنوا وحدهم يتمتعون بنعمة الأمن، هذه النعمة من لوازم المؤمن، أما الإنسان غير المؤمن، ولو كان أقوى أقوياء الأرض، فقذف في قلوبهم الرعب بما أشركوا، فنعمة الأمن لا تعدلها نعمة، إنها نعمة خاصة بالمؤمن.

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81)الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

المذيع:

نعمة الإيمان ليست فقط نعمة روحية، إنما هي جسدية وصحة، وتقوي جهاز المناعة، ولا تضعفه، ولذلك

(أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

فإذا اطمأن قلب المسلم والمؤمن بالإيمان اطمأن جسده أيضاً.

الأستاذ:

بعض الأطباء يقول: طبيعة عصور السلف الصالح كانت حياتها خشنة، تحتاج إلى جهد عضلي، بينما هناك راحة نفسية، والراحة النفسية وبذل الجهد وراء الصحة، الآن كل شيء بالأزرار، مصعد، مركبة، غسيل، فالكسل عضلي، والشدة نفسية وراء معظم الأمراض، لا يوجد بذل جهد، ولا رياضة، ويقابلها خوف وقلق، وقهر وحسد، وغيبة ونميمة، وتهديد، فهذه مشكلة كبيرة، فأنت حينما تؤمن بالله يلقي الله في قلبك السكينة فأنت في صحة جسمية عالية جداً

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 06 - 30 : التيموس.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-10-31

بسم الله الرحمن الرحيم

بادئ ذي بدء لا بد من ذكر آيتين، الآية الأولى:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (85))

(سورة الإسراء)

والآية الثانية:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة)

إنها غدة صغيرة جداً إلى جانب القلب، أجمع الأطباء والعلماء لقرون عدة أن هذه الغدة لا فائدة لها إطلاقاً، ولا وظيفة لها إلى سنوات لا تزيد على عشر، ثم اكتشف أن هذه الغدة أخطر غدة في جسم الإنسان، هذا الظن المتوهم، وهذه الحقيقة الناصعة تؤكد أن الإنسان لا يعلم إلا أن يعلّمه الله:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (85))

لماذا قال الأطباء: إن هذه الغدة لا وظيفة لها، ولا فائدة منها ؟ لأنها تضمر تماماً بعد سنتين، وكأنها لم تكن، هذا الضمور بعد سنتين من الولادة، وكأنها لم تكن، هذا الضمور القريب من الولادة أوهم العلماء أنه لا فائدة منها إطلاقاً، ثم اكتشف أنها ـ وأنا أعني ما أقول ـ أخطر غدة في جسم الإنسان، ذلك أن جهاز المناعة المكتسب الذي تحدثنا عنه ـ بفضل الله في حلقة سابقة ـ فيه خمس فرق، فيه فرقة الاستطلاع، وفرقة المقاتلين، وفرقة تصنيع السلاح، وفرقة الخدمات والمغاوير.

يعنينا من هذا الموضوع السابق الفرقة الثانية، فرقة المقاتلين، إنها كريات بيضاء تحمل سلاحًا خطيرًا، ولكن تقاتل به من ؟ سماها العلماء قبل أن تدخل هذه المدرسة الحربية، (الغدة الصعترية)، (التيموس)، خلايا تائية همجية، إنسان جاهل معه سلاح فقد يقتل أولاده، فهذه الكريات البيضاء المقاتلة الفرقة الثانية من جهاز المناعة المكتسب تدخل إلى هذه المرحلة الحربية، وتقبع فيه سنتين، تتعلم من هو الصديق، ومن هو العدو، ففي صورة مجهرية من مجهر إلكتروني يكبر ألوف المرات صورت هذه الغدة فإذا بها مدرج كالمدرج الروماني تماماً، وهذه الكريات البيضاء الخلايا التائية الهمجية جالسة في مقاعد تستمع بطريقة أو أخرى إلى دروس تتعلم بها من هو الصديق، ومن هو العدو، خلية معها سلاح خطير تقاتل من ؟ من هو العدو ؟ هناك آلاف العناصر الصديقة البروتينات، والمواد المرممة هي مواد صديقة للإنسان، وهناك آلاف العناصر العدوة، فلا بد من أن تتعلم هذه الخلايا هذه الكريات البيضاء من هو الصديق ومن هو العدو، طريقة التعلم لا تزال مجهولة، لكن الطفل في هاتين السنتين يضع كل شيء

في فمه للتعرف على المحيط، ويأخذ من مناعة الأم فيتعلم من تجاربه ومن أمراض أصيب بها، مجموع هذه النشاطات تشكل معلومات حول الصديق والعدو.

لكن كما تعلمون ليس هناك مدرسة على الإطلاق إلا وفيها امتحان، كيف تمتحن هذه الخلايا التي تلقت العلم سنتين ؟ هناك لهذه الغدة مخرجان امتحانيان، في المخرج الأول تعطى الكرية البيضاء الخلية التائية التي أصبحت مثقفة، كانت همجية فأصبحت مثقفة، تعطى عنصرًا عدو، فإن قتلته نجحت، وإن لم تقتله رسبت، ورسوبها يعني قتلها ! ثم تعطى امتحانًا آخر، تعطى عنصرًا صديقًا، فإن قتلته رسبت، وتقتل، وإن لم تقتله نجحت وتنطلق ! فبعد عامين تتخرج هذه الخلايا التائية التي كان اسمها همجية، فأصبح اسمها بعد الدراسة والثقافة الخلايا التائية المثقفة، تتخرج، وقد عرفت من خلال هذه الدورة التي استغرقت سنتين من هو الصديق، ومن هو العدو.

المذيع:

سبحان الله ! في خلال هذه السنتين كما ذكرتم يأخذ الطفل مناعة الأم، حتى لا يبقى من دون مناعة، ولكن هذه الدورة التدريبية، وكأننا في مدرسة فعلاً، وبعد ذلك يصبح هناك خلايا مقاتلة كما ذكرتم.

الأستاذ:

لماذا تضمر ؟ نظام هذه الكليّة أن المتخرجين يوكل إليهم أمر تعليم الأجيال الصاعدة إلى نهاية الحياة، فهؤلاء الخرّيجون هم الأساتذة، يعلّمون بقية الخلايا، وبقية الكرية البيضاء إلى نهاية الحياة، فعندئذ تنتهي مهمة المدرسة، فتغلق أبوابها، وتضمر، وضمورها سبب الأوهام الذي قالوا: إنها بلا فائدة، ولا وظيفة لها.

ما الذي يحصل بعد الخمسين عامًا ؟ يضعف التعليم، وهذا يجري عند المدرّسين بعد سنٍّ معينة، يعطي درساً مختصراً بلا تفاصيل، بلا أدلة، فيبدو أن هذه الكريات البيضاء الجيل الأول الذي أوكل إليه تعليم الأجيال اللاحقة، أو لعل كل جيل يعلم جيلا آخر، هذا في علم الله عز وجل، في سنّ معينة يضعف التعليم، فيصاب هذا الجهاز بما يسمى الخرف المناعي، وهو كالحرب الأهلية في البلاد، هذه العناصر المقاتلة، ومعها سلاح بدل أن تقاتل الأعداء تقاتل الأصدقاء، هناك سبعة أمراض يسببها الخرف المناعي، كالتهاب المفاصل الرثوي، هذا حرب أهلية، الكريات البيضاء تهاجم العناصر الصديقة، ثم يموت الإنسان، على كل هذه الغدة التي لم يهتم بها، ولم يلتفت إليها كانت في ظن علماء كبار أنها لا فائدة منها، ولا وظيفة لها، فإذا هي أخطر غدة في الإنسان، لأنه لولا هذه الغدة لمات الإنسان منذ زمن طويل.

البارحة كنت أتابع موضوعًا علميًّا، فقيل: إن المشيمة تقوم بعمل جبار، لو أوكل إلى أكبر عالم في الطب لمات الجنين في ساعة.

المذيع:

فضيلة الدكتور، كما ذكرتم لنا الغدة الصعترية أو التيموس التي هي مثقفة ومعلمة للجهاز المناعي والكريات البيضاء، وذكرتم أيضاً في كتابكم غدة نخامية، عادة ما نسمع باسمها، ولكن لا نعلم ما هي وظيفتها ؟

الأستاذ:

الغدة النخامية هي ملكة الغدد، إنها تهيمن على كل الغدد الصماء في الجسم، كيف أن النظام العصبي له ملك، هو الدماغ، وأن أوامره كهربائية، كذلك النظام الهرموني في الإنسان، نظام بالغ التعقيد، ودقيق جداً، على رأسه ملكة هي الغدة النخامية.

الغدة النخامية لا يزيد وزنها على نصف غرام ! تفرز عشرة هرمونات، لو أن واحداً تعطل إفرازه لأصبحت حياة الإنسان جحيماً لا يطاق !

أضرب مثلاً: لو أن إنسانًا يمشي في بستان، ورأى أفعى، طبعاً ما الذي حصل ؟ صورة هذه الأفعى انطبعت على شبكية العين، إحساس ضوئي، هذه الصورة تنقل للدماغ، الدماغ فيه إدراكات ومفهومات، هذا الطفل سمع بعض القصص من جدته، رأى عند صديقه أفعى في وعاء، قرأ في كتاب العلوم الأفعى، وسم الأفعى، فمن مجموع قراءاته ومشاهداته وخبراته ينشأ في دماغه مفهوم الأفعى، فإذا قيل له: أفعى، أو رآها أثير فيه هذا المفهوم، ويخاف عندها.

يوجد تعليق لطيف جداً: الإنسان تعامله مع المحيط الخارجي وفق القانون التالي، إدراك، انفعال، سلوك، أنت حينما ترى أفعى تدرك أن لدغتها قاتلة، لا بد من أن تنفعل، والانفعال لا بد من أن يعقبه سلوك، إما أن تقتلها، وإما أن تهرب منها، فإذا أدركنا، ولم ننفعل ففي إدراكنا خلل، فإذا انفعلنا، ولم نتحرك ففي انفعالنا كذب، قد يكون الإدراك غير صحيح.

مثلاً، لو أن واحداً قال لآخر: على كتفك عقرب، فبقي هذا الذي تلقى هذا الخبر هادئاً مبتسماً، والتفت نحوه، وقال: أشكرك من أعماق قلبي على هذه النصيحة الثمينة، وسأكافئك، وأرجو الله أن يمكنني أن أكافئك عليها، معنى ذلك أنه ما سمع ما قال له، لو سمع كلمة عقرب لخرج من جلده قبل أن يلتفت نحوه، ويشكره، فأنت حينما تدرك، ولا تنفعل فإنّ في الإدراك خللاً، وحينما تنفعل، ولا تتحرك ففي الانفعال خلل، فهو انفعال كاذب ونفاق.

فلذلك علامة فهمنا للدين طريقة تطبيق تعليمات الصانع، المبادرة لتطبيق تعليمات الصانع.

نعود إلى المثل: هذا عندما رأى أفعى انطبعت صورتها على شبكية العين إحساساً، وانطلقت للدماغ إدراكاً، الدماغ مَلِك، عنده معلومة خطيرة، أن هناك خطرًا ينتظر صاحبه، مكافحة هذا الخطر من مهمة ملكة الغدد النخامية، ما دام الدماغ ملكاً، والغدة ملكة فلا بد لها من ضابط ارتباط، فهناك جسم في الدماغ اسمه تحت السرير البصري، هذا ضابط الارتباط بين ملكة الغدد وملك الجهاز العصبي، فالدماغ عن طريق هذا الضابط يخبر الملكة أن هناك خطراً فتصرَّفي، هذه الغدة النخامية عندها أفراد وفريق عمل من أكبر رفقاء عملها الكظر، غدة فوق الكلية، الكظران، فوق كل كلية غدة اسم الواحد منها الكظر، فالغدة النخامية تأمر الكظر، وكأنه وزير داخلية، هناك مشكلة فتصرّف، ماذا يفعل الكظر ؟

يرسل أمراً للقلب برفع النبض، لأن القلب مهمته الآن أن يعطي كمية دم زائدة، وعلى سرعتها التقليدية بثمانين ضربة في الدقيقة، الدم محدود، فلا بد من رفع القلب إلى مئة وثمانين نبضة، فأول أمر من الكظر إلى القلب برفع النبض، لو أن نبض القلب ارتفع، ولم يوافقه ارتفاع وجيب الرئتين لكان هناك مشكلة، لا بد من أمر آخر للرئتين برفع الوجيب، فالخائف تزداد ضربات قلبه، ويرتفع وجيب رئتيه، يتنفس بشكل سريع.

أمر ثالث: هذا الإنسان أبيض اللون، وردي جلده، جميل جداً، وليس بحاجة للجمال، وهو يواجه خطر الموت، لذلك يصدر أمرًا للأوعية المحيطية بتضييق لمعتها لتوفير الدم، لا إلى لون أزهر، بل إلى جهد أكبر، لذلك الخائف يصفر لونه، الأمر الثالث من الكظر إلى الأوعية المحيطية بتضييق لمعتها.

الأمر الرابع يذهب إلى لكبد ليطلق مزيداً من السكر، ليكون وقوداً للعمل الطارئ، لو فحصنا دم خائف لوجدنا كمية السكر فيه غير طبيعية، زائدة جداً، ثم إن هذا الخائف قد يحتاج لأن يقاتل، فقد تأتيه ضربة سكين فينزف دمه كله، يصدر أمر للكبد بإطلاق هرمون التجلط، فلو فحصنا لزوجة دم خائف لوجدنا اللزوجة عالية جداً، لئلا يسيل دمه من جرح صغير، فهذه خمسة أوامر يصدرها الكظر، أمر للقلب، وأمر للرئتين، وأمر للأوعية، وأمران للكبد، وهذا كله للغدة النخامية هذا كله يتم في ثانية واحدة، فهذه أحد مهمات الغدة النخامية، أن تصدر أوامر للكظر كي يواجه الخطر.

هناك هرمون آخر هو هرمون النمو، الحقيقة أنّ هذا الهرمون مؤلف من مئة وثمانية وثمانين حمضاً أمينياً، وقد قرأت في كتاب ألفه عالم أميركي عنوانه: " الله يتجلى في عصر العلم "، يقول هذا الكاتب: إن ذرة واحدة من حمض أميني لا يمكن أن تكون صدفة، ولو من ذرات الكون مجتمعة، ذرات الكون بأكملها لا يمكن بحسب مبدأ الصدفة أن تصنع ذرة من حمض أميني، يجب أن يكون في كل لتر من دم الإنسان عشر ميكروغرامات من هذا الهرمون، هرمون النمو، إن زاد هذا تعملق الإنسان، وإن قلّ عن مستواه تقزّم، فإذا كان إفرازه طبيعياً كان بهذا الشكل المعتدل، هذا هرمون النمو، وذاك هرمون الكظر، وهرمون آخر إفراز الحليب، فالغدة النخامية بعد الحمل بقليل تبدأ بإفراز هرمون يجول في الدم حتى

يبلغ أوجه بعد الوضع، فإذا ثديا الأم تفرزان الحليب من هذه الغدة النخامية، أو بأمر من هذه الغدة التي لا يزيد وزنها على نصف غرام، هذا صنع من ؟

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10))

(سورة البلد)

من أوجه تفسيرات هذه الآية: وَهَدَيْنَاهُ الثديين، طعام جاهز، بارد في الصيف، دافئ في الشتاء، تتبدل نسبه في الرضعة الواحدة، في أول الرضعة تكون نسبة الماء ستين بالمئة، وفي آخرها تكون نسبة الماء أربعين بالمئة، فهذا من هدية الله لهذا المخلوق الصغير.

هناك هرمون الغدة الدرقية، وهي تقوم بأخطر عمل، ألا وهو الاستقلاب أي تحول الطعام إلى طاقة، فالذي يزيد وزنه كثيراً يكون هناك خلل في غدته الدرقية، يبقى بعض الغذاء مخزّنًا في الجسم، أما حينما يتحول الغذاء بكامله إلى طاقة فيبقى وزن الإنسان طبيعياً، فالغدة النخامية توجه الغدة الدرقية، بل إن هرمون الغدة الدرقية يثبت الغدة النخامية، وهرمون الغدة النخامية يحث الغدة الدرقية، من هذا التوازن بين الهرمونين تقوم الغدتان بأفضل الوظائف.

المذيع:

إذاً للغدة النخامية عدة وظائف، تصدر أوامر للكظر، وإفرازات الحليب أيضاً، وهناك النمو، وتوجيه الغدة الدرقية.

الأستاذ:

هناك الهرمون الجنسي، علامات الذكورة في الطفل تبدأ بالظهور بعد إفراز هرمون الجنس.

صديق لي كان في ألمانيا، فالتقى بمديرة مبيعات، بعد حين التقى بها ثانية، فإذا بها بمعالم أخرى، صوتها خشن، نبت شعر في وجهها، فسألها، قالت، وبكت: لقد أصاب غدتي النخامية عطب، فأنا أنفق نصف دخلي لأبقى على هذه الحالة، فهناك نعم كبيرة، هذه الغدة نصف غرام تعطي للذكر خصائصه، وللأنثى خصائصها، اسمها هرمون الجنس، هذه الغدة تفرز هرمون توازن السوائل، لو أن هذا الهرمون اضطرب فلم يفرز لأمضى الإنسان كل وقته بين صنبور الماء ودورة المياه، قد يشرب برميل ماء في اليوم، هرمون توازن السوائل، إنه يشرب بالحد المعتدل، ويطرح هذا الماء على شكل بول في الحد المعتدل، فهذه الغدة لها دور خطير في حياة الإنسان، وقد سماها العلماء ملكة الغدد، لأنها تشرف على معظم الغدد الصماء في الجسم.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 07 - 30 : البعوضة والنمل والنحل.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-11-01

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الله عز وجل في كتابه الكريم:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

(سورة البقرة)

أعتقد أنه ما من مخلوق أهون على الإنسان من بعوضة، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام يقول في حديثه، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ ماء))

(سنن الترمذي)

مخلوق هيّن على الإنسان، قد يقتل الإنسان بعوضة، ولا يشعر أنه قتل شيئاً، هوانها على الإنسان لا حدود له، ومع ذلك ففي هذه البعوضة من الآيات الدالة على عظمته الشيء الكثير، كيف لا وقد ذكرت في القرآن الكريم !

هناك ملاحظة دقيقة، عدد الآيات الكونية الدالة على عظمة الله لو أنك قلت: مليار مليار مَليار إلى نهاية الحياة لا تنتهي، لكن الله اختار لنا من هذا العدد اللامتناهي عددًا محدودًا في القرآن، ألف وثلاثمئة آية تتحدث عن الكون، فأنت حينما تقرأ آية فيها أمر، فهذا الأمر يقتضي أن تأتمر، وحينما تقرأ آية فيها نهي فهذا النهي يقتضي أن تنتهي، الآن حينما تقرأ آية كونية يقتضي هذا أن تفكر في هذه الآية، وكأن هذه الآيات الكونية المتعلقة بالسماوات والأرض، وبخلق الإنسان، وخلق الحيوان والنبات هي رؤوس موضوعات للتفكر، فيكفيني أن يذكر الله في قرآنه البعوضة، إذاً هي آية كبيرة على صغر شأنها وحقارة مكانتها عند الإنسان،

المذيع:

ضرب فيها المثل لصغر حجمها وشأنها، ولكن هناك أمور عظيمة ذكرتموها في هذا الكتاب،

الأستاذ:

لكن يقول الله عز وجل بعد قليل:

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً)

لمَ هذا المثل، وما قيمته ؟ البعوضة في رأسها مئة عين بالتمام والكمال، طبعاً هذا كله عُرضَ على مجاهر إلكترونية، وأنا أجريت ندوة في سوريا، وعرضت هذه الصور، صور مكبرة، في رأسها مئة عين، وثمان وأربعون سناً، ولها ثلاثة قلوب في صدرها، قلب مركزي، وقلب في كل جناح، وفي كل

قلب أذينان وبطينان ودسامان، أما البعوضة فتملك جهازاً لا تملكه الطائرات، إنها لا ترى الأشياء لا بشكلها، ولا بلونها، ولا بحجمها، ولكنها تراها بحرارتها فقط، عندها جهاز استقبال حراري لا تملكه أدق الطائرات، لذلك هذا الجهاز حساسيته واحد على ألف من الدرجة المئوية، إذا ارتفعت الحرارة واحدًا على ألف يبدو أمام عينها ظاهراً ! وفي غرفة مظلمة في الليل ينام طفلان على سرير، لا ترى في هذه الغرفة إلا الطفلين، تتجه إلى أحدهما، هذا الجهاز نسميه تجاوزاً جهاز رادار، أما الاسم الأدق فهو جهاز استقبال حراري، يستقبل الصور بحرارتها، تتجه إلى جبين هذا الطفل، وما كل دم يناسبها، قد ينام طفلان على سرير واحد، يستيقظ الأول، وقد ملئ بلسع البعوض، والثاني لم يُلسع لسعة واحدة، إنها تحلل الدم، تختار من بعض الدماء ما يناسبها، ففضلاً عن جهاز الاستقبال الحراري وجهاز الرادار هناك جهاز تحليل دم، إنها إن وقعت على طفل، وخافت أن يقتلها عن انتبه، لا بد من تخديره، معها جهاز تخدير، والإنسان حينما يتوهم أنه قتلها هي في الجو، أطلق يده بعد أن انتهى تأثير المخدر، فمعها جهاز رادار، وجهاز استقبال حراري، وجهاز تحليل دم، وجهاز تخدير، لأن خرطومها دقيق جداً، والدم اللزج قد لا يمر في خرطومها، فلا بد من تمييع الدم، فمعها جهاز رادار، وتخدير، وتمييع، أما خرطوم هذه البعوضة فشيء لا يكاد يصدق، خرطومها فيه ست سكاكين، أربع سكاكين تحدث جرحاً مربعاً، ولا بد لهذه السكاكين من أن تصل إلى وعاء دموي كي تمتص الدم، وسكينان آخران يلتئمان على شكل أنبوب ضمن الأربع سكاكين، فست سكاكين، أربعة لإحداث جرح، وسكينان لامتصاص الدم، هذا بخرطومها الدقيق، طبعاً هذا الكلام متى عرف ؟ بعد أن اخترع المجهر الإلكتروني، وهو يكبر أربعين ألف مرة، أنا حينما أشتري مكبر من السوق هذا يكبر ثمانية مرات، أنواع العالية جداً عشر مرات، بينما الإلكتروني قد يصل التكبير إلى أربعين ألف مرة،

المذيع:

وحتى نرى هذه الدقة بالوصف مئة عين، فالبعوضة نراها بشكلها، وهي صغيرة جداً، فكيف نرى هذه الأعين أو القلوب، وما شابه ذلك ؟

الأستاذ:

عيون مئة، ثمان وأربعون سنًّا أسنان قلوب ثلاثة أسنان جهاز استقبال حراري أسنان جهاز تحليل، جهاز تخدير، جهاز تمييع، الآن إذا وقفتْ على سطح أملس كيف تقف ؟ عندها محاجم على أساس ضغط الهواء، أنت حينما تريد أن تعلق مشجبًا في حمام معتنى به جداً، وتخاف أن تثقب هذا البلاط الراقي تأتي بمشجب على أساس الضغط، تفريغ الهواء يجعل المشجب يلصق بالبلاط، فعندها محاجم تمكنها من الوقوف على سطح أملس بمحاجمها، فإذا كان السطح خشناً تقف بمخالبها، والبعوضة يرف

جناحاها بعدد كبير جداً، يبلغ درجة الطنين، بعضهم قال: آلاف المرات في الثانية الواحدة ! ثم إن هذه البعوضة تشم رائحة عرق الإنسان من ستين كيلو مترًا تقريباً، فهذه هي بعوضة، الله عز وجل يقول:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

هذا من آيات الله الدالة على عظمته، وأنا حينما أذكر آية كونية في خلق الله في مخلوقاته، في الحيوان، والنبات، في الإنسان، أتابع وأقول:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (85))

وقد تظهر أبحاث وأبحاث حول البعوضة، قد لا نصدق بعضها، لكنها حقيقة علمية، الله عز وجل خلق هذا الكون من أجل أن نعرفه بدليل، الله عز وجل يقول:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (12))

(سورة الطلاق)

المذيع:

فضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي، ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم البعوضة، وضرب بها مثلاً، ولكن الآن سورة بأكملها سميت باسم النمل، فطبعاً هناك شأن لهذه النملة، فما هو شأنها، وكيف تعمل ؟

الأستاذ:

يوجد تقديم لهذا الموضوع دقيق، الحقيقة أن النمل من أرقى الحشرات الاجتماعية، ففي مجتمع النمل انضباط لا يصدق، اختصاص لا يصدق، قد يعجب الإنسان، هناك تساؤل: مجتمع البشر فيه تقصير وتسيّب، وانحرافات وجرائم، وقتل، ومجتمع النمل كماله يكاد لا يصدق، ما تفسير ذلك ؟

الجواب سهل جداً: نظام البشر بأمر تكليفي، ونظام النمل بأمر تكويني ! معنى ذلك أن بالأمر التكليفي لك أن تخالف، كما لو وُضعت لافتة مكتوب عليها " ممنوع المرور " على أول طريق، وهذا ليس معناه أنك لا تستطيع أن تخالف، لكن إذا خالفت تعاقب فقط، أما لو وضعنا أربعة مكعبات إسمنتية في أول الطريق لا تستطيع أن تمشي في هذا الطريق، هذا أمر تكويني، فنظام النمل المعقد انضباطه الشديد بأمر تكويني، بينما نظام الإنسان بأمر تكليفي، لذلك ترى في المجتمع الإنساني تفلتًا وتسيّبًا، لكن هناك تكليف، وهناك جزاء وعقاب، وجنة ونار، أما مجتمع النمل فمجتمع راقٍ جداً، ولكن بأمر تكويني، ليس هناك تكليف، وليس هناك ثواب ولا عقاب،

أستاذ عبد الحليم، النملة حشرة اجتماعية راقية جداً، موجودة في كل مكان، وفي كل وقت، بل إن أنواع النمل تزيد على تسعة آلاف نوع ! بعضه يحيا حياة مستقرة في مساكن محكمة، وبعضها يحيا حياة

الترحال كالبدو تماماً، بعض أنواع النمل يكسب قوته بجهده وسعيه، وبعضه يكسبه بالغدر والسيطرة، والنمل حشرة ذات طبع اجتماعي، فإنها إذا عزلت عن أخواتها ماتت، ولو توافرت لها كل مقومات الحياة، من غذاء جيد، ومكان جيد، وظروف جيدة، فهي كالإنسان إذا عزلته في مكان بعيد عن الضوء والصوت، والساعة والزمن، والليل والنهار، عشرون يوماً اختل توازنه،

المذيع:

فضيلة الدكتور، سميت سورة في القرآن الكريم باسم النمل، وذلك لعلو شأنها أو لضرب مثل للإنسان، ولكن هناك سؤال، وإن كان فقهيًّا أكثر من أن يختص بالإعجاز العلمي، البعض يستصغر هذه الحشرة، ويقتلها، فما شأن هذا الإنسان ؟

الأستاذ:

اللهُ نهي عن قتلها، لأنها حينما قالت نملة:

(قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18))

(سورة النمل)

استنبط العلماء أن الإنسان المؤمن لا يقتل نملة، وهو يشعر، فإذا قتلها يقتلها، وهو لا يشعر، فلذلك منهي عن قتل النمل، هذه النملة تعلم الإنسان درساً بليغاً في التعاون، أودع الله في جهازها الهضمي جهاز ضخ وجهاز مص، فإن كانت شبعى وأختها جائعة تستخدم جهاز الضخ، وتعطيها من عصارتها الهضمية، فهي تعطي وتأخذ، الإنسان عنده جهاز مص فقط، بل أنا أرى البشر على نوعين، نوع قدوته الأنبياء، جاءوا الحياة فأعطوا، ولم يأخذوا، ونوع قدوته الأقوياء، أخذوا ولم يعطوا، وبعض الناس يأخذ ويعطي، ولكن قمم الأنبياء أعطت، ولم تأخذ، والطغاة أخذوا ولم يعطوا، بينما معظم البشر يأخذون ويعطون، فالذي قدوته نبي كريم يغلب عليه العطاء، والذي كان قدوته قوياً جباراً في الأرض يغلب عليه الأخذ، لكن المؤمن يأخذ ويعطي، إذا التقت نملة جائعة بشبعى تعطي النملة الشبعى خلاصات غذائية من جسمها، للنمل ملكة كبيرة الحجم، مهمتها وضع البيض، وإعطاء التوجيهات، ولها مكان أمين في مساكن النمل، وهي على اتصال دائم بكل أفراد المملكة، والإناث العاملات لها مهمات متنوعة، من هذه المهمات تربية الصغار، وهذا يشبه قطاع التعليم، وفي النمل عساكر لها حجم أكبر، ورأس صلب، كأن عليه خوذة، وهذا يشبه قطاع الجيش في حراسة الملكة، والأمن، ورد العدوان، ومن مهمات العاملات تنظيف المساكن والممرات، وهذا يشبه قطاع البلديات، ومن مهمات العاملات سحب جثث الموتى من المساكن، ودفنها في الأرض، وهذا يشبه مكاتب دفن الموتى، ومن مهمات العاملات جلب الغذاء من خارج المملكة، وهذا يشبه قطاع المستوردين، ومن مهمات العاملات زرع الفطريات، وهذا يشبه قطاع الزراعة، ومن مهمات العاملات تربية حشرات تعيش النمل على رحيقها، وهذا يشبه

قطاع تربية المواشي، يبني النمل المدن، ويشق الطرقات، ويحفر الأنفاق، ويخزن الطعام في مخازن وصوامع، وبعض أنواع النمل يقيم الحدائق، ويزرع النباتات، وبعض أنواع النمل يقيم حروباً على قبائل أخرى، فيأخذ الأسرى من ضعاف النمل المخزون، الآن لندقق في هذه الآية:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38))

(سورة الأنعام)

واللهِ ـ أستاذ عبد الحليم ـ لو قرأنا كل التفاسير لا تجد تفسيراً لهذه الآية أقوى من هذا البحث العلمي:

(إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ)

أرأيت إلى مهمات النمل، نمل الذي يعيش على العدوان، ونمل على الكسب الشريف، ونمل يقوم بتربية المواشي بزراعة بعض المزروعات، ونمل يستورد، ونمل يربي، ونمل يخطط، ونمل يحرث،

المذيع:

هناك مهمات كثيرة يتطلع بها النمل، وكأنه أشبه بالإنسان ومجتمعه، لذلك لا بد له من إدراك معين كي يبني هذه المدن والمساكن، وله عدة قطاعات كما ذكرتم،

الأستاذ:

(إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ)

لقد أثبت الله جل جلاله من خلال هذه الآية الكلام للنمل نوعاً من المعرفة، للنملة مخ صغير، وخلايا عصبية، وأعصاب لتقدير المعلومات، وخرائط كي تهتدي بها إلى مواقع الغذاء ومساكنها، وإن النملة تملك نوعاً من التصرف العقلاني، وهي من أذكى الحشرات، وهي ترى بموجات ضوئية لا يراها الإنسان، ولغة النمل كيماوية، لها وظيفتان، التواصل والإنذار، فلو سحقت نملة فإن رائحة تصدر عنها تستغيث بها النملات، وتحذرها من الاقتراب من المجزرة، ولا تستطيع نملة دخول مسكنها إلا إذا بيّنت كلمة السر، وهي تبدّل من حين إلى آخر،

(إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ)

وللنملة جهاز هضم مدهش، فيه فم ومريء، ومعدة وأمعاء، وجهاز مص وجهاز ضخ، الإمام علي كرم الله وجهه يقول: " انظروا إلى النملة لصغر جثتها، ولطافة هيئتها، لا تكاد تنال بلحظ البصر، ولا بمستدرك الفكر، كيف دبت على أرضها، وصبت على رزقها، تنقل الحبة إلى حجرها، وتعدها في مستقرها، تجمع من حرها لبردها، وفي وردها لصدرها، مكفولة برزقها، مرزوقة بوسقها، لا يغفلها المنان، ولا يحرمها الديان، ولو فكرت في مجاري أكلها، في علوها وسفلها، وما في الجوف

من شراسيف بطنها، وما في الرأس من عينها وأذنها، لقضيت من خلقها عجباً، وللقيت من وصفها تعباً، فتعالى الله الذي أقامها على قوائمها، وبناها على دعائمها، لم يشركه في فطرتها فاطر، ولم يُعِنه على خلقها قادر، لا إله إلا هو، ولا مع معبود سواه "، هذا كلام سيدنا علي،

يوجد قول آخر، يقول الإمام الجليل: الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، على كل هذه آيات دالة على عظمة الله عز وجل، أثبت الله للنملة الكلام والمعرفة، في بحث آخر قرأته عن النمل أنّ النملة إذا أوشكت أن تموت ترسل لأخواتها بشارة أن تعالوا فادفنوني، جاء عالم من علماء النمل فأخذ هذه الرائحة، ووضعها على نملة صحيحة قوية متينة، فجاءت النملات، ودفنوها، معهم نص، هؤلاء نصيُّون، متفقون على هذه الرائحة، مع أنها تحيا حياة طيبة، وترزق لكنها دُفنت، جاء نص فنُفِّذ هذا الأمر،

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 08 - 30 : النحل والبعوضة والنمل.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-11-02

بسم الله الرحمن الرحيم

إن النحل آية من آيات الله الباهرة الدالة على عظمته، قال تعالى:

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68))

(سورة النحل)

تكلمت في الحلقة السابقة أن الآيات الكونية لا تعد ولا تحصى، ولكننا إذا بقينا في المنهج، أي في الآيات التي وردت في القرآن الكريم نكون قد توخينا الموضوعات الأولى في موضوعات الآيات الكونية الدالة على عظمته تعالى.

أول شيء يلفت النظر أن هذه الياء:

(أَنِ اتَّخِذِي)

هي ياء المؤنثة المخاطبة، وكأن الآية منصبة على الإناث حصراً دون الذكور، قال تعالى:

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69))

(سورة النحل)

إن أردت التفكر فهذه آية مناسبة للتفكر، إن النحلة هي الحشرة الوحيدة التي تستطيع تخزين رحيق الأزهار من أجل الغذاء، وهي فضلاً عن بناء عن خلاياها وتصنيعها للشمع والعسل فهي تقوم بعمل جليل، وهو تلقيح الأزهار، يغيب عن معظم الناس أن هذه الحشرة لها فائدة كبيرة جداً في تلقيح النباتات، لكننا نتصور أنها من أجل صنع العسل فقط، صنع العسل أحد وظائفها، ومن دون تدخل النحل فإن عدداً كبيراً من النباتات لا يثمر، والنحل من الخلايا ذات النظام الاجتماعي الدقيق المحكم، النحل والنمل من أرقى الحشرات الاجتماعية، طبعاً في خلقها، وعملها، ودقائق صنعها إعجاز، ولكننا قد نلتفت في هذا الموضوع إلى النظام الاجتماعي الذي تخضع له النحلات، طبعاً هذا النظام الاجتماعي تعجز عن تقليده أرقى المجتمعات البشرية، لكن ذكرت في لقاء سابق أن هذا النظام الاجتماعي البالغ التعقيد ليس أمراً تكليفياً من الله كما هي حال البشر، بل هو أمر تكويني من صنع الله وحده.

الغريزة في الحيوان عمل معقد جداً، ولكن ليس كسبياً، إنه عمل وهبي، كما يقولون، تزور النحلة ما يزيد على ألف زهرة لكي تحصل على قطرة من الرحيق !

أستاذ عبد الحليم، من أجل توفير الوقت والجهد حينما تقع النحلة على زهرة، وتمتص رحيقها تترك علامة أن هذه الزهرة مصّ رحيقها لتوفر على أخواتها وقتاً وجهداً في مص رحيق زهرة قد مصّ رحيقها، وتحتاج القطرة الواحدة من الرحيق إلى أن تحط النحلة على ألف زهرة أو أكثر، ومن اجل أن تجمع النحلة مئة غرام من الرحيق تحتاج إلى مليون زهرة، ومن أجل أن تصنع نحلة واحدة كيلو عسل تحتاج لن تطير مائة ألف كيلو متر، تدور حول الأرض عشر مرات ! لو أننا كلفنا نحلة واحدة أن تصنع كيلو من العسل لاحتاجت إلى أن تطير أربعمئة ألف كيلو متر، أي ما يعادل عشرة أضعاف محيط الأرض.

المذيع:

قدرة عجيبة، وسبحان الله بما منّ به على هذه المخلوقات بجمع الرحيق من الأزهار، وتعليم كل زهرة بزهرتها كي لا تأتي نحلة أخرى، وتأخذ الرحيق.

الأستاذ:

إن سرعة النحلة في طيرانها تزيد على خمسة وستين كيلو مترًا في الساعة في حالة طيرانها من دون حمولة، هذه السرعة تقترب من سرعة السيارة، فإذا كانت محملة بالرحيق تهبط سرعتها إلى ثلاثين كيلو مترًا، سرعتها محملة سرعتها فارغة، حمولة النحلة من رحيق الأزهار يعدل ثلثي وزنها، السيارة وزنها ألف كيلو تحمل ثلاثمائة تقريباً، ويحتاج كيلو من العسل كما قلت قبل قليل إلى طيران ما يعادل أربعمئة ألف كيلو متر تقريباً، أي يحتاج الكيلو الواحد من العسل إلى عشر دورات حول الأرض إلى خط الاستواء، طبعاً إن بعض الدول المتقدمة في الصناعة تأخذ المواد الأولية من قارة، وفي طريقها إلى المصانع تجري على هذه المواد عمليات كثيرة معقدة في الباخرة نفسها.

قرأت مرة مقالة عن اليابان أنه ليس عندهم مواد أولية إطلاقاً، وهم من كبار مصدري الستانلس، صنعوا بواخر تصل إلى أواخر أستراليا، تأخذ المواد الأولية، وفي الطريق إلى الشرق الأوسط تصنع هذه المواد الأولية في الباخرة، وتسلّمها مصنَّعة جاهزة، هذا تفعله النحلة، في طريقها الذي قد يصل إلى عشر كيلو مترات من مكان رحيق الأزهار إلى خلاياها في الطريق تجري عمليات كيماوية معقدة جداً، تحويل الرحيق إلى عسل، ويتم هذا في الطريق كما تفعل بعض البواخر اليوم في صنع الستانلس، ريثما تصل إلى مكان التسليم، إذا كان موسم الأزهار غزيراً فإنها تعطي حمولتها لنحلة أخرى، وتعود سريعاً لكسب الوقت، وجني رحيق الأزهار، يوجد نحلات ضعيفة لا تكلف بالسفر إلى مكان بعيد، هذه تأخذ الحمولة من أختها في مدخل الخلية، وتنطلق إلى داخل خلية كي تضع الحمولة في المكان المناسب، وتعود النحلة إلى مكان رحيق الأزهار إذا كان الموسم جيِّدًا.

المذيع:

ذكرت لنا فضيلة الدكتور أن النحلة ليس فقط تأتي بالرحيق من الأزهار، بل إن هناك مكانة اجتماعية للنحلة، وهي اجتماعية، لها وظائف محددة غير جمع الرحيق.

الأستاذ:

الملكة هي أكبر النحل حجماً، هي تضع كل يوم في فصل الربيع تقريباً من ألف إلى ألفي بيضة كل يوم، والذي يأخذ بالألباب أن هذه الملكة تضع الملكات في مكان، والذكور في مكان، والإناث في مكان، وكأنها تعلم مسبقاً أنها ستلد ملكة، أو أنثى، أو ذكرًا، هذا فوق طاقة البشر ! طبعاً تضع الملكات في مكان كي تتلقى غذاء خاصًّا مناسباً لها، والذكور في مكان، لأن لهم غذاء خاصًّا مناسبًا لها. إن العاملات من إناث النحل منهن من يأتين بالطعام الخاص للملكة، ويسمى هذا النحل الوصيفات، هناك نحلات وصيفات يقمن على خدمة الملكة، وتأمين الغذاء المناسب للملكة، ويباع في الأسواق عسل الملكة، وهو غالٍ جداً، وهو أفضل ما عند النحل، بعض النحلات العاملات يجمعن غبار الطلع ليكون غذاء ملكيًّا لملكتهم ! إذا ماتت الملكة اضطربت الخلية، ويلاحظ الإنسان هذا التبدل، وحمّة الملكة لا تلدغ الإنسان، بل ملكة أخرى تنافسها على منصبها، لذلك كانت مهمة الذكور تلقيح الملكات، ومهمة الإناث العمل، والملكة مهمتها الولادة.

هذه آية من آيات الله الدالة على عظمته، لقد شاءت حكمة الله جل جلاله أن يخلق مجتمعاً قائماً على أعلى مستويات التعاون والتكامل، والاختصاص والعمل الدؤوب، المنتج، والتنظيم المعجز، بأمر تكويني لا بأمر تكليفي، لذلك لا يمكن أن تجد في مجتمع النحل خللاً ولا فساداً، إنه كمال خلقي مطلق، لأن أمره هذا تكويني لا تكليفي، هذا ما نجده في مجتمع النحل، إنه مجتمع موحَّد متكامل، على رأسه ملكة واحدة لا تنازعها أخرى، تشعر كل نحلة في الخلية بوجود الملكة عن طريق مادة تفرزها الملكة، وتنقلها العاملات إلى كل أفراد الخلية، فإذا ماتت الملكة اضطرب النظام في الخلية، وعمت الفوضى، وشلّت الأعمال.

في وقت واحد لا تدير المملكة إلا ملكة واحدة، يوجد نائبة لها، أو كما يسمى وليّ العهد، إن إناث النحل تقوم بأعمال متنوعة كثيرة، توزع فيما بينها بحسب أعمارها واستعدادها الجسماني، وعند الضرورة والخطر، وفي المواسم الصعبة تعمل كل نحلة ما يفرض عليها، في أيام الرخاء هناك اختصاصات، أما في أيام الشدة فينبغي أن تقوم كل نحلة بكل هذه الأعمال، الوصيفات كما قلت يقمن على خدمة الملكة، وجلب الطعام الملكي، وهناك حاضنات ومربيات يقمن برعاية الصغار، وجلب الغذاء المناسب، وهناك عاملات يحضرن الماء إلى الخلية، وهناك أخريات يقمن بتهوية الخلية صيفاً، وتدفئتها شتاء، وترطيبها في وقت الجفاف، وغيرهن يقمن بتنظيف الخلية، وجعل جدرانها ملساء لامعة ناعمة عن طريق مواد

خاصة، وهناك حارسات يقمن بحراسة الخلية من الأعداء، ولا يسمحن لنحلة أن تدخل الخلية ما لم تذكر كلمة السر، وإلا قُتلت، وتبدل كلمة السر عند الضرورة، وهناك من النحلات من يقمن بصنع أقراص الشمع ذات الشكل السداسي، الذي تنعدم فيه الفراغات البينية بأسلوب، وتصميم يعجز عن تقليده كبار المهندسين.

مثلاً، هل يستطيع إنسان بالغ ذروة العقل والمهارة أن يبدأ بتبليط صالة كبيرة، إنسان من اليمين، وإنسان من اليسار، وإنسان من الشمال، وإنسان من الجنوب، وأن يجتمع هؤلاء الأربعة على بلاطة نظامية بمقياس دقيق، هذا فوق طاقة البشر ! إن قرص الشمع تبدأ به النحلات من أطرافه، وتصل إلى الوسط بأشكال سداسية لا تتغير عن بعضها، ولا بعشر الميليمتر، هذا شيء فوق طاقة البشر.

المذيع:

إنها دقة عجيبة في التصميم والتنفيذ.

الأستاذ:

وهناك رائدات يقمن بمهمة استكشاف مواقع الأزهار، فإذا عثرن عليها عُدنَ إلى الخلية، ورقصنَ رقصة خاصة تحدد هذه الرقصة لبقية النحلات العاملات الموقع من حيث المسافة والاتجاه، وغزارة الإنتاج، وإذا كانت الوتيرة سريعة جداً والإنتاج كثيفًا جداً، والجمهرة الكبيرة من العاملات تنطلق إلى مكان الأزهار لجني رحيقها، لأنها المادة الأولية للعسل، وقد تبتعد هذه المواقع عن الخلية أكثر من عشر كيلو مترات، وتعود النحل للخلية بعد أخذ الرحيق بطريقة لا تزال مجهولة حتى الآن، والنحل أكفأ الحشرات بنقل وتخزين أكبر قدر ممكن من رحيق الأزهار في أقصر وقت ممكن، وأقل مجهود ممكن، وهي أكفأ الحشرات في تلقيح النباتات كي تساعدها على إنتاج البذور والثمار.

المذيع:

سبحان الله ! وبعد كل هذا الجهد والعمل الدقيق، وبعد أخذ الرحيق من الأزهار والعملية التصنيعية التي ذكرتها، وهي في الطريق تأتينا بهذا العسل المفيد جداً.

الأستاذ:

كان العسل يعدّ فيما مضى غذاء، وهو الآن دواء، أكثر من أربع وسبعين مادة علاجية في العسل ! إذا قال خالق الكون:

(فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ)

(سورة النحل)

أعرف طبيبًا جراح في دمشق، بعد أن ينتهي من عمله الجراحي يضع خيطاً من العسل على الجرح، حتى يسرّع العسلُ في التئام الجروح، أتمنى أن يكون هذا الموضوع واضحاً عند كل أخ كريم، حتى

يستبدل العسل بهذه الحلويات الصناعية، الآن يوجد شرابات ليس فيها ذرة واحدة من مادة طبيعية، كلها مواد كيماوية، فكان عليه الصلاة والسلام يشرب شربة عسل، يضع لعقة عسل في كأس ماء، ويبقيه حتى الصباح، ثم يذوب العسل في الماء، المادة الحلوة المكثفة قد تؤذي المعدة، كان عليه الصلاة والسلام يشرب شربة عسل، ثم إن القيمة العلاجية للعسل أضعاف قيمته الغذائية، ففوائده العلاجية في مختلف الأجهزة والأعضاء والنسج ثابتة، بل تفوق الحد المعقول، كيف لا، وقد قال تعالى:

(يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ)

(سورة النحل)

بالمناسبة لا بد من ذكر هذه الحقيقة المؤلمة، أنت قد تشتري عسلا، لكنه أخذ من السكر فقط، لأن بعض ضعاف النفوس يضعون القطر إلى جانب خلايا النحل، فتمتص القطر، فيكون عسلاً، ولكن هذا العسل ليس له كبير فائدة، العسل الذي ينفع الإنسان ما أُخِذ من رحيق الأزهار بالذات، هذا الموضوع طويل جداً، ولكن في حلقة قادمة إن شاء الله نتحدث عن تركيب العسل وفوائده العلاجية، إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 09 - 30 : ماء زمزم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-11-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

يمكن أن نجعل عنوان هذا اللقاء الطيب ماء زمزم، فقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم ماء بئر زمزم فقال:

((إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ، إِنَّهَا طعَامُ طُعْمٍ))

[مسلم عن عبادة بن الصامت في حديث طويل]

وفي رواية عند البزار بسند صحيح عن أبي ذر رضي الله عنه:

((وَشِفَاءُ سُقْمٍ))

[البزار بإسناد صحيح عن صفية]

وعن ابن جريج رحمه الله تعالى قال : سمعت أنه يقال :

((خَيْرُ مَاءٍ فِي الأَرْضِ مَاءُ زَمْزَمَ))

[الطبراني في الأوسط والكبير ، ورواته ثقاة]

نصوص وحقائق

نحن في بداية هذا اللقاء الطيب نورِد النصوص، ثم نأتي بعد النصوص بالحقائق العلمية التي تصدقها، النبي عليه الصلاة والسلام يقول في حديث آخر، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ))

[ابن ماجه]

يعني أنه متعدد الفوائد .

وفي حديث آخر عن ابن عباسٍ رضي اللهُ عنهما مرفوعًا:

((فَإِنْ شَرِبْتَهُ تَسْتَشْفِي بِهِ شَفَاكَ الله، وَإِنْ شَرِبْتَهُ مُسْتَعِيذاً بِهِ أَعَاذَكَ اللهُ، وَإِنْ شَرِبْتَهُ لِيَقْطَعَ ظمَأَكَ قطعَهُ اللهُ))

[الحاكم في المستدرك]

المذيع :

هذا الحديث كأنه يفسر الحديث الآخر الذي قال فيه الرسول عليه الصلاة والسلام:

((مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ))

أيْ: لكل إنسان نية في شربه لماء زمزم .

الدكتور راتب:

وكأن شرب هذا الماء نوع من العبادة .

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ جَالِسًا، فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ جِئْتَ؟ قَالَ: مِنْ زَمْزَمَ، قَالَ: فَشَرِبْتَ مِنْهَا كَمَا يَنْبَغِي؟ قَالَ: وَكَيْفَ؟ قَالَ: إِذَا شَرِبْتَ مِنْهَا فَاسْتَقْبِلْ الْقِبْلَةَ، وَاذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ، وَتَنَفَّسْ ثَلَاثًا، وَتَضَلَّعْ مِنْهَا، فَإِذَا فَرَغْتَ فَاحْمَدِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّ رَسُولَ قَالَ :

((إِنَّ آيَةَ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمُنَافِقِينَ إِنَّهُمْ لَا يَتَضَلَّعُونَ مِنْ زَمْزَمَ))

[سنن ابن ماجة]

والتضلُّع أن تشرب ملء جوفك، وأن تبالغ في الشرب من هذا الماء، طبعاً من خلال هذه الأحاديث وكلام النبي، وكما تعلم كلامه أمر، فالنبي في عقيدة المسلم معصوم بمفرده، فكل أقواله وأفعالك وإقراره سنة، لأن الله عز وجل أمرنا أن نأخذ عنه كل شيء، فقال تعالى :

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر الآية:7]

قول النبي، وفعله، وإقراره سنة، ينبغي أن تطبق، ذلك لأن الله عصمه من أن يخطئ في أقواله، وفي أفعاله، وفي إقراره، لو تخيل بعض المتوهمين أنه ليس بمعصوم لكان الأمر بالأخذ منه أمراً بمعصية، وهناك أناس كثيرون يتطلعون إلى أن نكتفي بالقرآن، وهم إذا قالوا ذلك فهم يخالفون نص القرآن، لأن الله أمرنا أن نأخذ عنه .

معنى كلمة التضلع

المذيع :

فضيلة الدكتور، هنا ذكرت في حديث النبي صلى الله عليه وسلم:

((إِنَّ آيَةَ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمُنَافِقِينَ إِنَّهُمْ لَا يَتَضَلَّعُونَ مِنْ زَمْزَمَ))

ما معنى هذه الكلمة، التضلُّع ؟

الدكتور راتب:

التضلع أن تشرب ملء جوفك من هذا الماء، وتبالغ في الشرب منه! هذا المعنى، على كلٍّ يوجد أدب في شرب ماء زمزم.

فعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ جَالِسًا، فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ جِئْتَ؟ قَالَ: مِنْ زَمْزَمَ، قَالَ: فَشَرِبْتَ مِنْهَا كَمَا يَنْبَغِي؟ قَالَ: وَكَيْفَ؟ قَالَ: إِذَا شَرِبْتَ مِنْهَا فَاسْتَقْبِلْ الْقِبْلَةَ، وَاذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ، وَتَنَفَّسْ ثَلَاثًا، وَتَضَلَّعْ مِنْهَا، فَإِذَا فَرَغْتَ فَاحْمَدِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّ رَسُولَ قَالَ :

((إِنَّ آيَةَ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمُنَافِقِينَ إِنَّهُمْ لَا يَتَضَلَّعُونَ مِنْ زَمْزَمَ))

[سنن ابن ماجة]

الحرص على التضلع

طبعاً تطبيقاً لهذه التوجيهات النبوية لقد حرص الصحابة الكرام والتابعون وكثير من العلماء والعوام على التضلع من ماء زمزم، ولاسيّما في الذهاب إلى الحج والعمرة، أي أنْ تملأ الضلوع منه مع استحضار نية معينة عند الشرب منه، لأن الدعاء مستحب عند الشرب من ماء زمزم، فزمزم لما شرب له وقد روي عن عمرَ بن الخطابِ رضي اللهُ عنه أنه كان إذا شربَ ماءَ زمزمَ دعا فقال:

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْرَبُه لِظمأِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ))


ماء زمزم يرسم أشكالاً رائعة تحت المجهر

وقد روي عن ابن عباس أنه كان إذا شرب ماء زمزم قال:

((اللهم إني أسألكَ عِلْماً نافعاً، ورزْقاً وَاسِعاً، وشِفاءً مِن كُلِّ دَاءٍ))

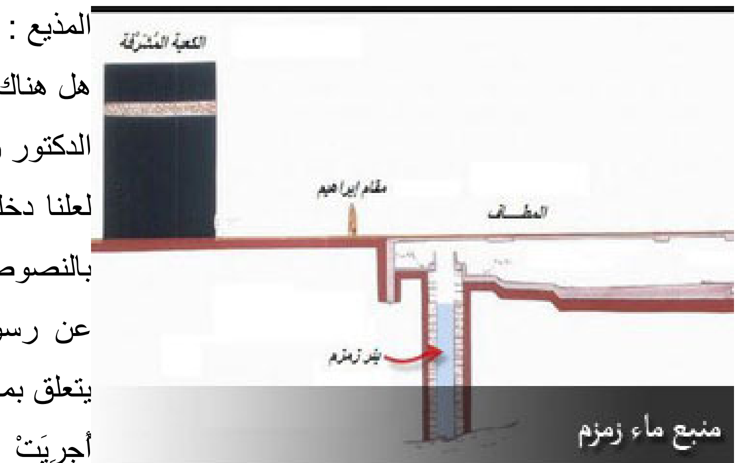
وقد قال بعض العلماء:

((مَاءُ زَمْزَمَ سَيِّدُ الْمِيَاهِ، وَأَشْرَفُهَا، وَأَجَلُّهَا قَدْراً، وَأَحَبُّهَا إِلَى النُّفُوسِ، وَأَغْلَاهَا ثَمَنًا، وأَنْفَسُهَا عِنْدَ النَّاسِ، وَهُو هَزْمَةُ جِبْرِيلَ، وَسُقْيَا اللهِ إِسْمَاعِيلَ))

[ابن القيم في زاد المعاد]

هذا ما جاء في السنة الصحيحة والحسنة، فماذا في العلم وتحليلاته الدقيقة عن ماء زمزم؟.

دراسات علمية عن زمزم



المذيع :

هل هناك دراسة علمية؟

الدكتور راتب :

لعلنا دخلنا في صلب الموضوع، نحن بدأنا بالنصوص الصحيحة والحسنة التي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بماء زمزم .



أُجرِيَتْ في عام ألف وتسعمائة وثلاثة وسبعين، وعام ألف وتسعمائة وثمانين تحاليل كيميائية من قِبَل شركات عالمية عملاقة ومتخصصة، فكانت النتائج عجيبة، حيث إن مياه زمزم خالية تماماً من أي نوع من أنواع الجراثيم المسببة للتلوث! وتعد المياه معدنية، طبعاً هناك من يعجب بالمياه المعدنية، التعريف الدقيق للمياه المعدنية: وتعد المياه معدنية، ويتهافت الناس على شرائها إذا كانت نسبة أملاح المعادن فيها من مئة وخمسين إلى ثلاثمئة وخمسين مليغرامًا في اللتر، فهذه مياه معدنية تباع بالقوارير، أما مياه زمزم فتبلغ نسب المعادن فيها ألفي مليغرام في اللتر، ومن أبرز هذه الأملاح المعدنية الكالسيوم والصوديوم والمغنيزيوم والبوتاسيوم وغيرها .

الماء المبارك

المذيع :

هل لهذه المياه خاصية تميزها عن غيرها من حيث التعبد ، وخصائص الماء غير التي ذكرناها ؟

الدكتور راتب :

حقائق كثيرة حول هذا الماء، سأوردها إن شاء الله .

يعد ماء زمزم من أغنى مياه العالم بعنصر الكالسيوم، إذ تبلغ نسبته فيه مئتي مليغرام في اللتر الواحد، لقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال:

((إِنَّهَا مُبَارَكَة إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ))

((وَشِفَاءُ سُقْمٍ))

تعلمون أن الإنسان يملك هيكلا عظميًّا فيه خاصة اسمها التجدد، الهدم والإنشاء، لو أن الإنسان أهمل في بعض خاصيته عنصر الكالسيوم يصاب هذا الهيكل بما يصاب الترقق، أو لينَ العظام وهو مرض خطير، لو أن عظم الحوض كُسر في إنسان سنه متقدمة لكان طامة كبرى .

فلذلك هذا الماء مبارك:

((إنَّهَا طعَامُ طُعْمٍ))

حقائق ونسب وأرقام

وقد دلت البحوث الحديثة الصحيحة أن أمراض شرايين القلب التاجية أقل حدوثاً عند الذين يشربون مثل هذه المياه، لقد صدق النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال:

((وَشِفَاءُ سُقْمٍ))

ماء زمزم أفضل من أغلى أنواع المياه في العالم

كل كلمة من أقوال النبي تعني حقيقة علمية توصل العلماء إليها في الوقت المتأخر، وتعد المياه غازية هاضمة إذا احتوت على ما يزيد على مئتين وخمسين مليغرامًا في اللتر الواحد من البيكربونات، ومن أشهر المياه الغازية في العالم مياه نبع (إفيان) في فرنسا، إذ تبلغ نسبة البيكربونات فيه ثلاثمئة وسبعة وخمسين مليغرامًا في اللتر .

الآن دقق: أما ماء زمزم فنسبة البيكربونات فيه ثلاثمئة وستة وستون مليغرامًا في اللتر الواحد فهو أعلى نسبة بيكربونات في مياه العالم، مياه زمزم، لقد صدق النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال:

((مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ))

دواء لكل داء

المذيع :

فضيلة الدكتور، هل استدل العلماء، وخصوصاً علماء الطب أن يصفوا هذه المياه لمرضاهم بمرض معين؟

الدكتور راتب :

نعم – ذلك لأن النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال:

((وَشِفَاءُ سُقْمٍ))

إذاً لا بد من أن نبحث عن الاستطبابات الدقيقة لهذه المياه .

بالمناسبة للنبي عليه الصلاة والسلام حديث شريف أراه من دلائل نبوة النبي، عَنْ جَابِرٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ ، فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

[صحيح مسلم]

إذا قرأ الحديث مريض يمتلئ قلبه أملاً بالله عز وجل ، وإذا قرأه طبيب يشعر بالتقصير!

((لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ))

هناك مرض أسميه بوابة الخروج، هو لا دواء له، وهو مرض الموت، الإنسان كيف يخرج من الدنيا بمرض عضال يبدأ بجهة من جسمه ، ويتفاقم ، وقد يكون نبياً ، وعظيماً ، وولياً ، هذا مر ض الموت بوابة الخروج ، هذا المرض لا شفاء له ، أما ما سوى ذلك فإنه:

((لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ))

إجابة عن سؤالك الكريم: يذكر بعض علماء الطب في كتاب طبع عام ألف وتسعمئة وخمسة وتسعين أن المياه المعدنية تفيد في علاج كثير من أمراض الروماتيزم، وزيادة حموضة المعدة والإسهال المزمن، وعسر الهضم، وهي ذات تأثير مدرّ، ومليّن، ومرمِّم لنقص المعادن في الجسم، وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال:

((فَإِنْ شَرِبْتَهُ تَسْتَشْفِي بِهِ شَفَاكَ الله ، وَإِنْ شَرِبْتَهُ مُسْتَعِيذاً بِهِ أَعَاذَكَ اللهُ ، وَإِنْ شَرِبْتَهُ لِيَقْطَعَ ظَمَأَكَ قَطَعَهُ اللهُ))

ماءٌ شربه عبادة

لكن لماذا يعدّ شرب هذا الماء عبادة؟ إنه مالح نوع ما، الإنسان يتوقُ لشرب الماء العذب الزلال، في هذا الماء بعض الملوحة، لذلك ماء زمزم ليس عذباً حلواً، بل يميل إلى الملوحة، وإن الإنسان لا يشرب من هذا الماء الذي يميل للملوحة إلا إيماناً بما فيه من البركة، فيكون التضلع منه دليلاً على الإيمان .

قصة شهيرة عن ماء زمزم

المذيع :

سبحان الله! حقائق مدهشة تحدثنا بها فضيلة الدكتور عن هذه المياه، أملاح معدنية وشفاء، كما ذكرتم، إنها لمعجزة، هل حدث فضيلة الدكتور أن شفي بها أحد من قبل؟.

الدكتور :

هناك قصة شهيرة جداً، أن مدرسة تقيم في باريس من أصل مغربي، أصيبت بورم خبيث في دماغها، وقد أنبأها طبيبها المتخصص أنه بقي لها في الحياة أسابيع، فاختارت أن تذهب إلى الديار المقدسة لتختم عمرها بعمرة في بيت الله الحرام، فشربت من ماء زمزم شرباً غير معقول، فكان الشفاء التام، وعادت إلى فرنسا، والتقت بطبيبها، وأخبرته بما حصل، وألّفت قصّة شهيرة جداً، حيث ذكرت كيف أن الله شفاها بهذا الماء الذي جعله في بيته الحرام .

توافق الماضي مع الحاضر

أريد أن أسأل، أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما أنبأنا بهذه الحقائق التي تطابقت تطابقاً تاماً مع البحوث العلمية الحديثة، ما المؤسسات العلمية العالية التي كانت على عهد النبي صلى الله عليه وسلم والتي أعطته هذه الحقائق المدهشة عن ماء زمزم ؟ وما هي الهيئات البحوث المتخصصة التي توصلت لهذه النتائج عن ماء زمزم؟ وما نوع المخابر العملاقة التي حللت، واستنتجت نسب أملاح المعادن في ماء زمزم بدقة بالغة، والتي اعتمد عليها النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المبارك؟ إنه الوحي!.

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم الآية: 3-4]

وأنا أميل لأن أسمي هذه التوافقات العجيبة بين أقواله قبل ألف وأربعمئة عام وبين معطيات العلم الحديثة، هذا التوافق يمكن أن يندرج تحت دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام.

حينما آتي بآية قرآنية وحقيقة علمية قطعية واضحة جداً تتطابق معها تطابقًا عفويًّا وتامًّا أقول: هذا من إعجاز القرآن الكريم، أما إن رأيت حديثاً شريفاً يتوافق توافقاً تاماً مع معطيات العلم أميل إلى أن أفرق بين الإعجاز العلمي، وبين دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام، ويمكن أن يكون هذا اللقاء الطيب تحت عنوان من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام .

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 10 - 30 : تزكية الذبيحة - الدم المسفوح.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-11-04

بسم الله الرحمن الرحيم

توجيه النبي أصحابه أثناء ذبح الدابة :

من الثابت أن النبي عليه الصلاة والسلام وجّه أصحابه في أثناء ذبح الدابة إلى أن تذبح من أوداجها فقط، دون أن يقطع رأسها، وأنا أعتقد أنه ليس في الأرض كلها في عصر النبي مركز علمي، لا في شرق الأرض، ولا في غربها يمكن أن يصل إلى تعليل علمي لهذا التوجيه النبوي، ولا بعد مئة عام، ولا بعد خمسمئة عام، ولا بعد ألف عام أو أكثر، إلا أنه من عدة عقود من الزمن اكتشف ما يلي: أن القلب لأنه أخطر أعضاء الجسم، وأخطر أجهزته، مزوَّد بمولدة كهربائية خاصة به، لأنه لو ربطنا القلب بالشبكة كما يقولون، وأصاب الشبكة عطباً لمات الإنسان، فالقلب لا يحتاج إلى تنبيه خارجي، يأتي تنبيهه من ذاته، ففيه مركز كهربائي يعطيه التنبيه النظامي من ستين إلى ثمانين ضربة في الدقيقة، وفيه مركز ثان احتياطي للمركز الأول، إن تعطل الأول عمل الثاني، وفيه مركز كهربائي ثالث احتياطي للمركز الثاني، فإن تعطل الثاني عمل الثالث، هذه المراكز الكهربائية تعطي أمراً بالنبض النظامي من ستين إلى ثمانين نبضة في الدقيقة، لكن قلب الإنسان يشبه محركاً بالغ التعقيد والأداء، فهذا القلب بإمكانه أن يرفع استطاعته إلى درجة تزيد على ثلاثة أمثال استطاعته الطبيعية، فبينما ينبض قلب الإنسان ثمانين نبضة في الدقيقة إذا هو ينتقل فجأة إلى مئة وثمانين نبضة حينما يواجه خطراً، أو يعدو هرباً من عدو، أو يصعد درجاً عالياً، أو يواجه أزمة نفسية، فالجسم يحتاج إلى طاقة جديدة تمدّه بما يحتاج.

الذي حدث أن النبي عليه الصلاة والسلام وجَّه أصحابه إلى أنهم إذا ذبحوا الدابة فعليهم ألا يقطعوا رأسها، بينما معظم المسالخ في العالم اليوم تعلق الدابة من أرجلها، وتقطع رأسها كلياً، النبي صلى الله عليه وسلم رفض ذلك، أمرنا أن نبقي رأسها موصولاً بجسمها، الآن اكتشف أن هذا القلب يتلقى الأمر بالنبض من مراكزه الكهربائية، ولكن النبض النظامي الذي لا يتجاوز الثمانين نبضة في الدقيقة، أما الأمر الاستثنائي فينبغي أن يتلقاه من الكظر، تلك الغدة التي تأتمر بالغدة النخامية، ملكة الغدد الموجودة في رأس الإنسان، فالإنسان إذا واجه خطراً تنطبع صورة هذا الخطر على شبكية العين، والشبكية فيها الإحساس فقط بالصورة، لكن هذه الصورة تنتقل إلى الدماغ لتنقلب إلى إدراك، فالدماغ فيه مفهومات تلقاها الإنسان في حياته حينما كان صغيراً، من قصص سمعها، أو مشاهدات شاهدها، أو دراسات تعلمها، فهناك مفهوم الأفعى في الدماغ، فلو رأى أفعى في بستان يعود إلى ذهنه مفهومات الأفعى، لعله يموت من لدغتها، فالإدراك يكون من الدماغ بناء على تلقي صورة من شبكية العين، الدماغ ملك الجهاز العصبي، وعنده ملكة الجهاز الهرموني، وهي الغدة النخامية، وملك يخاطب ملكة، لابدّ من ضابط اتصال بينهما، في الدماغ يلتمس من الملكة أن تتصرف، الملكة عندها وزيرة داخلية تقول لها: هناك خطر فتصرّفي، فهذه الوزيرة هي الغدة النخامية تعطي أمراً للقلب برفع النبض، فقد يصل النبض إلى مئة وثمانين عند الخطر، وتعطي أمراً للرئتين ليرتفع وجيبهما ليتناسب الوجيب مع النبض.

الآن: ما الذي يرفع نبض القلب؟ إدراك الخطر، النخامية تأمر الكظر، والكظر يرسل أمراً هرمونياً عصبياً إلى القلب فيرتفع نبضه، الآن قلب الدابة حينما تذبح له مهمة أخرى، وهي إخراج الدم كله منها، لكن النبض الطبيعي ثمانون نبضة لا تكفي لإخراج الدم، لابد من أن يتلقى القلب أمراً استثنائياً يبدأ من الدماغ، ويسير إلى الكظر، ويعود إلى القلب من أجل رفع هذا النبض، هذا لا يتم إلا إذا كان الرأس متصلاً بالجسد، فلذلك حينما تذبح الدابة يعمل الأمر الاستثنائي فيرتفع نبض قلب الدابة إلى مئة وثمانين، وهذه الضربات السريعة كافية لإخراج الدم كله من جسم الدابة.

المذيع:

وهذا الجزء الموصول هو الذي يصل هذا الأمر الخطر من الدماغ إلى الكظر إلى القلب.

تحريم الله الدم المسفوح :

الأستاذ:

إذا قطعنا رأس الدابة يتعطل الأمر الاستثنائي، وعندئذ يبقى لون الدابة أزرق، فيبقى معظم دمها في جسمها، والدم بالمناسبة هو البيئة التي لا توصف أهليتها لنمو الجراثيم، الوسط الذي تتكاثر فيه الجراثيم بشكل عجيب هو دم الدابة، لذلك مخابر الطب حينما تريد أن تستنبط جرثومًا تضعه في الدم، والدم فيه الفضلات، فيه حمض البول، والسموم، وكل نواتج الاحتراق، وعوامل المرض تجدها في الدم، من هنا حرم الله أكل الدم، وشربه، لأن فيه مجموعة السموم والأمراض، وعوامل المرض، وثاني أكسيد الكربون.

فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما أمر أن تذبح الدابة من أوداجها، وأن يبقى رأسها متصلاً، فهذا الأمر يتوافق مع أحدث حقائق العلم حول عمل القلب بعد الذبح، مهمة القلب بعد الذبح إخراج الدم كله من جسم الدابة، وهذا لا يتم إلا بإبقاء الرأس موصولاً مع الجسم، أما حينما تجد لحماً أزرق اللون قد لا ينضج سريعاً فبسبب هذا الدم الذي بقي في أنحاء جسم الدابة.

والدم في الجسم طاهر، لوجود أجهزة بالجسم بالغة الدقة والفعالية في تصفية الدم، مثلاً: الكليتان تصفيان الدم من حمض البول، وكل المواد السمية التي يطرحها الكبد يتم طرحها عبر الكليتين، الآن الرئتان تصفيان الدم من غاز الفحم، وملايين ملايين الغدد العرقية تصفي الدم من حمض البول أيضاً، فيوجد عندنا الغدد العرقية، وجهاز التنفس، والغدد، والكليتان، هذه كلها مَصافٍ.

فلذلك ربنا عز وجل حرم الدم المسفوح، لأن الدم المسفوح هو بؤرة عالية المستوى لنمو الجراثيم، أما الدم الذي يجري في العروق فتصفّيه أجهزة بالغة الدقة.

المذيع:

لذلك نرى الحكمة في تحريم المنخنقة والموقوذة، وهناك طريقة محددة لذبح الدابة.

تحريم القرآن الكريم للدابة المنخنقة والموقوذة :

الأستاذ:

ما من قاسم مشترك يجمع بين تحريم القرآن الكريم للدابة المنخنقة التي خنقت فماتت، وبقي دمها في جسمها، والموقوذة التي ضربت بآلة حادة فماتت، والمتردية التي وقعت من عال فماتت بصدمة عضلية، والنطيحة التي نُطحت، هذه الأربعة أنواع من الدواب التي حرم الله أكلها يجمعها قاسم مشترك واحد هو أن الدم بقي في جسمها.

المذيع:

هناك من يحاول أن يذبح الدابة بعدما تموت بشيء من هذه الأسباب، الخنق، أو الوقذ، أو ما شابه ذلك، فهذا لن ينفع على ما أعتقد.

أكل السمكة دون ذبحها و إخراج دمها :

الأستاذ:

لكن هناك تساؤلاً عجيباً هو الإنسان له ولاء للدّين، وله براء من المشركين والكافرين، قد يسأل سائل: إذا كان لا بد من ذبح الدابة، وإخراج كل دمها لنأكلها، فكيف سمح الله لنا بأكل السمكة دون أن نذبحها؟ بالمناسبة بعض الدول الأخرى تملقاً للمسلمين تضع على علب السمك: " هذا مذبوح على الطريقة الإسلامية"، وهذا كذب فاضح، الشيء الذي لا يصدق أن السمكة إذا اصطيدت انتقل دمها كله إلى غلاصمها، وكأنها ذبحت، لذلك سمح الله أن نأكل ميتة هي السمك الذي نصطاده، لا تجد خثرة دم واحد في جسم السمكة.

المذيع:

ما هي غلاصم السمكة؟

التعريف بغلاصم السمكة :



الأستاذ:

عند رأسها، يفتحون شقاً واسعاً، تبدو الغلاصم، وهي مكان تجمع الدم في السمكة، فكل دم السمكة ينتقل فوراً إلى غلاصمها عند اصطيادها، أما الذي يريد أن يعترض ويقول: إن كان الذبح ضرورة علمية فكيف تأكلون السمك من دون ذبح؟ فالسمك إذا اصطدناه انتقل دمه كله إلى غلاصمه، وكأنها ذبحت.

((أُحِلَّتْ لَكُمْ مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ، فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالْحُوتُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ))

[ابن ماجة عن عبد الله بن عمر]

المذيع:

فضيلة الدكتور، استكمالاً لهذا البحث الذي بدأناه بالذبح، والحكمة من الذبح، إلى ما هناك، حتى أتينا إلى المنخنقة والموقوذة والمتردية، وما إلى هنالك، الآن الدم المسفوح ماذا يعني؟ ولماذا حرمه الله؟

التعريف بالدم المسفوح و تحريمه :

الأستاذ:

ذكرت قبل قليل أن الدم في جسم الدابة دم يصفى باستمرار وينقى، تذهب عنه آفاته باستمرار، إما من خلال الكليتين، أو الرئتين، أو غدد التعرق، لكن الدم إذا سفح تعطلت تصفيته، وكما ذكرت قبل قليل: إن الدم يعد أعلى بؤرة تنمو فيها الجراثيم، بل إن خلاصة الاحتراق في الجسم وخلاصة عوامل المرض تتوضع في الدم، فالدم من دون تصفية مادة سامة مؤذية مهلكة للإنسان، فلذلك حينما يأكل الإنسان دابة ذبحت على غير الطريقة الإسلامية قد ينتقل إلى جسمه أحماض كثيرة ضارة بالإنسان، وقد يقول بعض الأطباء: إن التهاب المفاصل الحاد سببه أن حمض البول المتوضع في الدم ينتقل إلى جسم الإنسان، ومنه إلى العضلات، فيحس الإنسان بآلام في عضلاته ومفاصله.

المذيع:

فضيلة الدكتور، الدم المسفوح كيف أصبح مسفوحاً، هل ذبح بشكل كامل؟

الأستاذ:

إذا ذبحنا دابة الدم الذي يخرج منها هذا اسمه: دم مسفوح، وممنوع أكله، وأنا لا أقول هذا الكلام من هواء، كان العرب يأخذون هذا الدم، ويأكلونه في الجاهلية، وكأنه طعام نفيس، وبعضهم يضع الدم في معدة الدابة، ويأكله مطبوخاً، فلذلك حرم الله أكله.

المذيع:

كان هذا التحريم خاصًّا بالعرب، يأكلون الدم ويشربونه.

العلاقة العلمية بين الأمر ونتائجه :

الأستاذ:

أقول دائماً: إن هناك علاقة علمية بين الأمر ونتائجه، وبين المعصية ونتائجها، ومعنى العلاقة أيْ علاقة سبب بنتيجة، وكنت وضّحت من قبل أن هناك علاقة وضعية، وهناك علاقة علمية، العلاقة

الوضعية ليس هناك من علاقة سبب بنتيجة بين المخالفة والعقاب، لكن الحقيقة العلمية تكون بذور نتائج المعصية فيها، وبذور نتائج الطاعة فيها.

المذيع:

سبحان الله! ما أمرنا النبي عليه الصلاة والسلام بأمر إلا كان هناك منفعة من ابتعادنا عن هذا الأمر، وما حثنا على أمر إلا وكان هناك منفعة منه.

الأستاذ:

لأن الله يقول:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

فمن هو الخبير الحقيقي فيما يصلح لهذا الإنسان؟ هو الله، لأنه هو الصانع، والحقيقة أن الجهة الصانعة هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها من بين كل الجهات الأخرى، لأنها تملك الخبرة التامة في هذه الحاجة التي صنعتها.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 11 - 30 : سلوك النبات.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-11-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

ترتيب الله للمعاصي و الآثام :

من قوله تعالى:

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة:169]

الله عز وجل رتب المعاصي والآثام ترتيباً تصاعدياً، فبدأ بالإثم والعدوان والفحشاء والمنكر، ثم الكفر والشرك، وجعل على رأس هذه المعاصي:

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة:169]

الإمام الغزالي رحمه الله تعالى يقول: " العوام لأن يرتكبوا الكبائر أهون من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون ".

الآيات الدالة على عظمة الله لا تعد ولا تحصى :

وهناك شيء آخر هو أن الله سبحانه وتعالى حينما يقع الإنسان في معصية في مفردات المنهج الإلهي سريعاً ما يتوب منها، أما حينما يظن بالله ظن السوء، ويتوهم عن الذات العلية أفكارًا غير صحيحة، فهذا يحجبه عن الله عز وجل، فأفضل ألف مرة أن تخطئ في الوزن من أن تخطئ في الميزان، فالخطأ في الميزان لا يصحح، بينما الخطأ في الوزن لا يتكرر.
الحقيقة أن الآيات التي تدل على عظمة الله لا تعد ولا تحصى، وقلت مرة: لو أنّ إنسانًا في مقتبل حياته قال: مليار مليار إلى أن وافته المنية في الثمانين، لا تنتهي آيات الله عز وجل، وهذا مأخوذ من قوله تعالى:

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً)

[سورة الكهف:109]

وفي آية ثانية:

(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ)

[سورة لقمان: 27]

ومعلوم لديكم أن محبرة صغيرة تكفي الطالب سنوات وسنوات، فكيف إذا كانت مياه البحار كلها في سبعة أضعاف هي المداد لكلمات الله؟ قال:

(مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ)

تحقق حاجات الإنسان من خلال النبات :

ولكن الله جلت حكمته أعطانا من هذه الآيات التي لا تعد ولا تحصى عدداً محدوداً، أنا أسمي هذا العدد هو منهج الإنسان في التفكر في ملكوت السموات والأرض، بل إن هذا العدد اختاره الله لحكمة بالغة، لأن هذه الآيات قريبة منا، من حياتنا اليومية، فأقرب شيء منا هذا النبات، وفي آية في سورة المائدة ورد ذكر النبات في كلمتين، قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ)

[سورة الأنعام : 99]


تصنع المفروشات من النبات

فأنت ترى أن الخشب نصنع منه الأثاث، بعضها أثاثات المنازل، وبعضها لاستعمال الصناعة، وبعضها للتدفئة، وبعضها للأساس، أما كلمة نبات فكل شيء، هناك نبات نتغذى من أزهاره، ونبات من أوراقه، ونبات من جذوره، ونبات فيه دواء، ونبات فيه أصبغة، ونبات فيه مواد خفيفة كالفلين، ونبات فيه مواد نتعامل بها كالمواد الصلبة كالكوشوك، ونبات يعد أواني، ونبات يؤخذ منه الورق، لو ذهبت تبحث عن أنواع النبات لما وجدت من سبيل لإحصاء النبات، نبات حدودي بين البساتين، نبات يعد مسطحاً أخضر هذا بذور المرج، نبات ورود ورياحين، ونبات لإمتاع الإنسان، ونبات ليكون مظلة لك أمام البيت،

فلما قال الله عز وجل:


تصنع الملابس من نبات القطن

(وَهُوَ الَّذِي أنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ)

[سورة الأنعام : 99]

تقريباً معظم حاجات الإنسان تتحقق من خلال النبات، لكن محور هذا اللقاء حول باحث من دولة عربية عرف بإنتاجه العلمي والعملي على المستويين العربي والدولي، اختصاصه في علم فزلجة النبات، وهو أستاذ جامعي له وزنه العلمي.

المذيع:

ما معنى دكتور فزلجة النبات ؟

فزلجة النبات :


يصنع الدواء من النبات

الأستاذ:

نحن عندنا فيزيولوجية، علم وظائف الأعضاء، عندنا تشريح المعدة وفيزيولوجية المعدة، وظيفة المعدة فيزيولوجية، أما تشريحها فتشريح، ومعلوم لديكم أن الطلاب في الطب في السنة الأولى يدرسون علومًا عامة، وفي الثانية التشريح، وفي الثالثة الفيزيولوجية، وفي الرابعة الأمراض، وفي الخامسة علم الأدوية، هذا هو المنهج. هذا الأستاذ العلمي الذي له وزنه، اشتهر بتجاربه العلمية الرائدة، أما التجربة التي سنعرض لها فربما لا تصدقونها أيها الأخوة المستمعون، إلا أن الواقع أثبتها، ويؤكد هذا الواقع القرآن الكريم، إذ قال تعالى:

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)

[سورة الإسراء: 44]

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ)

أي ما من شيء إلا يسبح بحمده.

تسبيح النبات للخالق العظيم :


نبات للزينة

قد يقول قائل: إن هذا التسبيح من إتقان الصنعة، فإذا نظرت لهذه الوردة قلت: سبحان الله! ليس هذا هو المعنى، لأن الآية تقول:

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً)

[سورة الإسراء: 44]

أي لها تسبيح خاص، فالنبات يسبح، وفي قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)

[سورة النور: 41]

وفي آية ثالثة:

(هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة الحشر: 24]

وفي آية رابعة:

(وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ*وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

[سورة الرحمن: 6-7]

هذه الآيات تؤكد أن للنبات تسبيحاً للخالق العظيم، وهناك بداية بحوث تؤكد أن للنبات حياة نفسية، لكن هذه التجربة تقع على رأس هذه المحاولات لاكتشاف الحياة النفسية للنبات.

المذيع:

فضيلة الدكتور، هل هذه التجربة قديمة أم حديثة؟

النباتات كمخلوقات الله تشعر وتسمع وتستجيب :

الأستاذ:

النباتات كالأجرام السماوية، وكمخلوقات الله الأخرى تشعر، وتسمع، وتستجيب سلباً أو إيجاباً لما حولها من مؤثرات خارجية، هذا ملخص البحث.

وأمّا مفصّله فقد أجرى هذا الباحث في حديقة كلية العلوم تجربة عام 1997 فنصب أربعة بيوت بلاستيكية موحدة في حجمها، وزرع فيها قمحاً من نوع معين واحد، وملأها بكميات متساوية من التراب، وغرس فيها بذور الحنطة على عمق واحد، وتمّ تسميدها جميعاً بكميات متساوية من سماد معين، وسقيت جميعاً بذات العدد من السقيا، وبكميات متماثلة من الماء، العجيب أنه أراد التوحيد في كل شيء في الحجم، والتربة، ونوع البذار والسقيا، وزمن السقيا، ونوع السماد، ثم اختار إحدى طالباته لتقرأ السورة القرآنية التالية على أحد البيوت البلاستيكية، سورة يس، والفاتحة، والإخلاص، وآية الكرسي، مرتين في الأسبوع على البيت الأول، عندنا أربعة بيوت، أول بيت تلت طالبة من طالباته في الأسبوع مرتين سورة الفاتحة والكرسي والإخلاص ويس، وفي البيت الثاني كلف طالبة أن تأتي بنبات، وتمزقه أمام بقية النبات، وتعذبه، وتقطع أوصاله، وتذكر كلمات قاسية نابية أمام هذا النبات، كلام قاس، وناب، وتمزيق، وتعذيب لنبات أمام نبات، وكما قلت قبل قليل: مرتين في الأسبوع، وكلف طالبة ثالثة بضرب النبات الثالث، وكيّه، وتعريض وريقاته للقص، فهناك نبات عذب أمامه نبات، وهناك نبات تلقى التعذيب مباشرة، وهناك نبات قرأت عليه آيات القرآن الكريم، وأما البيت الرابع فترك ينمو نمواً طبيعياً، وأطلق عليه اسم البيت الضابط، فماذا كانت النتيجة؟ البيت الرابع هو المقياس، والأول سمع القرآن، والثاني لقي التعذيب، والثالث رأى التعذيب، النتيجة طبعاً هو وضع هذه التجربة قبل زمن من انعقاد مؤتمر علمي، فحينما قطف النتائج كان هناك علماء من شتى بقاع العالم، فماذا كانت النتيجة التي عرضها في مؤتمر علمي؟ أن نبات البيت الذي استمع للقرآن الكريم ازداد طوله أربعة وأربعين بالمئة من طول النبات الضابط في البيت الرابع، وازدادت غلته مئة وأربعين بالمئة من غلة البيت الرابع الضابط، أما البيت الثاني والثالث اللذان تحملا التعذيب ورؤيته فقد تدنى طول نباتهما خمسة وثلاثين بالمئة، وهبط إنتاجه إلى ثمانين بالمئة، وهذا تفسير علمي للبركة، فحينما يزرع المؤمن يقرأ القرآن بنفس طيبة، ويذكر الله دائماً فهذا الذكر أمام النبات يزيد في الغلة.

المذيع:

سبحان الله ! تجربة علمية مقنعة في آن واحد، هذا ما يحصل عليه المؤمن حينما يذكر الله سبحانه وتعالى، وكما ذكرتم في البداية أن الله سبحانه وتعالى قال:

(هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة الحشر: 24]

هذا هو ما يحصل عليه من يذكر الله سبحانه وتعالى، إن كان على نبات، أو حيوان، أو ما شابه ذلك.

من يتعرف إلى الله يملك شفافية رائعة :

الأستاذ:

لكن يجب أن نعتقد أن لكل شيء خلقه الله في هذا الكون نفسًا تسبح الله بطريقة لا نعرفها، حتى الجمادات لها نفوس، لو درس الإنسان الفيزياء لرأى أن هذه المواد الجامدة فيها ذرات، فيها نواة، وكهارب، ونيترونات، وحركة دائبة تدور حول هذه النواة، فكل شيء فيه حياة، فقال:

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً)

[سورة الإسراء: 44]

تروي السيرة أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يخطب على جذع نخلة، فلما صنع له أصحابه المنبر حنت النخلة إليه، فكان يقف على المنبر، ويضع يده على النخلة إكراماً لها، فعَنْ جَابِرَ بْن عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَطَبَ يَسْتَنِدُ إِلَى جِذْعِ نَخْلَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا صُنِعَ الْمِنْبَرُ، وَاسْتَوَى عَلَيْهِ اضْطَرَبَتْ تِلْكَ السَّارِيَةُ كَحَنِينِ النَّاقَةِ، حَتَّى سَمِعَهَا أَهْلُ الْمَسْجِدِ، حَتَّى نَزَلَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاعْتَنَقَهَا، فَسَكَتَتْ))

[الترمذي عَنْ جَابِرَ بْن عَبْدِ اللَّهِ]

فالمؤمن حينما يتعرف إلى الله يملك ما يسمى بالشفافية، يتعامل مع المخلوقات تعاملاً فيه مشاركة، ومحبة، ومودة.

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ: أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنْ النَّاسِ، وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَاجَتِهِ هَدَفًا، أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ، قَالَ: فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَنَّ، وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ، فَقَالَ: مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ ؟ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ ؟ فَجَاءَ فَتًى مِنْ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا: فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ: وَتُدْئِبُهُ))

[أبو داود، أحمد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَر]

((عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ))

[مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ]

هذا قبل البعثة.

تقنين الله لعباده تقنين تأديب وتربية :

المؤمن حينما تشف نفسه يتعامل مع من حوله في مستوى من المشاركة الوجدانية والمحبة، ولأن الإنسان أحب الله فيحب كل مخلوقاته، ومخلوقات الله عز وجل كلها في خدمته، لأنها مسخرة إليه.


البركة في النبات

مرة كنت في زيارة بستان في أطراف دمشق، وقد زرع صاحبُه بعضاً من مساحته بالقمح، أمسكت خمساً وثلاثين سنبلة من حبة قمح واحدة، حبة قمح أنبتت خمساً وثلاثين سنبلة، وعددت حبات سنبلة واحدة فوجدتها خمسين حبة، فكان المحصل ألف وسبعمئة وخمسين حبة من حبة، فهذا يبين أن فضل الله لا حدّ له، فأحياناً نزرع القمح في بلدنا الطيب، في بعض الأعوام مجموع إنتاج القمح بلغ ستمئة وخمسين ألف طن، في بعض الأعوام أربعة ملايين طن، فهذا عطاء الله عز وجل ليس له حدود.


عطاء الله ليس له حدود

فالعبرة أن نؤهل أنفسنا لهذا العطاء، لأن الله سبحانه وتعالى لا يعقل ولا يقبل أن يقنن تقنين عجز، نحن بني البشر إذا قننا فنقنن تقنين عجز، فنقطع الكهرباء والمياه، هذا من عجزنا، لكن الله عز وجل إذا قنن فيقنن تقنين تأديب.

مرت المنطقة بسنوات فيها شح بالأمطار، قرأت بحثاً عن سحابة في الفضاء الخارجي

اكتشفت قبل أعوام يمكن أن تملأ محيطات الأرض ستين مرة في أربع وعشرين ساعة بالمياه العذبة، وهذا يؤكد قوله تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

[سورة الحجر: 21]



وحتى نفهم ما يجري في الأرض من تقنين.

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ)

[سورة الشورى: 27]

فتقنين الله عز وجل لعباده أحياناً يعد تقنين تأديب وتربية، لا تقنين عجز وافتقار.

المذيع:

أيها الأخوة والأخوات، وكما حدثنا فضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي عن دلائل نبوة للنبي صلى الله عليه وسلم، فقد حن النخيل ليديه الشريفتين عليه الصلاة والسلام، وصلى عليه الحجر.

كنا قد بدأنا في بحثنا في هذا اللقاء في أثر القرآن في تقويم سلوك النبات، فكانت تجربة جميلة جداً في باحة لدولة عربية مجاورة.

رحمة النبي بالحيوان :

الأستاذ:

من دلائل نبوته أيضاً أنه رأى إحدى أصحابه يذبح شاة أمام أختها، فغضب غضباً شديداً، قال:

((أتريد أن تميتها مرتين؟ هلا حجبتها عن أختها))

[ورد في الأثر]

هذه رحمة النبي بالحيوان صلى الله عليه وسلم.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 12 - 30 : البرزخ - الحجر المحجور.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-11-06

بسم الله الرحمن الرحيم

لا بد من مقدمة تلقي ضوءاً على هذا البحث، وهي أن النبي عليه الصلاة والسلام أرسله الله لكل الشعوب، للعالمين كافة، لذلك ينبغي أن تكون معجزته مستمرة، ذلك لأن الأقوام السابقين كان لكل قوم نبي قد بعث إليهم، قال تعالى:

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7))

(سورة الرعد)

وكانت المعجزات السابقة حسية، بمعنى أنها وقعت، ولن تقع ثانية، أصبحت خبراً يصدقه من يصدقه، ويكذبه من يكذبه، ولكن معجزة النبي صلى الله عليه وسلم كانت معجزة علمية، ففي هذا القرآن الكريم آيات تزيد على ألف وثلاثمئة آية تتحدث عن الأكوان، وخلق الإنسان، والأسماك، والأطيار، وبقية المخلوقات، هذه الآيات باجتهاد من النبي لم يشرحها، وقد قلت سابقاً: إنه لو شرحها شرحاً مقتضباً مبسطاً ليفهمها من حوله لأنكرنا نحن عليه، ولو شرحت شرحاً مفصلاً يلبي حاجتنا للدقائق والتفصيلات لأنكر من حوله ذلك، تركت هذه الآيات من دون شرح ليكون لكل عصر دور في شرح هذه الآيات، ويتوافق هذا العمل الذي جاء من طرف آخر ليوضح ما جاء في القرآن دون أن يشعر، كي يتوافق مع قوله تعالى:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

(سورة فصلت)

الطرف الذي يكتشف هذه الحقائق ليس المسلمين، ولكنه طرف آخر، قد لا يعتقد بأحقية هذا الكتاب الكريم، وهذا دقيق جداً، لأن المسلمين لو أتوا بهذه الحقائق لاتهموا أنهم دبروها تدبيراً، أما حينما يأتي طرف لا يعبأ بنبي، ولا بكتابه الكريم، ويأتي بحقيقة ناصعة تتوافق توافقًا تامًّا مع ما في القرآن الكريم لاتضح أن الخالق واحد، هذا خَلقه، وهذا كلامه، فكلامه يتطابق مع خلقه.

الآية التي ذكرت هذه الظاهرة والتي تفضلت بها هي قوله تعالى:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21))

(سورة الرحمن)

أي إن هذا البحر مضطرب، فيه أمواج، وحركة دائبة، ولهذه الحركة مزية كبيرة في بقاء مياه البحر بعيدة عن أن تكون مياه آسنة، فهذا البحر يضطرب، وقد يلتقي البحران.

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19))

مثلاً : البحر الأسود يلتقي مع البحر الأبيض في البوسفور، والبحر الأبيض يلتقي مع البحر الأحمر في قناة السويس، والبحر الأحمر يلتقي مع البحر العربي في باب المندب، والبحر الأبيض يلتقي مع المحيط الأطلسي في مضيق جبل طارق، هذه أماكن تلتقي فيها البحار، والمفسرون كما تفضلت هذه الآية لم تكن موضحة في أذهانهم، أين هذا البرزخ ؟ حينما اكتشفت المركبات الفضائية، وحينما تمكن الإنسان من أن يصور الأرض من الفضاء اتضح في هذه الصور أن بين كل بحرين خطاً وهمياً، هو خط تمايز لونين، فهذه منطلق الفكرة لفهم هذه الآية.

فبعض علماء البحار نزل إلى باب المندب، أو إلى مضيق جبل طارق، أو إلى قناة السويس، فكأن هناك خطٌ بين كل بحرين يمنع تداخل مياه البحرين بعضمها في الآخر، ذلك أن العلماء قاسوا ملوحة كل بحر، ومكونات كل بحر، وكثافته، فإذا هي متباينة الكثافة والمكونات والملوحة، والخصائص ثابتة لا تتبدل حتى عند التقاء مياه البحرين

اطلعتُ على بحث مفاده أن بعض علماء البحار أتى بكم كبير من قصاصات الورق، ووضعها في هذا المكان الذي يبدو فيه الحاجز بين البحرين، فلم تنتقل إلى البحر الآخر، فاتضح أن بين البحرين برزخاً، أي حاجزاً موجودًا، أما طبيعته فلا تزال غامضة.

المذيع:

فضيلة الدكتور، كلمة البرزخ هل كان لها معنى الحاجز في وقت العربية ؟

الأستاذ:

هي الحاجز، لكن لم يفهم ما طبيعة هذا الحاجز، برزخ حاجز بين شيئين، لكن طبيعته لم تكن واضحة، الآن علمنا نتائج هذا الحاجز، لكن طبيعته لا تزال مجهولة، نحن في العلم قد ندرس الآثار، أما الكُنه فقد لا نعرفه، الكهرباء لها آثار واضحة جداً، واستخدمها الإنسان أوسع استخدام، لو سألت أعلم علماء الأرض في الكهرباء لَمَا أعطاك جواباً شافياً، ما طبيعة الكهرباء ؟ كل شيء فوق طبيعة البشر، لكن آثاره قضية مقدور عليها، لكن الآن اتضح أن البرزخ الذي بين البحرين هو الحاجز الذي يفصل مياه كل بحر عن مياه البحر الآخر، فلا تختلط المياه، ولا سيما في أماكن اتصال، بل إن لكل بحر ملوحته وكثافته ومكوناته وخصائصه، الأمر الذي يلقي ضوءاً كاشفاً على إعجاز هذه الآية العلمي، فالقرآن الكريم فيه إشارات لبعض حقائق الكون من دون تفصيلات، لئلا يصبح الكتاب كتاب علم، وهو كتاب هداية، لكن من أجل أن تتيقن أن الذي أبدع الأكوان هو الذي أنزل القرآن تأتي هذه الآيات العلمية فيها إشارات لطيفة إلى حقائق لم يتم اكتشافها حين نزول القرآن، ولكنها بعد حين من الزمن أصبحت واضحة جلية.

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20))

لا تبغي مياه بحر على مياه بحر آخر، بفضل هذا البرزخ الذي وجد بين البحرين لا يختلطان، طبعاً هذا من باب الاستعارة، في سورة الكهف قال تعالى:

(فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ)

(سورة الكهف)

أعطي هذا الجدار صفة الإنسان، أو شبه به، وحذف المشبه به، وبقيت بعض لوازمه، وهو الإرادة فقال:

(فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ)

هذا في البلاغة اسمه الاستعارة، أنت حينما تقول:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

أنشبت أظفارها، شبهت المنية بوحش، وحذف الوحش، وبقيت بعض لوازمه، وهو إنشاب الأظفار، هذه استعارة يسميها علماء البلاغة مكنية، أما الاستعارة التصريحية فشيء لطيف، قال بعض الشعراء يصف بنتاً صغيرة تبكي:

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت ورداً وعضّت على العناب بالبرد

أمطرت دموعاً كاللؤلؤ على خد كالورد، فأمطرت لؤلؤاً من نرجس، من عيون كالنرجس، وعضت على الأصابع كالعناب بأسنان كالبرد، هذه استعارة تصريحية، والمكنية كما قال تعالى:

(فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ)

هنا شبه البحر بعدو يبغي على خصمه، فقال تعالى:

(بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20))

والحقيقة أن قواعد البلاغة شيء رائع جداً، وربما ألقت ضوءاً كاشفاً على حقيقة إعجاز القرآن الكريم:

(بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21))

الله يخاطب الإنس والجن.

هناك آية ثانية في هذا الموضوع، قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً (53))

(سورة الفرقان)

البرزخ بين البحرين، أما الحجر والمحجور فبين البحر والنهر.

أستاذ عبد الحليم، يوجد ينابيع في البحرين، يركب الإنسان قارباً ليصل إلى نبع في البحر، وفي الساحل السوري ينابيع كثيرة في وسط البحر، وهذا أيضاً من إعجاز القرآن الكريم، فالمياه العذبة لا تختلط

بالمياه المالحة، يتضح هذا واضحاً جلياً في مصبات الأنهار، نهر كالأمازون الذي كثافته ثلاثمئة ألف متر مكعب في الثانية **!** قد يمشي في البحر خمسين إلى ستين إلى ثمانين كيلو مترًا، وتبقى المياه عذبة، لذلك أكبر تجمع لصيد السمك في البحار هو مصبات الأنهار، لأن مياه الأنهار عذبة، ومياه البحار مالحة، وبينهما حجر محجور، يمنع اختلاط المياه العذبة بالمالحة.

لذلك أسماك المياه العذبة تبقى في المياه العذبة، ولا تنتقل إلى المياه المالحة، أكبر تجمع صيد السمك في مصبات الأنهار، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً (53))

الإنسان حينما يركب البحر، وتغرق السفينة، ويستقل قارب نجاة قد يموت عطشاً كما قال الشاعر:

كالعيس في الصحراء يقتلها الظما   والماء من فوق ظهورها محمول

إنسان يركب البحر يموت عطشاً.

المذيع:

فضيلة الدكتور، إن أردنا أن نفسر بعض الكلمات في هذه الآية الكريمة:

(عَذْبٌ فُرَاتٌ)

(وَحِجْراً مَحْجُوراً (53))

الأستاذ:

العذب الفرات الماء المستساغ، الماء العذب الطيب الذي تستسيغه النفس البشرية، ملح أجاج الذي يمجّ، لا يحتمل، يتقيؤه الإنسان، لا يستساغ، عذب فرات يستساغ ، بقي شيء، أن هذا الذي اكتشف هذه الحقيقة ظن أنه بلغ الثريا، فلما أنبأ أن في القرآن الكريم آية تشير إلى ذلك لم يصدق **!** وفي بعض المقالات لعله أسلم، هو كشف أن بين البحرين حاجزاً، بينهما حجر محجور، العذب والفرات، ثم ظن أنه كان الأول في هذا الكشف العلمي، فإذا في القرآن الكريم آية تشير إلى أن القرآن جاء بهذه الحقيقة قبل ألف وأربعمئة عام، فهناك من يقول: إنه أعلن إسلامه.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 13 - 30 : التربة وماتحتويه - الزنجبيل.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-11-07

بسم الله الرحمن الرحيم

ثمة شيء لا يصدق، إن متراً مكعباً من التربة التي نستخدمها للزراعة فيه ما يزيد على مئتي ألف من الديدان العنكبية، وفيه ما يزيد على مئة ألف من الحشرات، وعلى ثلاثمئة من ديدان التربة العادية، وعلى آلاف الملايين من الجراثيم والكائنات المتناهية في الدقة، وإن غراماً واحداً من هذه التربة يحتوي على عدة مليارات من البكتريا، هي المخلوقات المتناهية في الدقة على شكل عصيات، وعلى شكل كريات، وعلى شكل لوالب، بعضها يحتاج إلى الأوكسجين، وبعضها لا يحتاج، بعضها عارٍ، وبعضها له أهداب تمكنه من الحركة، إن هذا المصنع نعني به التربة ذو حركة دائمة، يقوم بمهمات هي أكثر المهمات غموضاً واستغلاقاً حتى اليوم، هذه الكائنات ما وظيفتها؟ يعرف العلماء بعض الوظائف، أما وظيفتها بالضبط فلا يزال هذا سراً لا تكتشفه العقول، هذا المصنع ذو حركة دائمة، يقوم بمهمات هي من أكثر المهمات أهمية، ونفعاً للإنسان، مفارقة حادة قد لا تصدق، لو أن الجنس البشري كله أبيد عن بكرة أبيه لبقيت الحياة مستمرة، أما هذه الكائنات لو أبيدت لانتهت الحياة من سطح الأرض كلياً، فربما كان وجود هذه الكائنات من حيث أداء الوظيفة أخطر من وجود الإنسان، فكل شيء نأكله على نحو مباشر أو غير مباشر إنما أصله من النبات الأخضر، وقد ذكرت في حلقة سابقة أن الله وصف النبات بأنه نبات كل شيء.

فإذا أكلت اللحم مثلاً، فاللحم نبت من العشب، فهذا الخروف أكل العشب، فنما جسمه فأكلت أنت لحمه، فغذاؤك بشكل أو بآخر أساسه النبات الأخضر، قال تعالى :

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)

[سورة يس]

الحقيقة:

(مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا)

كأنك تحس أن هناك مفارقة، الشجر الأخضر لا يشتعل، يشتعل الشجر اليابس، هناك شرح علمي لهذه المفارقة في هذه الآية : كيف يكون الشجر الأخضر وكيف يجعل وقوداً ولا يكون الشجر وقوداً إلا إذا كان يابساً؟ فلماذا قال الله تعالى:

(مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ)

؟ قال بعض العلماء : إن كلمة أخضر هي إشارة علمية إلى أن هذا الشجر ما كان له أن يكون شجراً لولا أوراقه الخضراء، فالأوراق الخضراء أساس وجوده، بل إن نمو النبات يعتمد على حادثة اسمها التحليل والتمثيل الضوئي، فلا نبات بلا ضوء، ولا نبات بلا شمس، ولا نبات بلا ماء، فالماء والشمس وغاز الفحم الذي أودعه الله في الجو هو سبب نمو النبات، وما أوراق الأشجار إلا معامل تصنع مواد النبات الأساسية وتصنع المواد العضوية.

الأستاذ عبد الحليم :

إذاً كما ذكرتم فضيلة الدكتور هناك تحت الأرض حشرات وديدان عنكبية في التربة لها دور أساسي في نمو هذه النبتات، وطبعاً هذه النباتات هي التي تطعم الدواب، وتطعمنا، فلذلك تكتمل دورة الحياة.

نظام النبات من أعقد الأنظمة في الكون :

الأستاذ راتب :

قرأت مرة كلمة يقول كاتبها : إن أعقد معمل صنعه الإنسان من دون استثناء لا يرقى إلى مستوى الورقة، ماذا يتم في هذه الورقة؟ كما قلت قبل قليل: النبات يمتص الماء مع المعادن المنحلة فيه من التربة، والورقة تأخذ الآزوت من الجو، والشمس لها دور كبير جداً في تصنيع نواتج هذه الورقة، الورقة تصنع ما يسميه علماء النبات النسغ النازل، نسغ صاعد ونازل، صاعد فيه ماء وأملاح المعادن، ونازل هذا النازل، تصور سائلاً يمكن أن يكون قماشاً، أو خشباً، أو حديداً، أو بساطاً، النسغ النازل؛ سائل واحد يصنع ثمرةً، ويصنع ورقة، ويصنع غصناً، ويصنع جذعاً، ويصنع جذراً، والسائل واحد، فهذا النسغ النازل هو سبب ظهور الثمار والأزهار في الربيع، وسبب نمو الأغصان، وسبب ازدياد قطر الجذع، وسبب نمو الجذور، كله من مادة أصلية واحدة.

فلذلك يعد نظام النبات من أعقد الأنظمة في الكون، لكن بلطف، معمل صغير يحتاج إلى وقود، وإلى معادن، وإلى صوت محرك، أما هذه الشجرة وهي صامتة تمتص من التراب الماء وأملاح المعادن، وتأخذ أشعة الشمس، وتأخذ من الهواء الآزوت، فتصنع لك ألواناً ملونة، وأنواعاً منوعة من الفواكه، وما شاكل ذلك، هذا من آيات الله الدالة على عظمته.

الأستاذ عبد الحليم :

فضيلة الدكتور، بالنسبة لحياة الإنسان، نرى أنه يتنفس من الهواء، ويأكل مما عليه من الأرض، ولكن بالنسبة إلى البكتريات والديدان، وما هناك، ماذا يتنفسون؟ وماذا يأكلون؟ هناك لهم مراحل حياتية غريبة على ما أعتقد؟

ما من مخلوق خلقه الله إلا وله دور أساسي في خدمة الإنسان :

الأستاذ راتب :

في التربة حيوانات مهمتها الوحيدة تخلل التربة بالهواء، فلو أبيدت هذه الحيوانات لانعدم النبات، القوارض مقززة على سطح الأرض، لكن لها دور خطير في باطن الأرض، الأفاعي أيضاً، هناك الخلد، الأرنب، هناك حيوانات كثيرة جداً مهمتها الأولى أن تخلل التربة بالهواء، وهذا أيضاً مما يلفت النظر في خلق الله عز وجل، نحن أمرنا أن نقتل الحية لا لأن وجودها فيه خطأ، لا، لأنها خرجت عن دائرة عملها، دائرة عملها في باطن التربة، أما إذا خرجت فهي ترعب الصغار والكبار، لكن العلماء اكتشفوا الآن أن سم الأفعى له أثر فعال لا يصدق في توسيع الأوعية الدموية، أدوية الضغط كلها تؤخذ من سم الأفعى؛ لماذا إذا لدغت الأفعى إنساناً يموت؟ لأنها إذا لدغته تتوسع أوعيته حتى يصبح الضغط صفراً، فيموت الإنسان، يؤخذ من هذا السم قدر ضئيل جداً تتوسع الأوعية فيخف الضغط على الإنسان، والضغط كما تعلمون هو ضيق تشنجي في الأوعية، ومن حكمة الله جل جلاله أن كل أوعية الإنسان فيها عضلات دائرية، تضيق وتتوسع.

ومرة ذكرت في حلقة سابقة أن الإنسان الخائف يصفر لونه، لأن بعض أوامر الكظر إلى الأوعية المحيطة بالجلد فتضيق لمعتها فيصفر لون الخائف.

فالأفعى لها دور في الأرض، وما من مخلوق خلقه الله إلا وله دور أساسي في خدمة الإنسان، حتى الحيوانات التي ننزعج منها لها دور بشكل أو بآخر.

الأستاذ عبد الحليم :

إذاً هناك كما ذكرتم فضيلة الدكتور، دورة حياة لا نراها بالعين المجردة، ولكن هي تحت التراب، فالحية والخلد يفسحون المجال للتربة كي تتنفس، ويدخل الهواء بداخلها، ولكن هناك الديدان التي تلتهم التراب، وما شابه ذلك.

وظيفة الديدان فتح أنفاق في التربة لتهويتها :

الأستاذ راتب :

هذه تصنع السماد، وسيأتي هذا بعد قليل، تتساقط الأوراق، فتأتي الرياح، وتوزع هذه الأوراق المتساقطة على أنحاء التربة، وتأتي مليارات الكائنات المجهرية فتلتهمها، فإذا التهمتها تصبح غذاءً صالحاً للكائنات الأكبر منها، هي وحيدة الخلية، فإذا التهمتها تصبح غذاءً صالحاً لكائنات أرقى منها، هي البكتريا، ويتم هذا على ثلاث مراحل، وهذه العمليات الحيوية تحتاج إلى الهواء، فمن أين يأتي

الهواء داخل التربة؟ وظيفة الديدان أن تفتح أنفاقاً في التربة، فالديدان والقوارض والأفاعي وكل الكائنات التي تعيش تحت التربة وظيفتها تهوية التربة، فلو ألغيت لانعدم الإنبات من على سطح الأرض.

هذه الديدان- هنا المشكلة- تلتهم التراب، وتفرز السماد، ولا يعلم إلا الله كم من الأطنان تنتجها الديدان في الهكتار الواحد، وكم من الأطنان من الأسمدة تنتجها الديدان في الكيلو متر المربع الواحد، إنه كون عظيم، وله خالق عظيم، وقد أنزل هذا الخالق العظيم شرعاً حكيماً، فإلى أين نذهب؟ ومن الذي يصرفنا عن الله جل جلاله! وعن تطبيق أمره؟ هذه بعض الحقائق الدقيقة! قال تعالى :

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة الإسراء الآية : 85]

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

[سورة البقرة الآية : 255]

كما قلت قبل قليل : في الغرام الواحد عدة غرامات من البكتريا، ما يجري تحت التراب لا يعلمه إلا الله، إنها معامل وكائنات، وعمليات تحول، ومعادلات، ونحن لا ندري ليس لنا إلا أن نقطف الثمار، وأن نأكلها، وأن نجني الخضراوات، وأن نأكلها، وأن نحصد المحاصيل، ونأكلها، والله سبحانه وتعالى بتدبيره وحكمته يهيئ لنا كل هذه النعم التي قال عنها:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

[سورة إبراهيم الآية : 34]

الأستاذ عبد الحليم :

فضيلة الدكتور، بعد هذا التأمل والتفكر في خلق الله سبحانه وتعالى، وخصوصاً ما رأيناه في هذه الحلقة، وما سمعناه من فضيلتكم عن التربة، وما تحويه من كائنات حية وديدان، وما شابه ذلك، وكلٌّ له دوره، طبعاً نريد أن تعلمنا عن بعض النبتات التي لها دور فعال في هذه الحلقة، هناك متسع من الوقت كي تحدثنا عن ذلك.

لبعض الكائنات جوانب سلبية لكن فوائدها أكبر بكثير :

الأستاذ راتب :

قبل أن أخوض في هذا الموضع الذي طلبته - جزاك الله خيراً - يجب أن نعلم أنه ما من مخلوق إلا وله دور خطير في حياتنا، هذه حقيقة، وأنا أعترض اعتراضاً شديداً على من يقول: الزائدة الدودية مثلاً، كلمة زائدة تعني أنها زائدة، هي ليست زائدة، وأنا أقترح أن يكون اسمها الذائدة الدودية؛ أي

المدافعة، وقد ثبت أن الزائدة الدودية هي خط دفاع آخر في جسم الإنسان، إذاً لا يعقل أن خلق الله كامل كمالاً مطلقاً، أي يكون فيه زيادة، أو فيه نقص، أو فيه كائن يؤذي فقط، يؤذي من جانب لكن ينفع من جوانب أخرى.

مرةً قرأت مقالة أن بعض بلاد آسيا وأظن الصين استطاع أن يقضي على القوارض، فكانت النتيجة أن الزراعة ارتبكت ارتباكاً كبيراً جداً، حتى القوارض في المجاري لها دور في تنقية أنابيب المجاري، والممرات، فالإنسان دائماً كلما ازداد علمه يكشف الجانب الآخر، هناك جوانب سلبية في بعض الكائنات، لكن لها فوائد كبيرة جداً من جهة أخرى، كما تفضلتم.

النبتات التي ورد ذكرها في القرآن الكريم و فوائد الزنجبيل منها :

في القرآن الكريم وردت أربع نباتات، هي عند العلماء نبتات توابل، فمن هذه الآيات التي ورد فيها ذكر التوابل :

(وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً)

[سورة الإنسان]

والآية الثانية :

(خِتَامُهُ مِسْكٌ)

[سورة المطففين الآية : 26]

والآية الثالثة :

(إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً)

[سورة الإنسان]

فالحديث عن الزنجبيل والمسك والكافور حديث عن التوابل، ولو اخترنا الزنجبيل، فإن طبيبًا قد قرأ كل ما كتب عن الزنجبيل في كتب الطب القديمة، وقرأ سبعة بحوث علمية صدرت عن مراكز علمية رصينة، وقد أشار في مقالته إلى أسماء البحوث التي صدرت حول هذه المادة فكان الشيء الذي يلفت النظر: إن الزنجبيل كما ورد في الكتب القديمة مسخن للجسم، معين على الهضم، ملين للبطن، مطهر ومقوٍّ، ينفع الزنجبيل في التهاب الحنجرة - لا يقال حُنجرة، خطأ شائع، صوابها الحَنجرة - ويعالج الرشح، ومسكّن قوي لالتهاب المفاصل، ومسكن قوي للمغص المعوي، ومضاد للغثيان، خلاصته المائية دواء جيد لأمراض العين، ورد هذا في الكتب القديمة، لكن الشيء الذي لا يصدق ماذا ورد عنه في الكتب الحديثة؟ إن الأبحاث الحديثة التي أجراها علماء لا يعرفون هذه المادة التي وردت في القرآن

الكريم، فقالوا: الزنجبيل منعش للقلب والتنفس، مقوٍّ لتقلص عضلة القلب، ديكوكسين الاسم العلمي لدواء تقوية القلب،، إنه مماثل تماماً للديكوكسين.

والزنجبيل موسع للأوعية والشرايين، يمنع تجمع الصفيحات الدموية، إذاً هو مميع للدم، يفيد في أمراض الجلطات الدماغية والقلبية، وخثرات الأطراف، يخفض من ارتفاع الضغط الدموي، وهو خافض للكولسترول، كأن أدوية القلب كلها جمعت في الزنجبيل، هذا النبات من نبتات التوابل، لماذا ورد ذكره في القرآن الكريم؟ لا شك أن له علاقة بالإنسان.

الآن أدوية القلب أدوية موسعة للشرايين، أدوية مقوية لنبض القلب، أدوية خافضة للضغط، أدوية خافضة للكولسترول، كل هذه الميزات موجودة في الزنجبيل، ودائماً الدواء الكيميائي له منافع ومضار معاً، بينما الدواء النباتي كله منافع، لأنه من صنع الحكيم الخبير.

الأستاذ عبد الحليم :

فضيلة الدكتور، بالنسبة للزنجبيل اكتشف الأطباء كما ذكرتم أنه دواء لتوسعة الشرايين، وما شابه ذلك، ولكن هل اكتشف العرب قديماً الزنجبيل واكتشفوا أن له فوائد عديدة؟

تقصير العرب اليوم في البحث عن فوائد النبتات :

الأستاذ راتب :

الزنجبيل كما قال عنه بعض علماء الطب المسلمين: إنه مسخن للجسم، معين على الهضم، ملين للبطن، مطهر، مقوٍّ، ينفع في التهاب الحنجرة، ويعالج الرشح، مسكن قوي لالتهاب المفاصل، وأنا أتمنى أن يرجع الطب الحديث إلى ما في كتب الطب القديمة من فوائد لهذه النبتات، وأنا أتصور أننا مقصرون كثيراً في البحث عن الدواء النباتي بدلاً أن نبحث عن دواء كيماوي، اشترِ أي دواء، واقرأ ما كتب فيه، أو عنه، تجد أن له مضاعفات ينبغي أن ننتبه إليها، فكل دواء كيماوي ينفع من جهة، ويضر من جهة أخرى، أما الدواء النباتي فهو أأمن من سلبيات الدواء فيما أعلم.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 14 - 30 : تيارات البحار.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-11-08

بسم الله الرحمن الرحيم

هناك أشياء كثيرة جداً لا نعرفها، يؤكد هذا المعنى قول الله عز وجل :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

(سورة الحاقة)

ففي الذي لا نبصره آيات نيّرات دالة على عظمة الله عز وجل، فلو أن إنساناً نزل إلى البحر ليستحم في مياه البحر فإن قطرات الماء التي تمس جلده ربما تكون قد وصلت من توّها بعد رحلة استغرق عدة سنوات، لأن الماء في البحر يجري في تيارات من خط الاستواء إلى القطبين، ومن القطبين إلى خط الاستواء، وقد يقطع ماء البحر مسافة تزيد على 15 ألف كيلو متر، فهذا الماء الذي تجده في البحر ماء متبدّل يقطع رحلات طويلة، بعضها إلى الشمال، وبعضها إلى الجنوب، وبعضها إلى الشرق، وبعضها إلى الغرب، وهناك قوانين معقدة جداً تحكم حركة المياه في المحيطات، ولكن الذي يعنينا أن سبب هذه الحركة في أصلها أن أشعة الشمس تسخن الماء الذي في خط الاستواء فيتمدد، فيرتفع قرابة عشرين سنمتمتراً، وهذا الارتفاع الطفيف يساهم في تشكيل تيار نحو الشمال، وأن الماء في القطبين يبرد، ومع برودته يسكن، فيغوص في الأعماق، ويتجه نحو خط الاستواء، فهناك تيارات سطحية وتيارات عميقة.

هذه مقدمة نريد من خلالها أن نصل إلى أن من آيات الله الدالة على عظمته تياراً يسميه العلماء تيار الخليج، هذا التيار ـ أستاذ عبد الحليم ـ سرعته 8 كيلو مترات في الساعة، فإذا دخلت فيه سفينة، وأطفأت محركاتها فإنها تسير 8 كيلو مترات في الساعة، دون أن تعمل محركاتها، عرض هذا التيار يزيد على 80 كم، وعمقه يزيد على 450 م، وهذا التيار كثافته أربعة ملايين طن من الماء في الدقيقة.

قلت في حلقة سابقة: إن أضخم نهر في العالم هو نهر الأمازون، كثافته 300 ألف متر مربع في الثانية، أما حركة هذا التيار في عمقه وعرضه وسرعته فتساوي كثافته أربعة ملايين طن من الماء في الدقيقة، ماذا يفعل هذا التيار ؟ هذا التيار يذيب 130 ألف طن من الكتل الثلجية في القطبين في عشرة أيام، إذاً هذا التيار له مكان محدد، وله مسار محدد من خط الاستواء إلى الشمال، بل إن بلاد السويد والنروج والدانمارك جوّها معتدل ولطيف من تيار الخليج، ولهذا التيار فوائد لا تعد ولا تحصى، من هذه الفوائد كما قلت قبل قليل: إنه يجعل المنطقة الباردة في أوربة منطقة معتدلة، وهذه الأجواء اللطيفة في دول إسكندينافيا سببها تيار الخليج، هذا من تيارات السطح، وقد سمعت أن بعض سباقات السباحين في بحر المانش يستخدمون هذا التيار لصالحهم، وهناك تيارات تجري في أعماق البحر على عمق

3000 م، وقد استخدمت الغواصات في الحروب العالمية هذه التيارات العميقة تطفئ محركاتها لئلا يكتشفها الرادار، والغواصات إذا أطفأت محركاتها تنتقل من مكان إلى آخر عبر هذا التيار، وهذا شيء يلفت النظر، لكن الآية الثانية الدالة على عظمة الله عز وجل في هذا الموضوع هي أن هناك تياراً بارداً، وهذا شيء دقيق جداً يتجه نحو شواطئ أمريكة الجنوبية، ليصل إلى بلاد البيرو والشيلي، ماذا يفعل هذا التيار ؟

هذا التيار يحمل كميات كبيرة من الأعشاب البحرية، وهذه الأعشاب البحرية تجتذب أعداداً فلكية من أسماك السردين، هذه الأسماك هي غذاء لعشرات الملايين من طيور تعيش على شواطئ هذه البحار، اسمها غراب البحر، وهذه الطيور ـ وهنا الشاهد ـ لها مخلفات تعد المادة الأولى لدخل تلك الشعوب، لأن أرقى أنواع الأسمدة في العالم من مخلفات الطيور هذه الأسمدة من خمسين مليون طائر، تؤخذ مخلفاتها بالجرافات، وتصدر إلى شتى أنحاء العالم، وهذه الأمم والشعوب في شواطئ أمريكة الجنوبية دَخْلها الأول والأخير من مخلفات هذه الطيور التي تعيش على أسماك السردين التي تجتذبها الأعشاب التي يحملها هذا التيار إلى هناك، وهذا من رزق الله عز وجل.

الأستاذ عبد الحليم:

إذاً سبحان الله ! هنا رزقت الأسماك من خلال هذا التيار، ورزقت الطيور، ومن ثم رزق الإنسان.

الأستاذ راتب:

تَلْتَهِم هذه الطيور التي تسمى غراب البحر في العام الواحد بتقدير العلماء ما يزيد على 3 ملايين طن من هذه الأسماك، وهذه الأسماك تجتذب إلى هذا المكان بفعل الأعشاب التي يحملها هذا التيار، ولحكمة يريدها الله عز وجل أنه يغير مسار هذا التيار من حين لآخر، فإذا غير مساره لم يأتِ بهذه الأغذية لهذه الأسماك فتموت، وتموت معها الطيور، وعندئذٍ تعاني الشعوب من سكان شواطئ أمريكا الجنوبية من حين إلى آخر مجاعات قاتلة بسبب ضعف الإنتاج، أليست هذه آية دالة على أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ؟ يسوق هذا التيار بما فيه من أعشاب مغذية، وتأتي هذه الأسماك بأرقام فلكية، فتستهلك منها الطيور 3 ملايين طن في العام، وهذه الأسماك هي طعمة الطيور، والطيور لها مخلفات، ومخلفاتها تعد من أرقى أنواع الأسمدة تصدر إلى مختلف أنحاء العالم، فيكاد دخل هذه الشعوب ينحصر في مخلفات الطيور، وهذا من بركات هذا التيار البارد الذي يأتي إلى شواطئ أمريكا الجنوبية.

الأستاذ عبد الحليم:

إذاً فضيلة الدكتور، ما دمنا نتحدث عن تيار الخليج البحري، أو تيارات البحار فلا بد من أن نسأل عن مكونات البحار، ما يميز البحار عن الأنهار ؟ فهي ملوحة البحار، نسأل عن هذا المكون فعلاً ؟

الأستاذ راتب:

يمكن أن نضيف إلى آيات الله الدالة على عظمته ملوحة البحار، فهذا البحر يقول عنه العلماء: إن في كل لتر واحد من ماء البحر سبعةً وعشرين غراماً من الملح، في كل لتر واحد من ماء البحر سبعةٌ وعشرون غرامًا من الملح ـ في العبارة الأولى قلت: إنّ، فجاءت سبعة، أما إذا جعلتها جملة اسمية فتأتي سبعةٌ وعشرون غرامًا من الملح ـ وإن العالم بأسره يستهلك في السنة ما يزيد على خمسين مليون طن من ملح البحر، وإن نسبة الملح في مياه البحر تعادل ثلاثة ونصفاً بالمئة من مجموع مياه البحر، بل إن في الكم المكعب، الكم مكعب ضلعه كم، طولا، وعرضًا، وارتفاعًا، بل إن في الكم المكعب من مياه البحر أربعة وثلاثين مليون طن من الملح، كمية كبيرة جداً.

بعض العلماء أجرى حساباً لطيفاً ودقيقاً ومدهشاً، قال: لو استخرج ملح البحر وجفف، ووضع على اليابسة، على قارتها الخمس، ولم نغادر مكاناً إلا فرشناه بملح هذا البحر المستخرج لبلغ ارتفاع الملح المجفف على سطح اليابسة كلها، بكل قارتها، وجبالها، وسهولها، ووديانها، وأغوارها، وها لبلغت سماكة الملح المستخرج من الملح، والذي بسط على اليابسة لبلغت سماكته ثلاثة وخمسين متراً.

الأستاذ عبد الحليم:

إنها كمية كبيرة جداً، فضيلة دكتور، قد يسأل سائل: مِن أين يأتي الملح ؟ نرى نحن الأمطار تأتي من السماء، فنعلم أن الماء يأتي من السماء، ولكن الملح من أين هذه الكمية الكبيرة ؟

الأستاذ راتب:

لا تزال نظرية وجود الملح في البحار نظرية مختلف فيها، والعلماء في هذا الموضوع أدلوا بآراء متعددة، لكن لا يزال الحسم غير موجود، من أين جاءت هذه الكمية الكبرى من ملح البحار ؟ طبعاً ملح البحار هو كلور الصوديوم، وكما قلت قبل قليل: إن في البحار من الملح ما يساوي أربعة ملايين ونصف ميل مكعب، الميل غير الكم، الميل ألف وستمئة متر، إذا عددنا أن الميل المكعب هو مكعب ضلعه ألف وستمئة متر في ملح البحر ما يساوي أربعة ملايين ونصف ميلي مكعب من هذا الملح، طبعاً هذه أرقام دقيقة جداً، ومأخوذة من بحوث علمية رصينة، من أين جاء هذا الملح ؟ وكيف وضع في البحر ؟ هناك نظريات كثيرة، بعضها يقول: إن في قيعان البحار صخوراً ملحيةً تفتت، وذابت في هذا الماء، بعضهم يقول: إن السبب مياه الأنهار، كل هذه النظريات التي تحاول أن تفسر ملوحة مياه البحر تجد الطريق مسدوداً، لسبب بسيط هو أن في الأرض عدداً كبيراً من البحيرات العذبة، فإذا كانت مياه الأنهار وحدها كافية لتمليح مياه البحار، فلماذا بقيت هذه البحيرات الضخمة عذبة حلوة المذاق، وهي أشبه ما تكون ببحار صغير، مئات الملايين من السنين، وتبقى عذبة ؟! إذاً هذا من تصميم الخالق، كما قلت قبل قليل: إن نظرية ملوحة البحار لا تزال تتحرك في طريق مسدود، فكلما وضع تفسير جاء

تفسير آخر نقضه، ذلك لأن الله عز وجل يقول: } وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا {، } وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ {، بل إن هناك آية حاسمة في هذا الموضوع:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ)

(سورة الكهف الآية: 51)

مثل هذه الموضوعات هي تكهنات لا أكثر ولا أقل، ملوحة البحار يمكن أن يكون لها أهداف كبيرة، من هذه الأهداف أن المياه إذا كانت عذبة وساكنة أصبحت المياه فيها آسنة، أما هذه الحركة الدائرة في مياه البحر، وهذه الملوحة العالية جداً في مياه البحر، تبقى مياه البحر سليمة نقية طاهرة غير متغيرة في بنيتها وتركيبها.

العجب العجاب أن الإنسان يركب البحر، وقد يموت عطشاً وهو فوق كمٍ من المياه لا يتصورها العقل، اليابسة كلها بقاراتها الخمس تساوي 20 % من سطح الأرض، وفي البحار أعماق بعيدة جداً، أعمق نقطة في مياه البحار هي خليج مريانا في المحيط الهادي العمق هناك يصل إلى 12 ألف متر، أعلى نقطة على سطح الأرض قمم جبال هملايا، وأخفض نقطة على سطح الأرض خليج مريانة في المحيط الهادي، لو جئنا بكرة قطرها متر، ومثلنا أعلى نقطة على هذه الكرة تساوي علو أعلى نقطة في الجبال، ومثلنا أخفض نقطة في أعماق البحار لما كان الارتفاع والانخفاض يزيد على سم واحد، وهذا من آيات الله الدالة على عظمته، ثم إن الله عز وجل يدفعنا إلى أن نفكر، قال:

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (70))

(سورة الواقعة)

والبحر مالح، لكن الإنسان بحاجة إلى ماء عذب، فمن جعل هذا الماء المالح الذي كان أجاجاً جعله عذباً فراتاً ؟

بلغني أن معامل تحلية المياه في بعض البلاد العربية تزيد كلفة اللتر الواحد على ثمن البنزين، فأنت حينما تجد ماءً عذباً فراتاً سائغاً للشاربين هذه نعمة لا تعد ولا تحصى، لأن الله يقول كما قلت قبل قليل:

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ)

(ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 15 - 30 : النجم الثاقب.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-11-09

بسم الله الرحمن الرحيم

اذا أردت أن نفسر هذه الآية يقول الله سبحانه وتعالى:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37))

(سورة الرحمن)

لا بد لها من تمهيد ، فالباحث في العلم يوقن يقيناً قطعياً ، والمتأمل في الكون يشعر شعوراً حقيقياً حينما يقرأ آيات القرآن المتعلقة بخلق الأكوان والإنسان ، يوقن ويشعر بكل خلية في جسمه ، وبكل قطرة في دمه ، أن هذا القرآن كلام الله ، المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه مستحيل وألف ألف مستحيل أن يأتي به بشر ، فرادا ومجتمعين ، من خلال المؤتمرات العالمية التي عقدت في عواصم متعددة في أنحاء العالم الإسلامي حول الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة يتضح أن أبحاثاً علمية جادةً ورصينة قام بها علماء ليسوا مسلمين ، ولا تعنيهم آيات القرآن الكريم ، استغرقت عشرات السنين ، وكلفت ملايين الملايين ، تأتي نتائج بحوثهم مطابقة مطابقة عفوية وتامة من دون تكلف ولا تعنت ، ومن دون تأويل بعيدٍ عن الآية ، أو تعديل مفتعل لحقيقة علمية تأتي نتائج بحوثهم تلك مطابقة لآية أو لكلمة في آية ، بل لحرف واحد في آية ، وهذا مصداق قول الله عز وجل:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53))

(سورة فصلت)

الأستاذ عبد الحليم:

إذاً بعد هذه السنين ، وبعد هذا التقدم العلمي يرجعون إلى القرآن الكريم ، ويكتشفون أن القرآن الكريم فيه الآيات الدالة على ما هو في هذا الكون.

الأستاذ راتب:

تطابق تام وعفوي بين حقيقة مقطوع بها ، وبين المعنى القطعي لآية ، كلامي دقيق ، بين المعنى القطعي لآية ، وليس المعنى الظني ، وبين حقيقة علمية مقطوع بها ، وينبغي أن يأتي هذا التوافق تاماً وعفوياً حتى يكون موضوع إعجاز علمي في الكتاب والسنة.

مثلاً: في الواحد والثلاثين من شهر تشرين الأول من عام 1990 عرضت إحدى أقوى وكالات الفضاء في العالم من خلال مرصد عملاق موجود في الفضاء الخارجي ، عبر موقعها المعلوماتي صورة لا يشك الناظر إليها لحظة واحدةً أنها وردة جورية ، فهي وردة جورية بكل ما تعنيه هذه الكلمة،

ذات أوراق حمراء قانية ، وذات وريقات خضراء زاهية ، وفي الوسط كأس أزرق اللون ، أما حقيقة هذه الصورة فشيء لا يصدق ، إنها ليست وردةً جورية كما يتوهما الناظر ، إنها صورة جاءتنا من مرصد عملاق كبير في الفضاء الخارجي لنجم يبعد عنا 3000 سنة ضوئية ، اسمه عين القط ، هذا النجم حصل فيه انفجار ، فكانت هذه الصورة صورةً لهذا الانفجار ، ولكن ما علاقة هذا بالقرآن الكريم، بل وما علاقة هذا بتلك الآية الكريمة التي تفضلت ، وسألت عن تفسيرها الديني والعلمي في وقت واحد ، إن هذا الانفجار الكبير لنجم عين القط الذي يبعد عنا 3000 سنة ضوئي هو ما تعنيه هذه الآية الكريمة بكل تفاصيلها.

بل إن قارئ القرآن لو عاد إلى تفاسيره كلها ، وقرأ ما كتبه العلماء الأجلاء عن هذه الآية ، أنا أشعر أن كل تفسيراتهم لا تشفي الغليل ، لكن هذه الصورة وحدها لو ألقيت النظر إليها لكانت أدق تفسير لهذه الآية ، هذه الآية.

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (38))

(سورة الرحمن)

كنت أتمنى أن يكون هذا البرنامج مرئياً لأعرض على الإخوة المشاهدين هذه الصورة ، لقد عرضتها في التلفزيون العربي السوري في ندوة طويلة ، وعرضت دقائق هذه الصورة على كلٍ هذه الصورة هي وردة جورية ـ الصورة تعطي هنا انطباعاً أكبر ـ بكل معاني هذه الكلمة ، ولن تجد تفسيراً في كتاب الله يشفي غليلك إلا هذه الصورة.

أنا كنت من قبل تحدثت عن النمل ، وذكرت في خلال الندوة السابقة أن هذا البحث العلمي عن النمل هو أدق تفسير لقوله تعالى:

(إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ)

(سورة الأنعام الآية: 38)

تحدثنا عن طبيعة النمل ، وعن علاقة النمل ، وعن النظام ، وعن التعاون ، وعن البيوت ، وعن جلب المواد الغذائية ، وعن وعن ، تجد أمام مجتمع بالغ التعقيد ، بالغ الانضباط ، كل هذه الحقائق تنضوي تحت قوله تعالى:

(إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام الآية: 38)

أحياناً تجد بحثاً علمياً هو أدق تفسير لآية ، وقد تجد صورة هي أدق تفسير لآية ، هذا ما دفع الإمام علي كرم الله وجهه أن يقول: " في القرآن آيات لما تفسر بعد ".

هذه الآية:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

ماذا ورد في التفاسير ؟

ورد في تفسير ابن كثير رحمه الله تعالى:

(فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)

أي تذوب كما يذوب الدهن.

وفي قول آخر:

(وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)

هو الأيدم الأحمر ؛ الجلد الأحمر.

وفي قول ابن عباس:

(فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)

كالفرس الوردي.

وقال الحسن البصري: " تكون ألواناً ".

وقال مجاهد:

(كَالدِّهَانِ)

كألوان الدهان.

هذه التفاسير ، لكني جئت بهذه التفاسير لأؤكد لك أن هذه التفاسير لا تفشي الغليل ، بل هذه الصورة التي اكتشفت حديثاً عن انفجار حصل في نجم عين القط هي التي توضح هذه الحقيقة.

يقول الإمام القرطبي:

(فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)

قال: صارت في صفاء الدهن ولمعانه ، وكانت حمراء.

وفي قول سعيد بن جبير: " وتصير في حمرة الورد وجريان الدهن ، وقيل الدهان الجلد الأحمر الصرف ، أي تصير السماء حمراء كالأيدم لشدة حر النار ".

الأستاذ عبد الحليم:

إذاً هذه الصورة وصلتنا عبر المرصد والتلسكوبات ، والتصوير الخارجي من الفضاء الخارجي ، وأعطت نفس الصورة التي أعطانا إياها القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة ، وإن أردنا أن نأتي على آية أخرى في كتاب الله عز وجل ، قال الله تعالى:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (3))

(سورة الطارق)

هنا هذه الآية تحدثنا أيضاً عن نجم نريد أن نعلم ما هو هذا النجم ، وما تفسير هذه الآية ؟

الأستاذ راتب:

أستاذ عبد الحليم ، جزاك الله خيراً ، إن علماء التفاسير وقفوا وقفات متأنية عند تفسير النجم الثاقب ، حتى استقر رأيهم على أن هذا النجم ضوءه شديد ثاقب ، يخترق طبقات الجو ، ولم يتحدثوا إطلاقاً عن كلمة الطارق ، الثاقب شيء شديد قوي متين يثقب ، ففهموا هذه الآية على أنه الضوء الشديد الذي يثقب طبقات الظلام ، أما قوله تعالى:

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1))

(سورة النجم)

هذا النجم غير الشهاب الذي يسقط ، وقد ذكر الله عز وجل الشهاب في آيات كثيرة ،

(إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ)

(سورة الصافات)

وقال عز وجل:

(وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً (8))

(سورة الجن)

إذاً:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ)

، النجم الطارق ، والنجم الثاقب ، وكأن العلماء الأجلاء تجاوزا كلمة الطارق ، ووقفوا عند الثاقب ، ورأوا أن أقرب المعاني إلى كلمة ثاقب أنه ضوء شديد يخترق ، ويثقب طبقات الظلام المتراكمة ، الموضوع معقد جداً ، ولكن على سبيل التبسيط ، حينما تكبر النجوم تنكمش ، وتزول الفراغات البينية من ذراتها ، إلى أن تصبح بحجم صغير جداً ، هل تصدق أن الأرض إذا ضغطت ، وأزيلت الفراغات البينية بين ذراتها أصبحت بحجم البيضة ، وبالوزن نفسه ، هذا من قوانين الفلك ، النجم إذا تقدم في العمر ، وبلغ مراحل متقدمة جداً من عمره المديد تخف الفراغات البينية بين أجزائه ، فيصغر ، ويكون بالحجم نفسه ، فهي كرة ككرة القدم ، يمكن أن تكون الأرض كرة ككرة القدم ، ويمكن أن تكون الكرة أيضاً كالبيضة ، هذه النجوم النيترونية المنكمشة يعدل وزنها خمسين ألف بليون من الأطنان ، فإذا وضعت هذه الكرة على الأرض ثقبتها ، ووصلت إلى طرفها الآخر ، كما لو أتيت بقطن أو سائل هولاني ، ووضعت فيه كرة حديد فإنها تسقط إلى الأسفل فوراً ، هذا هو النجم الثاقب ـ لثقله وكبر حجمه ـ النيتروني الذي ضغط حتى أصبح بحجم الكرة ، وله وزن يعدل وزن الأرض ، لو أن الأرض شاخت ، أي بلغت الشيخوخة ، فإنها تصبح بحجم البيضة وبالوزن نفسه ، ووزن الأرض هو هو لكنه يصبح بحجم البيضة ، هذا هو النجم الثاقب ، كما يراه بعض العلماء ، والقرآن كما أقول دائماً حمال أوجه.

هناك تلسكوبات لاسلكية تتلقى ومضات لاسلكية من هذه النجوم ، بنبضات نوبية ، وكأن هذا النجم الذي سماه القرآن نجماً طارقاً من الطرق ، طرق الباب ، يطرق أبواب الفضاء حيث يتزايد تواتر نبضات النوبية في شبابه ، وتقلّ هذه النبضات في شيخوخته ، ونعرف من خلال تواتر هذه الومضات التي تأتي عن طريق التلسكوبات اللاسلكية ، نعرف عمر هذا النجم ، فنجم يطرق ، ونجم يثقب ، وهذا شيء من أحدث البحوث الفلكية ، نجم يطرق بومضات لاسلكية ، ونجم يثقب ، قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ)

فهذا قسم ، فأين جواب القسم ؟ قال تعالى:

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4))

(سورة الطارق)

هذا الإنسان الجاهل الذي يتوهم أن هذا الإنسان خلق سدىً ، ولن يُحاسَب ، قد يبني مجده على أنقاض الآخرين ، قد يبني حياته على قتلهم ، قد يبني أمنه على خوفهم ، قد يبني غناه على فقرهم ، هذا إنسان جاهل ، فالله عز وجل يلفت نظرنا إلى هذا النجم العملاق الذي هو بحجم الكرة ، وبوزن الأرض ، وأن هذا النجم الذي يطرق أبواب الفضاء الخارجي الأول هو النجم الطارق ، والثاني هو النجم الثاقب ، فجواب القسم:

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

فكل حركات الإنسان ، وكل سكناته ، وكل أقواله ، وكل أفعاله ، وكل بواعثه ، وكل أهدافه ، وكل آماله ، وكل ما يخفيه عن الناس يحفظه الله له ، وسيحاسبه عليه لأن الذي خلق النجم الثاقب ، والنجم الطارق ، والنجم إذا هوى ، هو الذي سيحاسب الإنسان على عمله ، قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

لم يغب عن علمه نجم في السماء ، ولن يغيب عن علمه أيضاً ظلم في الأرض،ثمة آية في سورة وردت في الجزء الثلاثين من القرآن الكريم يقول تعالى:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1))

(سورة المطففين)

شيء يلفت النظر ، أن سياق الجزء الأخير كله آيات كونية ، من دون استثناء.

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (2))

(سورة النبأ)

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى)

(وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2))

(سورة الفجر)

إلا هذه السورة ، وكأنها تبدو مقحمة في سياق كوني ،

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

من أروع ما قرأت حول سر هذا الإقحام أن الله يذكر الإنسان أنك تصاب بالويل ، أو أنك هالك أيها الإنسان ، أيها الإنسان إنك هالك إذا طففت في حق إنسان ، أي بخست حقه ، فكيف إذا طففت أو بخست حق خالق الأكوان ، من باب أولى.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 16 - 30 : الكبد.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-11-10

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل أن أبدأ بالحديث عن هذا الجهاز العظيم الذي هو الكبد، لا بد من لفتة لطيفة سريعة، أن الثقافة الغربية التي هي في تفوق كبير، ومن أسباب تفوقها ذهاب الثقافة العربية الإسلامية إليها، أحد الأدباء يقول: ثقافة أية أمة ملك البشرية جمعاء، لأنها بمثابة عسل استخلص من زهرات مختلف الشعوب على مرِّ الأجيال، وهل يُعقَل إذا لدغتنا جماعة من النحل أن نقاطع عسلها ؟! نحن نقاطع البضائع الاستهلاكية، الدخان، المطاعم، السيارات، لكن لا نقاطع المنجزات العلمية، لأننا ساهمنا فيها مساهمة كبيرة، وهذا باعترافهم،

ذكر لي صديق مقيم في بريطانيا يحضِّر الدكتوراه في الطب، بعض المدرسين في أثناء الشرح قال: للعرب فضل كبير علينا، فمعظم علومنا استقيناها منهم، هذه الحقيقة،إذاً ثقافة أيّ أمة ملكُ البشرية جمعاء، لأنها بمثابة عسل استخلص من زهرات مختلف الشعوب على مرّ الأجيال، شيء آخر أستاذ عبد الحليم، أريد أن أقول: إن التفكر في آيات الله الدالة على عظمته هو أوسع باب ندخل منه إلى الله، وإن التفكر في آيات الله الدالة على عظمته هو أقصر طريق نصل به إلى الله، لأن هذه الآيات تضعك أمام عظمة الله عز وجل، والإسلام عقيدة وشريعة، معرفة بالله عز وجل وتطبيق لمنهجه، وكنت أقول دائماً: إنك إن عرفت الآمر، ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر، أما إذا عرفت الأمر، ولم تعرف الآمر تفننت في التفلت من الأمر،

بقي أن الآيات كثيرة بعضها بثّه الله في السماوات، وبعضها في الأرض، لكن أقرب آية إلينا جسمنا، أقرب آية بين أيدينا أنفسنا، أقرب آية تدلنا على عظمة الله أعضائنا، فيمكن أن نمضي وقتاً ـ إن شاء الله ـ في الحديث عن هذا الجهاز الذي يسمى الكبد، الإنسان أحياناً يأتي بقطعة من هذا الكبد إلى البيت تؤكل في وقت المساء أو في الصباح، وهو طعام لذيذ، لكن لو عرف الإنسان أن هذا الجهاز يقوم بمهمات يعجز عنها كبار العلماء،

هذا الكبد بالتعريف الدقيق منطقة صناعية كاملة، وهو من آيات الله الكبرى الدالة على عظمته، هذا الكبد الذي أودعه الله في أحشائنا، هو أكبر عضو في الأحشاء، والإنسان يتوهم أنه لا يستطيع أن يعيش من دون قلب أكثر من ثلاث دقائق، يجب أن نعلم أنه أيضاً لا يستطيع أن يعيش من دون كبد أكثر من ثلاث ساعات، الشيء الذي لا يصدق أن هذا العضو الكبير الخطير، الذي هو منطقة صناعية كاملة، لو أنك استأصلت أربعة أخماسه بمبضع الجراح يستطيع أن يعيد بناء نفسه في ستة عشر أسبوعاً، أسرع

خلية على الإطلاق في النمو خلية الكبد ـ تعود إلى نفس الحجم ـ نعم لو أن نصف الكبد أصابه تلف، وجاء الطبيب الجراح فاستأصل نصفه بكامله في أسابيع معدودة يعيد الكبد بناء نفسه، الآن صار هناك زراعة كبد، لكن العملية نجاحها في المئة ثلاثون، وتكلف عشرات الملايين،

شيء آخر، إذاً هذا الكبد عنده قدرة فائقة عجيبة على ترميم ذاته، وإعادة بناء ذاته، لأن خلايا الكبد هي أسرع خلايا انقساماً على الإطلاق،

الآن كم تتصور أستاذ عبد الحليم أن هذا الكبد يقوم بوظائف، بعضهم قال: يقوم بخمسمئة وظيفة، بعضهم قال بسبع مئة وظيفة، بعضهم قال: وظائفه تعد بالآلاف، لكن الشيء الذي لا يصدق أيضاً أن كل خلية من خلايا الكبد تقوم بكل هذه الوظائف، ليس في الكبد اختصاص، كل خلية فيه تقوم بكل الوظائف، ذلك لأنه عضو خطير، لو كان في كل حيز من الكبد اختصاص لو أصيب حيز لانتهى الأمر، ولكن كل خلايا الكبد تقوم بكل وظائف الكبد، وهذه خصيصة نادرة في الأعضاء،

المذيع:

قد تقوم الخلايا الباقية بالمساهمة بكل الوظائف في مرحلة ما،

الأستاذ:

الآن من أبرز وظائف الكبد أنه مخزِّن للدم، وتعلمون أستاذ عبد الحليم من لقاءات سابقة أن معامل كريات الدم الحمراء تصنع في الثانية الواحدة اثنين ونصف مليون كرية حمراء، في الثانية الواحدة، وتعلمون أيضاً أن هذا الهيكل العظمي الذي هو قوام الإنسان له وظيفة قد لا ننتبه إليها، وأنبلُ عضو في الإنسان هو الدماغ محفوظ في الجمجمة، والنخاع الشوكي محفوظ في العمود الفقري، وأن الرحم محفوظ في عظم الحوض، وأن القلب محفوظ في الصدر، وأن معامل كريات الدم الحمراء محفوظة داخل العظام، فالدم قوام حياة الإنسان، في الثانية الواحدة يلد اثنين ونصف مليون كرية حمراء، وفي الثانية الواحدة يموت اثنان ونصف مليون كرية حمراء، والعجيب في الأمر أن هذه الكريات التي تموت لا تطرح خارج الجسم، بل تفكك، ويستفاد من موادها الأولية، تفكك الكريات الحمراء إلى خضاب دم، وإلى حديد، الحديد يشحن إلى معامل كريات الدم الحمراء في نقي العظام ليعيد بناءه مرة ثانية، كيف الآن معامل تنغط السيارة المستعملة إلى مربع صغير، ثم تعاد إلى معامل صهر الحديد أيضاً، هذا اتجاه اقتصادي، فالله عز وجل أمْرُه كن فيكون، زل فيزول، ومع ذلك فهو يعلّمنا من خلال خَلقه كيف نكون اقتصاديين، فهذا الكم الكبير في كل ثانية اثنان ونصف مليون كرية حمراء تموت، هذه تذهب إلى الطحال لتفكّك إلى مقوّماتها الأساسية، هيموغلوبين وحديد، الحديد يعاد نقله إلى معامل كريات الدم الحمراء في نقي العظام، والهيموغلوبين يكوّن الصفراء تلك المادة التي تعين على هضم المواد الدسمة. فأول وظائف الكبد أنه مخزِّن للدم، حيث يستوعب 1500 من السنتيمترات المكعبة من الدم، الكبد في

الأساس مخزن للدم، فإذا طرأ طارئ، وحصل نزيف، أو حادث، أو عملية ولادة، فإن هرموناً في الكظر يأمر الكبد أن يحرر هذا الدم ليكون تعويضاً للدم الذي فقده هذا الإنسان، ودائماً الدول الراقية تعيش المستقبل، فلو فرضنا أنه وقع عليها عدوان طارئ فعطل الكهرباء عندها مولدات احتياطية، فدائماً الإنسان العاقل عنده احتياط في كل شيء ، حتى إن الله عز وجل حينما أودع في القلب جهاز تنبيه كهربائي، فيه جهاز تنبيه ثانٍاحتياطي، لو تعطل الأول عمل الثاني، وجهاز تنبيه احتياطي ثالث، لو تعطل الثاني عمل الثالث، هذا من التخطيط،

المذيع:

إذاً وظائف للكبد كثيرة، من هذه الوظائف التخزين، وهناك أيضاً وظائف أخرى،

الأستاذ:

مثلاً: من وظائف الكبد تخزين السكر، وتخزين الدسم، وتخزين البروتين، وتخزين الفيتامينات، العجيب أستاذ عبد الحليم أنه لو فحصت دم إنسان ففيه نسب ثابتة معيّرة من كل المواد، لو أن نسبة زادت لاختل توازن الإنسان، لكن المخزون الأساسي هو الكبد، فالكبد مستودعات الأغذية،

بالمناسبة معيّرة الإنسان متى يجوع ؟ لا يجوع إذا نقص الغذاء في دمه، لو فحصت دم إنسان جائع ترى النسب كلها نظامية، يجوع إذا نقصت المواد في المستودعات، بدليل أن الإنسان حينما يضطرب أو يأتيه خبر سيء ينسى أنه جائع، ويقوم بعمل مديد بطاقة عالية من دون أن يأكل، معنى ذلك أن الجوع هو نقص في المواد الغذائية التي في المستودعات، في الكبد،

والعجيب أيضاً أستاذ عبد الحليم أن هناك مخزوناً في الكبد لا يمكن أن يصرف، هذا يسمى الآن الاحتياطي الاستراتيجي، لا يمكن أن يصرف إلا في حالة نادرة، إذا وضع الإنسان في مكان ليموت جوعاً، في مثل هذه الحالة ينفق هذا المخزون الاحتياطي، فالإنسان قد يجوع، يبحث عن طعام، أما حينما ييأس من أن يأكل، وقد وضع في مكان ليموت فيه جوعاً، هذا الاحتياط الاستراتيجي يتحرر من الكبد ليكون وقوداً للإنسان،

شيء آخر، الإنسان لو أنه لا يجوع يموت، أحياناً توضع في السيارة أجهزة تشير إلى ارتفاع الحرارة، لو أن السائق لم ينتبه إلى هذا الجهاز، أو لهذه الساعة، يحترق المحرك، الآن هناك أجهزة إنذار صوتي، لكن العجيب أنّ الإنسان إذا جاع يا ترى الإنذار صوتي أم مرئي أم ضوئي ؟ كل كيان الإنسان يشعر بالجوع، معنى ذلك أن الجوع لولاه لما عاش الإنسان، الجوع يقتضي أن تعوض هذا الكمّ الذي خسره هذا الكبد من مجموع المواد الغذائية،

المذيع:

طبعاً فضيلة الدكتور، كما تحدثنا عن وظائف الكبد، وخصوصاً في التخزين، تحدثنا عن تخزين الدم،

وتخزين السكر والدسم، وإلى ما هنالك، لا بد من أن يكون هناك وظيفة تحويلية، أو ما شابه ذلك،

الأستاذ:

طبعاً، أنت إذا كان عندك مستودع للحبوب، ومستودع للدهون فرضاً، مواد دهنية، ومستودع الحبوب انتهى، لا تستطيع أن تحوّل الدهون إلى حبوب، هذا فوق طاقة البشر، لكن الشيء الذي يلفت النظر أن الكبد يمكن أن يحول النشويات إلى مواد دسمة، والدسمة إلى سكريات، وهذا التقسيم الكبير للمواد الغذائية بين مواد دسمة، ومواد نشوية، ومواد سكرية، هذا التقسيم في خارج الجسم، أما الجسم لو اضطر فإنّه يحوّل المواد الدسمة إلى مواد سكرية، والسكرية إلى نشوية، هذه خاصة دقيقة جداً في الإنسان، لأنه مصمَّم على أنه يعالج ذاته معالجة داخلية،

دائماً الكبد يقوم بوظيفة التعيير، حيث يدخل السكر إلى الكبد بنسب عالية جداً، أحيانا يأكل الواحد يأكل أكلة فيها حلاوة، ويكثر منها، فدخل كمٌّ كبير من المواد السكرية إلى الكبد، الكبد لا يخرج إلا نسب محدودة جداً من السكريات، وما مرض السكر إلا ارتفاع السكر في الدم، فهذا الكبد يقوم بمهمة التعيير، فكل المواد التي في الدم عيرها الكبد، هذا شيء مهم جداً من وظائف الكبد، يعيّر السكر، ويعيّر بقية المواد،

المذيع:

هنا نريد أن نعطي ملاحظة بالنسبة لمرضى السكري في هذه النقطة، هل يكون هذا المعيار قد فُقِد عند الإنسان عندما يكون لديه هذا المرض ؟

الأستاذ:

البنكرياس يفرز مادة يمكن أن تحرق السكر في درجة حرارة الإنسان، لو جئت بملعقة سكر، ووضعتها على يدك لا تحترق، فكيف نوفق بين احتراق السكر الذي يحتاج إلى مئة درجة، وبين احتراق السكر في الدم ؟ السكر في الدم يحترق بدرجة 37، بفضل مادة يفرزها البنكرياس، وهي الأنسولين، إذا ضعف إفراز هذه المادة بقي السكر الذي لم يحترق في الدم فترتفع نسبته، والسكر الذي يخترق ينتهي، فالبنكرياس يفرز مادة اسمها الأنسولين تسهم في حرق السكر في درجة الحرارة العادية، فإذا كان قلّت المادة معنى ذلك أن السكر سوف يرتفع في الدم،

شيء آخر في الكبد المادة، أن هناك وظيفة رابعة له، هي وظيفة التكوين، فالكبد يكون عنصر التجلط، وعنصر التمييع، تعلمون أن الدم بين أن يكون مائعاً وبين أن يكون جامداً، إذا جمد الدم في الأوعية مات الإنسان، يقال: له جلطة، مثلاً، وإذا ماع الدم كثيراً، سال كله من ثقب صغير، وفي الدم صفيحات، وهذا من فضل الله عز وجل، وكريات بيضاء وحمراء، الصفيحات مهمتها سد الثغرات، الإنسان إذا أصيب بشظية، أو جرح يجب أن يخرج الدم كله، ولولا الصفيحات لسال دمه كله من ثقب بسيط،

ولمات الإنسان، فلذلك كان تعيير الكريات الحمراء والبيضاء والصفيحات، ثم إن الكبد يفرز عنصر يميع الدم، وعنصر يجلطه، من توازن إفراز هذين العنصرين يكون الدم في حالة بين الميوعة القاتلة وبين التجلط القاتل، هذا ما يسمى عند الإنسان سيلان الدم، والأطباء ينصحون الناس بعد الأربعين بتناول حبة أسبرين يومية، ليكون هذا الدم مائعاً حيث يبتعد عن أي تجلط، فيسبّب أزمة لصاحبه،

الآن الكبد نفسه يفرز البروتين، يعيّر، ويحدّد نسب الماء في الجسم، ومن التهب كبده أصيب بالاستسقاء، أي إنّ الجسم يخزن ماء كثيراً يفوق حاجته، من علامات التهاب الكبد الاستسقاء، هناك ماء كثير يودع في الأنسجة دون أن يستهلك، لأن الكبد هو الذي يعير نسب الماء في الجسم، لو أصيب الكبد بالتهاب حاد لضاع الإنسان فيما يسمى الاستسقاءَ،

من وظائف الكبد أيضاً أنه يدرس وضع السم في الدم، فإما أن يعدله بتفاعل كيماوي، وإما أن يقيّده، وإما أن يطرده، شيء رائع جداً، المجرم إما أن نطره خارج البلاد، وإما أن نقبض عليه، ونضعه في السجن، وإما أن نجرده من سلاحه، إما أن يقوم تفاعل فيلغي سميته، وإما أن يقيَّد فلا يؤذي أحداً، وإما أن يطرد خارج الجسم، وهذا من وظائف الكبد، وكما قلت في أول اللقاء: لا يستطيع الإنسان أن يعيش من دون كبد أكثر من ثلاث ساعات، لأنه منطقة صناعية كاملة،

الإنسان حينما يفكر في هذه الأجهزة العملاقة البالغة في الدقة، البالغة في الاختصاص، ألا يسبّح الله عز وجل ؟ ألا يقول: سبحان الله ! لأن معرفة الله أصل الدين، كيف نعرفه، الله عز وجل ذاته غائبة عنا، بدليل قوله تعالى:

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)

(سورة الأنعام الآية: 103)

لكن هذا الذي صنعه بين أيدينا، الصنعة تدل على الصانع، فنحن نرى الله من خلال صنعته الدقيقة، وإتقانه لصنعته،

قلت قبل قليل: هناك نمط اقتصادي في الجسم، فهذه الكريات الحمراء التي ماتت تسهم أعضاء الجسم في تفكيكها إلى عناصرها الأولية، وإرسال بعضها إلى معامل كريات الدم في نقي العظام، ويسهم الآخر في إمداد الصفراء بهذه المادة التي تعين على هضم المواد الدسمة،

المذيع:

فضيلة الدكتور، طبعاً لكل جهاز مرض، وقد يصاب الإنسان بأمراض كثيرة، ولكن بالنسبة للكبد ما المرض الذي يصيبه ؟

الأستاذ:

هناك التهاب كبد وبائي، هذا مرض خطير، مرض مميت، بالمناسبة أحبّ أن أنبّه الإخوة المستمعين

أنه لو أن إنسانًا مصابًا بالتهاب كبد وبائي، وهو يعمل في مطعم، ولم ينظف ما بين أظافره وأصابعه بعد دخول الحمام فإن 300 رائد من رواد المطعم يصابون بهذا المرض، القضية خطيرة جداً، إنسان مصاب بالتهاب كبد وبائي بسبب وصول جرثوم إليه، إن لم يبالغ في تنظيف يديه حينما يعدّ الطعام فقد يصيب مئات الذين يرتادون هذا المطعم بهذا المرض المميت دون أن يشعر أحد، فلا بد من دقة بالغة في موضوع، هذا المرض الخطير اسمه التهاب الكبد الوبائي،

المذيع:

من أين يأتي هذا المرض ؟ هل هو تلوث ؟

الأستاذ:

هو تلوث، لذلك النظافة من الإيمان، حينما يبالغ الإنسان في النظافة يكون قد بالغ في صون جسمه من الأمراض، والملاحظ أن أمراض القذارة كثيرة، والعدد دقيق، 300 مليون إنسان في الأرض مصابون بأمراض القذارة، بينما العالم الإسلامي يعد الشريط الأخضر، بحكم الوضوء والصلاة، والإنسان من خلال دينه يبالغ في تنظيف نفسه، وفي تنظيف فتاحاته وأعضائه، فهذه الأمراض خطيرة جداً، سببها القذارة، وعدم التنظيف، فهذا التهاب الكبد الوبائي يأتي من جرثوم، فالإنسان إذا لم يعتن بنظافة طعامه، ونظافة أعضائه فقد يصاب بهذا المرض،

المذيع:

فضيلة الدكتور، أيضاً نسمع بتشمع الكبد، وما شابه ذلك، كنا في هذه الحلقة نتحدث عن الكبد، لا بأس إن أعطينا ولو نبذة بسيطة عن ذلك،

الأستاذ:

هذا التشمع في الأعم الأغلب سببه شرب الخمر، الكحول أحد أسباب تشمع الكبد، التشمع يعني التليّف، هذا الكبد خلاياه تعطلت عن أن تقوم بوظائفها، فيجب أن نعلم علم اليقين أن العلاقة بين المعصية ونتائجها علاقة عليمة، علاقة سبب بنتيجة، وأن العلاقة بين الطاعة ونتائجها علاقة علمية، علاقة سبب بنتيجة، لأن هذا الدين منهج الله عز وجل، منهج الله قائم على قوانين، الفرق بين الدين السماوي، وبين الدين الوضعي، الدين الوضعي طقوس حركات وسكنات وتمتمات لا معنى لها، وليس فيه منهج، لكن دين الله عز وجل يتّسم بمنهج، والمنهج مبني على أمر ونهي، والأمر والنهي أساسه المواد النافعة والمواد الضارة، فحينما يعاقر الإنسان الخمر فقد يصاب كبده بالتشمع،

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 17 - 30 : الساعة البيولوجية.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-11-11

بسم الله الرحمن الرحيم

الساعة البيولوجية في الإنسان :

الساعة البيولوجية في الإنسان، شيء محير، وشيء بالغ الدقة، لكن قبل الحديث عن هذه الساعة فهل في مخلوقات أخرى مثل هذه الساعة؟ اكتشف أحد العلماء الفرنسيين أن في مقدور بعض النباتات حساب الزمن، حيث إن بعض أوراق مجموعة من النباتات تؤدي حركات معينة في وقت محدد من اليوم، إذاً هذا النبات عنده ما يسميه العلماء ساعة بيولوجية، تحسب له الزمن إذ أن هذا النبات عنده ما يسميه العلماء ساعة بيولوجية تحسب له الزمن.

ثم إن العلماء اكتشفوا أيضاً أن هناك حيوانات تشبه النباتات في تحديد الزمن، حيوانات تعرف بدقة بالغة مرور الزمن، فتتجه إلى مكان سباتها في الشتاء، لو تأخرت أو بكرت قليلاً لماتت، إنه حساب في غاية الدقة، تأوي بعض الحيوانات إلى أوكارها لترقد طوال فصل الشتاء، ولولا أنها تعرف كيف يمر الزمن لما أمكنها ذلك،

السبات الشتوي

قال تعالى والآية دقيقة جداً:

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

[سورة طه: 49-50]

شيء دقيق جداً أن الله هيأ للمخلوق كل أجهزته، لكن من أودع فيه هذه الغرائز؟

(رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ)

زوّده بكل ما يحتاجه من أجهزة، ثم هداه إلى مصالحه،

(ثُمَّ هَدَى)

أما عند الإنسان فإنه بجوار غدته النخامية مجموعة خلايا لها خاصية عجيبة، إنها تستشعر الضوء الذي يسقط على قاع الشبكية في أثناء النهار، إذا استشعرت هذا الضوء معنى ذلك أن الوقت نهار، فإذا غابت هذه الأشعة التي تسقط على قاع الشبكية معنى ذلك أن الوقت ليل.

الخلايا بجوار الغدة النخامية

كما تفضلتم في مقدمة هذا اللقاء الطيب، الإنسان بإدراكه الواعي يعلم ما إذا كان في الليل أو في النهار، لكن هناك أجهزة كثيرة جداً في الجسم ينبغي أن تكون في النهار على وضع، وفي الليل على وضع آخر، ينبغي أن يزداد نشاطها في النهار، وأن يقلّ نشاطها في الليل، وهناك أجهزة أخرى بالعكس ينبغي أن يزداد نشاطها في الليل ويقلّ في النهار، فمن الذي ينبئ هذه الأجهزة التي ليست عاقلة أن الوقت نهار أو أن الوقت ليل؟ هذا هو الموضوع بالذات، طبعاً هذه الأجهزة تستشعر أن الوقت نهار فلها خطة ثابتة تفعلها في النهار، ثم إنها تستشعر أن الوقت ليل لها خطة ثابتة تفعلها في الليل.

مثلاً: في النهار يزداد استهلاك الجسم للطاقة، فترتفع درجة حرارته نصف درجة عن المعدل الوسطي، وتنخفض في الليل نصف درجة عن هذا المعدل الوسطي، من يشعر الخلايا وخلايا الاستقلاب بالذات أن الوقت وقت نهار؟ هذه الخلايا التي إلى جوار الغدة النخامية تستشعر من خلال اقتباسها بقاع العين أن الوقت وقت نهار.

إذاً الساعة البيولوجية مكانها إلى جوار الغدة النخامية، مرتبطة بقاع العين، فإذا جاء الضوء في النهار على قاع العين أشعرَ هذا المركز البيولوجي الساعة البيولوجية أن الوقت وقت نهار، فإذا غاب هذا الضوء من قاع الشبكية أخبرها أن الوقت وقت ليل، إذاً لا بد من خطة ثانية.

الغدة النخامية تؤمّن التكامل بين وظائف الأجهزة الداخلية :

الآن مع بعض التفاصيل، إن سقوط الضوء فوق الشبكية ينتقل بوساطة سيالات عصبية عبر ألياف العصب البصري إلى الغدة النخامية، وهي كما قلنا في حلقات سابقة ملكة الغدد، ووزنها نصف غرام،

هذه الغدة النخامية تؤمّن التكامل والتكيّف بين وظائف الأجهزة الداخلية، هي مسيطرة، هي ملكة الغدد، تؤمّن أيضاً ضبط النشاط العام للجسم.

الآن أول غدة تتعلق بهذا المركز الذي هو الساعة البيولوجية الغدة الدرقية، والغدة الدرقية فيها استقلاب، معنى استقلاب: تحول الغذاء إلى طاقة، هذا الغذاء يتحول إلى طاقة عالية في النهار، وطاقة متدنية في الليل، أنت في النهار تتحرك، تعمل، تذهب إلى عملك، تحل مشكلات، قال تعالى:

الغدة النخامية

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا*وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا)

[سورة النبأ: 10-11]

فالغدة الدرقية التي أوكل إليها أمر الاستقلاب، أي تحوّل الغذاء إلى طاقة، هذه الغدة تعمل بنشاط بالغ في النهار، وبنشاط متدنٍّ في الليل، بأمر من هذا المركز البيولوجي الذي هو الساعة البيولوجية.

المذيع:

وهذا ما يفيد الإنسان أن في النهار الكل يذهب إلى عمله، نطلب من فضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي أيضاً في الليل بعض الناس يعملون، هذا السؤال لا بد من طرحه.

اختلاف نتاج الإنسان بين الليل و النهار :

الأستاذ:

طبعاً هذا السؤال إجابته أن نتاجهم في الليل يقلّ عن النهار، أنا أنصح أن يكون العمل في النهار، لكن هناك حالات استثنائية كالمطارات، ومراكز الحدود، وبعض المعامل، إذاً الطاقة التي يستطيع الإنسان بذلها في النهار ليست كالطاقة التي يستطيع بذلها في الليل، إذاً حينما نكلف إنسانًا أن يعمل في وقت السكن والنوم فلا شك أن هذا العمل لن يكون في فعاليةِ عملِ النهار.

المذيع:

لذلك المدرّس ينصح الطالب بأن يدرسَ في النهار، وليس في الليل.

الأستاذ:

كما أن الجسم ما ينتفع به من النوم في الليل لا ينتفع به بالنوم في النهار، بل إن في بعض الآثار: " إن لله عملاً في الليل لا يقبله في النهار، ولله عمل في النهار لا يقبله في الليل".

أستاذ عبد الحليم، جزاك الله خيراً، في النهار تزداد ضربات القلب من عشر إلى عشرين ضربة عنها في الليل، يزداد إدرار البول من ضعفين إلى أربعة أضعاف في النهار عنه في الليل، بل إن المثانة كأنها في الليل تأخذ إجازة، من أجل أن يرقد صاحبها براحة من دون إزعاج، دخول وخروج إلى الحمام، ألا ترى معي أن لهذا الإنسان تصميماً رائعاً؟ أن هذا الخالق العظيم رتب أجهزة الإنسان وعملها وتصميمها والتنسيق بينها بشكل معجز؟

المذيع:

فضيلة الدكتور بالنسبة للتسمية التي ذكرتها دائماً في هذه الحلقة، ألا وهي الساعة البيولوجية، هي تسمية غريبة بعض الشيء، الساعة تدل على الوقت، والبيولوجية تدل على جسم الإنسان.

اختلاف الساعة البيولوجية عن الساعة العادية :

الأستاذ:

هي تدل على ساعة ليست كساعاتنا، ساعاتنا ساعات ميكانيكية أو إلكترونية، فيها عجلات ومسننات ونوابض، الإلكترونية فيها صفحة من مادة معينة، فيها أوامر، لكن ساعتنا ليست من هذا النوع، ساعة بيولوجية تقوم بها الغدد الصماء والمراكز العصبية والتواصل الهرموني والعصبي.


تختلف الساعة البيولوجية عن الساعة العادية

مهمة الساعة البيولوجية :

شيء آخر، في النهار يرتفع النشاط الكهربائي للدماغ، وفي الليل يضعف هذا النشاط، والإنسان في النهار يمكن أن يؤدي عملاً فكرياً رائعاً، لكنه في الليل لا يستطيع ذلك، طبعاً في النهار أقصد به بعد طلوع الشمس، هذه ساعة الفجر المباركة.

((لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

كنت البارحة في حفل تكريم عالم من علماء دمشق، فقام هذا العالم وألقى كلمة، وأشار فيها إلى أن بركة صلاة الفجر وما بعد الفجر هي وراء هذه المؤلفات الضخمة التي أنتجها في حياته، هو يستيقظ عند صلاة الفجر، ولا ينام بعدها إطلاقاً، هذا وقت مبارك، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا...))

[الترمذي عَنْ صَخْرٍ الغَامِدِيِّ]

فيبدو أن الدماغ في النهار في أعلى مستوى من النشاط، هذا النشاط يضعف أيضاً في الليل، الآن في النهار تزداد درجة لزوجة الدم عنها في الليل، طبعاً إذا كان الدم لزجاً كان أقرب إلى الصون من أن يسيح من جرح بسيط، فالإنسان حينما يغضب وحينما يخاف ترتفع لزوجة دمه، في الليل يتميع الدم، وهذا أيضاً بسبب الخالق العليم الحكيم الذي جعل هذا الدم صونه في النهار أن يكون لزجاً، وصونه في الليل أن يكون متميعاً، يزداد عدد كريات الدم البيضاء كسلاح دفاعي في الإنسان في النهار عنها في الليل، فالكريات البيضاء هي جنود خاضعة لنظام دقيق من أجل أن تؤدي وظيفة الدفاع عن الجسم، في النهار هناك حركة، ومصافحة، وتناول طعام، وعمل في أماكن قد تكون فيها جراثيم، فجهاز الدفاع في الإنسان يكون مستنفراً، وفي جاهزية عالية في النهار عنه في الليل.

قضية تبدل وظائف الأعضاء في الغدد الصماء في النهار عنها في الليل هذا من مهمة الساعة البيولوجية.

المذيع:

فضيلة الدكتور، طبعاً ذكرتم ما بين الليل والنهار، وحدثنا الله سبحانه وتعالى في بعض الآيات عن هذا التبدل في وظيفة الإنسان.

التبدل في وظيفة الإنسان :


وجعلنا الليل لباسا

الأستاذ:

الليل لباس، الليل وقت الإنسان ليلتقي بزوجته فرضاً، لذلك معدّلات النمو في الليل أعلى منها في النهار، الإنسان ينام وهرمونات النمو تكون أشد فاعلية في الليل عنها في النهار، حتى الهرمون الجنسي يكون في الليل في أعلى مستوى من

مستوياته عنه في النهار، في الليل يقلّ استهلاك السكر ثلاثين في المئة عما هو عنه في النهار، لأن السكر هو طاقة، تحرق المواد السكرية فتشكل طاقة، الإنسان في النهار يحتاج إلى طاقة، لكن في الليل لا يحتاج إلى هذه الطاقة، إذاً يزداد استهلاك السكر في النهار ثلاثين في المئة عنه في الليل، هذا معنى قوله تعالى:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)

[سورة التين: 4-5]

لا زلنا في الساعة البيولوجية، المعدة أيضاً تكون قدرتها الإفرازية وقدرتها على هضم الطعام قليلة في الليل، لذلك هذه العادات التي ألفها الناس أن يتناولوا عشاء دسماً هي عادة سيئة جداً، بل إن بعض الأبحاث العلمية تتجه إلى أن يأكل الإنسان نصف الكمية الغذائية اليومية صباحاً، و خمسة و ثلاثين بالمئة منها ظهراً، وخمسة عشر بالمئة منها ليلاً، أما ما يفعله الناس إذْ يأكلون أكبر كمية من الطعام في الليل، فالمعدة قدرتها على الهضم تضعف في الليل عنها في النهار.

المذيع:

هل المواد هي التي تفرز كي تعمل هذه الأجهزة بهذا الشكل؟

الأمة التي يبدأ عملها قبيل الظهر لا تنتج شيئاً :

الأستاذ:

الحقيقة أن الإنسان حينما يستيقظ تتراكم في دمه مادة تؤدي إلى تسارع النبض وارتفاع ضغط الدم، وهذا يؤدي إلى نشاط الجسم، وهذا ملموس عند بعض الناس، أن ذروة العمل في النهار، وأن المستوى الأدنى هو في الليل، كما قلت قبل قليل: النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا...))

[الترمذي عَنْ صَخْرٍ الغَامِدِيِّ]

أنا زرت أمريكا، شيء لا يصدق، الطرقات في الساعة الخامسة صباحاً مزدحمة أشد الازدحام، يذهبون إلى أعمالهم في وقت مبكر جداً، وأنا أقول: إن الأمة التي يبدأ عملها قبيل الظهر هي أمة لا تنتج شيئاً، هذا الوقت المهم جداً الذي فيه ذروة النشاط هو وقت الصباح.

هذه الساعة البيولوجية تشعر الأجهزة والأعضاء والنسج والخلايا والغدد أن الوقت وقت نهار. كخلاصة لهذا البحث العلمي الساعة البيولوجية تشعر الأجهزة والأعضاء والنسج والخلايا والغدد أن الوقت وقت نهار، فافعلي كذا وكذا، وامتنعي عن كذا وكذا، وأن الوقت وقت ليل، فافعلي كذا وكذا،

وامتنعي عن فعل كذا وكذا، لذلك الإنسان الذي يعمل ليلاً ونهاراً بنوبات سريعة تضطرب الساعة البيولوجية في جسمه.

المذيع:

هناك بعض الأعمال، وما شابه ذلك، وممن يذهبون إلى مناطق مختلفة فقد يكون الآن هنا نهار، وهناك ليل، ويذهبون في وقت قصير.

اضطراب الساعة البيولوجية :

الأستاذ:

هذا يؤدي إلى اضطراب الساعة البيولوجية، وأوضح شيء أن إنسانًا لو سافر إلى طرف الدنيا الآخر، من لبنان إلى أمريكا مثلاً، ما الذي يحصل هناك؟ هو مبرمج أن هذا الوقت هو ليل، هو في النهار هناك، إذاً لا ينام، أو ينام في النهار، ويقلق في الليل، بعد يومين أو ثلاثة، أنا سافرت عدة مرات، إلى أن أستقر في وضع متوازن أحتاج إلى يومين بعد وصولي إلى هناك، وعند عودتي إلى بلدي أحتاج إلى يومين آخرين حتى تعمل هذه الساعة بشكل منتظم، أما هؤلاء الذين يسافرون كل يوم إلى أماكن بعيدة فهؤلاء تضطرب عندهم هذه الساعة البيولوجية، على كلٍّ يقول الله عز وجل:

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

[سورة النمل: 88]

و يقول أيضاً:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ* الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ* فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)

[سورة الانفطار: 6-8]

المذيع:

فضيلة الدكتور، لا بد من أن نشكرك لإتاحة الفرصة كي تعرفنا على هذه الساعة البيولوجية التي تحدد الوقت بدقة، وتعلم أجهزة وأعضاء الجسم أن هذا الوقت ليل، وأن هذا الوقت نهار.

أخوة الإيمان والإسلام، إلى حلقة قادمة، ونذكر أن عندك ساعة تبرمج الهرمونات والنبض والضغط والحرارة والقدرة على الهضم، وهذه الساعة تدرك إذا كنت في النهار أم في الليل.

الإرادة الصلبة توقظ الإنسان قبل المنبه :

الأستاذ:

لابد من تعقيب قبل أن ننهي هذا اللقاء الطيب، الآن قضية أخرى، أنت حينما تنام تأوي إلى فراشك، وحينما تقرر بإرادتك صلبة أن تستيقظ في الساعة الفلانية صدّق في الدقيقة التي عينتها تستيقظ، وهذا أشار النبي إليه لما شكا أحد إليه أنه نؤوم، فقال عمر رضي الله عنه: فضحت نفسك يا رجل، فقال عليه الصلاة والسلام: "دعه يا عمر، فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة، اللهم أذهب عنه النوم إذا شاء".

فأنت إن شئت أن تستيقظ تستيقظ في الوقت الذي تريده، والدليل في النزهات والرحلات، والسفر إلى أماكن بعيدة تستيقظ قبل المنبه بساعة أودعها الله بالإنسان.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 18 - 30 : العقرب.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-11-12

بسم الله الرحمن الرحيم

الكون قرآن صامت، والقرآن كون ناطق، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي، وقد ذكرت قبل قليل أن الكون والقرآن مصدران للمعرفة، ذلك أن الحق دائرة يمر بها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، وهو القرآن والسنة، وخط العقل الصريح، وخط الفطرة السليمة، وخط الواقع الموضوعي المأخوذ من الكون، ولأن العقل الصريح من خلق الله عز وجل، ولأن الفطرة السليمة من برمجة الله عز وجل لهذا الإنسان، ولأن الوقع الموضوعي هو خلق الله، ولأن القرآن والسنة هو كلام الله، وتفصيل نبيه صلى الله عليه وسلم، إذاً هذه الخطوط الأربعة من أصل واحد، وإذا اجتمعت الفروع في أصل واحد كانت فيما بينها متساوية .

إذاً أنا أعتقد أنه لابد من تطابق النقل الصحيح مع العقل الصريح، مع الفطرة السليمة مع الواقع الموضوعي، أما إذا كان النقل غير صحيح يتناقض مع العقل، أما إذا كان العقل تبريرياً غير صريح يتناقض مع النقل، أما إذا كانت الفطرة منطمسة تتناقض مع المنهج الإلهي، أما لو تصورنا فطرة سليمة، ووقعاً موضوعياً، وعقلاً صريحاً، ونقلاً صحيحاً فهذه الأشياء الأربعة حتمية تطابقها مئة في المئة، وهذا ما عبر عنه بعض العلماء الكبار حينما ألف كتاباً عنونه تطابق النقل مع العقل .

الكون خلقه، والقرآن كلامه، والعقل جهاز أودعه الله فينا من خلق الله، والفطرة جبلة جَبَلنا علها، كلها من الله عز وجل .

الحقيقة أن اختياري لهذا الموضوع في كتاب الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة لا من حيثيات الموضوع، بل في النتائج المترتبة عنه، الإنسان له خصائص يتميز بها، وفيه خصائص يشترك فيها مع بقية المخلوقات، لكن الحقيقة الأولى أن أية صفة مادية يتصف بها الإنسان ففي المخلوقات الأخرى ما يفوقه بها، فهو إذا عطل عقله، ولم يبحث عن الحقيقة ، ولم يكن مؤمناً، فما من مخلوق من الحيوانات إلا ويفوقه في خصائصه المادية، لكن الإنسان ميزه الله بالعلم، منحه قدرة إدراكية، ميزه الله بالخلق، ميزه الله بالإيمان، فلو لم يبحث الإنسان عن هذه التي تؤكد إنسانيته هبط إلى مستوى الحيوان .

ثمة مقالة وقعت تحت يدي من قبلُ، مضمونها أن فرنسا قبل خمسٍ وثلاثين عاماً قامت بتفجير نووي في صحراء الجزائر، وهذا التفجير النووي لهيب حارق، وضغط ماحق، الإنسان يتوهم أن التفجير النووي يقتل الكائنات الحية بفعل الحرارة المرتفعة، هذا الكلام صحيح، ولكن كلاماً لا يقلّ عنه صحة أن الضغط الذي يولده هذا الانفجار يسحق كل شيء، فمن لم يمت بالحرارة مات بالضغط، فإذا قلنا:

انفجار نووي، فينبغي ألا يبقى كائن حي كائناً من كان بعد هذا الانفجار، طبعاً هذا الانفجار لا يبقي نباتاً، ولا حيواناً، ولا إنسانًا، هذا الانفجار أحدث حفرة كبيرة جداً، وشكل كرة من النار تعلو إلى مسافات شاسعة، وبعد نهاية الانفجار، وسكون الأرض وجدوا عقرباً يمشي في أرض الانفجار، إنها مفاجئة غريبة عجيبة، شيء مدهش، شيء غير مجرّب في البحوث العلمية، لذلك عكف علماء الحيوان ربع قرن على دراسة هذا العقرب **!!**

الآن يبدأ المغزى، وجدوا أن العقرب يستطيع أن يبقى بلا طعام ولا شراب ثلاث سنوات، ووجدوا أن العقرب يستطيع أن يكتم أنفاسه تحت الماء يومين كاملين، ووجدوا أنه إذا وضع العقرب في ثلاجة، وكانت البرودة من عشر درجات إلى عشرين درجة تحت الصفر فإنه لا يتأثر، فلو نقل إلى رمل الصحراء المحرقة في درجة ستين فإنه يتكيف مع هذا التبدل الحراري الطارئ .

ثم إنه إذا وضع في حمام من الجراثيم الفظيعة لم يتأثر بها إطلاقاً، وكأنه في حمام بارد، ثم إنهم عرضوه لأشعة نووية تزيد ثلاثمئة ضعف ما يتحمله الإنسان فتحملها، شرّحوه فلم يجدوا فيه دماً، بل فيه مصلٌ أصفر، ماذا يعلمنا هذا ؟ قلت قبل قليل: ليست العبرة في هذه الحقائق المدهشة عن العقرب، بل العبرة فيما سوف نستنبطه منه .

أبدء الموضوع بمثل بسيط جداً، عندكم في البيت طاولة صغيرة توضع في غرفة الضيوف، لو أنك قدمت لهذا الضيف كأس شراب يضعه على هذه الطاولة، ما وزن هذا الكأس، قد يكون مئتي غرام ، هذه الطاولة لو وقفت أنت عليها لاحتملت، هي صممت لتتحمل كأسًا من الشراب لا يزيد على مئتي غرام، لكنها تتحمل إنسان وزنه ثمانين كيلوًا، فكم وضع فيها احتياطي من القوة المتحملة للضغط ؟ الكأس وزنه مئتا غرام، الكيلو خمس كؤوس، الثمانين كيلوًا أو المئة كيلو يقف عليها فلا تنكسر، خمسمئة ضعف .

لو تصورنا أن كل عضو في الإنسان معه احتياطي ألف ضعف، معنى ذلك انتهى المرض، لا مرض أبداً، يمكن أن نقول بشكل أو بآخر: إن الإنسان سريع العطب، خثرة في الدماغ تشلّ حركته، نقطة دم في شريانه التاجي توقف القلب، يقال: سكتة قلبية، خثرة دماغية، نمو خلايا غير منتظم تنهي حياته .

المذيع:

فضيلة الدكتور، بعد أن تحدثنا عن العقرب، وما جرى له، وأنه احتمل الصقيع ، واحتمل البرود، واحتمل رمل الصحراء، فطبعاً الإنسان هنا سريع العطب .

الأستاذ:

طبعاً هو سريع العطب، الشيء الذي أتمنى أن يكون واضحاً تماماً أن الله عز وجل واجب الوجود، بينما ما سوى الله، وهو الكون، أو بالمصطلح القرآني السماوات والأرض ممكن الوجود، الذات الإلهية

واجبة الوجود، وما سوى الله من الكون ممكن الوجود، معنى ممكن ؛ أيْ ممكن أن يكون، وممكن ألا يكون، وإذا كان يمكن أن يكون على ما هو كائن، أو على ما غير هو كائن، كان من الممكن أن يكون الإنسان متحملاً لكل الضغوط، ولكل المتغيرات في الحياة، إذاً لا مرض .

مثل آخر، نحن نأتي إلى الدنيا تِباعاً، وكان من الممكن نأتي جميعاً دفعة واحدة، وأن نغادرها دفعة واحدة، إذاً لا موت ولا حزن، يجب أن نعلم علم اليقين أن الله عز وجل واجب الوجود، بينما خلقه ممكن الوجود، يمكن أن يكون هذا الخلق موجوداً أو غير موجود، وإذا كان موجوداً فيمكن أن يكون على ما هو كائن، أو على خلاف ما هو كائن، لو أن قلب الإنسان ودماغه وعضلاته، والجهاز الهضمي، والجهاز الإفرازي، كان باحتياطي كبير جداً يتحمل كل التقلبات، وكل المؤثرات معنى ذلك أنه المرض أُلغِيَ، ولكن المرض مقصود لذاته، إنه أداة تربوية، قال تعالى:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157))

(سورة البقرة)

هذه المصائب هي من تصميم الله عز وجل، الإنسان كلفه الله حمل الأمانة، وكلف أن يتعرف إليه، وكلفه أن يطيعه، فإذا جاء إلى الدنيا، ولم يكن قائمًا بما كلفه الله به، أو غفل عن معرفة الله وعن طاعته، فلا بد من مذكِّر، لو أن أباً قال له ابنه: يا أبتِ، لا أحب أن أدرس، مثلاً، فالأب سمح لابنه ألا يدرس، هذا حينما أصبح راشداً لم يجد معه شهادة يعمل بها، ولا رأس مالٍ، ولا بيتاً، ولا مكانة اجتماعية، فحقد على أبيه، قال: يا أبتِ، أنا حينما سألتك ألا أدرس لمَ لم تنهرني ؟ لمَ لم تؤدبني ؟ أنا لا أعلم أنت تعلم، فكأن الأب ارتكب في حق ابنه خطأ كبيرًا، لأنه سمح له أن يفعل ما يريد، وهو جاهل، فربنا عز وجل يقول:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آَيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47))

(سورة القصص)

حينما يصمَّم الإنسان على أنه سريع العطب، وقد يصاب بأمراض وبيلة، وأمراض عضالة، وقد تنهار معنوياته أحياناً، هذه كلها وسائل تربوية، لتقريبه إلى الله عز وجل، لكن بشكل موضوعي المصائب لها أنواع منوعة، فالمصيبة في حق الشارد والتائه مصيبة ردع أو قصم، إذا كان فيه بقية خير كانت ردعًا، وإذا لم يكن فيه خير كانت قصمًا، لكن المصيبة في حق المؤمن مصيبة دفع إليه، أو رفع إليه، أما

المصيبة في حق النبي فهي كشف كماله، بالمصيبة ينكشف كمال النبي ، وبالمصيبة يدفع المؤمن إلى الله عز وجل، أو يرتقي عنده في الأجر والثواب، بينما الشارد والغافل إما أن تكون مصيبته مصيبة قصم أو أن تكون مصيبته مصيبة دفع، هذا معنى قوله تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216))

(سورة البقرة)

المذيع:

فضيلة الدكتور، هنا في مثل هذه الحالة التي نتحدث فيها عندما يأتي مرض للإنسان نرى بعض الناس يقولون: لا أريد الذهاب إلى الطبيب، ولكن الله يداويني، هناك بعض الناس من يفكر بمثل هذه الطريقة، وهناك من يفكر بطريقة أخرى، بل يعتمد على الطبيب بشكل دائم، ما هي الطريقة المثلى في مثل هذه الحالة ؟

الأستاذ:

الطريقة المثلى سألخصها، ثم أشرحها: أن تأخذ بالسباب وكأنها كل شيء، وأن تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء .

العالم الآن غربيٌّ وشرقيٌّ، العالم الغربي أخذ بالأسباب، واعتمد عليها، وألّهها، فوقع في الشرك، والمجتمع المتخلف لم يأخذ بها فوقع بالمعصية، هم مخطئون، ونحن مخطئون ، إنك إن أخذت بالأسباب فينبغي أن تعتمد على الله، تأخذ بها عبادة، وأن تعتمد على الله يقيناً، وإنك إن لم تأخذ بها فقد وقعت في المعصية، بدليل أن الله عز وجل قال عن ذي القرنين:

(إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (84) فَأَتْبَعَ سَبَباً (85))

(سورة الكهف)

النبي عليه الصلاة والسلام علّمنا في سنته أنه لما هاجر أغلق كل الاحتمالات، وهيأ علاجاً لكل التوقعات، فهيأ من يأتيه بالأخبار في غار ثور، وهيأ من يمحو الآثار، آثار الأقدام، وهيأ ناقة نجيبة، وهيأ دليلاً رجح فيه الخبرة على الولاء، كان مشركاً، غطى كل الاحتمالات، أخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، فلما وصلوا إليه لم يضطرب، فعَنْ أَنَسٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَا فِي الْغَارِ:

((لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا، فَقَالَ: مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا))

[متفق عليه]

هو أخذ بالسباب تعبّداً، وهو يوقن بحفظ الله له، أما المسلم المعاصر فلا يأخذ بالأسباب، ويقول: توكلنا على الله، هذا ليس توكلاً، إنما هو تواكل .

في بعض الأحاديث عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ

((أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قضَى بَيْنَ رَجُلَيْن، فَقالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ: حَسْبِيَ اللَّهُ، وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَقالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْس ـ الكيْس العمل والسعي والأخذ بالأسباب ـ فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

[أبو داود وأحمد]

استعن بالله ولا تعجز .

العجز ؛ أن أستسلم لقدري، وألا أتحرك، وألا أخذ بالأسباب .

ألخّص ذلك: أنت تمشي على طريق ضيق، عن يمينك وادٍ سحيق، هو وادي الشرك، وعن يسارك واد سحيق، هو وادي المعصية، إن أخذت بالأسباب، واعتمدت عليها كما قال الصحابة الكرام في حنين قال: لن نغلب من قلة، عددهم كبير، اعتمدوا على العدد فقط، قالوا يوم حنين:

(إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25))

(سورة التوبة)

وحينما لا تأخذ بالأسباب، عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ يَقُولُ: قَالَ رَجُلٌ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْقِلُهَا، وَأَتَوَكَّلُ، أَوْ أُطْلِقُهَا، وَأَتَوَكَّلُ ؟ قَالَ: اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ))

[الترمذي]

سيدنا عمر رأى أعرابياً يقود ناقة جرباء، قال: كيف تعالجها ؟ قال: أدعو الله أن يشفيها، قال له: يا أخ العرب، هلا جعلت مع الدعاء قطراناً .

مشكلة العالم الإسلامي عدم الأخذ بالأسباب، يجب أن نأخذ بها، وكأنها كل شيء، ثم نتوكل على الله، وكأنها ليست بشيء .

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 19 - 30 : حليب الأبقار.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-11-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

نحن حينما نصلي نقرأ في الفاتحة :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

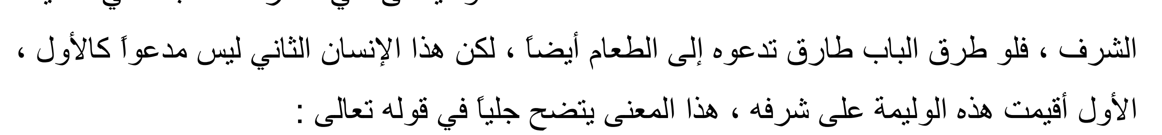
[سورة الفاتحة]

من معاني كلمة رَبِّ الْعَالَمِينَ أنه الخالق والممدّ ، خلقنا ، وأمدنا بما نحتاج ، والحليب هو الغذاء الكامل، وقد أمرنا أن نتفكر في أغذيتنا ، قال تعالى :

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

[سورة عبس]

أنا حينما أنظر إلى طعامي أعظّم خالقه ، وأرى أن الله عز وجل هو الرزاق ذو القوة المتين ، بل إن بعض العلماء الألمان سبب إيمانه بالله أنه رأى البقرة ، فإذا نتاجها يزيد عشرين ضعفاً عما يحتاجه وليدها ، إذاً هذا الحليب ليس لوليدها ، بل هو للإنسان ، خلق خصِّيصاً له .



أنتم حين تدعون إنسانًا إلى طعام في البيت ، هو يسمى في العرف الاجتماعي ضيفَ الشرف ، فلو طرق الباب طارق تدعوه إلى الطعام أيضاً ، لكن هذا الإنسان الثاني ليس مدعواً كالأول ، الأول أقيمت هذه الوليمة على شرفه ، هذا المعنى يتضح جلياً في قوله تعالى :

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

[سورة النحل الآية : 5]

خلقت خصِّيصاً لكم ، بل إن من أعجب ما في الموضوع أن هذه البقرة مذللة :

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

[سورة يس الآية : 72]

العقرب غير مذلل ، يخافه الإنسان ، الحية غير مذللة ، يخافها الإنسان ، لكن الطفل الصغير يمسك بالبقرة ، ويقودها ، ويحلبها دون أن يخشى شيئاً ، الجمل مذلل ، الأنعام مذللة ، الدجاج مذلل ، القطة مذللة ، لكن هناك حيوانات أخرى قد تكون صغيرة ، لكنها تملأ القلب رعباً ، إذاً الآية الأولى :

وذللناها لكم

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

والآية الثانية :

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

لي تلميذ في غوطة دمشق عنده بقرة توحشت ، فقتلت أول إنسان ، وثاني إنسان ، فاضطر أن يطلق عليها النار ليقتلها ، وثمنها مئة ألف ، لو أن البقرة ليست مذللة لا ننتفع منها إطلاقاً ، إذاً نعمة أولى أنها تقدم لنا الغذاء الكامل الأول ، الحليب ومشتقاته هو الغذاء الأول ، وتوافق الحليب مع جسم الإنسان توافق عجيب .

تستنبط استنباطاً عجيباً أن الذي خلق الإنسان سخر له هذا الحيوان ، هذه حقيقة أولى .

يعدّ الحليب الذي نستهلكه غذاء كاملاً بشكل أو بآخر ، سواء كان لبناً ، أو حليباً ، أو جبناً ، أو سمناً ، أنا أسميها مشتقات الحليب ، وقد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ما أكل طعاماً إلا حمد الله عليه، إلا الحليب .فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ :


الحليب غذاء متكامل

((كُنْتُ فِي بَيْتِ مَيْمُونَةَ ، فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ، فَجَاءُوا بِضَبَّيْنِ مَشْوِيَّيْنِ عَلَى ثُمَامَتَيْنِ ، فَتَبَزَّقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ خَالِدٌ : إِخَالُكَ تَقْذُرُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : أَجَلْ ، ثُمَّ أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلَبَنٍ ، فَشَرِبَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ ، وَأَطْعِمْنَا خَيْرًا مِنْهُ ،

وَإِذَا سُقِيَ لَبَنًا فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ ، وَزِدْنَا مِنْهُ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُجْزِئُ مِنْ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَّا اللَّبَنُ))

[الترمذي ، أبو داود ، أحمد]

في الحليب مثلاً كبحث علمي فيه نسب من الماء تتراوح بين 87 % إلى 91 % ، كما يحوي الحليب الدسم المواد الدسمة ، والسكريات ، والبروتينات ، والمعادن ، والفيتامينات ، وغازات منحلة ، فهو غذاء كامل ، فيه غازات منحلة كغاز الفحم ، والأوكسجين ، والنشادر .

- وفيه فيتامينات C، A، B ، و C ، و D .

- ومن المعادن : الكالسيوم ، والفوسفور ، ومن البروتينات : الكاترين ، والألبومين ، وما شاكل ذلك - ومن السكريات : سكر العنب ، والدسم والماء .

تقول أنت : حليب ، فيه معادن ، فيه فيتامينات ، فيه مواد دسمة ، فيه مواد سكرية ، فيه مواد غازات منحلة ، تركيبه معقد جداً الحليب ، ومتوافق مع الإنسان توافقاً عجيباً ، لذلك لما قال تعالى :

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

[سورة عبس]

هذا الطعام يدلك على الله ، وقد ورد أن النبي عليه الصلاة والسلام قال مرةً :

((أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه))

[الحاكم عن ابن عباس]

كيفية تكون الحليب :

المذيع :

العجيب في الأمر فضيلة دكتور كما ذكرت أن الحليب ، ومكونات هذا الحليب من الفيتامينات والمعادن، وإلى ما هنالك ، ولكن خروجه من البقرة بهذا الشكل ، وبهذا الصفاء هذا هو أمر عجيب .

الأستاذ :

أحدث البحوث العلمية توصلت إلى أن في البقرة غدة ثديية على شكل قبة ، هذه الغدة الثديية مقسمة إلى فصوص ، وهذه الفصوص مقسمة إلى فصيفصات ، وهذه الفصيفصات مقسمة إلى أجواف صغيرة ، هي الأسناخ ، محاطة بغشاء من الخلايا ، حول هذه الخلايا شعريات دموية تأخذ الخلايا من الدم ما تحتاج إليه ، هنا الشاهد .

إذاً الغدة الثديية في البقرة عبارة عن قبة فيها فصوص ، وأجزاء الفصوص ، هذه الفصوص محاطة بخلايا ، هذه الخلايا محاطة بأوعية دموية ، الشيء العجيب أن أربعمئة حجم من الدم يجول حول هذه

الغدة من أجل تصنيع حجم حليب واحد ، وكل لتر من الحليب يسهم في صنعه أربعمئة حجم من الدم ، لكن ما الذي يحصل ؟ أن هذه الغدة الثديية التي تجاور الوعاء الدموي تأخذ من الدم ما يناسبها ، تأخذ هذه الغازات المنحلة ، تأخذ البروتينات ، المواد النشوية ، السكرية ، تأخذ المعادن ، تأخذ كل شيء بما يناسبها ، والله عز وجل يقول :

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ)

[سورة النحل الآية : 66]

الفرث معروف ، هو فضلات الجهاز الهضمي ، لكن قال بعض العلماء : هناك فرث غازي ، نفرزه من أنوفنا ، غاز الفحم ، من نتائج الاحتراق ، وهناك فرث سائل في الدم ، حمض البولة ، وهناك فرث آخر يخرج من الجهاز الهضمي ، فهذا الدم يجري في مواد سامة ، هناك حمض البولة ، هناك مواد ضارة هناك مواد نافعة ، هناك فيتامينات ، هناك معادن ، هناك أشباه معادن ، هناك غازات منحلة ، هناك مواد بروتينية ، مواد سكرية ، هل هذه الخلية عاقلة حيث تأخذ من هذا الدم ما تحتاجه لتكوين هذا الغذاء الأول في حياة الإنسان ؟ هنا الشيء الدقيق واللطيف .

الشيء الدقيق أنه حتى هذه الساعة لا أحد يعرف طبيعة عمل هذه الخلية ، تحدثنا من قبل عن الغشاء العاقل فيما أذكر ، وهذه الخلية الثديية أيضاً عاقلة ، تقوم بعمل يعجز عنه العلماء ، طبعاً ذكرت قوله تعالى :

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ)

[سورة النحل]

عطاء ربنا جل جلاله يتسم أنه مستساغ ، ومفيد ، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان يأكل يدعو ويقول :

((الحَمْدُ لِلَّه الَّذي أذَاقَنِي لَذَّتَهُ ، وأبْقَى فِيَّ قُوَّتَهُ ، وَدَفَعَ عَنِّي أذَاهُ))

[رواه ابن السني والطبراني عن عائشة رضي الله عنها]

الحليب سائغ للشاربين

هذا الغذاء فيه مواد نافعة استقرت في الجسم، ومواد ضارة خرجت فضلات ، وله طعم طيب ، فتنعم النبي بطعم الطعام ، وبقيت في جسمه مواده الأولية ، وخرج منه المواد التي لا تنفعه .

((الحَمْدُ لِلَّه الَّذي أذَاقَنِي لَذَّتَهُ ، وأبْقَى فِيَّ قُوَّتَهُ ، وَدَفَعَ عَنِّي أذَاهُ))

فضيلة الدكتور ، ذكرت أن البقرة الواحدة تنتج ما يزيد على حاجة وليدها ، ولكن كم تنتج البقرة الواحدة تقريباً ؟

الأستاذ :

تبدأ من عشرين لترًا إلى أربعين لترًا في اليوم الواحد ، إن ضرع البقرة طبعاً بعد تشريحه وجد فيه جداران متعاكسان ، لو أن أربعة إخوة يملكون بقرة واحدة فضرع البقرة أربع حلم ، كل حلمة تستقل بربع إنتاجها بالضبط ، ذلك أن ضرع البقرة جدار من العضلات الملساء ، لكن هذا الجدار قد يتمزق بهذا الوزن ، فمن الذي يحميه من التمزق ، مدعم من وسطه بجدار يقسمه إلى قسمين ، وجدار آخر يقسم القسمين إلى قسمين ، فصارت أربعة أجواف ، كل جوف محاط بجدارين تقريباً ، وينتهي بحلمة ، فهذا من دقة صنع الله عز وجل .

المذيع :

طبعاً هناك تنسيق ، ونظم معين لكيفية درّ الحليب من ثدي البقرة .

الأستاذ :

نعم ، الأوعية الشعرية في الجهة الوحشية من الخلية الثديية ، والخلية الثديية لها جوف يرشح بنقاط الحليب ، فهذه الخلية الثديية تقوم بعمل في منتهى الدقة والحكمة ، تختار من هذا الدم الذي فيه كل شيء، حتى حمض البول الضار ، حتى المواد السامة ، حتى بقايا احتراق الطعام ، تختار المواد النافعة ، وكأنها كائن عاقل ، تختار ، ويرشح هذا الحليب من جوف الغدة الثديية إلى الضرع الذي هو مكان تجميع الحليب ، ثم سحبه من قبل المستهلك .

أسباب مرض جنون البقر :

المذيع :

طالما فضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي ، تحدثنا عن حليب الأبقار والأبقار بشكل خاص ، فقد أتت إلى عالمنا أو إلى بلادنا بعض الأمراض منها جنون البقر كما سمعتم وسمعنا ، فنريد أن نعرف بهذا المرض ، ونذكر ماذا حدث لهذا البقر ليصاب بهذا المرض ؟

الأستاذ :

الذي حدث أنني أسمي دائماً صنعة الله عز وجل بأصل التصميم ، فالذي حصل أن الله سبحانه وتعالى خلقه كامل كمالاً مطلقاً ، ولكل مخلوق صمَّم له طعاماً خاصاً ، فالبقر كائن يعيش على النبات ، فالإنسان

حينما جمح عقله ، واعتدى بنفسه ، وألّه نفسه في الأرض ، الإنسان الغربي متألّه ، فوجد أنه لو أطعمه طحين الجيف لكان أقوى له على إنتاج الحليب ، فماذا فعل هذا الإنسان ؟

البقر الذي جنّ أُطعِم المشيمات من مستشفيات التوليد ، وجفّفت هذه المشيمات ، وطُحِنت ، وقدّمت غذاء له ، ثم عظام الخنزير جفّفت ، طبعاً غليت ، وجففت ، وطحنت ، وقدمت غذاء له ، والجيف أيضاً عُملت في مراجل ، ثم جففت ، ثم طحنت ، وقدمت غذاء له ، هذا البقر صممه الله على طعام نباتي ، فأطعموه طحين الجيف ، لذلك نشأ مرض سماه العلماء الاعتلال الدماغي ، هذا الاعتلال الدماغي سبب جنون البقر ، الحقيقة أن الذين فعلوا هذا ، ولاسيما في بريطانيا اضطروا إلى إحراق 11 مليون بقرة ، ثمنها 33 مليارًا من الجنيهات الإسترلينية ، أنا أقول : ما جنون البقر إلا من جنون البشر .


دعوا البقر يأكل ما خصصه الله له

الإنسان حينما يستهين بأصل التصميم ، ويحاول أن يغير خلق الله ، بل إن الإنسان المتأله يجمح إلى تغيير خلق الله عز وجل ، وقد وصف الله الغافلين والشاردين بأنهم يغيرون خلق الله ، هذا المرض كما قلت قبل قليل : اسمه الاعتلال الدماغي الإسفنجي ، مسببات هذا المرض كائنات بالغة الصغر ، لم تعرف حتى الآن ، ذات دور حضانة طويل جداً ، يمتد إلى ثماني سنوات ، وفي الإنسان يمتد إلى عشرين سنة ، وليس لهذا المرض الخطير مظهر التهابي ، ولا مظهر مناعي ، واكتشف أخيراً أن هذا المرض يصيب البقر ، ويصيب البشر ، بل إن البشر إذا لأكلوا من لحم هذا البقر أصيبوا بمرض مشابه لمرض البقر .

إنّ أعراض هذا المرض في البقرة تكلف في المشي ، رفع القوائم عالياً ، فرط الإدراك الحسي ، الحك، فقدُ الشهية ، فرط اللعق ، ثم الموت ، وعدم التحكم العصبي ، واقتران هذا كله بسلوك عدواني . وماذا يفعل هذا المرض في الإنسان الشارد ؟ هذا المرض أيضاً إذا أصاب الإنسان فعل فيه أعراضاً كثيرة .

الشكل البشري لهذا المرض فقدان الذاكرة ، فقدُ التناسق العضلي ، فقد التوازن ، العمى ، فقدُ النطق ، وتحدث الوفاة بين ثلاثة أشهر وعام من بداية ظهور الأعراض ، يرافق هذا قلق واكتئاب وتغيرات سلوكية ، واضطراب في نشاط الدماغ الكهربائي .

هذا المرض يصيب البقر ، ويصيب البشر ، بل يصيب البشر الذين يأكلون من لحوم هذه الأبقار التي اختلت صحتها ، واعتلت ، فكان كما قلت قبل قليل : جنون البقر من جنون البشر .

المذيع :

فضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي ، لا بد لنا أن نأخذ من خلال هذه الكلمات ، وهذه الحلقة الحكمة من هذا المرض الذي أصيب به البقر ، ويصيب أيضاً البشر .

الأستاذ :

الحكمة قد تكون إيمانية ، أن الإنسان إذا تطاول على الذات الإلهية ، وأراد أن يغير خلق الله عز وجل يدفع الثمن باهظاً ، هذه الأغلاط البشرية التي ارتكبت تؤكد أصل التصميم ، القاعدة دائماً يجب أن تكون مؤكّدة ، فإذا خرجنا عن القاعدة ، ودفعنا الثمن باهظاً ، فهذا تأكيد لهذه القاعدة .

أستاذ عبد الحليم يحظر أكل واستعمال لحوم البقر ، وأكل منتجاتها ، ودهونها ، وأحشائها ، ومخلفاتها ، والأعلاف التي مصنوعة منها ، ومنتجات التجميد المصنعة منها ، ولحوم العلب ، وأنواع الحليب ومشتقاته ، وأنواع الحلويات التي تستخدم هذه الدهون ، بل ربما أصاب هذا المرض الإنسان إذا تناول هذه المشتقات .

على كلٍّ ، الغريب أن هذا اللحم المصاب باعتلال الدماغي لو طبخ وارتفعت الدرجة إلى مئة فالعناصر المسببة للمرض لا تموت بهذه الحرارة ، إنه مرض خطير جداً ، وهذا من حكمة الله عز وجل ، وكما قلت قبل قليل : اضطرت بريطانيا إلى حرق 11 مليون بقرة ، وثمن هذه الأبقار 33 مليارًا من الجنيهات الإسترلينية .

فلما يؤمن الإنسان بالله ، ويحترم أصل التصميم ، ويتكيف مع أصل التصميم عندئذٍ يكون قد حقق ذاته ، وحقق سلامته وسعادته .

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 20 - 30 : القلب.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-11-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

القلب قلبان ... قلب الجسم ، وقلب النفس .

ينبغي أن نعلم أن العبادات في مجموعها وعلى اختلاف ألوانها وأشكالها ، تهدف أول ما تهدف إلى تطهير القلب من أمراضه النفسية وتحليته بالكمالات الربانية ، كي يسمو الإنسان إلى خالقه ، ويسعد بقربه ، وينعم بجنته .



قلب النفس ... له في الإنسان المكان الأول ، وعليه في جميع الأمور المعولة ، ولا عجب فهو القائد ، والجوارح جنود له وخدم ، وهو الآمر الناهي ، والأعضاء أتباع له ، وحشم ، وحسبك فيه قول الله تبارك وتعالى :

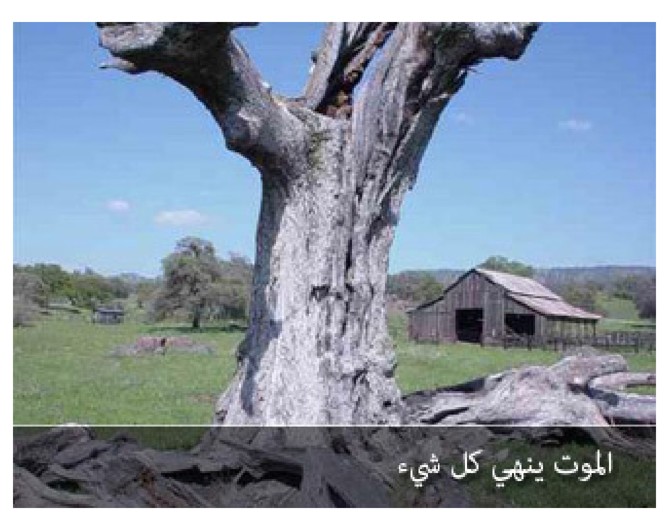
(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

[سورة ق الآية : 37]

أستاذ عبد الحليم ، جزاك الله خيراً ، ربنا عز وجل يقول :

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء الآية : 88-89]



أعظم شيء تصل به يوم نلقى الله عز وجل القلب السليم ، ومن أروع ما قرأت عن هذا القلب السليم أنه القلب الذي لا يشتهي شهوة لا ترضي الله ، كما أنه لا يصدق خبراً يتناقض مع وحي الله ، ثم إنه لا يحكم غير شرع الله ، ولا يعبد غير الله ، فالإنسان إذا وصل إلى الدار الآخرة بقلب سليم فقد حقق وجوده ، وحقق الهدف من خلقه ، ووصل إلى أعلى

سعادة يصلها بشر ، هذا هو قلب النفس .

قلب الجسد ... القلب حقيقة الإنسان ، ومن العجب أن الله سبحانه وتعالى جعل قلب الجسد أساسياً في حياة الجسد ، كيف أن القلب في النفس هو أساسي في سعادتها ، كذلك قلب الجسد أساسي في سلامته ، وانتظام عمل أعضائه وأجهزته .

بل إن الله سبحانه وتعالى جعل بسلامة قلب النفس سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة ، وجعل بسلامة قلب الجسد سلامته من كل الأمراض الوبيلة .

بالمناسبة أمراض الجسد مهما تكن وبيلة تنتهي عند الموت ، فالموت ينهي كل مرض ، بل إن الموت ينهي صحة الصحيح ، وسقم السقيم ، ينهي قوة القوي وضعف الضعيف ، ينهي غنى الغني وفقر الفقير، ينهي وسامة الوسيم ودمامة الدميم ، ينهي غنى الغني ، وفقر الفقير، ينهي كل شيء ، أمراض الجسد المتعلقة بالقلب بضعف قلبه بأزمة في قلبه ، بضعف في عضلة القلب ، باحتشاء في القلب ، بسكتة قلبية ، أمراض القلب كلها تنتهي عند الموت ، ولكن المشكلة الكبيرة أن أمراض قلب النفس تبدأ بعد الموت ، وتشقي صاحبها إلى أبد الآبدين ، فأفضل ألف مرة أن يكون قلب الجسد معطوباً من أن يكون قلب النفس ملوثاً بشهوات الدنيا .

الفرق بين قلب النفس وقلب الجسد :

المذيع :

فرقت يا فضيلة الدكتور بين قلب النفس وقلب الجسد ، أليست هذه هي المضغة التي في الجسم هي ذاتها قلب النفس ، أم لا ؟

الأستاذ :

عن النُّعْمَان بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((... أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً ، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ))

[متفق عليه]

كأنني أشعر أن هذا الحديث يتوجّه إلى قلب الجسد ، ذلك لأن العناية بالقلب عناية بالحياة ، هناك أعضاء في الإنسان لو أن عطباً أصابها تبقى حياة الإنسان مستمرة ، ولكن القلب إذا أصابه عطب تنتهي حياته ، ذلك لأن القلب هو المضخّة ، فالعناية بها عناية بنشطات الإنسان ، وكما تعلمون أن صحة الإنسان أعظم نعمة بعد نعمة الإيمان .

الإمام علي كرم الله وجهه جعل نعمة الصحة تأتي بعد نعمة الإيمان ، وتأتي الكفاية بعد نعمة الصحة ، ثلاث نعم ترتَّب على هذا الشكل ، نعمة الإيمان ـ ونعمة الصحة ـ ونعمة الكفاية .

وقد أشار النبي عليه الصلاة والسلام إلى هذا المعنى حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ مَالِكٍ وَمَحْمُودُ بْنُ خِدَاشٍ الْبَغْدَادِيُّ قَالَا حَدَّثَنَا مَرْوَانُ بْنُ مُعَاوِيَةَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي شُمَيْلَةَ الْأَنْصَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[أخرجه الترمذي وابن ماجه]


صحة الجسد ضرورية لسلامة الروح والقدرة على العمل

في العالم الغربي يعلمون الطلاب أن في حياة الإنسان ثلاثة مرتكزات ، عمله ، صحته ، علاقته بمبدئه ، فأيّ خلل أصاب أحد هذه الثلاثة ينعكس على الفرعين الآخرين ، فلابد من أن يتحرك الإنسان على خطوط ثلاثة ، خط العناية بصحته ، وخط العناية بعمله ، وخط العناية بعلاقته بربه .

القلب ... قلب النفس ، هو الجانب المدرك من الإنسان ، بدليل :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

[سورة ق الآية : 37]

(لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا)

[سورة الحج الآية : 46]

هذا قلب النفس ، هو المخاطب ، هو المطالب ، هو المعاتب ، هو محل العلم والتقوى ، والإخلاص والذكرى ، والحب والبغض ، والوسواس والخطرات ، هو موضع الإيمان والكفر ، والإنابة والإصرار ، والطمأنينة والاضطراب .

القلب ... قلب النفس ، هو العالم بالله ، هو المتقرب إلى الله ، هو المقبول عند الله ، إذا سلم من غير الله، هو المحجوب عن الله ، إذا استغرق لغير الله ، هو الذي يسعد بالقرب من الله ، ويشقى بالبعد عنه ، وقد روي :

((عبدي طهرت منظر الخلق سنين))

[ورد في الأثر]

الإنسان يعتني ببيته ، تعتني بغرفة الاستقبال ، يعتني بمركبته ، يعتني بثيابه ، بهندامه ، بشكله ، بأناقته ، كي ينتزع إعجاب الآخرين ، فورد في بعض الأوراد القدسية :

((أن عبدي طهرت منظر الخلق سنين أفلا طهرت منظري ساعة))

[ورد في الأثر]

لأن القلب منظر الرب .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))

[أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة]

الإنسان قد يكون أنيقًا جداً ، لكن قلبه ممتلئ غلاً وحقدًا وحسدًا ونيات سيئة للبشر ، هذا ساقط من عين الله ، ولأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض أهون من أن يسقط من عين الله .

القلب كما قلت قبل قليل : منظر الرب ، ولا يفلح الإنسان ، ولا يطيب له عمر إلا بزكاة قلبه ، ولا يشقى إلا ببعد قلبه عن الله عز وجل .

أستاذ عبد الحليم ـ جزاك الله خيراً ـ إن فتشت عن أعجب ما خلق الله في السماء والأرض لم تجد أعجب ، ولا أروع ، ولا أدق ، ولا أجمل من قلب الإنسان .

هل القلب يشعر بالبغض كما يشعر بالحب ؟

المذيع :

فضيلة الدكتور ، تحدثت أن القلب هو الجانب المدرك من الإنسان ، والمخاطب ، والمطالب ، وهو مركز لهذا الشعور ، فهو الذي يشعر بالحب ، هل هو الذي يشعر بالبغض ؟

الأستاذ :

هو القلب الذي يبغض ، هو قلب النفس ، هو مركز النفس ، هو منطلق النفس .

لكن أنا أقول كلمة بمناسبة الحب : الإنسان الذي لا يشعر بحاجة إلى أن يُحِب ، ولا أن يُحَبّ فليس من بني البشر ، من خصائص البشر أنه يحب ، ويُحِبُ أن يُحَبُّ ، ولكن الذي يتمايز به البشر مضمون هذا الحب ، فقد تحب الله ، وإذا أحببت الله أحبك كل



الحب من خصائص بني البشر

شيء ، وإذا أحببت الله ألقى الله حبك في قلوب الخلق ، إذا أحببت الله لان لك كل شيء ، إذا أحببت الله هابك كل شيء ، هذا حب مقدس ، وقد تحب الحقيقة ، وقد تحب أهلك وأولادك وزوجتك ، هذا كله حب مشروع ، ولكن المشكلة الكبيرة لا في أن تحب في الله ، أن تحب مع الله ، الحب مع الله عين الشرك ، والحب في الله عين التوحيد ، والحب ميل النفس ، وقل لي من تحب أقل لك من أنت ، الحب يحدد هوية الإنسان ، لكن أقول : الذكي والعاقل والموفق والفالح هو الذي يحب ما هو أبدي سرمدي ، والمنحرف والأحمق والغبي هو الذي يحب شيئاً يزول .

رأى أحد الصالحين إنسانًا يبكي على قبر ، فقال له : لو أحببت الذي لا يموت أفضل من أن تحب الذي يموت ، فكل مخلوق يموت ، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت .

ليكن حبك للحي الذي لا يموت

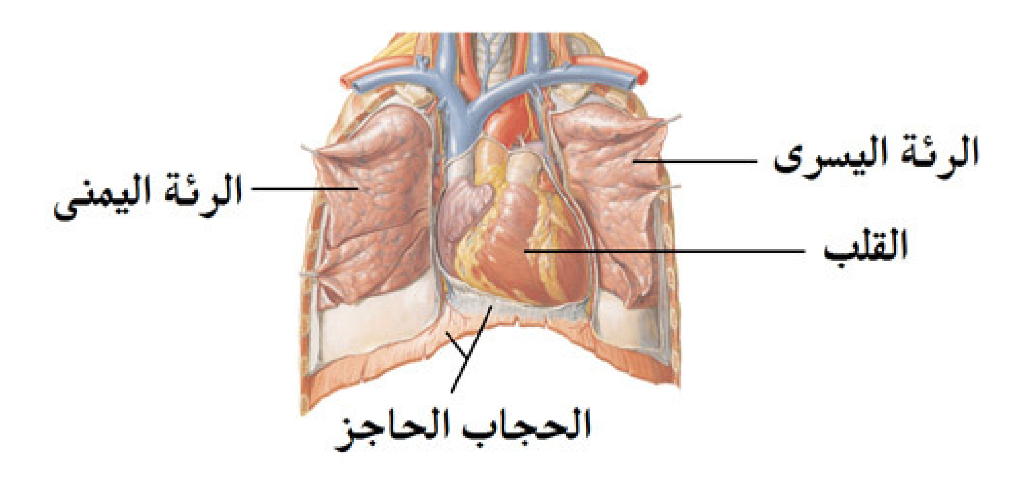
إن فتشت عن أعجب ما خلق الله في السماء والأرض لم تجد أعجب ولا أروع ولا أدق ولا أجمل من قلب الإنسان ، تصلح أوتاره فيفيض رحمة وشفقة ، وحباً وحناناً ، ومعاني لطافاً ، وشعوراً رقيقاً ، حتى يتجاوز في سموه الملائكة المقربين .

وتفسد أوتاره فينضح قسوة ولؤماً ، وسوءًا حتى يهوي إلى أسفل السافلين ، حوى على دقته كره العالم ، فما أدقه ، وما أجلّه ، وما أصغره ، وما أعظمه ، يكبر ولا نرى كبره ، فيتضاءل أمامه كل كبير ، فيصغر ولا نرى صغره ، فيتعاظم عليه كل حقير ، اتحد شكل القلب ، واختلفت معانيه .

قلب الأنبياء ممتلئ رحمة ، ممتلئ عدلاً ، ممتلئ لطفاً ، ممتلئ حناناً ، وقلب الطغاة ممتلئ قسوة ولؤماً وحقداً ، اتحد شكل القلب واختلفت معانيه ، فقلب كالجوهر صفا لونه ، وراق ماءه ، وقلب كالصخر قوي متين ينفع ، ولا يلمع ، وقلب هواء خف وزنه ، وحال لونه ، يموت القلب ، ثم يحيا ، ويحيا ، ثم يموت ، ويرتفع إلى الأوج ، ويهبط إلى الحضيض ، وبينما هو يسامي النجوم رفعة إذا هو يلامس القاع ضعة ، أليس أعظم بناة العالم قد امتازوا بكبر القلب ، وصدق الشعور ، وقوة الإرادة ، إما إن من وجد كل شيء وفقَد قلبه لم يجد شيئاً ، إن قلب الجسد أيضاً من أعجب ما خلق الله .

قلب الجسد :

المذيع :



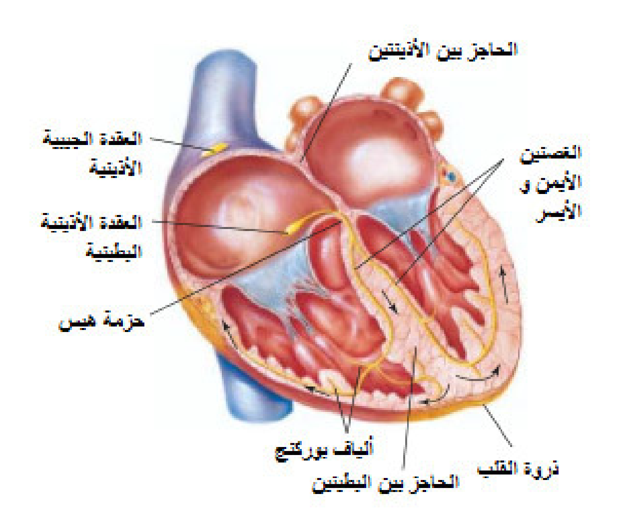
صورة لمنظر أمامي للصدر توضح القلب

تحدثنا عن قلب النفس ، والآن عن قلب الجسد ، إن قلب الجسد من أعجب ما خلق الله ، إنه مضخة مزدوجة تضخ الدم الذي يحمل الغذاء والوقود إلى كل خلية ونسيج ، وعضو وجهاز عن طريق شبكة من الأوعية يزيد طولها عم 150 كم ، طول الأوعية الدموية في الإنسان طبعاً أوعية دموية مطلقة ، 150 كم .

ما هو التوقيت الذي يبدأ به العمل وهو قلب الجسد ؟

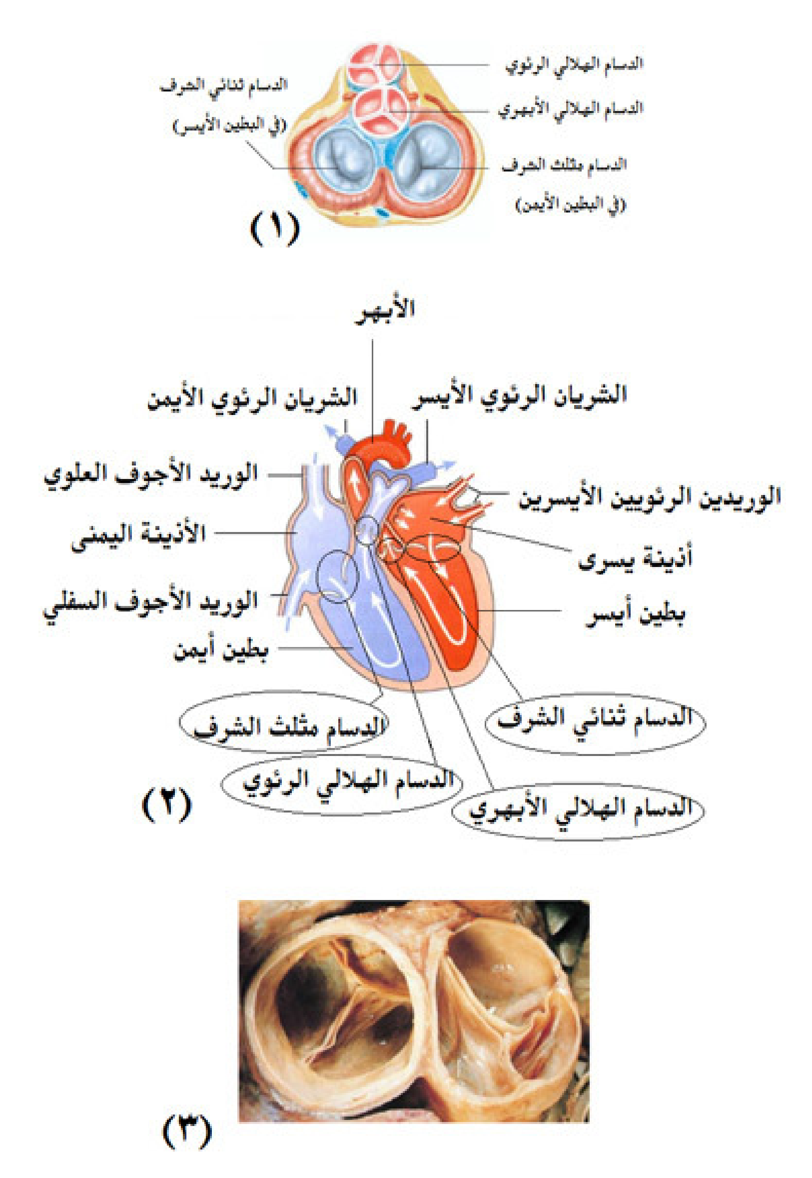
الأستاذ :

في اليوم العاشر بعد الشهر الرابع بالضبط ، في اليوم العاشر بعد الشهر الرابع ينبض القلب ، وحتى يحين الحين ، لا يغفل ولا ينسى ، ولا يسهو ، ولا يقعد ، ولا يغفو ، ولا يمل ولا يشكو ، بل يعمل دون راحة ، ولا مراجعة ، ولا صيانة ، ولا توجيه .



الصورة السابقة توضح جهاز القلب المتخصص بالإثارة و النقل (العقدة الجيبية الأذينية هي الناظمة البدئية المسيطرة في القلب فهي تولد الدفعات القلبية تلقائياً أما العقدة الأذينية البطينية تستطيع إصدار الدفعات القلبية تلقائياً في حال توقف العقدة الجيبية الأذينية عن العمل لذلك تسمى الناظمة الثانوية و في حال توقف الناظمتين البدئية و الثانوية عن إصدار الدفعات القلبية يمكن لأليلاف بوركنج في حزمة هيس و تفرعاتها أن تولد الدفعات القلبية تلقائياً)

الإنسان بجبروته يؤذيه ، وبنار الحقد يكويه ، وبالأحزان يبليه ، هو أساس حياة الإنسان ، وشمس عالمه ، عليه يعتمد في كل أعماله وأحواله ، ومنه تنبع كل قواه ، وحركاته ، وهو آية خارقة لا يعرف التعب إليه سبيلا ، تزداد قدرتها أضعاف كثيرة لتواجه الجهد الطارئ ، إنها عضلة من أعقد العضلات بناء وعملاً وأداءً ، وهي من أمتنها وأقواها ، تنقبض وتنبسط ثماني مرة في الدقيقة ، ويصل النبض في الجهد الطارئ إلى مئة وثمانين ، ويضخ القلب 8000 لتر في اليوم الواحد ، أي ما يعادل ثمانية أمتار مكعبة من الدم ، ويضخ القلب من الدم في طول عمر الإنسان ما يكفي لملء إحدى أكبر ناطحات السحاب في العالم ، وهذه المضخة يمكن أن تملأ في عمر متوسط أكبر ناطحة سحاب في العالم .



صورة توضح دسامات القلب (1) منظر علوي لدسامات القلب (2) صورة توضح اتجاه جريان الدم في القلب (3) صورة توضح الدسامين الهلاليين الرئوي و الأبهر (الدسامين في حالة إغلاق)

ينفرد القلب في استقلاله عن الجهاز العصبي ، فتأتمر ضرابته ، وتنتظم بإشارة كهربائية من مركز توليد ذاتي هي أساس تخطيطه ، وتتغذى عضلة القلب بطريقة فريدة ، ومن أعجب ما فيه دساماته المحكمة التي تسمح للدم بالمرور باتجاه واحد ، وهو مبدأ ثابت في المضخات ، إن القلب إذا سكن في قفص ، واستراح من غصص خلف وراءه جثة هامدة ، كأنها أعجاز نخل خاوية ، لم ترَ لها من حياة باقية ، وقد حدث النبي صلى الله عليه وسلم الصادق المصدوق عن القلب فقال :

((... أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً ، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ))

[متفق عليه]

ورحم الله الشاعر إذ يقول :

دقات قلب المرء قائلة لــه إن الحياة دقائق وثـوانٍ

فارفع لنفسك قبل موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثانٍ

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 21 - 30 : الكون ومداراته.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-11-15

بسم الله الرحمن الرحيم

بادئ ذي بدء الكون ما سوى الله، في القرآن الكريم يقابله السماوات والأرض، في المصطلح الحديث الكون، والكون ما سوى الله ، وقد تحدثت في لقاء سابق عن أن الله واجب الوجود، بينما ما سواه، وهو الكون ممكن الوجود، ممكن أن يكون، أو أن لا يكون، ممكن إذا كان أن يكون على ما هو كائن، أو على خلاف ما هو كائن.

على كلٍّ في صحيح ابن حبان عن عطاء أن عائشة رضي الله عنها قالت:

((أتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلتي، وقال: يا عائشة، ذريني أتعبد لربي عز وجل، فقام إلى القربة، فتوضأ منها، ثم قام يصلي، فبكى حتى بلّ لحيته، ثم سجد حتى بلّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله، ما يبكيك، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: ويحك يا بلال، وما يمنعني أن أبكي، وقد أنزل الله عليّ هذه الليلة:))

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190))

[سورة آل عمران: الآية 190]

قال عليه الصلاة والسلام:"

((ويل لمن قرأها، ولم يتفكر فيها))

وقد روي عن النبي عليه الصلاة والسلام:

((أمرني ربي أن يكون صمتي فكراً، و نطقي ذكراً، و نظري عبرًا))

(ورد في الأثر)

الإمام الحسن البصري رحمه الله تعالى قال: " من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو، ومن لم يكن نظره عبرة فهو لهو ".

والله عز وجل الذي خلق السماوات والأرض بالحق يقول:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)

[سورة فصلت: الآية 53]

والحق هو القرار والثبات والسمو والعلو، ونقيضه الباطل، وهو الزوال والزهوق والتردي والعبث، قال تعالى:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ)

[سورة فصلت: الآية 53]

فأين هي آيات الله في الآفاق ؟ الآن دخلنا إلى الموضوع، ورد أن عدد النجوم في السماء بعدد ما في الأرض من مدر وحجر، والعجيب أنه قبل أسبوعين أو ثلاثة صدر تصريحٌ لأحد علماء الفلك الكبار يقول فيه: إن عدد نجوم السماء بعدد رمال الأرض، وهذا تقريب للعدد، أي بعدد ذرات التراب والحجارة، فعلماء الفلك في الماضي كانوا يعدون النجوم بالألوف، وبعد أن ارتقت كفاءة مراصدهم صاروا يعدونها بالملايين، ثم وصلوا إلى المليارات، أي ألوف الملايين، أما اليوم فإنهم يقدرون عدد نجوم السماء في مجرتنا درب التبابنة من خلال المراصد العملاقة بثلاثين مليار نجم، علماً أن مجرتنا مجرة متوسطة في حجمها، وهي واحدة من عشرات ألوف الملايين من المجرات التي لا يعلم عددها إلى الله، لقد صدق الله العظيم إذ يقول:

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (6))

[سورة ق: الآية 6]

المذيع:

هذا عن عدد النجوم، وذكرنا أنها بالملايين، فكيف إذا ذكرنا الحجم الكبير لكل نجم ؟

الأستاذ:

أستاذ عبد الحليم، إذا علمنا أن حجم الأرض يساوي مليون مَليون متر مكعب، وأن الشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة، وأن المسافة بينهما مئة وخمسون مليون كيلو متر، وأن نجماً من النجوم في برج العقرب ـ كما ذكرت قبل هذا في حلقة سابقة ـ يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، وأن نجماً اسمه منكب الجوزاء يزيد حجمه على حجم الشمس بمئة مليون مرة، لقد صدق الله العظيم إذ يقول:

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47))

[سورة الذاريات: الآية 47]

المذيع:

إذاً فضيلة الدكتور الأعداد مهولة، والحجم كبير كما ذكرت، طبعاً هناك مسافات بين النجم والأرض ؟

الأستاذ:

مسافات فلكية، أي نحن في الأرض إن أردنا أن نذكر رقماً غير معقول رقماً يفوق حد التصور نقول: إنه رقم فلكي.

الحقيقة أن ما بينها من مسافات تقدر بالسنين الضوئية، فالضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر، إذاً هو يقطع في السنة عشرة آلاف مليار من الكيلو مترات، فإذا علمنا أن القمر يبعد عنا ثانية ضوئية واحدة، وأن الشمس تبعد عنا ثماني دقائق ضوئية، وأن المجموعة الشمسية لا يزيد قطرها على

ثلاث عشرة ساعة ضوئية، وأن أقرب نجم ملتهب إلى الأرض يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، ولكي نعلم ماذا تعني أربع سنوات ضوئية، لو اتجهنا إلى هذا النجم بمركبة تساوي سرعتها سعة مركبة القمر لاستغرقت الرحلة أكثر من مئة ألف عام، ولو ساوت سرعة هذه المركبة سرعة السيارة في الأرض لاستغرقت الرحلة هذه قريباً من خمسين مليون عام، هذا ما تعنيه أربع سنوات ضوئية، أي إن أردنا أن نصل إلى هذا النجم بمركبة أرضية لاحتاج إلى خمسين مليون عام، فما القول في سديم المرأة المسلسلة التي تبعد عنا مليوني سنة ضوئية ؟ بل ما القول في مجرة اكتشفت حديثاً تبعد عنا عشرين ألف مليون ؟ أي عشرين مليار سنة ضوئية، لقد صدق الله العظيم إذ يقول:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76))

[سورة الواقعة]

هذا ولم نتحدث عن حركات النجوم وعن سرعاتها العالية، ولا عن مداراتها الواسعة، ولا عن شدتها، ولا عن قوة إضاءتها، ولا عن قوى التجاذب التي تربطها، ولا عن توازنها الحركي، وعلى كلٍّ فالعجز عن الإدراك إدراك، قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (67))

[سورة الزمر: الآية 67]

المذيع:

قال الله تعالى:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)

[سورة فصلت: الآية 53]

تحدثنا فضيلة الدكتور عن الكون بشكل عام، وعن النجوم كم لها من الحجم الكبير، والعدد المهول لها، ولكن إن أردنا أن نعطي فكرة صغيرة عن مدارات الكواكب هل ذكر في القرآن الكريم مثلاً ؟

الأستاذ:

لاشك أن هناك استنباطاً لطيفاً من قوله تعالى:

(لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40))

[سورة يس: الآية 40]

هذه الآية على ظاهرها تدل على أن للشمس مداراً، وللقمر مداراً، ومدار الشمس لا يتصل بمدار القمر، ولن تصطدم الشمس بالقمر، بل كل في فلك يسبحون، والآن الطائرات ـ أستاذ عبد الحليم ـ كل طائرة لها مسار، لو لم يكن هناك مسارات خاصة لكل طائرة، ولكل رحلة لكان هناك فواجع في الجو، يؤكد هذا المعنى قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

[سورة فاطر: الآية 41]

أي أن تنحرف عن مسارها الذي رسم لها، وقوله:

(أَنْ تَزُولا)

أي أن تنحرفا، والزوال في وقت الظهيرة انحراف الشمس عن كبد السماء.

لقد فهم من هذه الآية الكريمة أن كل كوكب في الفضاء له مدار يدور فيه، حتى إن بعضهم حينما تلا قوله تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11))

[سورة الطارق: الآية 11]

رأى أن هذه الآية فيها أدق رسم للسماء، فما من كوكب أو نجم في السماء إلا وله مدار يدور فيه، و يعود إلى ما كان بعد حين، فهذا المذنب الذي يرقبه الناس كل يوم، طبعاً مضى وقت كان هناك إعلان إخباري عن أن هناك مذنبًا سوف يقترب من الأرض، فهذا المذنب الذي راقبه الناس كل يوم مذنب هالي منذ أن خلق الله السماوات والأرض يدور في مدار لا يحيد عنه قيد أنملة، يصل إلى نقطة تقترب من الأرض ثلاثمئة مليون كيلو متر، له ذيل يزيد طوله على ثلاثة وتسعين كيلو مترًا، ويخاف الناس أن يبقى في سيره مستقيماً فيرتطم بالأرض، أما الآية الكريمة فتقول:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

[سورة فاطر: الآية 41]

المذيع:

إذاً للمذنب مدار معين حول الأرض ؟

الأستاذ:

نعم لا يحيد عنه أبداً:

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40))

[سورة يس: الآية 40]

إن بقاء هذا المذنب في مداره ملايين السنين، وبقاء الأرض في مدارها ملايين السنين، وبقاء الشمس في مدارها ملايين السنين في حد ذاته آية عظيمة جلّت من آية، قال تعالى:

(لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40))

[سورة يس: الآية 40]

قد لا نصدق أن هذه الساعة الشهيرة في لندن ساعة (بيغ بن)، والتي يقال: إنها قد تزيد أو تنقص في العام ثانية واحدة، على ماذا تضبط ؟ على حركة نجم، حركة النجم الذي يقطع ملايين مَلايين ملآيين مَلايين ملايين الكيلو مترات، يأتي في وقت لا يقصر، ولا يسبق ولا ثانية واحدة.

مثلاً: لو أن قطاراً يقطع من الخرطوم إلى القاهرة، انطلق في الساعة السادسة، وقيل: سوف يصل في الساعة السادسة والدقيقة الواحدة والثلاثين، أليس من الروعة ومن الإنجاز العلمي أن يصل في وقت يحسب بالدقائق ؟ هذا من صنع إنسان، كذلك هذا النجم العملاق الذي يقطع مليارات مَليارات مليارَات الكيلو مترات يصل بدقة تضبط عليها ساعة (بيغ بن).

فكل كوكب له مدار لا يزيد ولا ينقص، والكوكب لا يسرع، ولا يبطئ، فالشمس لن ترتطم بالقمر، ودورة الأرض حول نفسها ثابتة، وطول الليل لا يتغير، أي إن التقاويم بعد مئة عام تبقى صحيحة، بعد ألف عام تبقى صحيحة، بعد خمسة آلاف عام تبقى صحيحة، والدليل أن كل بيت فيه تقويم يمكن أن تقول: في عام ألفين وثمانمئة الشمس في يوم ثلاثة وعشرين من شهر شباط تشرق الساعة الخامسة والدقيقتين، ماذا يعني هذا ؟ ثبات حركة النجوم، ثبات الأزمنة والأمكنة والمسارات والمدارات، هذا شيء يلفت النظر.

المذيع:

دقة في التصميم والتنظيم لابد أنها قدرة الخالق.

الأستاذ:

وأن تكتشف قبل خمسة آلاف عام أن الشمس في اليوم الثالث والعشرين من شهر شباط سوف تشرق في الساعة الخامسة ودقيقتين، هذا معنى قوله تعالى:

(وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40))

[سورة يس: الآية 40]

دورة الأرض حول نفسها ثابتة، وحول الشمس ثابتة، وكل في فلك يسبحون، لكن علماء الذرة دهشوا من هذه الآية، قوله تعالى:

(وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40))

[سورة يس: الآية 40]

فعلام تدل كلمة

(كُلٌّ)

هذه الآية تعود على كل شيء خلقه الله عز وجل، فالمنبر فيه ذرات، وفي الذرات نيترونات تدور حول نفسها، ونظام الذرات كنظام المجرات، وكل شيء تقع عينك عليه مؤلف من جزئيات، والجزيء مؤلف

من ذرات، والذرة مؤلفة من نواة، ومن كهارب لها مدارات، ولها سرعة ثابتة، هذه الآية التي تشير إلى الذرة، قال تعالى:

(وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40))

[سورة يس: الآية 40]

أي كل شيء خلقه الله في فلك يسبحون، ذرات الصخر والحجر والخشب والماء والبلور والطاولة، وكل شيء تقع عينك عليه إنما هو جسم مؤلف من جزئيات، والجزيء من ذرات، والذرة من نواة.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 22 - 30 : الحمام الزاجل.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-11-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

لفت نظري مرة أن مقالة كتب عليها: " حمام الزاجل أول وكالة أنباء في التاريخ "، وقد نربط هذا الموضوع العلمي بتاريخنا القريب، فالأمير نور الدين الشهيد استخدم البريد الجوي حينما كان أميراً على بلاد الشام ومصر معاً، فكان يرسل بريداً من الشام إلى مصر، وتأتيه الأجوبة في زمن قصير جداً عن طريق حمام الزاجل، ماذا قال العلماء عن حمام الزاجل ؟ قالوا: حمام الزاجل، وله اسم آخر، حمام الرسائل، له ما يزيد على خمسمئة نوع، وهذا شيء لا يصدق، هو يمتاز بحدة الذكاء والقدرة الفائقة على الطيران، ويمتاز بغريزة قوية يهتدي بها إلى هدفه وموطنه، هو مخلوق مستأنس أَلِفٌ، قال تعالى:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

[سورة يس: الآية 72]

كلمة } ذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ { فيها معانٍ كثيرة جداً، هذا الحيوان الذي يألفه الإنسان، ويألف الإنسان، ويستخدمه، ويعينه على أداء مهماته، لولا أن الله ذلله لما أمكنه أن ينتفع منه، لو أن أخلاق هذه الأنعام التي نأكلها كأخلاق الذئاب كيف نتعامل معها ؟

المذيع:

دكتور محمد، بالنسبة لاسم هذا الحمام ذكرت أنه حمام الزاجل، هل هناك فرق بين الحمام العادي وحمام الزاجل ؟

المذيع:

طبعاً هذا كأن الله خلقه لهذه المهمة، تعلمون أن هناك كلابًا كثيرة، لكن الكلاب البوليسية قدرة شمّها مليون ضعف عن بقية الأصناف، معنى ذلك أنها مخلوقة خصّيصى لهذا الهدف، فيبدو أن حمام الزاجل في أصل تصميمه، وفي أصل خلقه قد خلقه الله ليعين الإنسان على نقل المعلومات والأخبار .

هناك سؤال: من ذلّل هذا الطير ؟ من جعله حاد الذكاء ؟ من جعله ذا قدرة فائقة على الطيران ؟ من جعله ذا غريزة قوية يهتدي بها إلى هدفه ؟ من جعله مستأنساً يألف الإنسان، ويخدمه، وهو مسخر له ؟ إن هذا الطير، حمام الزاجل أو حمام الرسائل كما يسمى يقطع مسافة ألف كيلو متر دون توقف، في طيران مستمر، يقطعها بسرعة كيلو متر واحد في الدقيقة، أي يقطع في الساعة ستين كيلو مترًا، ويعطي حمام الزاجل هذا سنوياً تسعة أزواج من الزغاليل كل عام، ما سمعنا أن طائرة دفعنا ثمنها مئات الملايين من الدولارات أنتجت لنا طائرة صغيرة في آخر العام، فحمام الزاجل يعطي سنوياً تسعة

أزواج من الزغاليل كل عام، ويعين على نقل الرسائل عبر الآفاق، ويهتدي إلى إيصالها بسرعة فائقة بالقياس إلى ذلك الزمن .

المذيع:

فضيلة الدكتور، مَن استخدم هذا الحمام ؟

الأستاذ:

يروي التاريخ القريب من الحديث أن السلطان نور الدين استخدم الحمام لنقل رسائله بين دمشق والقاهرة، حيث كان البريد ينقل عن طريق الحمام، وكان اسم السلطان ينقش على منقار هذا الحمام، وكان له ورق خاص يحمله لينقل به الرسائل ذا الوزن الخفيف نسبياً، وكان هذا السلطان يستخدم ألفين من الحمام لنقل الرسائل بينه وبين عماله في الأمصار .

إن ثمة لغزاً كبيراً جداً مازال إلى اليوم يحير الباحثين، كيف يهتدي هذا الحمام الذي خلقه الله سبحانه وتعالى إلى هدفه ؟ وما الطريقة التي يستخدمها ؟ ويسأل العلماء: كيف يستدل الحمام على طريقه الطويل في السفر ؟

بالمناسبة، ما من نظرية وضعت لتفسير ظاهرة اهتداء الطير إلى هدفه إلا ونقضها العلم، حتى الآن ليس هناك نظرية تفسر اهتداء هذا الطائر عبر عشرات الآلاف من الكيلو مترات ليلاً أو نهاراً فوق البحر، أو فوق اليابسة دون أن يضل الطريق إلى هدفه، والطائر أحياناً ينتقل من شمال الكرة إلى جنوبها، وقد تكون رحلته تزيد على سبعة عشر ألف كيلو متر، لو أنه أخطأ في درجة واحدة من زوايا الانطلاق لجاء في مكان آخر، مثلاً حي من أحياء بيروت فيه بيت فيه عش طائر، هذا الطائر يهاجر إلى جنوب إفريقيا، في طريق العودة لو أخطأ في درجة واحدة في زاوية الطيران لجاء في العراق، ما الذي يجعله يأتي إلى بيروت بالذات ؟ هذا الشيء لا يزال محيراً .

مرة اطلعت على بحث يزيد على ثمانين صفحة في أرقى مجلات الجغرافيا في العالم، إلى الآن ليس هناك جواب مقنع وشافٍ، ويغطي كل حركات الطيران .

مثلاً: لعلهم يفهمون أن هذا الطائر مبرمج على أن يسافر من الشمال إلى الجنوب، ومن الجنوب إلى الشمال، فجاؤوا بمئة طائر، وعلّموها، وأخذوها إلى الهند من بريطانيا، إذاً هي تطير الآن في اتجاه الغرب، جاؤوا بعدد من الطيور، ونقلوها إلى بلاد شرقية كالهند مثلاً، التي أُخِذت من بريطانيا عادت إلى بريطانيا، فسّر ذلك مرة بالشمس، مرة بالساحة المغناطيسية، فسّر ذلك بالتضاريس، ما من تفسير إلا وصار عاجزاً عن تغطية هذه القدرة التي أودعها الله في الطائر، إلا أن بعض علماء المسلمين قال: حينما قال الله تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ)

[سورة الملك: الآية 19]

استنبط علماء المسلمين أن اهتداء الطير إلى هدفه يتم مباشرة بتوجيه الله عز وجل، من قوله تعالى:

(وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ)

[سورة الملك: الآية 19]

على كل الحمام يعد كما قلنا في مطلع هذا اللقاء الطيب: أول وكالة أنباء في التاريخ .

المذيع:

دكتور، إن أردنا أن نتجاوز عن تفسير رجوع الطير إلى موطنه الأصلي فمن الممكن أن نتجاوز عنه، ولكن كيف نتجاوز عن تفسير أنه يرسل الطائر إلى مكان آخر غير موطنه ليبعث برسالة فهنا تفسير عجيب ؟

الأستاذ:

سوف نحاول أن نفسر ذلك، الحقيقة أن الإغريق واليونان والرومان والعرب، وفي كل العصور كانوا يستخدمون هذا الطائر لنقل الرسائل وإيصال الأنباء، وقد استخدمته بعض الدول الغربية كهولندا لإبلاغ الأوامر إلى سومطرة، تصور من هولندا إلى سومطرة، وجاء إلى جنوب شرق آسيا يقطع مسافات تزيد على سبعة عشر ألف كيلو متر تقريباً، لكن السؤال الذي يحير العقول كما تفضلت به قبل قليل: كيف يهتدي هذا الطائر عبر هذه المسافات الطويلة التي يعجز عن الاهتداء إليها أذكى طيار على وجه الأرض ؟ الطيار هناك محطات أرضية نظامية كثيرة جداً ترسل له إشارات، كيف يعرف الطيار أين هو على سطح الأرض ؟ لولا هذه المحطات التي ترشده إلى مكان وجوده لما أمكنه أن يهتدي .

طبعاً هذا واضح جداً في مخلوقات أخرى، أنا ذكرت مرة أن بعض الأسماك تأتي من ينابيع الأنهار في أمريكا إلى مصباتها إلى الشرق إلى سواحل أوربا في المحيط الأطلسي، وتعود إلى مصبات الأنهار إلى رؤوس الأنهار فتموت هناك، لو أنها أخطأت في درجة واحدة أيضاً لكانت قد أتت من نهر الأمازون، فإذا بها في نهر آخر، شيء عجيب جداً .

على كل الطيار يستخدم إشارات وإحداثيات وخرائط، وبث مستمر يحدد له في أي موقع هو على سطح الأرض، إنها رحلة طويلة من غرب أوربا إلى جنوب شرق آسيا، فكيف ـ كما تساءلتم جزاكم الله خيراً ـ فكيف يوصل طائر صغير رسالة إلى أبعد مكان، وكيف تعمل الحاسة التي توجه الطائر نحو طريقه ؟ قال العلماء: إن شيئاً ما يوجه هذه الطيور إلى أهدافها لا نعرفه، وأروع ما في الموضوع كما قال سيدنا الصديق: العجز عن الإدراك إدراك .

أحياناً الإنسان يرى لغزاً لا حل له، أقول لك، وأنا واثق من هذا الكلام: إنه حتى الآن ليس هناك تفسير علمي واضح لحركة الطيور، ليس هناك جواب، إلا أنني فهمت من قوله تعالى كما فهم غيري أن الله سبحانه وتعالى يوجه توجيهاً مباشراً هذا الطير ليكون آية على عظمة الله عز وجل .

قد توقع بعض علماء الأرض أن معالم الأرض تنطبع في ذاكرة هذا الطير، فهو يعرفها، ويهتدي بها، هذه فريضة، فجاء عالم آخر، ونقض هذه الفرضية بأن جاء بحمام الزاجل، وعصب عينيه، وأطلقه فانطلق إلى هدفه، هذه النظرية أصبحت باطلة، فأين تلك المعالم ؟ وأين الذاكرة على الرغم من أنه قد عصبت عيناه انطلق إلى هدفه ؟

فرضية ثانية: أنه يشكل مع الشمس زاوية يهتدي بها إلى وطنه، فلما قيل: يطير في الليل فكيف يهتدي إلى هدفه، وهو يطير ليلاً نقضت هذه النظرية .

نظرية ثالثة: إنهم توقعوا وجود جهاز رادار في دماغه يهديه إلى الهدف، فوضعوا على رأسه جهازاً صغيراً كهربائياً يصدر إشارات كهربائية من أجل أن تشوش عليه، ومع ذلك وصل إلى هدفه .

ثم توقعوا أنه يهتدي إلى أهدافه عن طريق الساحة المغناطيسية في الأرض، فوضعوا في أرجله حلقات حديدية ممغنطة من أجل تشويش هذه الساحة فاهتدى إلى هدفه .

لم تبق عندهم من نظرية إلا ونقضت، فكيف يقطع الطائر عشرات الآلاف من الأميال فوق البحر، وفوق الجبال، وفي الصحراء، وفي الوديان، وكيف يأخذ زاوية باتجاه الهدف، هذا سر لا يزال يحير عقول العلماء، وقد قال أحد العلماء: إن شيئاً ما يوجه الطيور إلى موطنها، قال تعالى:

(فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50))

[سورة طه]

وأصح تفسير لهذا الموضوع أن الأمر يتعلق بهداية الله سبحانه وتعالى، قال تعالى:

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3))

[سورة الأعلى]

لذلك يسمي علماء التوحيد هذه الظاهرة التي تحير العقول هداية الله تعالى، ويسميها علماء الحياة الغريزية آلية معقدة توجد عند المخلوق دون تعلم، عمل ذكي على مراحل ومبرمج يفعله الحيوان بلا تعلم .

الإنسان حينما يتعلم يتحرك وفق علمه، لكن الحيوان أحياناً يقوم بأعمال بالغة التعقيد من دون تعلم، هذه اصطلح على تسميتها بالغريزة، والغريزة عمل معقد جداً على مراحل مبرمج، ولكن بلا تعلم، مثلاً الإنسان يولد، ولد لتوه كيف يستطيع الأب أن يعلمه كيف يمص ثدي أمه ليشرب من حليبها ؟ هل هناك قوة في الأرض تستطيع أن تعلم المولود لتوه ؟ لو أن الأب قال له: يا بني، لابد من أن تشرب الحليب

من ثدي أمك، ضع فمك على حلمة ثدي أمك، واحكم الإغلاق، ثم اسحب الهواء، هل هناك في الأرض قوة تستطيع أن تعلم هذا الوليد ؟ أبداً، قال علماء الطب: إن الطفل الذي يولد لتوه مركوز فيه منعكس اسمه منعكس المص، دون تعلم، لمجرد أن يضع الوليد فمه على ثدي أمه يحكم الإغلاق، ويسحب الهواء، فيأتيه الحليب، هذا المنعكس الوحيد الذي خلق مع الإنسان، ولولاه لما كانت هذه الندوة .

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 23 - 30 : المشيمة - السائل الأمنوسي.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-11-17

بسم الله الرحمن الرحيم

حينما يولد الجنين يكون معه في الرحم قرص يسميه علماء الطب المشيمة، ويسميه العوام الخلاص، في هذا القرص من آيات الله الدالة على عظمته الشيء الذي لا يصدق



صورة لجنين بعمر 18 أسبوع متصل بالمشيمة عن طريق الحبل السري هذه الصورة توضح المشيمة و الغشاء الأمنيوسي (السلى)

ذلك لأن الله جل جلاله يقول:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

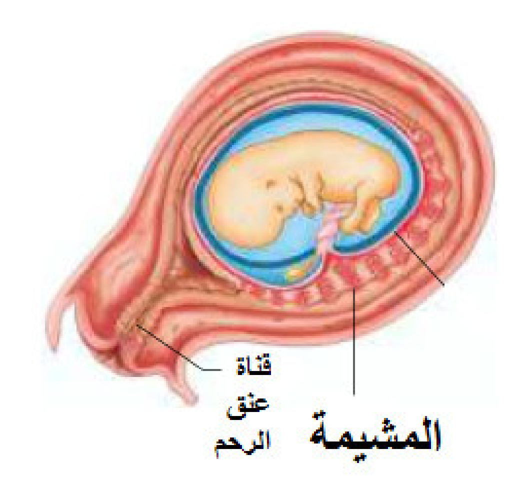
[سورة التين: 4]

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

[سورة النمل: 88]

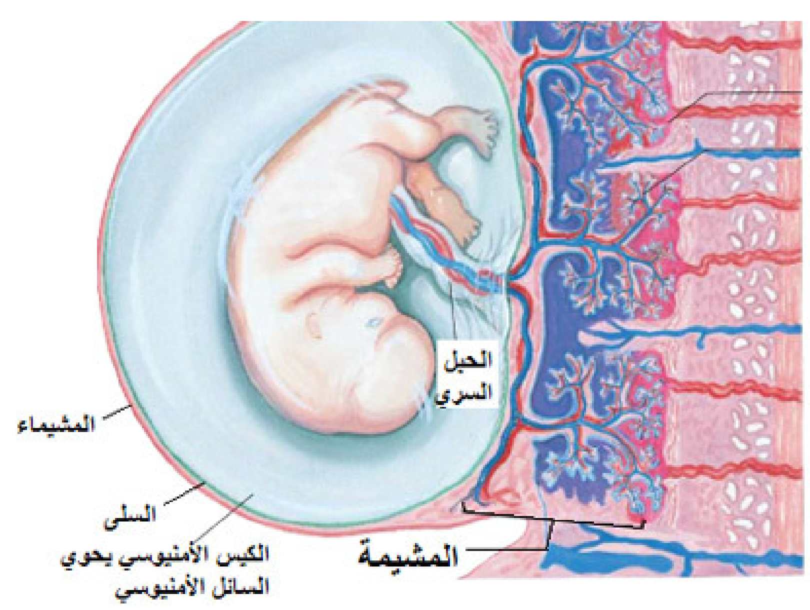
(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

[سورة الملك: 3]

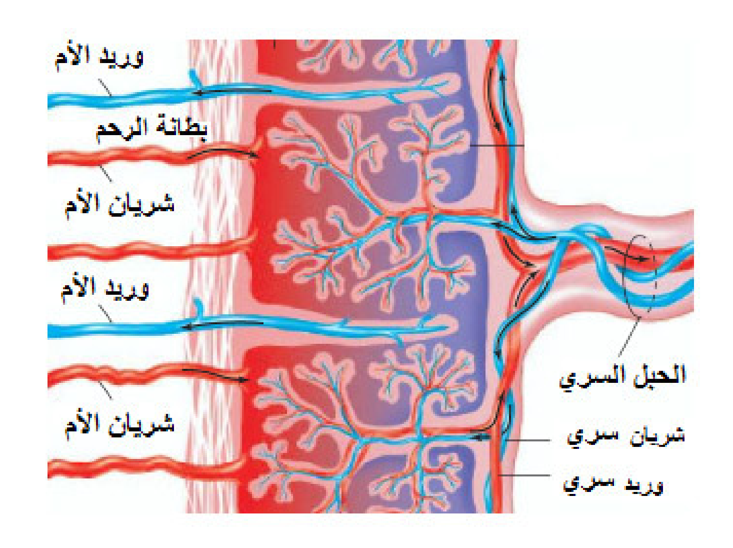


صورة للرحم في الأسبوع الثامن بعد الإلقاح توضح المشيمة

فهذا القرص الذي يسمى المشيمة تلتقي فيه دورتا دم الأم والجنين، ومعلوم بشكل بديهي أن لكل دم زمرة، وأننا لو أعطينا إنساناً دماً من غير زمرته لانحل دمه، ولمات فوراً.



صورة توضح 1- المشيمة 2- الكيس الأمنيوسي و السائل الأمنيوسي و الغشاء الأمنيوسي (السلى)



صورة توضح دوران الدم في المشيمة

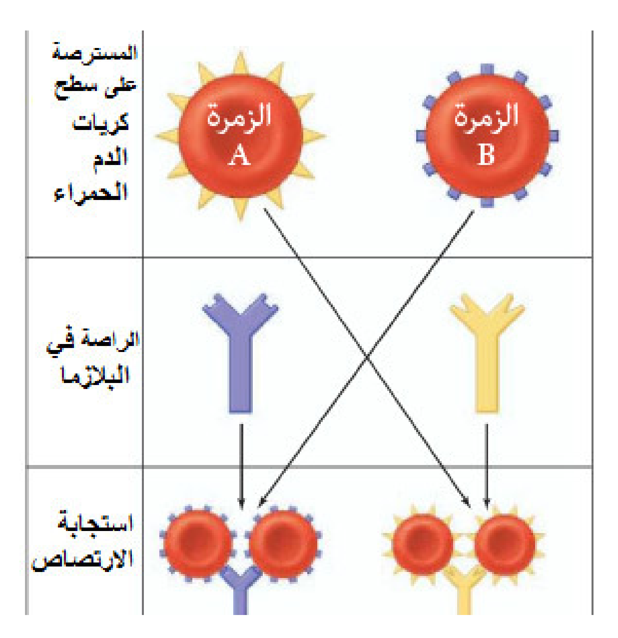
المذيع:

إذا أردنا أن نعلم أكثر عن الزمرة ما هي؟

تعريف الزمرة الدموية :

الأستاذ:

طبيعة خاصة في الدم تتعلق بكل إنسان، لكن هناك زمراً محددة، ولكن مادام سألت عن الزمرة كفئات الدم تسمى عندنا الزمر، وتسمى في بلد آخر فئات الدم، لكن الشيء الآخر أن لكل إنسان زمرة نسيجية لا يشبهه فيها واحد في الأرض، ثبت الآن أن لكل إنسان زمرة نسيجية، ولكل إنسان خصائص ينفرد بها منها قزحية العين، ومنها بلازما الدم، ومنها رائحة عرق الجلد، ومنها نبرة الصوت، ومنها بصمة الأصابع، هذه هوية، فكما أن الله جل جلاله فرد في ذاته هذه الصفة لكرامة الإنسان عند الله منحها للإنسان، فالإنسان فرد لا شبيه له، هذا الغشاء العاقل الذي بين دورتي دم الأم والجنين، ذكرت قبل قليل أن مع الجنين قرصاً تلتقي فيه دورتا دم الأم ودم الجنين، ولكل دم زمرة، ولا يختلطان.



صورة توضح المسترصات على سطح كريات الدم الحمراء و الراصات في البلازما و استجابة الارتصاص التي تحصل عندما تجتمع المسترصة مع الراصة الموافقة لها (مثلاً المسترصة A مع الراصةa

الغشاء العاقل من آيات الله الكبرى :

بين الدورتين غشاء يقوم بأعمال يعجز عنها أعلم علماء الطب، بل إننا لو أوكلنا مهمات هذا الغشاء إلى أعلم علماء الطب لمات الجنين في ساعة واحدة، يقوم بشيء لا يصدق، هذا الغشاء سمي الغشاء العاقل لأنه يقوم بأعمال في أعلى درجة من الحكمة والعقل، مثلاً هو بين دم الأم ودم الجنين، والسائلان الدمويان لا يختلطان، الغشاء العاقل يأخذ من دم الأم ما يحتاجه الجنين من المعادن، من الفيتامينات، من البروتينات، من الشحوم، من المواد السكرية، وكأن هذا الغشاء العاقل يختار المواد الغذائية التي يحتاجها الجنين كل يوم، وكل يوم تتبدل هذه النسب بحسب نمو الجنين، التعبير متغير يومياً فيختار من دم الأم ما يحتاجه الجنين من مواد موجودة في دم الأم، إذاً هو جهاز هضم للجنين يقدم له الغذاء، ثم إن هذا الغشاء العاقل يختار الأوكسجين من دم الأم وينقله إلى دم الجنين كي يحرق هذا الأوكسجين المواد السكرية فتنشأ الطاقة، ثم إن هذا الغشاء العاقل يأخذ مناعة الأم ويضعها في دم الجنين، فجميع الأمراض التي أصيبت بها الأم، وعوفيت منها، وأصبح عندها مناعة ضد هذا المرض تنقل هذه المناعة إلى دم الجنين كي يحصن من هذه الأمراض التي أصابت أمه، إذاً هو جهاز مناعة مكتسب، لكن هذا الغشاء العاقل يقوم بعملية معاكسة يأخذ من دم الجنين ثاني أكسيد الكربون ونواتج الاحتراق، يأخذ من

دم الجنين حمض البول، يأخذ من دم الجنين المواد السامة، ويضعها في دم الأم كي تطرح عن طريق كليتي الأم وجهازها التنفسي.

المذيع:

سبحان الله ! يعطي الجنين الأمور الجيدة.

وظائف الغشاء العاقل :

الأستاذ:

إذاً هو كليتان، فصارت المشيمة جهاز هضم، وجهاز تنفس، وجهاز مناعة مكتسب، وجهاز تصفية للدم- كليتان -، الشيء الغريب أن هذا الغشاء يعطي دم الجنين مواداً تعين على حرق السكر في الدرجات الاعتيادية، إذاً هو بنكرياس للجنين، هذا دور الأنسولين، الأنسولين مادة يفرزها البنكرياس من أجل أن يحترق السكر في درجات متدنية في جسم الإنسان، إذاً هذا الغشاء العاقل يقوم بدور البنكرياس.

ثم إن هناك حقيقة في جسم الإنسان أن كل جسم غريب عن الجسم يرفضه الجسم، والجنين شيء غريب ينبغي أن يرفض، لكن هذا الغشاء العاقل يفرز مواداً تمنع رفض هذا المولود الجديد، هذا الغشاء العاقل سمي عاقلاً لأنه يقوم بأعمال يعجز عنها العقلاء، وكما قلت قبل قليل: لو أوكل أمر الوظائف التي يقوم بها الغشاء العاقل إلى أعلم علماء الطب لمات الجنين في ساعة واحدة.

ثم إن هذا الغشاء العاقل يحث الثديين في الأم على إفراز الحليب قبيل الولادة، والحقيقة أن هذا الغشاء يقوم بأعمال مذهلة، وكلكم يعلم أيها الأخوة المستمعون أن المادة ليست عاقلة، لا تصدق أن سيارة بلا إنسان يمكن أن تنطلق، وأن تقف عند الإشارة الحمراء، وأن تطلق البوق لطفل مرّ أمامها، ثم أن تقف إذا سمعت صوت الشرطي يدعوها للوقوف، هذا شيء غير مقبول إطلاقاً، فالمادة ليست عاقلة، ومادام هذا الغشاء يقوم بأعمال يعجز عنها العقلاء فهذا من تسيير الله جل جلاله، وهذا معنى قوله تعالى:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)

[سورة التين: 4-5]

فإذا عرفنا وارتقت نفسه سعد في الدنيا والآخرة، وإذا غفل عن الله عز وجل، وتفلت من منهجه، وأساء إلى خلقه شقي في الدنيا والآخرة.

المذيع:

فضيلة الدكتور، ذكرت لنا في البداية أن هذا الغشاء يفصل دم الأم عن دم الجنين، أي أن هناك فرقًا

بين فئة دم الأم وفئة دم الجنين، فهناك اعتقاد عند البعض أن دم الجنين هو مماثل لدم الأم، وليس مختلفاً، فهل يكون هناك اختلاف؟

لكل من الأم والجنين زمرة دم خاصة :

الأستاذ:

والله أنا الذي أعرفه أن لكل دم زمرة، وهذا شيء يؤكده الأطباء، وهذه الأبحاث راجعها الأطباء، أنا أحترم اختصاص الإنسان، هذه الأبحاث التي أدرجتها في كتابي: الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة راجعها أطباء كبار، ولم يعترضوا على أن لكل من الأم والجنين زمرة دم خاصة.

المذيع:

فضيلة الدكتور، بعد أن عرفنا كيف الجنين يتنفس، ويأخذ الأوكسجين، ويطرح الفضلات إلى ما هنالك، والآن إن أردنا أن نعرف كيف يتقي الصدمات؟

السائل الأمنيوسي :

الأستاذ:

هذا الكلام الطيب، والسؤال اللطيف ينقلنا إلى موضوع آخر، فنحن في هذا اللقاء الطيب تحدثنا عن المشيمة، وعن الغشاء العاقل بين دورتي الأم والجنين، أما سؤالك اللطيف فيقتضي أن نتحدث عن السائل الأمنيوسي.

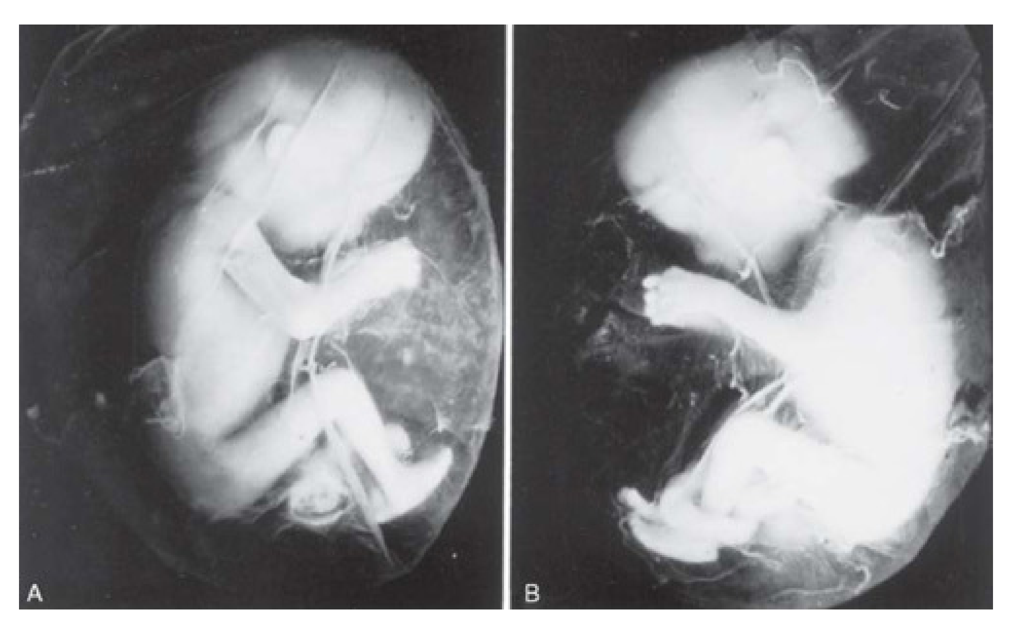
بادئ ذي بدء يقول الله جل جلاله في كتابه العزيز:

(يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ)

[سورة الزمر: 6]

لقد فسر العلماء هذه الظلمات تفسيرات متباينة، منهم من قال: إنها ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة الأغشية التي تحيط بالجنين، وقال بعضهم: إن الجنين محاط بأغشية ثلاث، وربما كان هذا من إعجاز القرآن العلمي، هناك أغشية ثلاث تحيط بالجنين، سؤالكم يقتضي أن نقف وقفة عند غشاء واحد، هو الغشاء الأمنيوسي، هذا الغشاء هو الغشاء الباطن من جهة الجنين، أي أول غشاء من جهة الجنين هو الغشاء الأمنيوسي، هذا الغشاء يحيط بالجنين من كل جانب إحاطة كاملة، هو كيس غشائي رقيق مقفل، وفي هذا الغشاء المقفل سائل يزداد مع نمو الجنين اسمه السائل الأمنيوسي، يصل إلى لتر ونصف اللتر

في الشهر السابع، ثم يعود إلى لتر قبيل الولادة، وهذا السائل أيضاً يقوم بمهمات يعجز عن فهمها العلماء.



A صورة جنين بعمر 12 أسبوع موجود داخل الكيس الأمنيوسي B لاحظ الحبل السري ملتف (على شكل عروة) حول الكاحل الأيسر للجنين

من منا يصدق أنه لولا هذا السائل لما نجا جنين من موت محقق، هذا السائل يغذي الجنين ففيه مواد زلالية، ومواد سكرية، وأملاح غير عضوية، وهذا السائل يحمي الجنين من الصدمات، وقد طبق هذا المبدأ في مركبات الفضاء حيث أن كبسولة الرواد كان بينها وبين جسم المركبة سائل من أجل امتصاص الصدمات، فحينما تأتي الجنين صدمة من جهة ما قوتها أربعة سنتمترات مثلاً فإن السائل يوزع هذه الصدمة على كل السطح، فيصبح هذا الضغط نصف ميليمتر.

وإن أحدث طريقة لامتصاص الصدمات أن يكون بين الشيء الذي تخاف عليه والمحيط الخارجي سائل، مثل هذا السائل موجود في الدماغ، حيث إن المخ محاط بسائل يمنع تأذي المخ بالصدمات، بل إن هذا السائل يمتص كل صدمة مهما تكن كبيرة، هذا السائل الأمنيوسي هو الذي يحمي الجنين من الصدمات والسقطات والحركات العنيفة التي تصيب المرأة الحامل، فإن أية ضربة أو أية صدمة يمتصها هذا السائل ويوزعها على سطح الجنين حتى لا يتأثر الجنين هذه المهمة الثانية.

مهمات السائل الأمنيوسي :

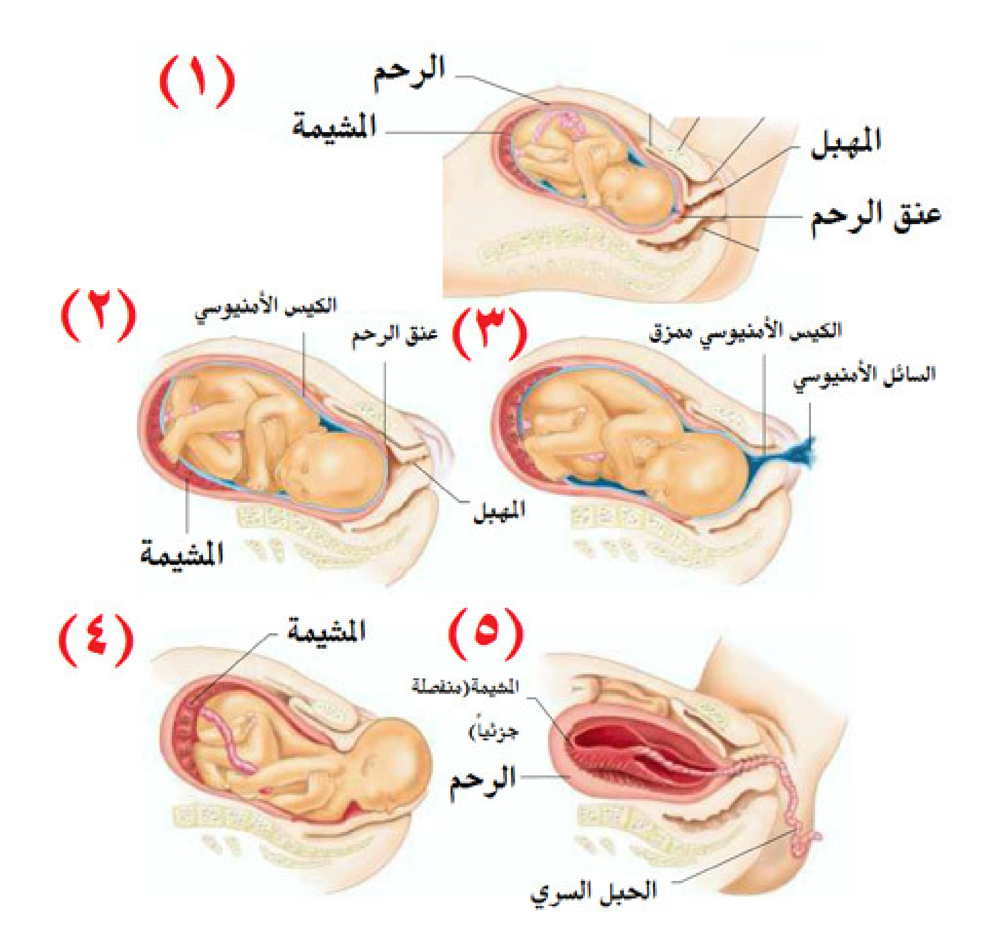
المهمة الأولى أنه يغذي الجنين، المهمة الثانية أنه يمتص الصدمات، المهمة الثالثة أن هذا السائل يسمح للجنين بحركة حرة خفيفة، فالأجسام وهي في السوائل تبدو حركتها أسهل بكثير مما لو لم يكن هناك سائل.

الوظيفة الرابعة لهذا السائل الأمنيوسي أن هذا السائل جهاز تكييف له حرارة ثابتة لا تزيد ولا تقل إلا في أجزاء الدرجة، فمهما كان الجو الخارجي بارداً أو حاراً، فإن هذا السائل يحقق للجنين حرارة ثابتة تعينه على النمو.

الوظيفة الخامسة أن هذا السائل يمنع التصاق الجنين بالغشاء الأمنيوسي، لأن هناك نمواًّ، ويخشى مع النمو أن يكون هناك التصاق بين الغشاء الأمنيوسي وبين الجنين، ولو أن هذا الالتصاق حصل لكان هناك تشوهات في خلق الجنين.

والوظيفة السادسة: أن هذا السائل نفسه يسهل الولادة، وهو الذي يعين على الانزلاق وتوسيع الأماكن التي سوف يمر بها الجنين.

والوظيفة السابعة لهذا السائل أنه حينما يسبق الجنين إلى الخارج يطرح ويعقم المجرى لئلا يصاب الجنين بالتسمم، فمن تطهير المجرى، ومن تسهيل الولادة، ومن منع التصاق الجنين بالغشاء الأمنيوسي، ومن تحقيق الحرارة الثابتة، ومن تحقيق الحركة الحرة الخفيفة، ومن حماية الجنين من الضربات واللكمات، ومن تغذية الجنين، هذه بعض الوظائف الخيرة التي يقوم بها هذا السائل الأمنيوسي الذي هو بين الجنين وبين الغشاء الأول الذي يلي الجنين.



صورة لمراحل الولادة توضح خروج السائل الأمنيوسي قبل الجنين كما توضح الكيس الأمنيوسي و المشيمة

المذيع:

فضيلة الدكتور، إن أردنا أن ندعم بحثنا من خلال الآيات القرآنية فماذا تذكر لنا؟

آيات قرآنية حول السائل الأمنيوسي :

الأستاذ:

يقول الله عز وجل:

(يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ)

[سورة الزمر: 6]

أي الغشاء يحقق ظلمة، غشاء أول، غشاء ثان، غشاء ثالث، ثلاث ظلمات:

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ)

[سورة الرعد: 9]

ذلك الخلاق العليم:

(ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

[سورة غافر: 64]

قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزّوْجَيْنِ الذّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى)

[سورة القيامة: 36-40]

وقال تعالى:

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدّرَهُ * ثُمّ السّبِيلَ يَسّرَهُ * ثُمّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ * كَلّا لَمّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ * فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

[سورة عبس: 17-24]

الكتاب الذي نزل على قلب النبي هو الحق المطلق :

ثم يقول الله عز وجل:

(كَلّا لَمّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ)

ماذا ينتظر الإنسان و قد رأى من آيات ربه الكبرى؟

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة: 36]

أن يفعل ما يشاء، وأن يعتدي على من يشاء، وأن يستعلي في الأرض، ثم يترك سدًى بغير حساب؟ لأن الله سبحانه وتعالى يبين لهم:

(وَفِي السّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ*فَوَرَبِّ السّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنّكُمْ تَنْطِقُونَ)

[سورة الذاريات:22- 23]

أي هذا الكتاب الذي نزل على قلب النبي عليه الصلاة والسلام هو الحق المطلق.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 24 - 30 : التمر.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-11-18

بسم الله الرحمن الرحيم

عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ مِنْ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ ؟ فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا : حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : هِيَ النَّخْلَةُ))

[البخاري، مسلم، الترمذي، أحمد، الدارمي]

ومن ألطف ما قرأت في هذا الموضوع أن مؤتمراً عقد في بلد يصدر التمور، ألقي فيه بحث تعلّق بمشابهة النخل للإنسان، فقيل : جذعها منتصب كالإنسان، ومنها الذكر والأنثى، ولا تثمر إلا إذا لقحت، وإذا قطع رأسها ماتت، وإذا تعرض قلبها لصدمة هلكت، وإذا قطع سعفها لا تستطيع تعويضه كالإنسان تماماً، هي مغشاة بالليف الشبيه بالشعر في الإنسان.

أستاذ عبد الحليم، جزاك الله خيراً، في العالم ما يزيد على تسعين مليون نخلة، ومرة قرأت أن النخل من الأشجار المعمرة، قد تعيش ستة آلاف عام، ففي العالم الآن ما يزيد على تسعين مليون نخلة، تقدم الغذاء لبني البشر، ولاسيما للصائمين في رمضان، حيث فائدته أعظم.

قال بعض العلماء : إن التمر الذي يتناوله الصائم مع الماء فيه خمسة وسبعون بالمئة من جزئه المأكول مواد سكرية أحادية، سهلة الهضم، سريعة التمثل، إلى درجة أن السكر ينتقل من الفم إلى الدم في أقل من عشر دقائق، فأسرع مادة غذائية يتمثلها الدم هو سكر الدم الأحادي، وفي الحال يتنبه مركز الإحساس بالشبع في الجملة العصبية، فيشعر الصائم بالاكتفاء، فإذا أقبل على الطعام أقبل عليه باعتدال، وكأنه في أيام الإفطار، أما المواد الدسمة فيستغرق هضمها وامتصاصها أكثر من ثلاث ساعات، لابد من توضيح هذه الفكرة.

الإنسان متى يكفّ عن الطعام ؟ إذا وصل تنبيه إلى مركز الشبع في البصلة السيسائية، أو إذا امتلأت المعدة، إذا بدأ بالمواد الدسمة، المواد الدسمة يستغرق هضمها ساعات ثلاث فلا يصل التنبيه إلى مركز الشبع إلا بعد ثلاث ساعات، أما التمر فينتقل سكره الأحادي من الفم إلى الدم في عشر دقائق، فالإنسان إذا تناول المواد الدسمة، وبدأ بها فلا يمكن أن يحس بالشبع إلا بعد ثلاث ساعات، إذاً متى يتوقف عن الطعام ؟ عند امتلاء المعدة، أما إذا بدأ بالتمر فإن سكر التمر الأحادي يصل إلى مركز تنبه الشبع في

عشر دقائق، فقد كان عليه الصلاة والسلام يفطر على تمرات ثلاث، ثم يصلي المغرب، ثم يجلس إلى تناول طعام الإفطار.

شيء آخر، أنا أسمي الحقائق العلمية التي تطابقت تطابقاً عفوياً وتاماً مع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أسمي هذه الظاهرة دلائلَ نبوة النبي عليه الصلاة والسلام، فمن هدي النبي أنه كان يفطر على تمرات، وقد أكد العلم اليوم أن أفضل شيء للصائم أن يبدأ طعامه بالتمر، لأن سكره الأحادي يصل إلى مركز تنبه الشبع في وقت لا يساوي أكثر من عشر دقائق.

المذيع :

فضيلة الدكتور، ما هي المواد التي يتركب منها التمر

الأستاذ :

هذا سؤال لطيف، التمر يمكن أن تقول : هو صيدلية، يمكن أن تقول : فيه مواد أساسية لغذاء الإنسان، فتتركب التمور من المواد البروتينية المرممة للأنسجة، ومن نسب ضئيلة من الدهن، ويحوي التمر خمسة أنواع من الفيتامينات الأساسية التي يحتاجها الجسم، كما يحتوي التمر على ثمانية معادن أساسية، ومئة غرام من التمر يومياً فيها من نصف إلى خُمس حاجة الجسم من المعادن، الجسم بحاجة ماسة إلى المعادن، فإذا أكل الإنسان مئة غرام من التمر يومياً يكون قد حقق من نصف إلى خُمس حاجة الجسم من المعادن.

يحتوي التمر أيضاً على اثني عشر حمضاً أمينياً، وفيه مواد ملينة، وفيه مواد مهدئة، وهناك خمسون مرضاً يسببها الإمساك، والتمر يقي من الإمساك.

وله آثار إيجابية في الوقاية من فقر الدم، ومن ارتفاع الضغط، ويعين على التئام الكسور، وهو ملين، ومهدئ، وقد أثبتت الأبحاث العلمية أن التمر لا يتلوث بالجراثيم إطلاقاً، لأن تركيز السكر العالي يمتص ماء الجرثوم، وهذه الخيرات كلها، وقد عدّها بعض العلماء سبعة وأربعين عنصراً ممثّلة في تمرة تأكلها، ولا تدري ماذا ينتفع الجسم بها، فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يَا عَائِشَةُ بَيْتٌ لَا تَمْرَ فِيهِ جِيَاعٌ أَهْلُهُ، يَا عَائِشَةُ بَيْتٌ لَا تَمْرَ فِيهِ جِيَاعٌ أَهْلُهُ، أَوْ جَاعَ أَهْلُهُ، قَالَهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا))

[مسلم، الترمذي، أبو داود، ابن ماجه، أحمد، الدارمي]

قال بعض الأطباء : إن أفضل الدواء ما كان غذاء، وإن أفضل الغذاء ما كان دواء، ولابن القيم رحمه الله تعالى قول في التمر، قال : " هو من أكثر الثمار تغذية للبدن بما فيه من الجوهر الحار الرطب، وأكله على الريق يقتل الدود، فإنه مع حرارته فيه قوة ترياقية، فإذا أديم استعماله على الريق خفف مادة الدود، وأضعفه، وقلّله، أو قتله، وهو فاكهة وغذاء ودواء وشراب وحلوى.

المذيع :

لاشك فضيلة الدكتور أن الأطباء تحدثوا عن التمر وفوائده، وإن كان يقي من بعض الأمراض ؟

الأستاذ :

نحن حينما قلدنا الغربيين في غذائنا فوقعنا في مشكلة كبيرة .

هذا الغذاء المصفى أو العصير هو غذاء يعد رقيًّا اجتماعياً، لكن الحقيقة أن أصل تصميم هذه الفاكهة وهذه الخضراوات ينبغي أن نأكلها كما خلقها الله عز وجل، والسبب هو أن هذه الفواكه والخضراوات فيها ألياف، هذه الألياف لها دور كبير جداً في الجهاز الهضمي، هذه أولاً : مواد مالئة، وثانياً : مواد تعين على حركة الأمعاء، وثالثاً : هي مواد تمتص الكوليسترول الضار في الإنسان، ورابعاً : هي مواد لا تعين على زيادة الوزن.

فالأطباء في حيرة شديدة من ارتفاع نسب الأمراض الخبيثة والوبيلة والمستعصية في هذه السنوات الأخيرة، أغلب الظن أن هذا يعزى إلى تغيير في خلق الله عز وجل، فحينما نعود إلى الحياة الطبيعية التي أمرنا الله بها، والتي رسمها لنا، والتي خلقها من أجل أن نعيش حياة ملؤها الصحة والسعادة ينبغي أن نعود إلى أصل التصميم، تمرات نأكلها أفضل ألف مرة من شراب نشربه ليس فيه مادة طبيعية، مواد كيميائية صرفة، لكن نؤخذ نحن بالإعلانات وبترويج هذه البضائع.

إن هناك أمراضاً وبيلة وخطيرة تعاني منها المجتمعات الغربية، التي أساس غذائها الغذاء المصفى، أكبر نسب أمراض سرطان القولون في اليابان، يعتمد ون على الغذاء المصفى.

نحن بحسب بيئتنا نأكل التفاح بينما هناك يشرب عصير التفاح، الذي يلقى في المهملات هذه المواد السيللوزية التي تحدثت عنها قبل قليل مواد مالئة، محرضة لحركة الأمعاء، مواد تمتص الكوليسترول الضار، هذه كلها نضعها نحن في سلة المهملات، ونشرب المادة المصفاة.

أستاذ عبد الحليم، جزاك الله خيراً، إذا خلا غذاء الإنسان من الألياف فلن يكون طعامه مفيداً، يجب أن يأكل الإنسان في اليوم ثلاثين غراماً فما فوق من الألياف، وفي مئة غرام من التمر ثمانية غرامات ونصف من الألياف، هذه الألياف تقاوم الإمساك، والإمساك عرضٌ لخمسين مرضاً، وهذه الألياف تقاوم الدهون التي قد تسد الشريان التاجي، الذي هو مرض العصر الأول، فالتمر له فائدة كبيرة في الوقاية من هذه الأمراض، التمر فقير جداً إلى الصوديوم، إن مئة غرام فيها خمسة ميليغرامات من الصوديوم، ولكنه غني بالبوتاسيوم والمغنزيوم، وفي المئة غرام من التمر نصف حاجة الجسم من البوتاسيوم، وثلث حاجة الجسم من المعنيزيوم، إذاً هو فقير إلى العنصر الذي يسبب ارتفاع ضغط الدم الذي يسبب الخثرة في الدماغ، والجلطة في الدم، ومع انخفاض ضغط الدم يتمتع الإنسان بصحة جيدة.

في المئة غرام من التمر واحد إلى ستة ميليغرامات من الحديد، والإنسان في أمسّ الحاجة إلى هذا العنصر، وله أثر كبير في الدم، وفي بعض النشاطات الحيوية في الجسم يحتاج الإنسان إلى هذا الحديد، وفي المئة غرام من التمر ثلث حاجة الإنسان من الفيتامين ب3، وهذا الفيتامين أساسي جداً في بعض المعادلات الحيوية في الجسم، والشيء الذي يلفت النظر أن التمر كما قلت قبل قليل : لا يقبل التلوث، لأنه لا تعيش فيه الجراثيم، وقد ورد في الحديث الشريف في وصف التمر أنه يذهب الداء ولا داء فيه.

أنا أتمنى على الإخوة المستمعين أن يعووا إلى الغذاء الطبيعي الذي خلقه الله لهم، وأن نبتعد عن صرعات الإعلانات المتعلقة بالأغذية التي يمكن أن تسبب لنا شعوراً بأننا عصريون، ولكنها تضر بأجسامنا، ولا تقدم لنا المادة الأساسية التي نحتاجها.

المذيع :

إذاً فضيلة الدكتور، حثّنا النبي عليه الصلاة والسلام على أن نتغذى من التمر ليس فقط لأن الجزيرة العربية كانت غنية بهذا النوع من الغذاء، بل لأن له الفوائد الكبيرة.

الأستاذ :

نحن مادام الحديث عن التمر وعن الصيام، هناك بعض الحكم من الصيام، وكيف أن التمر له دور في هذا الشهر الكريم.

قال بعض العلماء : إن الصيام يخفف العبء عن جهاز الدوران، والقلب، والأوعية، حيث تهبط نسب الدسم والحموض في الدم إلى أدنى مستوى، الأمر الذي يقي من تصلب الشرايين وآلام المفاصل، ويريح الصيام الكليتين وجهاز الإبراز، حيث تقلّ نواتج استقلاب الأغذية، ويتحرك سكر الكبد، ويحرك معه الدهن المخزون تحت الجلد، ويحرك معه بروتين العضلات، إذاً فصيام رمضان يعد دورة وقائية سنوية تقي من كثير من الأمراض، ودورة علاجية أيضاً بالنسبة لبعض الأمراض، إضافة إلى أنه يقي من أمراض الشيخوخة التي تنجم عن الإفراط في إرهاق العضوية، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن : " صوموا تصحوا "، لكن هذا لا يعني أن الإنسان ينبغي أن يصوم من أجل الصحة، الصيام عبادة ينبغي أن يؤدى كعبادة، ولكن أمر الله عز وجل فيه فوائد كثيرة، فأنت إذا أديت هذه العبادة أكرمك الله أيضاً بوقاية وعلاج لما يحتاجه الإنسان في هذا الشهر الكريم.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 25 - 30 : الخيل - الزرافة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-11-19

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل أن نتحدث عن الخيل التي قال عنها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح ، بل في صحيح البخاري ، من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْخَيْلُ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ))

[متفق عليه]

فالخيل حيوان أكرمنا الله به ، ولكن من ذلّله لنا ؟ من جعله مذلّلاً ؟ من جعله قريباً منا ؟ من جعلنا نألفه ونحبه ؟ إنه الله ، ففي كلمة:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

لولا أن الله طوّع هذه الحيوانات كالخيل والإبل ، وما إلى ذلك ، والبقرة ، والخروف ، لولا أنها مذلّلة كيف ننتفع بها

تعلمون أن بمرض جنون البقر اضطرت بريطانيا إلى إعدام 11 مليون بقرة ، قيمتها 33 مليار جنيه إسترليني ، لأنها توحشت ، فالتذليل من نعم الله الكبرى.

إنك تشعر أن الخيل مصممة لهذا الإنسان ، مسخرة له ، مذللة له ، فحينما قال الله عز وجل:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية: 72)

لأنه قبل حمل الأمانة كان المخلوق الأول رتبة ، ولأنه المخلوق الأول سخِّر له:

(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

(سورة الجاثية الآية: 13)

فالخيل من المخلوقات التي سخرها الله للإنسان وذللها ، من عجيب خصائص هذا الحيوان الذي سخره الله للإنسان تكريماً له أنه قوي السمع ، فالخيل تسمع وقْع الخُطى قبل أن ترى الذي يمشي ، وتسمع وقع حوافر خيل أخرى قبل أن تتبدى لها في الأفق ، وتنبِّه صاحبها ، هذه خاصة تفوق ما عند الإنسان من خصائص ، والخيل لا تفقد قدرتها على التناسل إن تقدمت في السن ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((الْخَيْلُ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ))

الخيل سريعة الشفاء من جروحها.

الشاعر الجاهلي عنترة وصف فرسه فقال:

فازورّ من وقع القنا بلبـــانه وشكا إلي بعبرة وتحمحم

لو كان يدري ما المحاورة اشكـتا و لكان لو علم الكلام مكلم

يبدو أن هناك مشاركة وجدانية بين صاحب الخيل والخيل ، كائن له شعور أحياناً.

إذاً هي سريعة الشفاء من جروحها وأمراضها سرعة غير معقولة ، فشفاؤها أسرع من شفاء الإنسان ، وتلتئم كسور عظامها بسرعة عجيبة جداً ، ويكفي الحصان علف قليل ليقوم بجري كثير ، يضاف إلى هذه الخصائص أن جهاز الحصان التنفسي قوي جداً ، فهو ذو قصبة هوائية واسعة جداً ، وقفص صدري واسع جداً يعينه على استنشاق أكبر كمية من الأوكسجين ، لتعينه هذه الكمية على الجري الطويل ، لأنه مهيؤٌ ليكون أداة نقل للإنسان.

من ألطف ما قرأت أن هذا الحصان أنه يقي أمراض القلب والكليتين والكبد ، وفي بحوث حديثة جداً تؤكد أن الإدمان على ركوب السيارة يجلب للإنسان أمراض القلب والكبد والكليتين.

الحصان له قدرة عجيبة على تحمل المصاعب والمشاق ، يستطيع أن يحمل ربع وزنه ، فإذا كان وزنه 400 كغ فإنه يحمل 100 ويستطيع أن يعدو مسافات طويلة ، ولأمد طويل جداً من دون طعام ولا ماء، ويتميز الحصان بذاكرة حادة جداً ، هذه الذاكرة تنصب على الأماكن التي يعيش فيها ، فبإمكانه إذا أصاب صاحبه مكروه أن يعيده إلى البيت بذاكرته ، بل إنه يستطيع أن يحفظ أدق الأماكن ، وأدق التفاصيل ، يعرف صوت صاحبه ، ولو لم يره ، بل إنه ليعرف صاحبه من طريقة ركوبه الفرس ، فيعرفه إما من صوته أو رائحته ، أو من طريقة ركوبه الفرس ، ويستجيب الحصان بردود فعل سريعة جداً لحركات فارسه ، وهو من أذكى الحيوانات ، ومن أشدها وفاء ، والشيء الذي يأخذ بالألباب كما ذكر في بعض البحوث العلمية أن ركوب الخيل يقي من أمراض القلب وأمراض والكبد والكليتين ، وأمراض جهاز الهضم ، بخلاف الإدمان على ركوب السيارة ، فإنه يجلب أمراض القلب وأمراض الكليتين وأمراض الكبد ، لذلك صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال:

((الْخَيْلُ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ))

المذيع:

إذاً ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الخيل ، وأن في نواصيها ، أي في مقدمة رأسها الخير إلى يوم القيامة ، وكما ذكرتم فضيلة الدكتور من بعض البحوث العلمية أن ركوب الخيل يقي من أمراض كثيرة، كأمراض القلب وأمراض الكبد والكليتين.

الآن نريد أن نتحدث أيضاً عن حيوان آخر في هذه الحلقة ، فإن رأيناه رأيناه طويلاً جداً ، ألا وهو الزرافة.

الأستاذ:

أستاذ عبد الحليم ، حينما قال الله عز وجل:

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة النمل الآية: 88)

هذا يرشدنا إلى أن الإنسان أحياناً يصنع صنعة متقنة تسمى صناعيّة ، وقد يصنع صنعة أقلّ جودة تسمى تجارية ، لكن عند الله عز وجل :

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

(سورة الملك الآية: 3)

فأيّ شيء صنعه الله عز وجل بدقة بالغةٍ بالغة ، وبحكمةٍ بالغةٍ بالغة ، إذاً معنى قول الله تعالى:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

لا تجد صنعة لله عز وجل في مستوى من الإتقان أقلّ من غيرها.

الزرافة: هذا الحيوان الذي يعد من أطول قاطبة ، فطول الزرافة يزيد على ستة أمتار ، أي ارتفاع طابقين من الطوابق العالية ، الطابق في بعض بلادنا ثلاثة أمتار ، أما في بلاد أخرى فمتران ، فهذه الزرافة تعلو على طابقين من الطوابق العالية في بلادنا ، هذا الحيوان من أشد المخلوقات تيقظاً وخفة ، زودها الله بعينين جاحظتين تستطيعان أن تريا 360 درجة ، فعينها تغطي كل الجهات ، وهي واقفة رأسها كالبرج ، وعيناها تجوسان الأفق كله من كل الزوايا ، وتزن طناً واحداً ، وإذا عَدَتْ تجاوزت سرعتها 60 كم في الساعة.

ذكرت لكم سابقاً أنه ما من صفة في الإنسان على الإطلاق مادية إلا وفي الحيوان صفة أعلى منها ، لكن الإنسان ميزه الله بالعقل وبالإيمان ، وبمعرفة الله عز وجل ، وبالإقبال عليه ، فإذا تخلى الإنسان ما خلق له من معرفة بالله وطاعة له فأي حيوان يفوقه في مناح الحياة.

المذيع:

فضيلة الدكتور ، ولكن لا بد من حكمة من خلق الزرافة على هذا الطول والارتفاع.

الأستاذ:

سنراها بعد قليل ، لها رغامى تعد من أطول رغامى في الكائنات التي خلقها الله عز وجل ، رغامتها تزيد على متر ونصف ـ أي الرقبة ؟ ـ القصبة الهوائية ، رأسها ضخم جداً ، هذا الموضوع أريد منه شيئاً واحداً ، هو أن هذا الرأس الضخم ، وهذه والرقبة الطويلة التي تزيد على مترين إذا أرادت أن تضع رأسها في الأرض لتأكل مما عليها ما الذي يحصل ؟ ينهمر الدم كله إلى رأسها ، فإذا تدفق الدم إلى رأسها احتقنت شرايين الدماغ ، فإذا رفعت رأسها فجأة فلابد من أن تصاب بالدوار.

الإنسان ـ أستاذ عبد الحليم ـ قد يكون نائمًا ، فإذا وقف فجأة بالمنطق ينبغي أن يصاب بالدوار ، لأن الدم بحسب الجاذبية هبط ، ولكن الشيء الذي لا يصدق أن في الإنسان خصائص ، أن هذا الدم لا يرجع إذا وقف الإنسان فجأة ، مزود بآلية معقدة جداً تحميه من هبوط الدم إذا وقف فجأة ، لكن هذه المادة التي أودعا الله في الإنسان مع تقدمه تضعف ، لذلك المتقدمون في السن لا يستطيعون أن يقفوا فجأة ، يصابون بالدوار ،هذه الزرافة لو أنها وضعت رأسها على الأرض لتأكل ما على الأرض ، وارتفعت فجأة يجب أن تصاب بالدوار ، فلذلك جهز جسمها بآلية بالغة التعقيد تحميها من هذه الحالة التي قد يعيق حركتها ، إذا تدفق الدم إلى رأسها احتقن شرايين الدماغ ، فإذا رفعت رأسها فجأة فلابد من أن تصاب بالدوار والإغماء قطعاً ، لذلك جهزها الله بآيلة عجيبة حيرت العلماء.

شرايين الرأس في الزرافة من طبيعة خاصة ، لهذه الشرايين عضلات ، إذا جاءها الدم تتسع بفعل ابنساطها حتى تستوعب جميع الدم الذي جاء إلى الرأس بفعل الجاذبية ، ولكن هذه الشرايين لها صمامات ، فحينما ترفع رأسها فجأة تغلق الصمامات كلها فتبقى هذه الكمية من الدم في رأسها ، ثم تفتح شيئاً فشيئاً ، عندها يعود الدم تدريجياً إلى بقية شرايين الجسم ، وآلية هذه الشرايين تلفت النظر ، إذا جاءها الدم كثيفاً توسعت ، واستوعبت ، فإذا رفعت الزرافة رأسها فجأة أغلقت الشرايين صماماتها محتبسة الدم فيها كي لا تصاب بالدوار والإغماء ، من جهزها بهذا الجهاز ؟ من جعل لها هذه الشرايين وهذه العضلات ؟ إنه الله جل جلاله ،

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة النمل الآية: 88)

أستاذ عبد الحليم ، هذا ينقلنا إلى أن الإنسان حينما يكون البرد قارصاً ، ويستنشق الهواء الذي تصل درجته إلى الصفر كيف يصبح هذا الهواء في درجة 37 بعد وصوله إلى الرئتين ؟ بآلية بالغة التعقيد ، أن الأنف فيه سطوح متداخلة ، وهذا الأنف مزود بأوعية دموية تتسع في البرد ، فتأتي كمية من الدم كبيرة تسخن الهواء بين هذه السطوح ، فإذا استنشق الإنسان هذا الهواء البارد إلى أن يصل إلى مقدمة الرغامى أو القصبة الهوائية تعود حرارته لتصل إلى 37 الطبيعية ، فأيضاً هذه آلية بالغة التعقيد ، لذلك تجد الإنسان يحمر أنفه في البرد الشديد ، لأن كمية الدم تأتي كبيرة جداً ، وهذه تسهم في رفع الحرارة فيما بين السطوح التي في الأنف ، وقد زودت هذه السطوح بمادة لزجة تعلق عليها المواد التي يحملها الهواء ، ثم إنه لو تصورنا أن ذرةً من هذه الذرات نجت من أن تلتصق بالسطوح ، وسارت في هذه التجاويف تأخذها الشعيرات التي في الأنف ، فهو جهاز تصفية وتسخين رائع جداً.

كذلك الزرافة ، قد نتساءل: من زود هذه الزرافة بهذه الشرايين ، وتلك الصمامات ؟ إنه الله العليم الحكيم ، ما من مخلوق على وجه الأرض ، وما من مخلوق تحت الأرض ، وما من مخلوق إلا وخلقه

الله أبدع خلق ، وصنعه أتقن صنعة ، إن قلب الزرافة يدفع في الدقيقة الواحدة 55 لتراً من الدم ، في الدقيقة الواحدة ، فأي شيء وقعت عينك عليه هو آية دالة على عظمة الله ، أي شيء تفحصته ، أي شيء درسته ، أي شيء دققت فيه إنما هو آية تدل على أنه الواحد الديان ، الواحد الأحد الفرد الصمد.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 26 - 30 : دودة القز - العنكبوت.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-11-20

بسم الله الرحمن الرحيم

أن هذه الأرض فيها آيات للموقنين، إن أردت اليقين:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20))

(سورة الذاريات)

إن كل شيء في الأرض وفي السماء ينطق بوجود الله، وبكماله، وبوحدانيته، والصنعة تدل على الصانع، والحكمة تدل على الحكيم، والقدرة تدل على القدير، وقد قال أعرابي مرة: " البعرة تدل على البعير، والماء يدل على الغدير، والأقدام تدل على المسير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟! ".

بالتأكيد أن الله سبحانه وتعالى حينما قال :

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)

(سورة الأنعام الآية: 103)

حواسنا الخمس لا تستطيع أن تدرك، أو أن ترى الإله العظيم.

(قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً)

(سورة الأعراف الآية: 143)

معنى ذلك أن حواسنا الخمس لا يمكن أن ترى الله عز وجل، إلا أن عقولنا التي أكرمنا الله بها يمكن من خلال الآثار أن تعرف المؤثر، من خلال النظام أن تعرف المنظِّم، من خلال الخلق أن تعرف الخالق، فنحن نملك وسائل معرفة الله عز وجل، إنها الآثار التي تدل عليه،

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

هذه الدودة، دودة القز والحرير من آيات الله الدالة على عظمته، يسميها العلماء ملكة الأنسجة بلا منازع، مهما تفنن الإنسان في صنع قماش لطيف ليّن خفيف الوزن، لا يمكن أن يرقى إلى مستوى صناعة دودة القز لهذا الحرير.

الحقيقة أن خيط الحرير لعاب هذه الدودة، فإذا لامس لعاب هذه الدودة الهواء أصبح خيطاً، هذا اللعاب مطلي بمادة بروتينية، يعطيه لمعاناً لؤلئيًّا، خيط أساسه، لعاب جفّ في الهواء، مطلية بمادة بروتينية تجعله لامعاً، ودودة القز تستطيع أن تنسج ست بوصات في الدقيقة الواحدة، وطول خيطها 300 متر،

كل 360 شرنقة تساوي قميصاً حريراً واحداً، كم وزن هذا القميص ؟ هذا القميص خفيف جداً لا يزيد وزنه على عشرة غرامات.

إن عشر آلاف شرنقة تساوي كيلوًا واحدًا من الحرير، إذاً الحرير خيط متين أمتن من الفولاذ، فلو أمكننا أن نسحب الفولاذ بقطر خيط الحرير لكان خيط الحرير أمتن من الفولاذ، هذه حقيقة قد لا تصدق، فهو متين، وخفيف، ولامع، وهو في الأصل لعاب يجفّ إذا لامس الهواء، وهو مستمر، 360 مترًا تقريباً طول خيط دودة القز، نعيد ونؤكد أن

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)

ما العلاقة بين صنع الله الذي أتقن كل شيء وبين قوله:

(إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)

؟ يتمتع الحرير بألوان زاهية، فهناك دود يصنع الحرير الذهبي، وهناك دود يصنع الحرير الفضي، كاللؤلؤ تماماً، والحرير الذهبي بلون طبيعي لا يتأثر بالشمس، ولا يحتاج إلى تثبيت، فهو لون ثابت كالذهب، ولون ثابت كاللؤلؤ.

مرة أمسكت عباءة مصنوعة من الحرير الطبيعي، لمعانها ووزنها الخفيف شيء لا يكاد يصدق، لذلك الحرير من أرقى أنواع الأنسجة، وهو من صنع هذا المخلوق الصغير الذي يسمى دود القز.

أنا ألاحظ أن الإنسان كلما أراد أن يبلغ الكمال في صنعته يقترب من صنعة الله، فالصوف الطبيعي غالٍ جداً، السبب أن خيط الصوف مفرغ، خيط الصوف الذي تصنع منه الألبسة الشتوية مفرغ في داخله، وهذا سرّ الخاصة التي يتمتع بها الصوف، أما الإنسان حتى الآن فلم يستطع أن يصنع خيطاً مفرغاً من داخله بدقة خيط الصوف، الآية الكريمة:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

(سورة آل عمران)

أنا حينما أستخدم عبارة " متين "، فهذه عبارة فيزيائية دقيقة، المتانة صفة تقاوم قوى الشدّ، والقساوة صفة تقاوم قوى الضغط، فأنا حينما أضغط، أو أشد قوى الضغط تقابلها قوة القساوة، وقوى الشد تقابلها قوة المتانة، فالفولاذ المضفور أمتن العناصر على الإطلاق ، لذلك تصنع منه الحبال الفولاذية التي تحمل المصاعد، وتحمل التلفريك، فأمتن عنصر على وجه الأرض هو الفولاذ المضفور، إن خيط دودة القز أمتن من الفولاذ، ولكن لا يستخدم في الصناعة، بينما أقسى المواد على الإطلاق الماس، وميناء الأسنان يأتي بعد الماس في درجة القساوة، الآن لو فكرنا في قوله تعالى:

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (183))

(سورة الأعراف)

ما علاقة المتانة هنا مع كيد الله عز وجل، كيد الله هو تدبيره، ومعنى: } إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ {، أي إن الإنسان مهما بدا كبيراً، مهما بدا قوياً، مهما بدا متألهاً، فهو مربوط بحبل متين لا يستطيع التفلت من أمر الله، ومعنى قوله تعالى:

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا)

(سورة الأنفال الآية: 59)

معنى

(سَبَقُوا)

أن الذي كفروا بالله عز وجل لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً ما أراده الله، وأن الذين كفروا بالله عز وجل لا يستطيعون أن يتفلوا من منهج الله، إذاً المتانة تعني مقاومة قوى الشد، والقساوة تعني مقاومة قوى الضغط، ما دام الحديث قد وصل إلى هذا أذكر أن الاسمنت السم المكعب منه يتحمل من قوى الضغط ما يزيد عن 550 كيلو، لكن هذا السم المكعب من الاسمنت لا يتحمل من قوى الشد إلا خمسة كيلو، خمسة كيلو تكسره شداً، و550 كيلو يتحملها ضغطاً، لذلك لا بد في الإسمنت من تسليحه بالحديد. أما الذي ذكرته قبل قليل:

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

أي إن الإنسان في قبضة الله، قد يتوهم أنه طليق، هو ليس طليقاً، ولكنه مربوط بحبل مرخى إلى أن يحين الحين.

إذاً يمكن أن تكون هذه الدودة بخيطها الذهبي أو الؤلؤي، بخيطها المتين البراق الذي يفوق في متانته الفولاذ، وبهذا الطول المديد 300 متر، وبهذا الوزن الخفيف آية من آيات الله الدالة على عظمته.

المذيع:

حكمة أودع الله سبحانه وتعالى في خلقه، كما تحدثنا عن دودة القز، والحرير، وهذا الصنع من لعاب دودة القز، وهذا النسيج الذي يخرج منها، وهو من أجمل ما رأينا من نسيج، إن خرج ذهبياً أو لؤلئياً. حكمة أخرى ذكرها الله سبحانه وتعالى في آية كريمة تحدثت عن بيت العنكبوت، وهذا ما ذكرتم في كتابكم، فحبذا لو تحدثونا عن هذه الآية الكريمة.

الأستاذ:

إن بيت العنكبوت ذكره الله في القرآن الكريم فقال:

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41))

(سورة العنكبوت)

الوهن هو الضعف، بيت العنكبوت أوهن بيت بنص هذه الآية، فقال العلماء: " إن هي حرف مشبه بالفعل يفيد التوكيد،

(وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ) اللام في قوله:

(لَبَيْتُ)

هي في إعراب النحاة لام المزحلقة، هي أساسها لام التوكيد، زحلقت من اسم إن إلى خبرها، إذاً هناك توكيدان في الآية:

(وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ)

فإن تفيد التوكيد، واللام المزحلقة تفيد التوكيد أيضاً، يقول الله عز وجل:

(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (43))

(سورة العنكبوت)

إذا ذكر الله شيئاً من خلقه فليلفت نظرنا إليه، وبعضهم قالوا: إذا أقسم الله بشيء فالنسبة إلينا، إنه عظيم بالنسبة إلينا لا بالنسبة إليه، وإذا لم يقسم فمعنى ذلك بالنسبة إليه هذا توجيه للقسم، لقوله تعالى:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1))

(سورة الشمس)

وفي قوله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75))

(سورة الواقعة)

فإذا أقسم فبالنسبة إلينا، وإذا لم يقسم فالنسبة إلى ذاته، هذا بعض توجيهات الآيتين الكريمتين، الله عز وجل هنا يؤكد مرتين بإن وباللام المزحلقة:

(وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ)

جاء في بعض التفاسير: أن بيت العنكبوت ضعيف، لأنه لا يغني عنها من حر ولا من قر، ولا من مطر، ولا من رياح، وهو ضعيف لتفاهته وحقارته، هكذا ورد في بعض التفاسير.

ولكن أستاذاً في علم الحشرات في كلية العلوم في إحدى الجامعات العربية يقول في بعض كتبه العلمية: إن في قوله تعالى:

(كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً)

(سورة العنكبوت الآية: 41)

في هذه الآية إعجاز علمي حيث إن التي تبني البيت هي الأنثى، فجات تاء التأنيث في قوله تعالى:

(كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا)

يعني هل يستطيع واحد في عهد النبي أن يفرق بين ذكر العنكبوت وأنثاها ؟ مستحيل، الآن ثبت أن التي تبني البيت هي الأنثى.

هناك ملمح آخر في قوله تعالى:

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي)

(سورة النحل الآية: 68)

فالنحلة التي تبني بيت الشمع أيضاً أنثى، بعض العلماء استنبط، ولعل هذا قريب من الصحة، أنه في عالم الحيوان أن الأنثى هي المسيطرة، وهي التي توجّه، وأن دور الذكر محدود جداً أمام مهمات الأنثى.

فلذلك حينما يتخلى الإنسان عن قوامته التي كرمه الله بها، ويعطي دفة القيادة إلى زوجته، فكأنه ابتعد عن إنسانيته التي شرفه الله بها حينما قال:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

(سورة النساء الآية: 34)

لكن أنا اطلعت على بحث جديد في العنكبوت هو أمتن من الفولاذ بخمسة أمثال، بل إن بعض الأنسجة التي تصنع منها القمصان التي تقوم الرصاص مصنوعة من مواد تشبه المواد التي صنعت منها خيوط العنكبوت، فهو الوهن هنا أنه لا يقيها لا من حر، ولا من برد، ولا من رياح، ومن مطر، أما خيط العنكبوت كخيط دودة القز أمتن من الفولاذ، وهذا من آيات الله الدالة على عظمته.

الأنثى في العنكبوت هي التي تغزل البيت، وهي التي ترغب الذكر في الدخول إلى البيت، حيث تقوم أمامه بحركات مغرية، وتسمعه بعض الألحان الطنانة، فيأوي إلى بيتها، وبعد التلقيح تأكله، وتفترسه، وتأكل أولادها من بعده، ويأكل بعض أولادها بعضهم الآخر، فضعف البيت هنا إضافة إلى أنه يقيها لا من حر، ولا من قر، ومن رياح، ولا من مطر، فضعف هذا البيت يتأتى من ضعف علاقاته الداخلية، وقد يجمع الضعفان في ضعف واحد.

المذيع:

الحمد لله أن الإنسان بعيد عن هذا الأمر.

الأستاذ:

هذه من آيات الله الدالة على عظمته، هذه الرحمة التي أودعها الله في الإنسان هي من الله عز وجل، بدليل أنه لم يدعها في بعض الحيوانات، يلقحها ثم تفترسه، ثم تأكل أولادها، بل إن بعض أولادها يأكل

بعضهم الآخر، فالوهن هنا التمزق الداخلي، وفي هذه الآية ملمح كبير لنا، فكلما اختلفنا، وكلما تنازعنا ضعفنا، قال تعالى:

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

(سورة الأنفال الآية: 46)

ومعنى تفشلوا ؛ تضعفوا، نستخدمها محن خطأ في الإخفاق، الفشل هو الضعف، } وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ {، طبعاً هذا درس لنا في مواجهة أعدائنا أعداء الأمة ، لابد من التماسك الداخلي حتى نكون أقوى على مواجهة الأخطار الخارجية.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 27 - 30 : السمكة الطبية.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-11-21

بسم الله الرحمن الرحيم

ان اكتشاف السمكة الطبيبة له قصة ، فقد كان أحد علماء البحار يركب غواصة أبحاثٍ تحت سطح البحر ، من النافذة لفت نظره سمكة كبيرة خرجت من سربها ، واتجهت إلى سمكة صغيرة، فتصوّر كما هي العادة أن هذه السمكة الكبيرة توجهت إلى الصغيرة لتأكلها ، ولكنه وجد أنها وقفت إلى جانبها ، وبدأت السمكة الصغيرة تأكل من حراشف الكبيرة ، سجل هذه الظاهرة ، وهنا بداية هذا البحث، بعد عشرة أعوام تقريباً اكتشفت حقيقة رائعة ، هي أن هذه السمكة الصغيرة متخصصة في علاج أمراض الأسماك كلها ، وكأن عهداً وميثاقاً غير مكتوب بين أسماك البحر يقرر أن هذه السمكة الصغيرة المتخصصة في مداواة أمراض السمك الخارجية لا ينبغي أن تؤكل ، لذلك أجريت بحوث كثيرة ، وتتبع العلماء مواطن هذا السمك الذي أعطوه اسماً خاصاً ، هذا السمك جعل الله عز وجل غذاءه على التقرحات والانتانات والطفيليات والفطريات التي تتوضع على حراشف الأسماك الكبيرة ، فالأسماك الكبيرة تتجه إليها لتعالجها من أمراضها ، وكأن هناك عرفاً وامتناناً ، كيف أن سيارات الإسعاف إذا رسم على سقفها الهلال الأحمر ، معنى ذلك أن تكون هذه السيارة في مأمن من القصف الجوي ، لأنها تقوم بمهمة إنسانية ، تماماً في عالم البحار ، هذه السمكة الصغيرة التي جعل الله غذاءها على تقرحات الأسماك وإنتانات حراشفها والطفيليات والفطريات ، وكأن هناك عرفاً في هذه البحار أن هذه السمكة الصغيرة لا تؤكل لأنها طبيبة وتقوم بمهمة إنسانية.

إن في بعض الحالات الغريبة التي سجلت وصوِّرت أن سمكة كبيرة كانت تشكو قرحة في فمها ، فإذا بها قد فتحت فمها ودخلت هذه السمكة الممرضة الطبيبة آمنة مطمئنة لتعالجها من هذه القروح ، وفي الوقت نفسه هاجمت هذه السمكة التي تعالج هاجمتها سمكة أكبر منها لتأكلها ، فما كان منها من السمكة المعالجة ، وفي فمها سمكة طبيبة ، إلا أخرجت هذه السمكة التي تعالجها وولّت هاربة.

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50))

(سورة طه)

ما هذا العرف ؟ ما هذا العقد الذي بين الأسماك ؟ ما هذا الميثاق ؟ ما هذا القانون المتبع في كل أنحاء البحار ؟ إن هذه السمكة التي خلقها الله مزودة بمنقار دقيقٍ دقيق يصل إلى أدق الثنايا ، وإن جهازها الهضمي يتقبل الفطريات والتقرحات والإنتانات ، وما شاكل ذلك ، وهو غذاء لها ، وإن هذه الأسماك الكبيرة تتجه إليها حينما تشكو من تقرحات بسبب ما يحدث بين الأسماك من احتكاك ، أو من معارك

أحياناً.

أستاذ عبد الحليم ـ جزاك الله خيراً ـ الشيء الذي يلفت النظر أنه إذا كثرت هذه الأسماك أمام السمكة الصغيرة صفت بعضها وراء بعض ، وكأنها في نسق فيه نظام ، وفيه تحضر ، ليس هناك ازدحام ، ولا تزاحم ، ولا تدافع ، ولا سباب ، وقفت هذه الأسماك الكبيرة وقد سجلت هذه الصورة بضع عشرات من الأسماك تقف وراء بعضها بعضاً تنتظر دورها في المعالجة ، وقد تستغرق المعالجة دقيقة أو أكثر، وتنصرف إلى سبيلها.

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

(سورة لقمان الآية: 11)

مليون نوع من السمك من أعلمهم جميعاً أن هذه السمكة الطبيبة لا تؤكل ، ولا يعتدى عليها ، لأنها تقوم بمهمة نبيلة ، من أعلمها ؟ هل هذه الأسماك عاقلة ؟ إذاً هذه آية من آيات الله الدالة على عظمته.

نحن مكلفون بأمر تكليفي أن نتعاون ، لكن الأسماك بأمر تكويني تتعاون ، الإنسان مخير هو والجنّ.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات)

فنحن إذا كان هناك خلل في حياتنا لأن أمر اللهِ لنا أمر تكليفي ، أما بقية المخلوقات فمسيَّرون بأمر تكويني ، وهذا من عظمة المنهج الإلهي الذي بينه لنا النبي عليه الصلاة والسلام.

المذيع:

صلى الله عليه وسلم ، فضيلة الدكتور محمد ، ما دمنا قد بدأنا في حديثنا ، وفي هذه الحلقة بالذات عن السمك ، وبدأنها بالسمكة الطبيبة ، أيضاً رأينا من المواضيع الهامة التي تكلمنا عنها ، وكتبتم فيها عن سمك السلمون ، وحركة هذا السمك.

الأستاذ:

لعلنا في حلقة سابقة تحدثنا أنه حتى هذا التاريخ لم يستطع العلم أن يقدم تفسيراً لهجرة الطيور ، فهي تنتقل من شمال الأرض إلى جنوبها لمسافات تزيد على 17 ألف كيلومتر ، ولا أحد يعلم حتى الآن كيف تهتدي هذه الطيور إلى أهدافها ، كل النظريات التي وضعت تفسيراً لاهتدائها لم تؤيد إطلاقاً بالدليل القوي ، فكل هذه الفرضيات ليست كافية لتفسير حركة الطيور ، واليوم نتحدث عن سمك السلمون ، وفيه أيضاً من هذا النوع تدل على عظمة الله عز وجل ، هذا السمك ، سمك السلمون له اسم آخر ، هو حوت سليمان ، هذه الأسماك حيرت العلماء ، بل عدُّوا هذا من المعجزات ، ولا تفسير لها إلا في ضوء القرآن ، لا تفسير لحركتها بين أقاصي الدنيا وبين أطرفها إلا بما قال الله عز وجل:

(رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50))

(سورة طه)

هذه الأسماك أسماك السلمون تولد في رؤوس الأنهار في أمريكة ، وأعني برؤوس الأنهار منابع الأنهار ، وتهاجر من هذه المنابع إلى مصباتها ، بعض هذه الأنهار كالأمازون كثافته في الثانية الواحدة 300 ألف متر مكعب ، بعض هذه الأنهار طويلة جداً ، مثل المسيسبي ، بعض هذه الأنهار غزيرة جداً كالأمازون ، فهذه أسماك السلمون تولد في رؤوس الأنهار ، أي في ينابيع الأنهار ، وتهاجر من هذه المنابع إلى مصبات الأنهار ، ومن مصباتها إلى نهاية المحيط الأصلي ، إلى شواطئ أوربا الغربية ، أي إلى سواحل فرنسا مثلاً ، ثم تعود هذه الأسماك من سواحل فرنسا إلى مصبات هذه الأنهار ، ثم إلى مكان ولادتها.

أستاذ عبد الحليم ، رُبّان يحمل دكتوراه في قيادة السفن ، معه أجهزة ، ومعه وسائل ، ومعه اتصالات، معه بوصلة ، ومعه كل وسائل الإرشاد ، ومع ذلك قد يضل الطريق ، هذه سمكة في أعماق البحار تتجه من فرنسا إلى الغرب إلى أمريكا ، لو أخطأت في حركتها بزاوية واحدة لكانت في نهر ، وانتقلت إلى نهر آخر ، لو أخطأت في ثلاث درجات لجاء هدفها من شمال أمريكا إلى جنوب أمريكا ، هنا الآية المعجزة ، فهذه الأسماك تعود من سواحل فرنسا مثلاً إلى مصبات هذه الأنهار ، وإلى مكان ولادتها ، ولا يظن أن هذا كلام ، إن في هذا بحوثاً استغرقت عشرات السنين ، وهناك مركز بحوث وضع في الأنهار ، أحصى مليوني سمكة من نوع السلمون تعود إلى مسقط رأسها كل يوم ، من أين أتت ؟ من سواحل الأطلسي من سواحل فرنسا ، تعود إلى مسقط رأسها كل يوم ولمدة شهرين ، وكان بعض العلماء قد وضع عليه قطعة معدنية فيها تاريخ هجرته ، فلما عاد عرفوا مدة الرحلة.

أما السؤال الكبير الذي يحير العقول: كيف يستطيع هذا السمك أن يرجع من المحيط الأطلسي إلى مصب النهر ومنبعه ؟

مثلاً من باب الموازنة: طير في بيروت ، في أحد أحيائها ، في بيت عربي ، له عش في سقف هذا البيت ، يتجه من بيروت إلى جنوب إفريقيا ، في طريق العودة يعود إلى البيت الذي خرج منه ، لو أخطأ في الزاوية زاوية واحدة لأتى في بغداد.

السلمون هذا السمك فيه دقة بالغة جداً كالدقة البالغة التي عند الطيور ، لو أتينا بأحد علماء البحار ، وأركبناه قارباً ، وله عينان مبصرتان ، وقلنا له: اتجه ، وأنت على هذا القارب إلى مصب الأمازون ، هذا الإنسان العاقل المفكر لو كان عالماً كبيراً في علم البحار لا يستطيع أن يصل إلا بالخرائط والإحداثيات والاتصالات اللاسلكية ، وعناء كبير ، وأشياء كثيرة ، أما السمكة في باطن البحر وفي أعماقه ، لو أنها حاذت في زاوية انطلاقها درجة واحدة لجاءت في نهم آخر ، لو أنها حاذت ثلاث درجات لتغير مكان اتجاهها من أمريكا الشمالية إلى الجنوبية ، فكيف تستطيع هذه السمكة ، وهي لم تؤتَ ما أوتي الإنسان أن تعود من سواحل فرنسا إلى مصب النهر التي خرجت منه ، ثم تتابع سيرها

في النهر نفسه ؟ وقد تصعد الشلال ، وهناك صور دقيقة أخذت لسمك السلمون ، وهو يصعد الشلال ليعود إلى مسقط رأسه ، فتولد وتموت هناك يجب أن تموت في مسقط رأسها ، قال تعالى:

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50))

وقوله تعالى:

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3))

(سورة الأعلى)

هذا يذكرني بآلية بالغة التعقيد تولد مع الغلام الصغير ، سماها العلماء منعكس المص ، لا يستطيع أب في الأرض أن يعلم ابنه الذي ولد لتوه كيف يمص الحليب من ثدي أمه ، طبعاً مستحيل وألف ألف مستحيل أن يستطيع أب أن يعلم ابنه كيف يلتقم ثدي أمه ، وكيف يسحب الحليب منه ، ينبغي أن يقول له لو أنه كبير وعاقل: ينبغي أن تحكم وضع شفتيك على حلمة ثدي أمك ، أن تحكم الإغلاق ، ثم أن تسحب الهواء ، فيأتي معه الحليب ، لولا أن هذا المنعكس ، مع كل طفل يولد لتوه لا تجد إنسان على سطح الأرض ، هذا المنعكس آلية بالغة التعقيد تولد مع الإنسان ،

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (70))

(سورة الإسراء)

لذلك بعضهم قال في قوله تعالى أوحى لها معانٍ كثيرة ، قال تعالى:

(إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (5))

(سورة الزلزلة)

بمعنى أمرها ، فالوحي الذي يوجه إلى المادة وحي أمر ، لكن في قوله تعالى:

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ)

(سورة النحل الآية: 68)

النحل يقوم بأعمال بالغة الدقة والتعقيد ، وبالغة الحكمة ، من ألهمها ذلك ؟ إنه الله هذا وحي الغريزة ، وهذا موضوع حديثنا اليوم وحي الغريزة ، فهذا السمك يتحرك من سواحل فرنسا إلى مصبات الأنهار في أمريكا ، إلى رؤوس الأنهار ، بوحي الغريزة ، فالغريزة آلية معقدة جداً ، إذاً هناك وحي أمر ووحي غريزة ، وحينما الله عز وجل:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى)

(سورة القصص الآية: 7)

هذا وحي إلهام.

وحينما قال الله عز وجل:

(وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ)

(سورة الأنعام الآية: 19)

فهذا من وحي جبريل ، فالوحي إذا ارتبط بمخلوق غير الإنسان يعني الغريزة التي يتمتع بها الحيوان ، وهي آليات بالغة التعقيد لا يمكن إلا أن تكون خلقاً من خلق الله عز وجل ، والحيوانات كلها تتحرك بآلية بالغة التعقيد ، إنها الغرائز ، أما الإنسان فكلف أن يتعرف إلى الله ، أعطي فكراً ، وبهذا الفكر تفوق على بقية الحيوانات.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 28 - 30 : قرحة السرير.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-11-22

بسم الله الرحمن الرحيم

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم فيه صور كثيرة، من هذه الصور أن الله سبحانه وتعالى حينما حدثنا عن أهل الكهف، فقال في ثنيات قصتهم:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

(سورة الكهف الآية: 18)

قد لا ننتبه إلى أن في هذه الكلمات الخمس إعجازاً علمياً يفوق حد الخيال، قال بعض الأطباء: إن من الأمراض الخطيرة التي يعاني منها المرضى في المشافي قرحة السرير اسم المرض قرحة السرير، فالمرضى الذين تضطرهم أمراضهم إلى البقاء طويلاً على السرير ككسر في الحوض مثلاً، وككسر في العمود الفقري، وكالشلل، وفي حالات السبات الطويلة، هذه الحالات المرضية تستوجب أن يبقى المريض مستلقياً على ظهره أياماً، بل شهوراً، إن من مضاعفات هذا الاستلقاء مرضاً خطيراً اسمه قرحة السرير، الآن لا بد من دقة في الشرح:

الإنسان له وزن كلي، لكن إذا استلقى على السرير هيكله العظمي مع ما فوقه من عضلات وأنسجة لها وزن، يضغط على القسم الذي تحت الهيكل العظمي، وإذا ضغطت العضلات والنسج ما الذي يحصل ؟ الأوعية الدموية التي في هذه العضلات، والنسج تضيق لمعتها، فإذا ضاقت لمعتها قل الدم الذي يجري فيها، فالإنسان مثلاً إذا جلس على ركبتيه لمدة طويلة يشعر أن هناك خدراً في أرجله، يسميه العامة اخضرارا، أو تنميلا، هذا الخدر الذي في رجله، بسبب ضيق لمعة الأوعية الدموية التي بسبب وزنه على رجليه إذا قعد عليهما مدة طويلة، إذاً الهيكل العظمي مع ما فوقه من عضلات ونسج يتغط على ما تحت الهيكل العظمي من عضلات ونسج، فإذا بالأوعية الدموية التي في القسم السفلي تنضغط، وتضيق لمعتها، ويصاب الإنسان بما يشبه الخدر، فيأتي تنبيه إلى الدماغ.

الآن هنا الدقة، الله جل جلاله لحكمة بالغةٍ بالغة جعل في كل أنحاء الجسم مراكز ضغط، هذه المراكز تتحسس الضغط، فإذا ضغط الجسم الذي تحت الهيكل العظمي أعطى إشارات إلى الدماغ، الدماغ ماذا يفعل ؟ وأنت نائم، وأنت غارق في النوم، يعطي أمراً لهذا الجسم كي يتقلب على طرفه الآخر، بهذا التقلب يستريح قسم من الضغط، ومن ضيق لمعة الأوعية وينشط جسم آخر، قال تعالى:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

فيما قرأت مرةً وضعوا آلة تصوير أمام إنسان نائم فصورت تقلباته في الليل، فكانت تقلباته تقترب من 38 مرة، فكل إنسان نام تقلب من جنب إلى جنب، لأن هذا التقلب يريح قسماً من عضلاته التي ضغطت بفعل وزنه وينشط قسماً آخر، لكن اللطيف في الموضوع أن الله عز وجل كما قال: } وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ {، لو قلبهم في جهة واحدة لوقعنا من على السرير، نبقى على السرير، لأن التقلب ذات اليمين وذات الشمال.

الآن المرضى الذين لا بد من أن يبقوا على السرير مدةً طويلة تزيد على بضعة أشهر لا بد من تقليبهم باليد، وإلا تقرحت أجسامهم، وأنا أسمع من حين إلى آخر أن المريض إذا أهمل، وكان مستلقياً لمدة طويلة يكاد لحمه يتسلخ، ويتقرح، وقد يموت الإنسان بسبب هذا المرض.

فلولا أن الله قلب أهل الكهف، قلبهم ذات اليمين وذات الشمال لما بقوا 300 عام، إذاً هذه آية من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، لولا هذا التقليب لما بقي هذا الجسم يتلقى إمداداته من الدم بأوعية واسعة، بل لمات من مرض خطير اسمه قرحة السرير.

سمعت أن هناك أسِرّة تهتز بشكل دائم بفعل محرك كهربائي من أجل أن تقي المريض قرحة السرير، إذاً في قوله تعالى:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

، إعجاز علمي، لولا تقلب أهل الكهف ذات اليمين وذات الشمال لما كان لهذا الجسم أن يبقى 300 عام.

أستاذ عبد الحليم، هذا الموضوع يذكرني بموضوع آخر، الإنسان نائم، غارق في النوم، غدده اللعابية تفرز اللعاب، فإذا كثر اللعاب في الفم ما الذي يحصل ؟ تذهب إشارة إلى الدماغ أن هذا اللعاب قد كثر، فيأتي أمر فيغلق القصبة الهوائية عن طريق لسان المزمار، ويفتح المريء إلى المعدة، ويبلع هذا النائم لعابه إلى معدته، ويعود الطريق مغلقاً إلى المعدة مفتوحاً إلى الرئتين، هذا كله يتم وأنت نائم، فعناية الله عز وجل تصحب الإنسان في نومه ودون أن يشعر، بل إن هذا الموضوع يذكرني بموضوع ثالث، هو أن الله سبحانه وتعالى جعل بعض الأجهزة النبيلة الخطيرة تعمل آلياً من دون إرادة الإنسان، منها نبض القلب، لو أن نبض القلب بيد الإنسان فأيّ إنسان يستطيع أن يميت نفسه في ثانية، أو في ثوانٍ عدة، لكن هذا التنفس الذي يتم آلياً عن طريق مركز تنبه في البصلة السيسائية، يعطي الرئتين أمراً بالوجيب، هذا المركز لولا أن هناك مركزًا آليًّا فالإنسان أمام خيار صعب، إما أن ينام فيموت، وإما أن يبقى طوال الليل ساعياً لإجراء التنفس الإرادي، فهذا من نعمة الله الكبرى، أن بعض الأجهزة النبيلة والأعضاء النبيلة تتحرك آلياً، وأنت نائم، ودون أن تشعر.

المذيع:

إذاً، رأينا فضيلة الدكتور تفسير هذه الآية الكريمة: } وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ {، وما لها من إعجاز علمي في تفسيرها.

الآن ننتقل إلى سؤال آخر، وتفسير آية كريمة أخرى، التي حددت في هذه الآية رقمًا محدَّدًا:

(وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً)

(سورة البقرة الآية: 234)

إذاً، نتمنى لو تفسرون هذه الآية الكريمة، والتي حملت أيضاً موضوعاً في كتابكم.

الأستاذ:

الحقيقة أن هذا الرقم الدقيق،

(أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا)

، هذا الرقم يتوافق مع أحدث البحوث العلمية، قد يعجب الإنسان لهذا الرقم المحدد، لمَ لمْ يقل الله مثلاً: أربعة أشهر، أو خمسة أشهر، أو ستة أشهر، أو شهرين، أو ثلاثة أشهر، قال علماء الطب: تمرّ المرأة الحامل بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة الشك، وفيها ينقطع دم الحيض، وانقطاعه علامة على حمل المرأة، ولكن هل هي علامة قاطعة ؟ الجواب لا، قد تتوقف هذه الدورة بسبب آخر غير الحمل كالضطرابات النفسية، أو الهرمونية، أو الاختلال في بنية الجهاز التناسلي عند المرأة، كل هذا يستدعي أن تنقطع الدورة الشهرية، إذاً فانقطاع الدورة الشهرية لا يعد دليلاً يقينياً على الحمل، هذه مرحلة سماها علماء الطب مرحلة الشك، تنقطع الدورة الدموية عند المرأة، وليس هناك حمل إطلاقاً، فلا يمكن أن يعد انقطاع الدورة الشهرية عند المرأة علامة يقينية على الحمل.

الآن هناك مرحلة أخرى هي مرحلة الظن، حيث تأتي المرأة أعراض نفسية، كالشعور بالكآبة، وأعراض هضمية كالإقياء والغثيان، والميل إلى العزلة، هذه الأعراض الهضمية والنفسية، اصطلح الناس على تسميتها الوحمَ، حيث أغلب الظن أنها في هذه المرحلة حامل، ولكن هل تعد هذه المرحلة دليلاً قاطعاً على الحمل ؟ أيضاً الجواب لا، الأولى مرحلة الشك، أما الثانية مرحلة الظن، هناك اضطرابات نفسية، شعور بالكآبة، أعراض هضمية، إقياء، غثيان، ميل إلى العزلة، هذه الأعراض ترافق المرأة الحامل، ومع ذلك لا تعد دليلاً قطعياً على حمل المرأة، إذاً لا زالت المرأة في مرحلة ليست يقينية في الحمل، لذلك هذه الأعراض التي قد تكون في المرأة، ولا حمل معها، يسميها الأطباء أعراض الحمل الكاذب، وقد تفاجئ المرأة بأن الدورة قد جاءتها، وألغي الحمل.

المذيع:

لا بد فضيلة الدكتور من ذكر هذا الرقم بالذات من حدوث أمر معيّن في هذه اللحظة.

الأستاذ:

إجابة عن سؤالك اللطيف: في اليوم السادس والعشرين بعد المئة، أي في اليوم العاشر بعد الأشهر الأربعة التي ذكرها القرآن الكريم حينما قال تعالى:

(وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا)

هذا اليوم السادس والعشرين بعد المئة، أي اليوم العاشر بعد الأشهر الأربعة التي ذكرها القرآن الكريم ينبض قلب الجنين، ومع نبض قلب الجنين يتحرك، ومع الحركة تشعر المرأة بحركته تلك، إذاً عندها تدخل المرأة مرحلة ثالثة هي مرحلة اليقين، فحركة الطفل في أحشاء أمه دليل قطعي على الحمل، لذلك قال تعالى:

(وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا)

هذه الحقائق الطبية تنطبق مع القرآن الكريم انطباقاً تاماً وعفوياً وعجيباً، ففي اليوم السادس والعشرين بعد المئة ينبض قلب الجنين، ومع نبض قلب الجنين يتحرك، ومع حركة الجنين تشعر المرأة يقيناً بالحمل، وهذه المرحلة الثالثة سماها العلماء مرحلة اليقين.

المذيع:

فضيلة الدكتور، ما دمنا نتحدث في نفس الموضوع، وهو مرحلة الحمل، وذكرنا في الآية الكريمة:

(وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا)

هنا التي يتوفى زوجها تتربص في بيتها هذه الفترة، ولكن إن أردنا أن نعطي الفترة لبراءة الرحم، فما هي الفترة، هل ذكرها القرآن الكريم في الكتاب ؟

الأستاذ:

نعم، لقد قال عز وجل:

(وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ)

(سورة البقرة الآية: 228)

قد يعجب الإنسان، ألا يكفي دورة واحدة لتأكد براءة الرحم من الحمل **!؟** في القرآن الكريم يقول الله عز وجل:

(وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ)

أستاذ عبد الحليم، من المسلَّم به أنه لا حمل مع الحيض، ولا حيض مع الحمل، فلماذا أمر الله النساء أي يتربصن ثلاثة قروء، أفما كان يكفيهن قرء واحد تحيض فيهن ؟ فإذا هي ليست بحامل ؟ الجواب العلمي: قيل: لا، لا يعد وجود الحيض وانقطاع الدم لمرة واحدة دليلاً على عدم وجود الحمل، فإن هناك حالات نادرة تحيض فيها المرأة في بداية الحمل مرةً أو مرتين، أو ثلاثاً، لأسباب كثيرة، فجات الآية الكريمة لتعطي براءة الرحم على نحو قطعي، لا لُبس فيه، لذلك قال تعالى:

(وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

الحقيقة أن ملخص هذا الكلام أن الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن، وأن الذي خلق الأرحام هو الذي أنزل هذا القرآن، وأن مواءمة عجيبة وتوافقاً مذهلاً بين آيات القرآن الكريم وقوانين الكون، وهذا يؤكد أن هذا القرآن كلام الله، وهذا يؤكد أيضاً أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلقنا، وهو الذي أنزل على نبيه الكريم هذا الكتاب العظيم الذي هو منهج لنا، وهذا هو محور الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة من أجل أن نعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام جاء بمعجزة مستمرةٍ، لأنه آخر الأنبياء وخاتم الرسل، وأن معجزته ليست حسية كباقي الأنبياء، بل هي معجزة عقلية علمية مستمرة إلى يوم القيامة.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 29 - 30 : الطب في الإسلام.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-11-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

حينما قال الله عز وجل :

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80))

[سورة الشعراء : 78-80]

هناك ملمح لطيف في هذه الآيات

(الَّذِي خَلَقَنِي)

فَنَسَبَ الخلق إلى الله عز وجل،

(فَهُوَ يَهْدِينَ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ)

نسب الإطعام والسقيا إلى الله عز وجل،

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

نسب المرض إلى الإنسان، لأن أصل المرض خروج عن منهج الله عز وجل، وكأن الإنسان مصمم ألا يمرض، فإذا خالف منهج الله في طريقة حياته، وفي طعامه وشرابه، وفي وضعه النفسي ربما كانت هذه المخالفات في مجموعها تسوق الإنسان إلى خلل في صحته، فالإنسان دين الفطرة، يحرص في تعاليمه على صحة الجسد، وطهر النفس، ويوازن بين المادة والروح، وبين الحاجات والقيم، ويهدف إلى إصلاح الدنيا وإصلاح الآخرة، وأن الأولى مطية الثانية، إن صحة الجسد مرتكز لسلامة النفس وسموها، ومنطلق لصحة العقل، وتفوقه فالله سبحانه وتعالى جعل صحة الجسد وقوته ورجاحة العقل واستنارته علة الاصطفاء، فقال تعالى :

(وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247))

[سورة البقرة : 247]

في قصة سيدنا موسى مع سيدنا شعيب قال تعالى :

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26))

[سورة القصص : 26]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ، وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[مسلم، ابن ماجه، أحمد]

المذيع :

ولكن هناك البعض من يفسر هذا الحديث النبوي الشريف على أن الله هو الذي خلق هذا القوي، فلماذا يميز الله القوي عن الضعيف ؟

الأستاذ :

نحن نفرق بين قوة مكتسبة، وبين قوة من قضاء الله وقدره، وبين ضعف مكتسب و ضعف من قضاء الله وقدره، الغنى قوة، والعلم قوة، وأن تكون في مركز دقيق قوة، فهذه الأشياء قد تكتسب بالسعي والجد، وقد لا تكتسب، فإذا تحدثنا عن فضل المؤمن القوي على المؤمن الضعيف فالمقصود بالقوة التي هي من كسب المؤمن، لكن هناك ملمح دقيق جداً، هو أن طريق القوة إذا كان سالكاً وفق منهج الله يجب أن تكون قوياً، لأن القوي أمامه خيارات في العمل الصالح لا تعد ولا تحصى، وبأن العمل الصالح هو قوام الحياة الدنيا، بل هو ثمن الآخرة، أما إذا كان طريق القوة محفوفاً بالمعاصي والآثام، والكذب والنفاق، والشرك فمرحباً بالضعف، فهو وسام شرف في صدر الإنسان، أضيف على ذلك إذا كان طريق الغنى سالكاً وفق منهج الله يجب أن تكون غنياً، لأن خيارات الغني في العمل الصالح لا تعد ولا تحصى، أما إذا كان طريق الغنى محفوفاً بالمعاصي والآثام، والنفاق والكذب، والدجل فمرحباً بالفقر، فهو وسام شرف في صدر الإنسان.

الطبّ ـ أستاذ عبد الحليم ـ أنواع عديدة، منه الطب الطبيعي، فشخصية المسلم مرتكزة على العطاء لا على الأخذ، مرتكزة على بذل الجهد لا على استهلاك جهد الآخرين، مرتكزة على العمل لا على الأمل، على الإيثار لا على الأثرة، على التضحية لا على الحرص، على إنكار الذات لا على تأكيدها، إن بذل الجهد في حد ذاته صحة، وأية صحة.

في بعض المؤتمرات الطبية التي عقدت في البحث في أمراض القلب اتفق المؤتمرون على أن صحة القلب في بذل الجهد وراحة النفس، وأن طبيعة العصر الحديث تقتضي الكسل العضلي، والتوتر النفسي، والكسل العضلي وراء تفاقم أمراض القلب في معظم البلاد المتقدمة تقدماً مادياً، النبي عليه الصلاة والسلام في معركة بدر كان معه رواحل قليلة، وأصحابه أكثر من ثلاثمئة رجل، فأعطى توجيهاً وقال :

((وَأَنَا وَعَلِيٌّ وَأَبُو لُبَابَةَ عَلَى رَاحِلَةٍ، فَكَانَ أَبُو لُبَابَةَ وَعَلِيُّ بْنُ أَبي طالِبٍ زَمِيلَيْ رَسُولِ اللهِ e، فَكَانَتْ نَوْبَةُ رَسُولِ اللهِ ـ دورُه في السَّيْر ـ فقالا له : نَحْنُ نَمْشِي عَنْكَ ـ ليظلَّ راكباً ـ فقال : مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي عَلَى السَّيْرِ، وَلاَ أَنَا بِأَغْنَى مِنْكُمَا عَنِ الأَجْرِ))

[النسائي وأحمد عن ابن مسعود]

رسول الله ، قائد الجيش زعيم الأمة قال قولة تكتب بماء الذهب :

((مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي عَلَى السَّيْرِ، وَلاَ أَنَا بِأَغْنَى مِنْكُمَا عَنِ الأَجْرِ))

أنا أقول : بذل الجهد في حد ذاته صحة للجسم، كان e مع أصحابه في سفر، أرادوا أن يعالجوا شاةً، فقال أحدهم : عليّ ذبحها، وقال الثاني : عليّ سلخها، وقال الثالث : عليّ طبخها، فقال عليه الصلاة والسلام : وعليّ جمع الحطب، فقالوا : يا رسول الله، نكفيك ذلك ؟ قال : أعلم أنكم تكفونني، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه.

لمجرد أن تبذل جهداً يؤكد إنسانيتك وتواضعك وإحساسك أنك كغيرك من الناس، لست مستعلياً عليهم، ولا متغطرساً عليهم، هذا في حد ذاته صحة وأدب وأخلاق، فبذل الجهد هو الطب الطبيعي، أكثر أمراض القلب في هذه الأيام بسبب الكسل العضلي، وعدم بذل الجهد، والتوتر النفسي، وصحة آبائنا وسلفنا الصالح بسبب أن عندهم جهداً عضلياً كبيراً هو أحد أسباب صحتهم، وعندهم راحة نفسية عالية أساسها التوحيد.

المذيع :

فضيلة الدكتور راتب، بما أنك ذكرت لنا المرض النفسي في حديثك، هل ذكر الطب النفسي في القرآن الكريم، أو السنة الشريفة ؟

الأستاذ :

نعم، الطب النفسي أساسه التوحيد، والأمراض النفسية أساسها الشرك، أنت حينما توقن يقيناً قاطعاً أن أمرك كله بيد الله، وأن الله يعلم، ويرى، ويسمع، وأنه على كل شيء قدير، وأن كل ما في الكون بيده، وأنه عادل، وأنه رحيم، وأنه غني، وأنه قدير، وأنه يستجيب لك إذا دعوته، وأنه يسمع نداءك، هذه المعاني التوحيدية في حد ذاتها صحة نفسية، بينما إذا توهمت أن هذا الإنسان لا يحبك، ويتمنى أن يقضي عليك، وهو أقوى منك، فهذه المشاعر وحدها تسبب أمراضًا نفسية، وأمراضًا في الجسد لا يعلمها إلا الله، الطب النفسي يمكن أن نقول عنه : إن هناك أمراضًا كثيرة، بعضها عضال، وبعضها مميت، كأمراض القلب والشرايين، وأمراض جهاز الهضم والكليتين، والأمراض النفسية والعصبية إنما ترجع أسبابها الرئيسة إلى أزمات نفسية يعاني منها إنسان الشرك في هذا العصر، قال تعالى :

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (151))

[سورة آل عمران : 151]

فتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها، وأنت من خوف الفقر في فقر، وأنت من خوف المرض في مرض، قال تعالى :

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26))

[سورة المعارج : 19-26]

بعض الأطباء يرى أن ضغط الدم في حقيقته هو ضغط الهم، لذلك قال تعالى :

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213))

[سورة الشعراء : 213]

الطب النفسي يرتكز على التوحيد والأمراض النفسية أساسها الشرك، قال تعالى :

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213))

[سورة الشعراء : 213]

لأن المؤمن يرى أن كل شيء بقضاء من الله وقدر، قال تعالى :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51))

[سورة التوبة : 51]

هذه المعاني التوحيدية تهب الإنسان صحة نفسية، والصحة النفسية أساس صحة الجسد، فالتوحيد صحة، والشرك مرض، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، والإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن، هذا هو الطب النفسي، أن تكون مع الله، وإذا كنت مع الله كان الله معك، وإذا كان الله معك كان معك كل شيء، وإذا كان عليك فمن معك ؟ ويا رب، ماذا فقد من وجدك، وماذا وجد من فقدك ؟ هذه المعنويات العالية للمؤمن تحقق له هذه الصحة النفسية التي هي صحة للجسد.

أنا أعتقد أنه كلما تقدم العلم كشف أن معظم الأمراض ترجع في أسبابها الحقيقية إلى شدة نفسية، ثم إنني أرى أن هذه الشدة النفسية أساسها ضعف الإيمان بالله، وأساسها ضعف التوحيد، وأساسها حُجُب كثيفة بين العبد وربه بسبب المعاصي والآثام التي يرتكبها.

المذيع :

فضيلة الدكتور، ما دمنا تحدثنا عن الطب النفسي في الإسلام، والطب الطبيعي، ولكن هناك طب حديث نوعاً ما، لا أعلم إن كان تحدث عنه الإسلام، فهناك الطب الوقائي، مثلاً، أن يزيل أسباب المرض قبل وقوع المرض.

الأستاذ :

حدثني صديق أنه كان في ألمانيا، فرأى مستشفى من أضخم المستشفيات كُتِب عليها باللغة الألمانية هذه العبارة : " نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع "، تحت هذه العبارة كتب : " محمد بن عبد الله "، وعدّ هذا الحديث أصلاً في الطب الوقائي، ودرهم وقاية خير من قنطار علاج، ليس من السهل أن تعالج مرضاً، لكن من السهل جداً أن تتقيه، وهذه حقيقة مهمة جداً في الطب الوقائي، النظافة، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222))

[سورة البقرة : 222]

من الطب الوقائي الوضوء والصلاة، انتهى إلى علمي أن علماء كبار في السويد، هذا البلد المتفوق في التمارين الرياضية، أن علماء كبار في هذا الاختصاص أرادوا أن يضعوا برنامجاً رياضياً يقوم به كل الناس كل يوم، ذكوراً وإناثاً، صغاراً وكباراً، دون أن يرهق قلوبهم، ودون أن يعطل أعمالهم، فنظموا تمرينات لو اطلعت عليها لوجدتها قريبة من الصلاة، تمارين تؤدى كل يوم خمس مرات، لا ترهق الجسم، ولا تتعبه، وتلين العضلات.

من الطب الوقائي أن يكون الإنسان نظيفاً.

ومن الطب الوقائي أن يقوم، ويتوضأ، ويصلي.

هناك أمراض كثيرة مثلاً تصيب النساء، من هذه الأمراض انقلاب الرحم، هذا المرض قلما يوجد في العالم الإسلامي، لأن علاج هذا المرض حركات تشبه الصلاة تماماً، أمراض القذارة، ثلاثمئة مليون إنسان في الأرض مصاب بأمراض القذارة، هذه الأمراض معظمها ليست موجودة في العالم الإسلامي بسبب الوضوء، والمبالغة في التطهير، وهناك أمراض كأمراض الغرغرين الموات تصيب أناساً كثيرين، لكن لأن المسلم مكلف أن يتوضأ كل يوم خمس مرات، وأن يخلل بين أصابعه، هذا من أجل تنشيط الدورة الدموية، فالدم حينما لا يصل إلى أطراف الأصابع، هذه الأطراف تسود، وتتماوت، ثم تقطع، الحقيقة أن هناك أمراضًا كثيرة جداً بسبب مخالفة منهج الله عز وجل.

مثلاً : أنت حينما تسجد ما الذي يحصل ؟ ينطلق الدم على الرأس بالسجود، فتحتقن الأوعية، فحينما ترفع ينخفض ضغط الدم حينما تسجد يرتفع ضغط الدم، ومن هذا الارتفاع والانخفاض المتتالي ينشأ ما يسمى مرونة الأوعية في الدماغ، هذه المرونة تحتمل ضغطاً مرتفعاً، لو فرضاً إنسان يصلي، وارتفع

ضغطه إلى رقم كبير جداً الأوعية الدموية في الدماغ المصلي تتحمل ضغطاً مرتفعاً، بينما الأوعية الدموية في دماغ من لا يصلي لا تحتمل الضغط المرتفع، الحقيقة أن أداء الصلوات الخمس وتطبيق تعليمات النبي عليه الصلاة والسلام هو في حد ذاته طب وقائي.

المذيع :

أتينا هنا لتعاطي الدواء، وهو الطب العلاجي، هل ورد شيء من ذلك حثنا النبي عليه الصلاة والسلام، أو الله عز وجل في كتابه الكريم ؟

الأستاذ :

إذا قال النبي عليه الصلاة والسلام، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، إذا قال :

((تداووا))

وهذا أمر وكل أمر في القرآن والسنة يقتضي الوجوب.

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((تَدَاوَوْا عِبَادَ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُنَزِّلْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ مَعَهُ شِفَاءً))

[أحمد، الترمذي، أبو داود، ابن ماجه]

أستاذ عبد الحليم، هذا الحديث يمكن أن تُكتَب عنه كتب، لو سمع مريض هذا الحديث بماذا يشعر ؟ أنه ما من داء إلا له دواء، ترتفع معنوياته، وإذا ارتفعت معنويات المريض استطاع أن يقوى على عوامل المرض.

حدثني صديق ذهب إلى بريطانيا ليجري عملية في قلبه، قبل العملية بيوم دخلت ممرضة على مستوى رفيع جداً، تنسق أزهار الغرفة، ولم تلتفت إليه، قالت له : من طبيبك ؟ قال : فلان، قال : ليس : معقولا، كيف أخذت موعداً منه ؟ قال : أنا أخذت موعدًا قبل أن آتي إلى بريطانيا، حدثته عن هذا الطبيب، وعن عملياته الناجحة، وعن أنه أجرى عشرة آلاف عملية، كلها كانت ناجحة، فلما انتهت العملية، ودفع ما عليه، وجد مبلغاً ضخماً لرفع معنوياته، هو ما فعلته هذه الممرضة، فهناك حقيقة في الطب أن الإنسان إذا ارتفعت معنوياته يقوى على عوامل المرض، فالنبي الكريم قال :

((... فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُنَزِّلْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ مَعَهُ شِفَاءً))

هذا الحديث يرفع معنويات المريض إلا مرض الموت، هو بوابة الخروج، لابد من مرض لا يشفى، هو بوابة الخروج، وإذا سمع الحديث طبيباً بماذا يشعر ؟ إنه مقصر، ما دام النبي عليه الصلاة والسلام، وهو مبعوث العناية الإلهية يؤكد أن كل مرض له دواء، فهذا يدعوه إلى المسارعة، فإن التداوي، وأخذ الدواء من الدين.

عَنْ جَابِرٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ :

((لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ، فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

[مسلم، أحمد]

هناك حقيقة ينبغي أن تكون واضحة في هذا الحديث، أن الله جعل لكل داء دواء، لكن مهمة الطبيب أن يحسن تشخيص الداء، ووصف الدواء، لكن لو أن الطبيب نجح في تشخيص الداء، ووصف الدواء، الدواء لا يكون فاعلاً إلا إذا سمح الله له، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله، إذاً نحتاج نحن إلى أخذ بالأسباب، ثم التوكل على رب الأرباب.

المذيع :

إذاً فضيلة الدكتور، نشكرك لهذا الإيضاح عن الطب في الإسلام بشتى أنواعه، إن كان طبيعياً، أو وقائياً، أو نفسياً، فقد كلمنا الله سبحانه وتعالى، وكلمنا النبي عليه الصلاة والسلام، وحثنا على التداوي، وليس التواكل في هذا الأمر، يتوكل الإنسان على الله، ولكن يسعى للحصول على الدواء.

الأستاذ :

أحب أن أضيف أن هناك حديثًا شريفًا دقيقًا جداً، عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ تَطَبَّبَ، وَلَمْ يُعْلَمْ مِنْهُ طِبٌّ قَبْلَ ذَلِكَ فَهُوَ ضَامِنٌ))

[النسائي، أبو داود، ابن ماجه]

كيف أن الدول الراقية جداً يحاسب الطبيب عن كل أخطائه، وقد يدفع كل ثروته، لأنه أعطب عضواً في مريض عنده، كذلك يقول عليه الصلاة والسلام :

((مَنْ تَطَبَّبَ، وَلَمْ يُعْلَمْ مِنْهُ طِبٌّ قَبْلَ ذَلِكَ فَهُوَ ضَامِنٌ))

أي يدفع تعويضاً لهذا المريض الذي أتلف بعض أعضائه.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - الإعجاز العلمي - الحلقة 30 - 30 : العظام.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-11-24

بسم الله الرحمن الرحيم

إن من آيات الله الدالة على عظمته هذا الهيكل العظمي الذي هو قوام جسمنا، إنه نسيج متين، يقاوم قوى الشد، ونسيج قاس يقاوم قوى الضغط، متين وقاس، هذا النسيج المتين القاسي أحد وظائفه الكبرى أن يحمي الأجهزة النبيلة، فالدماغ من أنبل هذه الأجهزة، موضوع في كرة عظمية هي الجمجمة، والنخاع الشوكي أيضاً حبل نبيل جداً، موضوع في العمود الفقري، والقلب أخطر هذه الأجهزة، موضوع في القفص الصدري، والرحم موضوع في عظم الحوض، ومعامل كريات الدم الحمراء موضوعة في داخل العظام، ولولا الجهاز العظمي لكان الإنسان كومة من الجلد واللحم لا شكل لها، هذا الجهاز مؤلف من مئتي قطعة، بنيتها قاسية، ومحكمة من الخارج، ومسامية، إسفنجية من الداخل، لو أن بنيتها من الداخل كانت كبنيتها في الخارج لكان وزن أحدنا أربعة أمثال وزنه الطبيعي، لو أن وزن الإنسان سبعين كيلو غراماً يصبح مئتين وأربعين كيلو غرامًا، إذا كانت العظام بنيتها من الداخل كبنيتها من الخارج، من الخارج متينة ثقيلة من الداخل إسفنجية.

يقول العلماء: في بنية العظم يتحقق حد أقصى من النتائج بحد أدنى من اللوازم، فهناك توازن رائع بين البنية المقاومة والوزن الخفيف، الطائرة التي نركبها تزن مئة وخمسين طناً، ووقودها يزن مئة وخمسين طناً، يكفيها أربع عشرة ساعة للطيران، لو أنها صنعت من ثلاثمئة طن من الحديد لاحتاجت إلى ثلاثمئة طن من الوقود، لو كان وزننا أربعة أمثال ما نحن عليه فهناك مشكلات جمالية، وهناك هدر للطاقة بلا مسوغ، أغرب ما في هذا الجهاز أن هناك هدماً وبناءً مستمرين، حقيقة مذهلة، حيث إن الإنسان يتجدد هيكله العظمي خمس مرات في عمر متوسط، كل ست أو سبع سنوات لك هيكل عظمي جديد كلياً، بفعل عملية الهدم والبناء، إن الهدم والبناء مستمر، إذاً يعين على التئام الكسور، وظيفة البناء الأولى أنه يعين على التئام الكسور، فإذا كسر عظم الإنسان، وليس هناك هدم ولا بناء أصبح هذا العظم مكسوراً حتى الموت، وهذه من نعم الله الكبرى، والهدم والبناء المستمر يجعل العظم مخزناً للكلس، بمعنى أن الجنين قد يحتاج إلى مادة الكلس يأخذها من عظم أمه، لأن عظم أمه فضلاً عن أنه هيكل وظيفته أن يكون قوام الإنسان معتمداً على هذا الهيكل فهو مخزن للكلس.

المذيع:

فضيلة الدكتور، ما هو الذي ينظم نمو العظم ؟ وكيف يمكن إيقاف هذا التنظيم عند حد معين ؟

الأستاذ:

تصور لو أن هذا العظم ينمو عشوائياً لتعملق الإنسان ؟ من أسماء الله عز وجل الباسط القابض، هناك هرمونات تنظم نمو العظام ؟ وتنظم إيقافه عند حد معين ؟ شيء لا يصدق ؟ أن هذا العظم ينمو، من الذي أمر هذه الخلايا أن تقف عند حد معين ؟

عملاقاً، هناك حالات نادرة جداً حكمة وجودها أن تعرف قيمة القاعدة الأساسية، فهناك إنسان مقزم، طوله خمسة وخمسون سنتمتراً، وهناك إنسان عملاق طوله مئتان وأربعون سنتمترًا، فالعملقة والتقزم لها علاقة بهرمون النمو، وهذا شيء دقيق.

شيء آخر، هو أن التعظم أي تحول الغضروف إلى عظم يبدأ من الحياة الجنينية، ويستمر بعد الولادة إلى سن اكتمال النمو الطولي، من سبعة عشر عاماً إلى الواحد والعشرين، كيف أن هناك نسيجًا غضروفيًّا مع الزمن يصبح نسيجاً عظمياً، الغضروف ألين، لكن تبقى غضاريف بين العظام، كيف أننا نضع قطعًا من الكوتشوك بين قطعتين صلبتين تفادياً للاحتكاك، كذلك الغضروف له مهمة كبيرة، إنْ في العمود الفقري، وإنْ في المفاصل، فالغلاف الغضروفي يسهل الحركة، ويمتص الصدمات، ويعين على ليونة الاحتكاك.

شيء آخر، هناك عند المفاصل سائل لزج ينزلق عليه سطح لزج من أجل سهولة حركة المفاصل، هذا السائل يتجدد تلقائياً من حين إلى آخر، نحن نعلم في السيارات أنه لابد من إضافة الزيت، لكن الإنسان خَلقه في كمال مطلق، هناك زيت يكون بين المفاصل يتجدد تلقائياً من دون أن تضيف الزيت، ومن دون ساعة زيت، ومن دون خطر احتكاك العظام مع بعضها، هذه بعض الآيات الدالة على عظمة الله عز وجل، لكنكم كما تفضلتم في بداية اللقاء وذكرتم هذه الآية:

وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً)

[سورة البقرة: 259]

العلماء قالوا: العظام في مجملها مركبة من مادة أساسية هي الكالسيوم، ولكن توزيع هذه المادة مع متمماتها على شكل آخر، فخمسة وثمانون بالمئة من العظام كالسيوم وفوسفات، وعشرة بالمئة كالسيوم الكربونات، وثلاثة بالألف كالسيوم الكلوريد، واثنان بالألف كالسيوم الفلوريد، وواحد بالمئة فوسفات المغنزيوم، هذه نسب الكالسيوم مع المتممات التي في العظام، وتسعة وتسعون بالمئة من الكالسيوم متوضع في العظام، ولكن امتصاص الكالسيوم من الأمعاء هنا الدقة، هذا الهيكل العظمي المتين ـ أستاذ عبد الحليم ـ عظم عنق الفخذ يتحمل ضغط مئتين وخمسين كيلوًا، فالإنسان الشديد القوي المتين يتحمل نصف طن، وطبعاً عنق الفخذ هو عظم من أطول عظام الإنسان، لكن من أجل جمال الإنسان جعل وسطه متوسعاً بفضل عنق الفخذ، فكل حمل الإنسان يقع على هذه المنطقة هذا العظم من المتانة حيث

يتحمل مئتين وخمسين كيلوًا، ما هذه المتانة ؟ وما هذه القوة في العظام ؟ والعظم هو كلس يؤخذ من الحليب، فكيف تحول هذه أملاح الكالسيوم التي أودعها الله في الحليب، وفي مشتقات الألبان، وفي بعض الفواكه ؟ كيف نقلت هذه المادة فأصبحت بناءً متيناً للإنسان ؟ هنا ملاحظة لطيفة جداً، إن توضع الكالسيوم في العظام يحتاج إلى فيتامين " د "، فإذا لم يتوافر هذا الفيتامين أصيب الطفل بهشاشة في عظامه، أو بلين في عظامه، موطن الشاهد في الموضوع أن شكل العظام على شكل شوكيات، و هذه الشوكيات تتداخل، وإذا تداخلت كونت جسماً متيناً لدرجة متناهية، والحقيقة أن عظم عنق الفخذ كما تكلمت قبل قليل: يتحمل هذا الضغط الهائل، قال تعالى:

وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً)

[سورة البقرة: 259]

ننشزها، أي: نجعلها على شكل شوكيات متداخلة حيث تكون متينة جداً وقاسية جداً.

المذيع:

فضيلة الدكتور محمد، تحدثنا عن العظام بشكل موسع، أو بشكل عام، ولكن إن دققنا في صنع الله، وفي العظام بالذات، وأخذنا مثلاً اليد، فكيف تحدثنا عن بنائها ؟

الأستاذ:

مثلاً لو تصورنا أن هذه اليد بلا مفصل، كيف نأكل ؟ الأكل مستحيل، بشيء من الطرافة، لابد من أن ننبطح على الأرض، وأن نأكل الطعام عن طريق اللسان فقط، كالقطط، هذا المفصل يجعل قدرتك على تناول الطعام يسيراً، هذا المفصل داخلي، لكن مفصل الرجل خارجي، هذا نحو الداخل، تلك نحو الخارج، هذا المفصل يتحرك في كل الاتجاهات، هناك من يقول: إن الحضارة الإنسانية أساسها هذا الإبهام، هذا الإبهام يقوم بأعمال، تصور حاول أن ترتدي ثيابك من دون إبهام، مستحيل، الإبهام يقوم بدور، الأصابع بدور، السلاميات بدور، الرسغ بدور، الكتف بدور، يوجد شيء دقيق جداً، إنسان أحياناً يغضب يمسك ابنه من يده، ويرفعه بعنف، لو أن الأربطة التي ربطت فيها اليد مع الجسم لم تكن مدروسة لخلعت يده، ويد الطفل مرتبطة مع الجسم لا بأربطة تحميه من أن تنخلع عند حمله فقط عند الغضب منه، لأن الشد السريع يضاعف المقاومة تقريباً، فالإنسان مربوط ربطاً محكماً، الآية الكريمة:

نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (28))

[سورة الإنسان: 28]

لو فكر الإنسان في عظم الرسغ، و كيف أنه يتحرك بكل الاتجاهات، وفكر في عدد الأصابع، وفي السلاميات، وفي الإبهام بالذات، وفي هذا المفصل الداخلي، وفي حركة مفصل الكتف، لرأى العجب

العجاب، إن هذه اليد فيها شبكة أعصاب، وشبكة أوردة، وعضلات، وأجهزة عالية جداً، فالله عز وجل دعانا إلى أن ننظر إلى خلقه، وإلى كمال خلقه، كي نتعرف إليه أكثر فأكثر.

المذيع:

ما هي السلامية ؟

الأستاذ:

هذا العظم الذي في الأصابع، كل إصبع لها عدة سلاميات، قال العلماء: في اليد خمس أصابع، وفي كل إصبع ثلاث سلاميات، إلا الإبهام، فهو مكوّن من سلاميتين، وهنا السر، ربما لا تصدق أن حضارة الإنسان التي يزهو بها متعلقة بهذا الإبهام، والإبهام مما يتفرد به الإنسان دون بقية المخلوقات، على السلامية الثانية في هذا الإبهام يرتكز وتر مع عضلة قابض طويل، يطوي السلامية الثانية، فيعطي الإبهام رشاقته ودقته التي يتفوق بها الإنسان على سائر المخلوقات، بسبب دقة بناء اليد انطلقت هذه اليد لتؤدي مهمات لا حصر لها، لولا هذا الإبهام لما كان لهذه الأصابع من قيمة، جرب أن تكتب من دون إبهام، أو أن تخيط من دون إبهام، أو أن ترتدي ثيابك من دون إبهام، أو أن تعمل على آلة دون إبهام، فإنك بالتأكيد لن تستطيع شيئاً، وهذا صنع الله الذي أتقنه.

إن مفصله الكروي يعطيه المرونة الفائقة، والسلاميتان الاثنتان مزودتان بما لا يقلّ عن خمسة أوتار مما يمنحه الحركة برشاقة في كل الاتجاهات من البسط والقبض، والتبعيد والتقريب، والدوران والإمساك والمقابلة، لو أن ضارباً على جهاز الحاسوب جلس ست ساعات يضرب على أزراره لبذل هذا الإبهام جهداً يساوي المشي على قدميه أربعين كيلو مترًا، وهو لا يدري، قال أحد العلماء الغربيين: هذا الإبهام العجيب هو الذي فتح لنا هذا العالم العجيب، فزاد معرفتنا بالله عز وجل، وعظمته، ووحدانيته، وإن هذه الأداة العجيبة فيها مجموعة من العظام والأوتار والعضلات، والأعصاب والشرايين، والأوردة والعروق الليمفاوية، في اليد سبعة وعشرين عظماً، وثمانية وعشرون مفصلاً، وثلاث وثلاثون عضلة، أما عظام الرسغ فسبعة، وهذا الرسغ أيضاً يعطي اليد الحركة في كل الاتجاهات، ولولا هذا الرسغ لما كان لهذه اليد من معنى، ولولا أنها باتجاه واحد لفقدت معظم خصائصها، تمر شبكة سقي وتروية دموية من أبدع ما خلق الله عز وجل، وتصبّ هذه الشبكة في نهرين عظيمين على حافتي الرسغ في شلالين متعانقين متضافرين، يتوزع عن الوريد والشريان شبكة دقيقة جداً في اليد، ففي أي مكان وضعت رأس إبرة يخرج الدم، معنى ذلك أن هناك شبكةً دقيقةً جداً، وأما المنظم فهي شبكة عصبية محكمة متدفقة من ثلاث كبلات، أعصاب المتوسط، والزندي، والعقبري، تستقبل الحس، وتوجه الحركة، وهذا نظام إرادي، ونظام لا إرادي مرتبط بالفعل المنعكس الشرطي، لو درسنا هذه اليد لوجدناها آية من آيات الله عز وجل، هذه الحضارة، وهذه الصناعات،

وهذه الآلات لا معنى لها من دون يد، والله جل جلاله كرم الإنسان بهذه اليد، وهذه من أقرب الآيات لدينا، قال تعالى:

وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21))

[سورة الذاريات: 21]

والحمد لله رب العالمين

الصور مأخوذة من المراجع التالية

1- f.Netter

2- Fox Human Physiology

3- Anatomy and Physiology in Health and Illness

the_developing_human_8 moore - - Langman's Medical Embryology

Body Function Vander Human Physiology The Mechanism of

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - منهج التائبين - الحلقة 01 - 30: التوبة وشروطها .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-11-27

بسم الله الرحمن الرحيم

ورد في الحديث القدسي:

((إني والأنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويُعبد غيري، وأرزق ويُشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بنعمي، وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إلي بالمعاصي، وهم أفقر شيء إلي ـ هنا الشاهد ـ مَن أقبل علي منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها، وأزيد، والسيئة بمثلها، وأعفو، وأنا أرأف بعبد من الأم بولدها))

[ورد في الأثر]

الله جل جلاله يقول في القرآن الكريم:

(وَاللّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

(سورة النساء الآية: 27)

أي إنه ينتظركم، إنه يفرح بتوبتكم.

لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من الضال الواجد والعقيم الوالد والظمآن الوارد.

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم، وردت قصة أن أعرابياً يقطع الصحارى على ناقته، جلس ليستريح فأفاق فلم يجد الناقة فأيقن بالهلاك المحقق، فجلس يبكي ثم يبكي حتى أخذته سنة من النوم، فأفاق، فرأى الناقة، فاختل توازنه، فقال يا رب، أنا ربك، وأنت عبدي، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي، وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ))

[مسلم]

انظر أخي زياد إلى تعقيب النبي صلى الله عليه وسلم على هذه القصة قال: لله أفرح بتوبة عبده من ذلك البدوي بناقته، لأنه خلقنا ليرحمنا، لأن الله عز وجل يقول:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود الآية: 119)

وكأن نظام الأبوة والأمومة تعريف بالله عز وجل، هذه الأمّ مهما قصر ابنها في حقها، مهما ابتعد عنها، مهما بالغ بالإساءة إليها، إذا رجع إليها تائباً معتذراً تقبله، وتضعه في قلبها، كأن الله عز وجل حينما قال:

((لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3)))

(سورة البلد الآية: 1 - 3)

كأن نظام الأبوة يعرفنا بطبيعة العلاقة بين العباد وربهم، الله جل جلاله يريد أن يتوب علينا، لو تصورنا العكس، لو أن باب التوبة مغلق ما الذي يحصل ؟ أي عبد أخطأ خطأً يتفاقم، هذا الخطأ، لأنه يائس من المغفرة، يائس من التوبة، لكنه بباب التوبة الذي فتحه الله على مصراعيه العباد يقبلون على الله عز وجل، لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي، إذاً التوبة رحمة الله عز وجل، فتح أبوابها لعباده العاصين لعلهم يعودون إلى ربهم مستغفرين تائبين.

الأستاذ زياد:

فضيلة الشيخ، الدكتور محمد راتب النابلسي، لنجعل من هذه الحلقة حلقة مقدمة لسلسلة الحوارات هذه عن التوبة، نستهلها بمعاني التوبة، هل لنا أن نستعرض بعض النقاط وبعض المحاور التي سنتناولها في سلسلة حواراتنا هذه.

الأستاذ راتب:

لكن لا بد من مقدمة ثانية، هذه المقدمة أنه من بين ظلمات الواقع البئيس الذي يعيشه عالمنا الإسلامي اليوم، بدأ فجر الصحوة يسفر عن يوم مشرق، يبدّل بإذن الله ظلمات الجهل والانحراف، ولعل من ألمع صور فجر هذه الصحوة وأحقها بالاستبشار هذا الجيل الطاهر من شباب الأمة، الذي بدأ يتوافد على المساجد، مودّعاً أماكن اللعب والفجور، مقبلاً على دينه، مفارقًا لما سواه، هنا يبدي ثغر الأمة عن ابتسامة ملؤها الأمل والاستبشار، فهؤلاء بإذن الله هم طليعة الأمة، وهم مستقبلها، الحقيقة أنه قبل خمسين عامًا لا تجد في المساجد إلا كبار السن، أما الشيء الذي يملأ الصدر فرحاً والقلب سروراً أنك تجد هؤلاء الشباب قد هجروا أماكن اللهو، وارتادوا بيوت الله عز وجل، إذاً هذا نوع من التوبة الجماعية، هذا لم يكن من قبل.

شيء آخر، هذا النشء المبارك حينما أقبل على العلم الشرعي، وعلى منابع الفكر الأصيلة، ساعياً لتحصيل العلم، نراه يطرح مشكلات، لذلك لا بد من تحفُّظٍ قبل أن نبدأ في الحديث عن معاني التوبة، هذه الحلقات المباركات بإذن الله ليست موجهة للشاردين، إنهم لا يسمعونها، كما أنها ليست موجهة للسالكين، إنها موجهة لشريحة من المجتمع ندموا على ما فرطوا، وأقبلوا على الله، هؤلاء عندهم آلاف

الأسئلة، هذه الشريحة التي شردت من قبل، ثم رجعت إلى الله، فالشارد أو الذي لا يزال شارداً لا تعنيه هذه الحلقات، والسالك إلى الله عز وجل تجاوز هذه المعاني، ولكن أنا أخاطب شريحة من الشباب واسعة جداً رجعت إلى الله، وأرادت أن تسلك طريق الحق، لذلك في ثنيات هذه الحلقات إن شاء الله تعالى معان دقيقة جداً حول مفهوم التوبة، حول حقيقتها، وحول قبولها، وحول علاقتها بالذنب، وعلاقتها بالإصرار، وعلاقتها بالاستغفار، وما إلى ذلك.

الأستاذ زياد:

إذاً مما سبق نعلم أن هذا الشباب العائد إلى الله بحاجة إلى بعض الثبات، إلى بعض التقوية، من حيث الثوابت الإيمانية، والثوابت التعبدية والجهادية، وكل هذه الأمور، هنا الحديث يتوجه إليهم للإجابة عن تساؤلات كثيرة تدور، وتختلج في نفوسهم، بداية كيف يختلج في نفس المسلم الشعور بضرورة التوبة ؟

نعم، ذلك أن الإنسان ركّب من عقل وشهوة، بينما الملك ركّب من عقل بلا شهوة، والحيوان ركب من شهوة بلا عقل، في الإنسان قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله، إن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان، هذا المخلوق الأول الذي قال الله في حقِّه:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية: 72)

هذا المخلوق الأول حينما يحرك شهوته وفق قنوات الشرع يكون تائباً، الشهوة مودعة في أي إنسان.

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

(سورة آل عمران الآية: 14)

ركّب في الإنسان حب الشهوات من النساء والبنين والأموال، وما إلى ذلك، هذه الشهوة التي أودعت في الإنسان من دون منهج إلهي تتحرك حركة واسعة جداً، من هو المؤمن ؟ الذي جعل حركته وفق هذه الشهوة ضمن منهج الله عز وجل، هذا المعنى دقيق جداً، يؤكد قوله تعالى:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص الآية: 50)

عند علماء الأصول المعنى المخالف، المعنى العكسي، المعنى المخالف، أنه من اتبع هواه وفق منهج الله فلا شيء عليه أبداً، لأن الإسلام ليس فيه حرمان، ولكن فيه تنظيم، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة، الإنسان يشتهي المرأة، فتح له باب الزواج، يشتهي المال فتح له باب العمل، يشتهي أن يكون إنساناً مرموقاً فتح له باب القرب من الله.

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4))

(سورة الشرح الآية: 4)

ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، أرأيت إلى بنزين السيارة، هذه المادة متفجرة حينما توضع في مستودعاتها المحكمة، وتسير في الأنابيب الدقيقة المحكمة، وتنفجر في الوقت المناسب، وفي المكان المناسب، تولد حركة نافعة، أما إذا خرج هذا البنزين عن مساره، وأصابت المركبة شرارة أحرقت المركبة ومن فيها.

الشهوات أخي زياد حيادية، يمكن أن يسلك بها الإنسان قنوات نظيفة، ويمكن أن يتفلت من المنهج، كأن الشهوة محرك قوي، وهذا المحرك يحتاج إلى مقود الشرع، مقود المنهج الإلهي، والإنسان باختياره وبإرادته الحازمة كالمقود، يوجه هذه المحرك القوي إلى هدفه الصحيح المقبول النبيل، ويبقى على الطريق، حال الناس قوة اندفاعية كبيرة بلا مقود، لذلك الشهوة تردي صاحبها إن لم يسلك بها منهج الله عز وجل، وهذا المعنى دقيق جداً.

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

إذاً أية شهوة يمكن أن تتحرك مئة وثمانين درجة، لكن الشرع جعل لهذه الحركة حدوداً، حيث ليس فيها عدوان ولا تقصير، فالعدوان هو أن تأخذ ما ليس لك، إذاً أصل التوبة أن في الإنسان شهوات، فإذا تحرك بها حركة عشوائية يحتاج إلى أن يعيدها إلى قنواتها الصحيحة، إلى مسارها الصحيح، والأمثلة كثيرة جداً، متاح لك أن تنظر إلى زوجتك أو إلى محارمك، وليس متاح لك في الشرع أن تنظر إلى امرأة لا تحل لك، هذا عدوان، لو أنك أقمت علاقة مع امرأة لا تحل لك فهذا ذنب كبير، لأنه لعب بمنهج الله عز وجل، وإساءة إلى طبقات المجتمع، إذاً أصل التوبة أن توقع شهوتك وفق منهج الله، أن تسير هذه الشهوات في قنوات نظيفة.

إذاً أؤكد للأخوة المستمعين وللإخوة الشباب أنه ليس في الإسلام حرمان أبداً، ولكن فيه تنظيم، هناك من يتوهم لمجرد أن تتدين فهناك حرمان، لا، هناك التنظيم، لا شك أنك إذا سرت في حقل، ورأيت لافتة كتب عليها حقل ألغام لا تحقد على واضع هذه اللافتة، بل تشكره، إن هذه اللوحة ليست قيداً لحريتك، بل هي ضمان لسلامتك، فالذي يتفلت من منهج الله يندم أشد الندم حينما يدفع ثمن انحرافه وخطاياه، والذي يتقيد بمنهج الله له في الدنيا حياة طيبة، وإذا انقلب إلى الله عز وجل له جنة عرضها السماوات والأرض.

الأستاذ زياد:

وهنا جدل كبير وطويل حول الإرادة والمشيئة، وأنت تريد، والله يفعل ما يريد.

هذا صحيح، لمجرد أنك تؤمن بالجبر فأنت عطلت الدين، وعطلت الثواب والعقاب، وعطلت الجنة والنار، وعطلت بعثت الأنبياء، وعطلت غذاء الكتب، أنت مخير.

الأستاذ زياد:

أن تفعل الخير والشر، والله سبحانه وتعالى هداك إلى الخير، وإلى الشر، والفطرة الإنسانية والنفس البشرية فطرت على الخير، أما العوامل الخارجية فهي التي تؤثر عليها، وتطبع طابعها، إن كان خيراً، أو كان شراً.

جيء برجل إلى سيدنا عمر شارب للخمر، فقال: أقيموا عليه الحد، قال: والله يا أمير المؤمنين إن الله قدر علي ذلك، أخ زياد، استمع إلى ما قاله عمر عملاق الإسلام، قال له: إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار، أقيموا عليه الحد مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله، لمجرد أن توقن أن الله أجبرك على المعصية فأنت جبري، وهذه عقيدة فاسدة، فلا سمح الله ولا قدر، لمجرد أن يتوهم الإنسان أن الله أجبره على ذنوبه ما كان الله ليفعل ذلك

(إِنّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)

هذا مستحيل، إن هي إلا أعمالنا يحصيها الله علينا، ورد في الحديث القدسي الصحيح عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللّيْلِ وَالنّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إِلّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمّ أُوَفِّيكُمْ إِيّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنّ إِلّا نَفْسَهُ))

[مسلم]

ورد عن الإمام حسن رحمه الله تعالى: **" أن الله لو أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عاجزاً في القدرة، إن الله أمر عباده اختيارا، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيرًا ".**

بداية هذه الحلقات يجب أن نوضح حقيقة الذنب، الذنب من صنع صاحبه، حينما يتوهم المتوهم أن الله أجبرنا على الذنب فقد وقع في عقيدة فاسدة فساداً كبيراً، إن هذه العقيدة تحجبه عن الله، العوام لهم

كلمات تشبه الكفر، يقول لك بعضهم باللغة الدارجة: طاسات معدودة بأماكن محدودة، لا تعترض فتنطرد، هكذا الله قدر عليه، هذه كلمات لا معنى لها، آن الأوان أن ننزه عقولنا وألسنتنا عن مثل هذه العقائد الزائغة.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - منهج التائبين - الحلقة 02 - 30:الذنب وطبيعته.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-11-28

بسم الله الرحمن الرحيم

عَنْ أَنَسٍ أَنّ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطّائِينَ التّوّابُونَ))

[أخرجه أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجه]

أنا لا أقول: إن الذنب ينبغي أن يرتكبه الإنسان، معاذ الله، ولكن من جبلّة الإنسان أن الله أودع فيه الشهوات، ففي أية غفلة عن الله قد تغلبه نفسه.

ولكن بادئ ذي بدء أبيّن لكم وللإخوة المستمعين أن هناك ذنباً لا يغفر، إنه الشرك بالله، وهناك ذنب يغفر، ما كان بينك وبين الله، وهناك ذنب لا يترك، ما كان بينك وبين العباد.

الأستاذ زياد:

هذه المعاني دقيقة جداً، وحساسة، لنبدأ بالذنب الذي لا يغفر

(إِنّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ)

[النساء]

الأستاذ راتب:

أجمع علماء التفسير على التعقيب التالي: ما لم يتب، لو أن الذي أشرك بالله تاب قبله الله عز وجل، العبرة ألا يموت مشركاً.

الحقيقة أن هذا المعنى يحتاج إلى توضيح، ما معنى أن الله لا يغفره ؟ يعني ضاقت رحمة الله على أن يغفر ذنب المشرك، لا، ليس هذا هو المعنى، رحمة الله وسعت كل شيء، لكن إنك أردت أن تذهب مثلاً إلى طرابلس، وهناك مبلغ كبير وُعِدتَ أن تأخذه، لو ركبت سيارة، وهناك عدة متاعب في أثناء هذه السفرة، هذه المتاعب مقبولة، لكن السيارة في الطريق إلى طرابلس، وسوف تأخذ المبلغ هناك، أمّا الخطأ الذي لا يغتفر فأن تركب سيارة تتجه إلى صيدا، من هو المشرك، الذي اتجه إلى غير الله، غير الله ما عنده شيء، لا عنده عطاء، ولا عنده توفيق، ولا عنده قبول، ولا عنده شيء، فكأن الذي يشرك يتجه إلى جهة لا تملك شيئاً، إنسان مريض مرضًا شديدًا ينبغي أن يتجه إلى مستشفى كي يعالج، أمّا إذا اتجه إلى معمل المعمل فلا يعالجه، فمعنى قول الله عز وجل:

(إِنّ اللّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)

(سورة النساء الآية: 48)

أي إنك إذا اتجهت إلى غير الله كيف تنتظر من الله العطاء ؟ إنك متوجهاً إلى غيره، ترضي غيره، ترجو غيره، تخاف من غيره، تعقد الأمل على غيره، إن هذا الطريق مسدود، ليس المعنى جبري، لكن المعنى تقريري، أنه إذا اتجهت إلى غير الله فلن تجد شيئاً، فالذي تتجه إليه لا يملك أن يغفر لك الذنب.

مرة أحد الخلفاء دخل الحرم المكي، والتقى بعالم جليل، قال: سلني حاجتك، يعني تقرب إليّ، قال: والله إني لأستحي أن أسال غير الله في بيت الله، فلما لقيه خارج البيت قال له: سلني حاجتك، قال: والله ما سألتها من يملكها أفأسألها من لا يملكها، فلما أصر عليه قال: أدخلني الجنة، قال: هذه ليست لي، قال له: إذن ليس لي عندك حاجة، حاجتي بلوغ الجنة.

إذاً: الإنسان حينما يتجه إلى غير الله يتجه إلى لا شيء، وهذه مشكلة المشرك، يعقد عليه الآمال، يرجو رحمته، يخشى عذابه، ينتظر عطاءه، فلما وصل إليه وجده لا شيء، هذه الحالة في علم النفس خطيرة جداً، اسمها حالة الإحباط، هؤلاء المشركون حالاتهم حالات إحباط مستمر، فكلما اتجهوا إلى غير الله خاب ظنهم.

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ)

(سورة فاطر الآية: 14)

لذلك هذا الذي يدعو الله، هو حتماً مؤمن بوجوده، هو حتماً مؤمن أنه يسمعه، هو حتماً مؤمن أنه قادر على تلبية طلبه، هو حتماً مؤمن أنه يحب أن يلبي طلبه، إيمان بوجوده، وبسمعه، وبقدرته، وبرحمته، لذلك قال تعالى:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ)

(سورة الفرقان الآية: 77)

لأنكم تدعون الله فالله يعبأ بكم، ويغفر لكم، ويقربكم، أما الذي يدعو غيره فإنه يتجه إلى لا شيء، هنا المشكلة، فهذا الذنب لا يغفر، ليس معنى هذا أن هذا الذنب لا يتاب منه، يتاب منه إذا تاب الإنسان من الشرك غفر الله له، أما أن يبقى مصراً على شركه، وتغفر ذنوبه، هذا هو المستحيل.

الأستاذ زياد:

إذاً الذنب الذي لا يغفر هو الشرك، ما لم يتوب منه الإنسان، وهنا ينطبق عليه حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((التَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ))

[ابن ماجه]

أما الذنب الثاني فهو الذنب الذي لا يترك حقوق العباد، وهي مبنية على المشاححة، بينما حقوق الله مبنية على المسامحة، وحينما تقرأ القرآن الكريم تعجب من كلمة مِنْ

(يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ)

(سورة نوح الآية: 4)

ومن للتبعيض، أي يغفر لكم بعض ذنوبكم، أما بعضها الآخر فلا يغفره الله إلا أن تؤدي هذا الحق إلى صاحبه، أو يسامح هذا الذي له عليك الحق، لذلك وقع السلمون في وهم خطير يظن أحدهم أن يفعل المعاصي ما شاء، ثم يذهب إلى الحج، وفي الحج يتوهم أن الله غفر له كل ذنوبه، من قال لك ذلك ؟ في الحج وفي العمرة، وفي الصيام وفي القيام، وفي التوبة وفي الهجرة، هذه كلها مناسبات أن يعود الإنسان كيوم ولدته أمه من الذنب الذي بينه وبين الله فقط، الحج، العمرة، صيام رمضان، قيام رمضان، الهجرة، التوبة النصوح، هذه كلها مناسبات للمغفرة، ولكن ما كان بينك وبين الله فقط، أما ما كان بينك وبين العباد الذنب فلا يغفر إلا أن تؤديه لصاحبه، أو يسامحك به صاحبه، لذلك كان عليه الصلاة والسلام إذا أراد أن يصلي على أحد صاحبته الكرام وهم أكرم البشر يقول: أعليه دين، فعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ فَقَالُوا: صَلِّ عَلَيْهَا، فَقَالَ: هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَهَلْ تَرَكَ شَيْئًا ؟ قَالُوا: لَا، فَصَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ أُخْرَى، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلِّ عَلَيْهَا قَالَ هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ قِيلَ نَعَمْ قَالَ فَهَلْ تَرَكَ شَيْئًا قَالُوا ثَلَاثَةَ دَنَانِيرَ فَصَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ أُتِيَ بِالثَّالِثَةِ فَقَالُوا صَلِّ عَلَيْهَا قَالَ هَلْ تَرَكَ شَيْئًا قَالُوا لَا قَالَ فَهَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ قَالُوا ثَلَاثَةُ دَنَانِيرَ قَالَ صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ قَالَ أَبُو قَتَادَةَ صَلِّ عَلَيْهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَعَلَيَّ دَيْنُهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ))

[البخاري]

وعَنْ جَابِرٍ قَالَ:

((تُوُفِّيَ رَجُلٌ فَغَسَّلْنَاهُ، وَحَنَّطْنَاهُ، وَكَفَّنَّاهُ، ثُمَّ أَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي عَلَيْهِ، فَقُلْنَا: تُصَلِّي عَلَيْهِ، فَخَطَا خُطًى، ثُمَّ قَالَ: أَعَلَيْهِ دَيْنٌ ؟ قُلْنَا: دِينَارَانِ، فَانْصَرَفَ فَتَحَمَّلَهُمَا، أَبُو قَتَادَةَ، فَأَتَيْنَاهُ، فَقَالَ: أَبُو قَتَادَةَ،: الدِّينَارَانِ عَلَيَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أُحِقَّ الْغَرِيمُ، وَبَرِئَ مِنْهُمَا الْمَيِّتُ ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَصَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ بِيَوْمٍ: مَا فَعَلَ الدِّينَارَانِ ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا مَاتَ أَمْسِ، قَالَ: فَعَادَ إِلَيْهِ مِنْ الْغَدِ، فَقَالَ: لَقَدْ قَضَيْتُهُمَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْآنَ بَرَدَتْ عَلَيْهِ جِلْدُهُ))

[أحمد]

يا أخ زياد، هذا الذي قدم روحه في سبيل الله، هل يملك الإنسان أثمن من روحه، والجود بالنفس أقصى غاية الجود، ومع ذلك يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين.

الأستاذ زياد:

إلا الذي بحق الآخرين.

الأستاذ راتب:

أبداً، هذا الوهم الذي يقع فيه معظم المسلمين، يذهب إلى الحج فيعود كيوم ولدته أمه، والله هذا وهم خطير جداً، حقوق العباد لا بد من أن تؤدى، تامة غير منقوصة، هذا الذنب الذي لا يترك.

الأستاذ زياد:

وهناك تفاصيل فقهية، إذا كان الإنسان يؤدي ديناً منتظماً على مدة طويلة، هذا لا يعتبر من المقصرين ـ نعم ـ وكذلك أن يؤدي الحقوق ليست فقط المادية، وكذلك المعنوية ـ نعم ـ إذا اغتاب أحداً فليذهب، ويطلب منه السمح والصفح.

واحد سأل أحدهم: لقد اغتبتني، قال له: ومن أنت حتى اغتابك ؟ من أنت ؟ لو كنت مغتابًا أحدًا لاغتبت أبي وأمي، لأنهم أولى بحسناتي منك، المؤمن يعتقد اعتقاد يقينياً أنه إذا اغتاب مؤمناً فسيأخذ هذا المؤمن من حسناته، لذلك في موضوعات دقيقة جداً، الناس في أمسّ الحاجة إليها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ، وَلَا مَتَاعَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَزَكَاتِهِ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيَقْعُدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَصَّ مَا عَلَيْهِ مِنْ الْخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

[أخرجه الترمذي]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: هِيَ فِي النَّارِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا، وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنْ الْأَقِطِ، وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: هِيَ فِي الْجَنَّةِ))

[أخرجه أحمد في مسنده]

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ ـ فما قولك فيما فوق الهرة ـ رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[متفق عليه]

أنا أريد أن أؤكد للإخوة المستمعين أن حقوق العباد خطيرة جداً، لا بد من أن تؤدى.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر الآية: 92 - 93)

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حِطَّانَ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَذَاكَرْتُهَا حَتَّى ذَكَرْنَا الْقَاضِيَ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((لَيَأْتِيَنَّ عَلَى الْقَاضِي الْعَدْلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَاعَةٌ يَتَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ بَيْنَ اثْنَيْنِ فِي تَمْرَةٍ قَطُّ))

[أحمد]

فيجب أن نحذر أن نأخذ ما ليس لنا.

الأستاذ زياد:

هذا هو الذنب الذي لا يترك حتى يؤدى، ومن ثم تكون التوبة، أو يتسامح صاحبه، نعم.

الأستاذ راتب:

طبعاً هذه الذنوب التي لا تترك لا تغفر إلا بالأداء أو المسامحة، وكأن الله جل جلاله إذا اصطلح اثنان وتسامحا لا يتدخل، لك عندي مبلغ، سامحتني فيه، انتهى الأمر، أو أديته لك، أما هذا الوهم الساذج، هذه الفكرة السخيفة، أنني أحج إلى بيت الله الحرام، وأعود، وقد غفرت لي كل ذنوبي، لا، ما كان بينك وبين العباد لا يغفر إلا بالأداء والمسامحة، هذا الذنب الذي لا يترك.

بالمناسبة، هناك عبادات شعائرية، وهناك عبادات تعاملية، وأنا أوقن، ومعي دليل قوي أن العبادات الشعائرية لا تقبل، كالصلاة والصوم والحج إلا إذا استقامت العبادات التعاملية لذلك.

الأستاذ زياد:

حتى إن بعضهم ذهب إلى أن ما يتعارف عليه بالتعريف الشرعي عبادات ومعاملات، أن المعاملات هي عبادات.

الأستاذ راتب:

نعم، عبادة من نوع آخر، أنا سميتها عبادة تعاملية، فما لا تصح العبادة التعاملية لا تقبل العبادة الشعائرية، كأن العبادة التعاملية العام الدراسي، فيه حضور، وفيه انتباه للمدرس، وكتابة وظائف، ومذاكرات، وامتحان، أما العبادة الشعائرية فساعات الامتحان الثلاث، ما قيمتها إن لم تكن قد حضرت المنهج، العبادات الشعائرية هي مناسبة لقبض ثمن العبادات التعاملية، فمن لم يؤدِّ العبادة التعاملية لم تقبل العبادة، ألم يقل سيدنا جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ للنجاشي:

((أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ ـ الآن دققوا ـ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ

الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ))

[أحمد عن أم سلمة]

فكأن الدين مجموعة قيم أخلاقية، ومن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان.

أنا ألح على العبادات التعاملية، هي مشكلة المشكلات، هنا المطب الأكبر الذي وقع فيه المسلمون ـ وما أحوجنا إلى ذلك.

الصلاة:

(إِنّ الصّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

(سورة العنكبوت الآية: 45)

الصوم:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

[البخاري]

الإنفاق:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ (53))

(سورة التوبة الآية: 53)

الحج:

من حج بيت الله الحرام بمال حرام، وضع رجله في الركاب وقال: لبيك اللهم لبيك، يناديه مناد: أن لا لبيك، ولا سعديك، وحجك مردود عليك.

هذه العبادات الشعائرية لا يمكن أن تقبل عند الله إلا إذا استقامت العبادات التعاملية، وكأن النبي عليه الصلاة والسلام جعل الأخلاق كلها في ثلاث نقاط، قال جعفر: نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ إذا حدثك فهو صادق، وإذا عاملك فهو أمين، وإذا استثيرت شهوته فهو عفيف.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - منهج التائبين - الحلقة 03 - 30: أنواع الذنوب - الذنب بين العبد وربه.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-11-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

فرض الله علينا العبادات كالصلاة والصيام والحج والزكاة، وفرض علينا أن نغض أبصارنا، وأن نضبط ألسنتنا، وهناك معاصٍ من نوع الإثم، في القرآن الكريم مصطلحان دقيقان، الإثم والعدوان، العدوان أن تعتدي على أخيك، على حياته، أو على ماله، أو على سمعته، الإثم كمَن شرب الخمر فيما بينه وبين الله، دخل إلى غرفة، وشرب الخمر - أثم - نعم، نظر إلى امرأة لا تحل له في الطريق، فرضاً، تكلم كلاماً لا يرضي الله عز وجل، هذه المعاصي التي لا تتعلق بحقوق العباد، تتعلق بحقوق الله عز وجل.

الأستاذ زياد:

إذاً هل هناك فرق بين الذنب والإثم، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))

[أخرجه أحمد في مسنده الترمذي وابن ماجه]

إذاً: الذنب خطأ، وهناك الإثم والعدوان، فما الفرق بينهما ؟

العدوان تجاوزت حدود الله فاعتديت على أخيك الإنسان، أي إنسان - مسلم أو غير مسلم - أبداً، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى صُبْرَةٍ مِنْ طَعَامٍ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا، فَقَالَ: يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ، مَا هَذَا ؟ قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ ؟ ثُمَّ قَالَ: مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا))

[أخرجه الترمذي]

وفي حديث آخر عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((... وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا))

[مسلم]

لكن: مَنْ غَش أوسع.

وفي حديث آخر عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ))

[متفق عليه]

من أوسع معاني هذا الحديث حتى يحب لأخيه في الإنسانية ما يحب لنفسه، فنحن مبدئياً العدوان أن تعتدي على حق إنسان، كائناً من كان، ولو كان هذا الإنسان غير مسلم، بل إن الإنسان غير المسلم العدوان عليه أشد من عدوان على مسلم، والدليل أن المسلم إذا اعتدى على مسلم يقال: فلان اعتدى علي، أما إذا اعتدى مسلم على غير مسلم فيتهم الإسلام كله بهذا العدوان، وأنت على ثغرة من ثغر الإسلام، فلا يأتين من قِبلك، المسلم سفير هذا الدين في تصرفاته، وحركاته، وسكناته، ومواقفه، وعقوده، وبيعه، وشرئه هذا كله تحت منظار مكبر.

الأستاذ زياد:

هذا كله دليل على إسلامه.

الأستاذ راتب:

لذلك:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا)

(سورة المائدة الآية: 8)

من هو الخصم الأول للمؤمن ؟ الكافر، ومع ذلك لا يحملنكم كراهيتكم لهذا الكافر أن تظلموه.

(اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

بل إن الله سبحانه وتعالى يستجيب للمظلوم ولو كان كافر، لا بأهلية الداعي، بل بعدل الله عز وجل، يستجيب الله للمظلوم ولو كان كافرًا، ويستجيب للمضطر ولو كان غير مؤهل للدعاء، المظلوم يستجيب له باسم العدل، والمضطر يستجيب له باسم الرحمة، فالعدوان على أي مخلوق هذا أثم لا يغفر.

أما الإثم فكإنسان دخل غرفته، وعصى الله فيما بينه وبين الله، فحينما يقع الإنسان في الإثم فلا بد من أن يستغفر الله عز وجل، الذنب المتعلق بحق الله، الصلاة حق لله عز وجل، الصيام حق لله، الزكاة حق لله الحج حق لله، فهذه الذنوب إذا وقعت، وعلم الله من العبد صدق توبته، وإخلاصه في توبته، وإصراره على توبته غفر الله هذه الذنوب مهما كانت كثيرة.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

((يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي، وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))

[الترمذي]

وهذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى، وهي أرجى آية في القرآن:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إِنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذّنُوبَ جَمِيعاً إِنّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحِيمُ (53))

(سورة الزمر الآية: 53)

ولكن...

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبّكُمْ)

(سورة الزمر الآية: 54)

هذه النقطة أنا متأثر بها كثيراً، أن معظم المسلمين يأخذون شطر الآيات، قسمها الأول، مثلاً.

(نَبّئْ عِبَادِي أَنّي أَنَا الْغَفُورُ الرّحِيمُ (49))

(سورة الحجر الآية: 49)

طيب أكمل الآية:

(وَأَنّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50))

طيب:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ)

أتمم الآية:

(اللّهَ يَغْفِرُ الذّنُوبَ جَمِيعاً إِنّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحِيمُ (53) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمّ لَا تُنْصَرُونَ(54))

(سورة الزمر الآية: 53 - 54)

كل معاني التوبة، وكل وعود الله عز وجل بالمغفرة، وكل رحمة الله منوطة برجوع العبد إلى الله، أما ألا يرجع فمستحيل أن ينال شيئاً من هذه الرحمات، رحمة الله متوقفة على على أن تعود إليه.

هناك شاب له شيخ، قال له: يا بني، إن لكل سيئة عقابًا، فهذا الشاب زلت قدمه في معصية فيما بينه وبين الله، وقع في الحجاب، بالمناسبة الإنسان الذي له صلة بالله عز وجل أكبر عقاب له أن يحجبه الله، الابن المربى تربية عالية جداً أكبر عقاب له من أبيه أن يعرض عنه، فالذي على مستوي راقٍ جداً عقابه دقيق جداً، فهذا الشاب الذي عصى الله عز وجل فيما بينه وبين الله حجب عن الله، شعر بضيق لا يحتمل، وهذا مع الله شيء لا يحتمله مؤمن، فمرة ناجى ربه فقال: يا رب، لقد عصيتك فلم تعاقبني، ما عاقبه عقابًا ماديًا، قال: عبدي قد عاقبتك ولم تدر، وقع في قلبه كما يقول بعض علماء القلوب، وقع في قلبه أن يا عبدي، لقد عاقبتك، ولم تدر، ألم أحرمك لذة مناجاتي ؟ فيما بينك وبين الله هناك أنواع من العقابات يعرفها المؤمنون، منها أنه يحجبك.

لو فرضنا إنسانًا له دعوة، وأخطأ فيما بينه وبين الله، كيف يعاقب ؟ الله حكيم، لا يعاقبه عقاباً يفضحه به، يعاقبه بالحجاب، يحجبه، لذلك قال الحسن البصري: **" من صلى فلم يشعر بشيء، ومن قرأ القرآن فلم يشعر بشيء، من ذكر الله فلم يشعر بشيء، فهو في حجاب مع الله "**، والحجاب أكبر عقاب للمؤمنين، بل إنه العقاب الأكبر يوم القيامة.

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15))

(سورة المطففين الآية: 15)

بالمقابل:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23))

(سورة القيامة الآية: 22 - 23)

المؤمن حينما يسلك إلى الله عز وجل في الدنيا، أكبر عقاب يعاقبه الله به أن يحجبه عنه، هو أمام الناس سليم معافى، محترم موقر، لكن إذا أراد أن يصلي كان الطريق مسدودًا، هذا عقاب المؤمنين الراقين، يعاقبون بالحجاب، فحينما يكون الذنب بينك وبين الله، الله عز وجل بحكمته الرائعة يختار لك طريقة للتأديب، منها الحجاب، منها أن تقاسي بها الهمّ، منها الخوف، هذا كله من عقاب الله لما كان ما بينك وبين الله.

بالمناسبة: ورد في بعض الأحاديث:

((ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يعفو الله أكثر))

[البيهقي في شعب الإيمان]

وكلما فهمت على الله، وكلما ألمّ بالمؤمن شيء فسأل نفسه: بماذا جاء هذا الشيء ؟ ماذا فعلت حتى جاءني هذا الشيء، يكون على الطريق الصحيح، أنت حينما تتهم نفسك دائماً، أنت على الطريق الصحيح.

الأستاذ زياد:

إنها النفس اللوامة.

الأستاذ راتب:

أبداً، وهذه من أرقى النفوس، طبعاً فوقها المطمئنة.

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27))

(سورة الفجر الآية: 27)

وقد أقسم الله بها:

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2))

(سورة القيامة الآية: 1 - 2)

لذلك أنا أقول دائماً في نهاية كل خطبة: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، ومن حاسب نفسه في الدنيا حاسباً عسيراً كان حسابه يوم القيامة حسابًا يسيراً، ومن حاسب نفسه في الدنيا حاسباً يسيراً كان حاسبه يوم القيامة حاسباً عسيراً، الذنب الذي يغفر ما كان بينك وبين الله، ومن أبرز هذه الذنوب التقصير في العبادات، لكن كل رحمة الله، وكل مغفرة الله، وكل قبول الله، وكل ما عند الله من عطاء لا يناله المؤمن إلا إذا أناب إلى الله، وعاد تائباً مستغفراً.

الأستاذ زياد:

فضيلة الشيخ، الدكتور محمد راتب النابلسي، هل لنا أن نصنف الذنوب التي هي بين العبد وربه من صغيرة وكبيرة، والإصرار على الصغيرة كيف يكون، وما هي عواقبه ؟ وكل ما يتشعب عن أمر الذنوب بين العباد وبين الله سبحانه وتعالى، ونسأل الله عز وجل أن يغفر الذنوب جميعاً.

الأستاذ راتب:

الحقيقة النقطة الدقيقة الأولى: أن سيدنا بلالا رضي الله عنه له كلمة رائعة، قال: **" لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن أنظر على من اجترأت ".**

الحقيقة أن الذنب لا يقاس بحجمه، يقاس على من اجترأت به، على خالق الأكوان، فكلما ارتقى إيمان الإنسان بربه، وكلما كان إيمانه كان متعلقًا بالإحساس أنه مع الله، ألم يقل النبي الكريم صلى الله عليه وسلم:

((الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك))

[مسلم عن عمر]

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ)

فكلما شعرت أن الله معك تستحي منه، وكلما شعرت أن الله عظيم ترى الذنب الصغير في حقه عظيمًا، والقاعدة الأساسية التي قالها العلماء: كلما عظم الذنب عندك صغر عند الله، وكلما صغر الذنب عندك كبر عند الله، بل إن المؤمن ذنبه كالجبل جاثمًا على صدره، وإن المنافق ذنبه كذبابة دفعها، فأنا أعرف المؤمن من المنافق من حجم الذنب عنده، فقد يقول المؤمن كلمة لا ينام الليل، الكافر قد يرتكب جريمة وينام، لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنّ الرّجُلَ لَيَتَكَلّمُ بِالْكَلِمَةِ لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النّارِ))

[الترمذي]

وقد قيل: قذف محصنة يهدم عمل مئة سنة، امرأة عفيفة طاهرة تتكلم في عرضها بلا دليل، بلا سبب، هكذا لمجرد أن تتسلى، قذف محصنة يهدم عمل مئة سنة، ومن عد كلامه من عمله نجا يوم القيامة، الكلام عمل، حينما تعد كلامك من عملك نجوت، وحينما تظن الكلام لا علاقة له بالعمل والاستقامة

هلكت، إذاً لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت، إذاً كلما عظم الله عندك عظمة معصيته، وكأنها علاقة طردية، وكلما صغر مفهوم الألوهية عندك رأيت الذنب الكبير صغيراً، إذاً الذنب كلما صغر في نفسك كبر عند الله، وكلما كبر في نفسك صغر عند الله، هذه علامة طيبة جداً، المؤمن يرى ذنبه كالجبل جاثمًا على صدره، يخاف أن يقع عليه، أما المنافق فيرى ذنبه كالذبابة هذه الفكرة الأولى.

الأستاذ زياد:

التساؤل الذي يرد عند كثير من الشباب يقول: ما هو ذنبي أمام ذنوب الآخرين، وهاهم لا بأس عليهم، والأمور تسير معهم بشكل طبيعي ؟ وهكذا يحدث نفسه، أو أن الشيطان يوسوس له بهذا الحديث، وبهذه التساؤلات، يقول: إن ذنبي ما هو شيء أمام ذنوب الآخرين.

الأستاذ راتب:

هذا له جواب دقيق، أنت كطبيب، لو جاءك مريض معه التهاب بالمعدة تعطيه قائمة صارمة من المطعومات التي ينبغي أن يأكلها، فإذا أكل شيئاً نهيته عنه تقيم عليه النكير، لأن التهاب المعدة قابل للشفاء، أما حينما يأتي مريض معه ورم خبيث تقول له: كل ما شئت، هؤلاء الذين شردوا عن الله عز وجل لا يحاسبون على ذنوبهم، كأن تسوق إنسان إلى المشنقة وعليه مخالفة سير، فبربك هل تحاسبه على هذه المخالفة، لا يحاسب، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78))

(سورة القصص الآية: 78)

فهذا الشارد الجاهل كأن الله عز وجل قال له: خذ الدنيا، وأنت مطرود من رحمتي.

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا

(أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

(سورة الأنعام الآية: 44)

الطالب في المدرسة حينما يشكو صعوبة المناهج، وصعوبة الكتب، والأستاذ الصعب، والأسئلة الكثيرة، والأطروحة التي لا بد من أن تقدم كل شهر، يشكو همه لشاب ليس في مدرسة، يقول له: أنا أنام إلى آذان الظهر، أنا مرتاح، هذا معدّ ليأخذ دكتوراه، ويكون في منصب قيادي، هذا معدّ ليكون من حثالة البشر، فلا يوازن إنسان يرتكب المعاصي، ولا يعاقب عليها، مع إنسان يخاف أن يتكلم كلمة لا ترضي الله عز وجل، هذا في العناية المشددة، وذك خارج العناية المشددة.

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78))

هذا مصيره إلى النار، المؤمن حينما يرى شابًا شاردًا يعصي، ويرتكب الموبقات، وهو يضحك ويلعب، هذا الذي يسلك طريق الباطل الشيطان راض عنه، يريحه، ألم يقل الشيطان:

(لَأَقْعُدَنّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16))

(سورة الأعراف الآية: 16)

لمجرد أن يسير المؤمن في طريق الحق يوسوس له، فلا يوازن مؤمن ورع يخاف من ذنبه الصغير أن يغضب الله عليه، لا يوازن مع إنسان جاهل.

بالمناسبة، مرة هكذا طالب قال لي: أنا لا أخاف من الله، قلت له: أنت معك الحق، قال: كيف ؟ عجب لهذا الجواب، قلت: الفلاح حينما يأخذ ابنه إلى الحصيدة وعمره سنتان، وقد يمشي إلى جانبه ثعبان، لو رآه رجل لخرج من جلده خوفاً، وهو يضع يده عليه، لماذا لا يخاف منه ؟ لأنه لا يدرك، الذي لا يدرك لا يخاف، الذي يخاف هو الذي يدرك، لو أن مهندساً رأى تصدعاً في جسر في البناء يقول: هذا البناء على وشك السقوط، لو رآه إنسان يطلي البناء يضع له معجون، ويتابع، شتان بين من يرى هذا الشق الجسر دليلا لقرب انهدام البناء، وبين من يرى هذا الشق يحتاج إلى أن يملأه بالمعجون، مسافة كبيرة جداً بين العلم والجهل، الطبيب حينما يغسل الفاكهة لماذا ؟ لعلمه بالمكروبات والعدوى، وما إلى ذلك، أمّا الجاهل فيقول لك: كلها وسم بالله، هذا الذي نحن نحتاج إليه، نحتاج إلى علم مع ورع، إذاً الذنب الذي يغفر ما كان بينك وبين الله عز وجل، ولا تنظر إلى صغر الذنب، لكن أنظر على من اجترأت.

الأستاذ زياد:

والشرط دائماً بالتوبة والإنابة.

الأستاذ راتب:

أبداً، كل وعود الله بالتوبة والمغفرة، لا ينالها إلا من عاد إلى الله تائباً منيباً، مخلصاً راجياً.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - منهج التائبين - الحلقة 04 - 30: أنواع المعصية - وسائل التوبة - درجة المغفرة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-11-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

بادئ ذي بدء هناك معانٍ دقيقة ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام تتعلق بإنسان لم يرتكب ذنباً، ولكن أخاه ارتكب الذنب، فقال عليه الصلاة والسلام:

((الذنب شؤم على غير فاعله، إن عيّره ابتلي به، وإن اغتابه أثم، وإن رضي به شاركه))

[أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس]

وأنت لم تفعل الذنب، لكن أخاك الذي فعل الذنب، لو أنك قلت: فلان فعل كذا! أيجوز أن يفعل! إذا شهرت به، وطعنت في استقامته، وجعلته مضغة في الأفواه، فأنت قد اغتبته بهذه الطريقة، فجاءك من ذنبه شؤم، أما إذا قلت: والله فعل ما ينبغي أن يفعل فقد رضيت له الذنب، وقد قال العلماء: لو غبت عن معصية فرضيتها كنت كمن شهدها، فلم تنكرها، لو أن معصية وقعت في أمريكا أو في الصين أو في اليابان، وقلت: نِعمَ ما فعل فأنت رضيت بها، وكأنك شهدتها، ولم تنكرها، فمن غاب عن الذنب ورضيه كان كمن شهده، ومن شهد ذنباً فأنكره كان كمن غاب عنه، فحينما ترضى بالذنب تكون قد شاركت صاحبه في الإثم إذاً ما لك من الشؤم، وحينما تعيره تبتلى به، أين عقله ؟ كيف فعل هذا؟ اشكر الله عز وجل أنه نجاك من هذا الذنب، القصة أنك ينبغي أن توحد.

تفسير لا حول ولا قوة إلا بالله

من أدق ما قرأت في بعض الأحاديث :

((ألا أخبرك بتفسير لا حول ولا قوة إلا بالله؟ لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بعون الله))

[أخرجه ابن النجار عن ابن مسعود]

ألا نقول نحن في الفاتحة كل يوم في أثناء صلواتنا:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

ألم يقل سيدنا يوسف عليه السلام:

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ)

[سورة يوسف الآية : 33]

إذاً لا حول عن معصيته إلا به، ولا قوة على طاعته إلا به.

التستر على ذنوب الناس

فأنت حينما ترى أخاك قد أذنب ينبغي ألا تفضحه، ينبغي أن تستره، ينبغي أن تتخلق بكمال الله، الله من اسمه السِّتِّير، ينبغي أن تنصحه بينك وبينه، لا على ملإٍ من الناس وحينما يرتكب أخوك ذنباً فينبغي ألا ترضى به، إن رضيت به شاركته في الإثم، لو أنه كسب مالاً حرامًا فلا ينبغي أن تقول: نِعمَ ما فعل، هذا كلام في تضييع للحق، أن تستنكره، لا أن ترضى بعمله، ولو أنه ارتكب ذنباً فعيّرته، واحتقرته، كيف تفعل هذا؟ أنت معصوم؟ أسال الله عز وجل أن يحفظك من هذا.

انصح أخاك المذنب دون تشهير أو تقريع

لذلك:

((الذنب شؤم على غير فاعله، إن عيره ابتلي به، وإن اغتابه أثم، وإن رضي به شاركه))

فكيف بصاحب الذنب الذي وقع في الذنب إذا كان للذنب مضاعفات لمن لم يرتكب الذنب، فكيف بالذي ارتكبه؟ الظلم ظلمات يوم القيامة، هذه حقيقة، فنحن حينما نرى أخاً لنا قد أذنب أول شيء ينبغي أفعله أن أتوجه إليه على انفراد ناصحاً له بكل معاني الرقة واللطف.

سيدنا عمر بلغه أن أحد أصحابه شرب الخمر وسافر إلى الشام، أرسل له كتابًا فيه: "أما بعد؛ فإني أحمد الله إليك، غافر الذنب، قابل التوب، شديد العقاب، فقرأ صاحبه الكتاب وصار يبكي، حتى حمله هذا الكتاب على التوبة، فقال رضي الله عنه: هكذا اصنعوا بأخيكم إذا ضل، لا تكونوا عوناً للشيطان عليه، ولكن كونوا عوناً له على الشيطان".

النصيحة لا الفضيحة

فأنا أول مهمة لي إن رأيت أخي قد أذنب أنصحه فيما بيني وبينه، والنصيحة شيء، والفضيحة شيء آخر، هذا الموقف الأول، مقابل من ذكره فقد اغتابه، الموقف الكامل الثاني أنا لا أقره على ذنبه، أنا أرى أن هذا خطأ كبير، هؤلاء الذين رأوا قارون بماله وملكه قالوا :

(يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً)

[سورة القصص الآية: 79 - 80]

إذاً أنا لا ينبغي أن أقره على ذنبه، ينبغي أن أنصحه، وهنا يحضرني تعريف دقيق للعاطفة العميقة والسطحية، أنت إذا دخلت إلى بيت، وكان دخْلُ صاحب هذا البيت من مال حرام، عنده ملهى، أو عنده تجارة مخدرات ـ لا سمح الله ولا قدر ـ هل تحترمه على بيته الفخم، وعلى أثاثه الرائع؟ لا، العاطفة السطحية أن أحترمه لفخامة بيته، والعاطفة العميقة أن أحتقره، لأن كسبه حرام، وهذا مبني على شقاء الآخرين، فأنا حينما أرى إنسانًا يرتكب ذنبًا، وهو في مكانة علية فلا ينبغي أن أوقره على هذه المكانة، لأن الذنب سوف يجعله عند الله من الساقطين .

لا تعير أحدا بذنبه فتبتلي

من عير ابتلي

الموقف الثالث: فمن عيّره ابتلي به، لا ينبغي أن أعيره، ينبغي أن أتوجه إلى الله أن يحفظني من هذا الذنب، فهناك أذكى مني يرتكب أكبر الذنوب، وهناك إنسان له ثقافة دينة يرتكب الذنب، فأنا حينما أرى إنسانًا ارتكب الذنب أتوجه إلى الله عز وجل أن يحفظني من هذا الذنب، إذاً أنا أنصحه فيما بيني وبينه، ولا أقره عليه، ولا أوقره على ما كان من دنياه ثم في النهاية ينبغي ألاّ أعيّره، بل أسال الله جل جلاله أن يحفظني من الوقوع في هذا الذنب .

ما أثر الذنب على صاحبه

الأستاذ زياد :

تعليقاً وشرحاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((الذنب شؤم على غير فاعله))

الآن ماذا عن أثر الذنب في صاحبه؟.

أحوال العصاة

الأستاذ راتب :



لا بد من أن تعرف نفسك ـ لا سمح الله ولا قدر ـ من أي العصاة أنت ؟ هناك من يعصي الله ويندم، هناك من يعصي الله ويبكي، هناك من يعصى الله، ويتمنى ألا يعصي الله، هذا اسمه عند علماء القلوب المغلوب، غلبته نفسه، هناك من يعصي الله ويصر، هناك من يعصي الله ويتباهى، هناك من يعصي الله ويذكر هذا للناس، هناك من يعصي الله وهو في قمة نشوته، هناك من يعصي الله ويتمنى أن يعصيه كل يوم، يجب أن تحدد من أنت؟ من أي العصاة أنت؟ سيدنا آدم عصى ربه، لكن:

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً)

[سورة طه الآية : 115]

على المعصية، فغفر الله له، أما إبليس فعصى:

(قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

[سورة الحجر الآية : 33]

فمعصية الشيطان معصية كبر واستعلاء، واعتداد بالمعصية، ومعصية آدم معصية غلبة وضعف ، لذلك قال تعالى:

(فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا)

ممن يتقبل الله التوبة

أنا أبشر، أيّ أخ كانت معصيته لله ـ لا سمح الله ولا قدر ـ عن غلبة أن التوبة قريبة منه جداً، والعوام يقولون: الصلحة بلمحة، بشرط أن تكون المعصية معصية غلبة وضعف، لا أن تكون معصية استكبار واستنكاف عن طاعة الله عز وجل، دائماً وأبداً الذي يعصي الله استكباراً لا يندم على ذنبه، بل يفتخر

به، بل هو في قمة نشوته حينما يعصي الله بل هو ينوي أن يعاوده هذه المعصية ـ والعياذ بالله ـ لا توبة لها، وصاحب هذا الذنب لا يغفر له، وهذه الحلقات لا تعنيه إطلاقا .

خدمة الخلق

الأستاذ زياد:

إلا إذا رجع وتاب .

الأستاذ راتب:

أما الذي يعنينا فهو من يعصي الله مغلوباً، من غلبته نفسه، في ساعة غفلة غلبته نفسه فاقترف معصية، فهو يبكي ويندم، وأنا أقول: أنا أبشر، أي نادم على ذنب بالمغفرة والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((النَّدَمُ تَوْبَةٌ))

[الترمذي وأحمد عن ابن مسعود]

فأول شيء من أي عصاة هؤلاء العصاة، من الذين عصوا استكباراً واعتدادًا وكبراً واستنكافاً عن طاعة الله، أما الذين عصوا غلبة وضعف فلهم شأن آخر.

معرفة الذنب

الأستاذ زياد :

على المرء أن يعرف نفسه ويحاسبها، أن يعرف ما إذا كان يعصي الله كبراً وتجبراً أو غلبة .

الأستاذ راتب:

هؤلاء ذكرهم الله عز وجل في آية صريحة واضحة رائعة :

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

[سورة آل عمران الآية : 135]

غلبة الشهوة

الأستاذ زياد :

هؤلاء العصاة عصاة غلبة ـ غلبة ـ نعم .

الأستاذ راتب :

لعالم جليل هو ابن القيم كلمة رائعة في هذا المعنى، قال: "والله تعالى إنما يغفر للعبد إذا كان وقوع الذنب منه على وجه غلبة الشهوة وقوة الطبيعة؛ يعني قوة الشهوة فيه فيواقع الذنب مع كراهيته له من غير إصرار في نفسه، فهذا ترجى له مغفرة الله، وصفحه وعفوه، لعلمه تعالى بضعفه وغلبة شهوته له، وأن يرى كل وقت ما لا صبر عليه، فهو إذا واقع الذنب واقعه مواقعة ذليل خاضع لربه، خائف مختلج في صدره، شهوة النفس المذنبة والإيمان يكره له ذلك، فهو يجيب داعي النفس تارة، وداعي الإيمان تارة، فأما من بنى أمره على ألاّ يقف عن ذنب، ولا يقدم خوفاً، ولا يدع لله شهوة، وهو فرح مسرور، يضحك ظهراً لبطن إذا ظفر للذنب فهذا الذي يخاف عليه أن يحال بينه وبين التوبة، ولا يوفق إليها " .

هذا العالم الجليل يتابع حديثه فيقول: " الفرح بمعصية الله عز وجل دليل على شدة الرغبة فيها، والجهل لقدر من عصاه، والجهل لسوء عاقبتها، وعظم خطرها، ففرحه بها غطى علي ذلك كله، وفرحه بها أشد ضرراً عليه من مواقعتها، الفرح بالذنب أخطر من وقوع الذنب نفسه، والمؤمن لا تكون له لذة بمعصية أبداً، ولا يكبر بها فرحه، بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه، ومن خلي قلبه من هذا الحزن، واشتدت غبطته وسروره به فليتَّهم إيمانه، وليبكِ على موت قلبه، فإنه لو كان حياً لأحزنه ارتكاب الذنب، وغاظه، وصعب عليه، ولا يحس القلب بذلك، فحيث لم يحس به: فما للجرح بميت إيلام.

الفرح بالمعصية أخطر من الوقوع فيها

هذا كلام دقيق، أين العصاة، هذا المذنب؟ هل يعصي الله غلبة، أو ضعفاً، أما يعصي الله كبراً وفرحاً، شهوة المؤمن بالذنب لا تتم، لأنه يخشى الله عز وجل، أنا أبشر هؤلاء الذين ضعفت نفوسهم، وفي ساعة غفلة عن الله عز وجل وقعوا في معصية، وهم نادمون، يبكون يتمنون لو لم يواقعوا هذا الذنب، أبشرهم بأن مغفرة الله لهم قريبة .

أصناف المذنبين

وقد روى البيهقي في شعب الإيمان عن ابن سماك قال: أصبحت الخليقة على ثلاثة أصناف: صنف من الذنب تائب، موطن لنفسه على هجران ذنبه، لا يريد أن يرجع إلى شيء من سيئته، هذا المبرز،

وصنف يذنب ثم يندم، ويذنب ويحزن، ويذنب ويبكي، هذا يرجى له، ويخاف عليه، وصنف يذنب، ولا يندم، ولا يحزن، ويذنب ولا يبكي، فهذا الكائن الحائد عن طريق الجنة إلى النار .

إنسان ارتكب الذنب مرة واحدة، وتاب توبة نصوحًا، هذا الآمن، وإنسان ارتكب الذنب، ثم عاد إليه، هذا يخاف عليه، لكن الله يقبله، وإنسان يرتكب الذنب، ولا يتأثر، ولا يندم ولا يتوب إلى الله فهذا انتقل من الجنة إلى النار.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - منهج التائبين - الحلقة 05 - 30: حقيقة التوبة1.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-12-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

الحقيقة أن النبي عليه الصلاة والسلام قال في كلامه الموجز والبلاغة في الإيجاز:

((النّدَمُ تَوْبَةٌ))

[الترمذي وأحمد عن ابن مسعود]

ولكن علماء الحديث الذين شرحوا هذا الحديث قالوا: لا بد من علم كان سبب هذا الندم، ولا بد من عمل يبنى على هذا الندم، فكأن الندم مركز سبقه علم، وانتهى إلى عمل، فعند المحققين من العلماء أن التوبة علم وحال وعمل.

أما أنها علم، كيف يتوب الإنسان من ذنب لا يعلم أنه ذنب، أنت حينما تدرس اللغة العربية، وتستمع إلى نص يقرأ عليك تكشف الأخطاء، أما إن لم تدرس هذه اللغة فلا ترى الأخطاء، فالإنسان قد يرتكب ذنوباً لا حد لها، ولا حصر، ولأنه لم يطلب العلم الشرعي، ولم يعرف منهج الله عز وجل فيرتكب هذه الذنوب، ويظن أنه لم يفعل شيئاً، فلا بد من أن تعرف منهج الله عز وجل، افعل ولا تفعل.

الأستاذ زياد:

هل يعذر المرء بجهله ؟

لا يعذر، لأن الله عز وجل يحاسب على الجهل عندئذٍ، لكن حينما يكون الإنسان مؤمناً طائعاً منيباً، وقد غفل عن مخالفة بسيطة:

(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرّحْمَةَ أَنّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(54))

(سورة الأنعام الآية: 54)

حينما تكون في الطريق إلى الله، وأنت تتحرى أمر الله ونهيه، وغفلت عن مخالفة بسيطة بجهل غير مقصود فرحمة الله عز وجل تسعُ هذا الذنب.

(وَإِذَا جَاءَكَ الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرّحْمَةَ أَنّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (54))

(سورة الأنعام الآية: 54)

إذاً لا يمكن أن يتوب المؤمن من ذنبه إلا إذا عرف منهج ربه، حينما تعرف دقائق الشرع ينبغي أن تكشف الذنب، ولكن ما من عمل بعد الإيمان الحق الذي يحملك على طاعته، ما من عمل أعظم من

معرفة منهجه، إنك بالكون تعرفه، وبالشرع تعبده، منهج الله عز وجل دقيق جداً، لكن المسلمين اليوم اختصروه إلى عبادات شعائرية، الدين منهج متكامل، يبين علاقات الإنسان مع نفسه، ومع جسمه، ومع زوجته وأولاده، في حلّه وترحاله، في إقبال الدنيا عليه وإدبارها عنه، في صحته ومرضه، قبل الزواج وبعد الزواج، في كسب المال وفي إنفاقه، منهج الله دقيق جداً، ومنهج الله لا يحتمل أن تحذف منه شيئاً، ولا تضيف عليه شيئاً، إنه من عند الله عز وجل.

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)

(سورة المائدة الآية: 3)

ولكن ما دام الحديث عن العلم الذي تعلمه حتى تتقي أن تقع في الذنب أو أن تتوب منه فسمّاه العلماء العلم الذي ينبغي أن يعلم بالضرورة، وأنا أسوق هذا المثل دائماً، لأنه يؤكد هذه الحقيقة.

لو أن مظلياً أراد أن ينزل من الطائرة بمظلة، قد يجهل شكل المظلة، هل هو بيضوي أو دائري، أو مربع أو مستطيل، قد يجهل نوع قماشها، قد يجهل عدد حبالها، قد يجهل نوع الحبال التي صنعت منها، قد يجهل لون الحبال، قد يجهل مئات المعلومات عن المظلة، لكن حقيقة واحدة إذا جهلها نزل ميتاً، إنها طريقة فتح المظلة، فطريقة فتح المظلة هذه حقيقة يجب أن تعلم بالضرورة، والدين واسع جداً، لكن في الدين جزء من المعلومات يجب أن يعلمها أي مسلم، وأي مؤمن على وجه الأرض، فإذا غفل عنها وقع في الذنب، وهو لا يدري.

إنسان تزوج، ينبغي أن يعلم أحكام الزواج، حقوق الزوج حقوق الزوجة، ما ينبغي فعله، وما لا ينبغي فعله، ما يجوز وما لا يجوز في العلاقات الزوجية، أنجب الأولاد، كيف يربيهم، وما ثواب من يربي أولاده، في شؤون الزواج يجب أن يعلم أحكام الزواج، وأحكام الطلاق، وتربية الأولاد.

الآن أراد أن يعمل في التجارة، ينبغي أن يعلم أحكام التجارة، من دخل السوق بغير فقه أكل الربا شاء أم أبى، فمعرفة أحكام الزواج والطلاق وتربية الأولاد، أحكام كسب المال الحلال، أحكام إنفاق المال ضروري، وإذا سافرت فللسفر أحكام، يجب أن تتعلم من الأحكام الشرعية ما أنت بحاجة إليه، وهذا العلم اسمه علم ما ينبغي أن يعلم بالضرورة، ما لم تعلم هذا العلم تركب الخطأ، وأنت لا تدري أبداً، فلذلك لا يمكن أن تنعقد توبة من قبل مؤمن إلا إذا عرف منهج الله عز وجل، معرفة الله شيء، ومعرفة منهجه شيء آخر، أضرب لك مثلاً...

لو أن إنسانًا عرض عليك أن تقرضه مبلغاً من المال ليشتري بيتاً، وأنت طلبت أن يضمن هذا المبلغ، أن يؤدى لك بعد عامين بالتمام والكمال، ولك أن تطلب أجرة على البيت، لأنك ضمنت مالك بعد عامين دون زيادة أو نقصان، ولأنك طلبت أجرة لهذا البيت فهذه الأجرة رباً بالمئة مئة، لأنك ضمنت المبلغ، أما لو أنك ساهمت مع هذا الإنسان بشراء بيت لك منه الربع، وأعطاك أجرة تأخذها حلالاً، بشرط أن

مبلغك الذي في البيت خاضع للزيادة والنقصان بحسب سعر البيت، حينما تريد أن تبيعه فهناك أحكام كثيرة في كسب الأموال، وأحكام كثيرة في إنفاق الأموال، فالمبذر أخ للشيطان، الإسراف في المباحات، والتبذير في المعاصي، فما لم نتعلم أصول كسب المال وإنفاق المال، ما لم نتعلم أحكام الزواج وأحكام الأسرة الزوجية، وأحكام تربية الأولاد، ما لم نتعلم أحكام السفر، قد نقع في ذنوب كثيرة جداً، فلا يمكن أن تعرف أنك مذنب إلا إذا عرفت أصل التشريع، إذاً التوبة تبدأ بالعلم، وكم من مؤمن التحق ببيت من بيوت الله وبدأ يستمع إلى المدرس، إلى أحكام الشريعة، قد يشعر أن هناك مخالفات كثيرة وقع فيها دون أن يشعر، إذاً إن أردنا الحديث عن التوبة لا بد من أن نبدأ بمعرفة منهج الله، إن معرفة منهج الله تكشف لك عن الأخطاء التي نرتكبها دون أن نشعر، وكمثل طبي: لا يمكن أن تعالج ضغطك المرتفع إلا إذا علمت أنه معك ضغط مرتفع، ولا بد لمعرفة هذا الضغط المرتفع من مقياس تقيس به ضغطك، هذا شيء مبسط.

الأستاذ زياد:

إذاً هذا هو العلم بالذنب.

الأستاذ راتب:

العلم بالذنب، لا بد من أن تعرف منهج الله كي تكشف الذنوب، أما الذي لا يعلم Ýيرتكب أكبر الذنوب، يقول: ماذا فعلت ؟ لم أفعل شيئاً، العلم حارس، لذلك سيدنا علي كرم الله وجهه يقول: **" يا بني، العلم خير من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، يا بني، مات خزان المال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة ".**

هذا الذي يبيع الدجاج دون أن يعلم حقيقة الذبح، وكيف يعامل الحيوان، حينما يذبح يقع في أخطاء كبير، أنا رأيت مرة في الشام من يذبح الدجاجة، ويضعها في ماء يغلي فوراً، كي يزيل عنها ريشها، ارتكب خطأ كبيرًا، جداً لأن النبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى صحابيًا يذبح شاة أمام شاة غضب، قال: أتريد أن تميتها مرتين، هلا حجبتها عن أختها.

مثلاً: الخروف حينما نذبحه ينبغي أن نقطع أوداجه فقط، ومن قطع رأسه كلياً وقع في مخالفة شرعية، ذلك أن القلب يتلقى أمراً بالنبض من مراكز كهربائية، هذا الأمر يعطيه النبض النظامي، ثمانين نبضة في الدقيقة، لكنه يتلقى الأمر الاستثنائي عن طريق الدماغ، فالقلب عند الذبح مهمته إخراج الدم كله، فإذا بقي ينبض نبضاً نظامياً يخرج بعض الدم، أما إذا بقي الرأس مربوطًا بالجسم يأتيه الأمر الاستثنائي، فينبض مئة وثمانين نبضة، هذه النبضات كافية لإخراج الدم كله من الجسم، إذاً النبي صلى الله عليه وسلم في توجيهاته لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، فما من مصلحة إلا تحتاج إلى معرفة

المنهج الإلهي، فأنا أذنب لأنني أجهل، لو أنني أردت أن أطيع الله، متى أذنب ؟ حينما أجهل، بل إن أزمة الكافر يوم القيامة هي الجهل.

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10))

(سورة الملك الآية: 10)

إذاً أنا حينما أطلب العلم أطلب علمين، معرفة بالله عز وجل، ومعرفة بمنهجه، المعرفة بمنهجه تقيني أن أقع في الذنب، وإن وقعت في الذنب غلبةً كما قلنا في حلقة سابقة فسريعا ما أرجع، معرفة أن هذا ذنب ممكن أن أتوب منه، أنت لا يمكن أن تتوب من ذنب لا تعلم أنه ذنب، إذاً التوبة علم.

الأستاذ زياد:

أما بالنسبة للتوبة حالاً.

الأستاذ راتب:

حال: الإنسان فطر على حب وجوده، وعلى حب سلامة وجوده، وعلى حب كمال وجوده، وعلى حب استمرار وجوده، فأنت حينما توقن يقين قطعياً أن هذا ذنب، وأن الله سيعاقب عليه في الدنيا والآخرة فتندم أشد الندم على الوقوع فيه، علامة إدراك الذنب الندم عليه، كأن علاقتنا مع المحيط أساسها قانون كشفه عالم اجتماع، إدراك، انفعال، سلوك.

مثلاً: الأفعى في بستان، أنا حينما أدرك أنها أفعى بحسب مفهومات قديمة متراكمة في الدراسة، وفي التجارب، وفي متاحف الأفاعي، وحينما أستمع قصصًا كثيرة عن الأفعى، وعن مضارها، مجموعة هذه القصص والمشاهدات والدراسات تكوّن مفهوم الأفعى، فالإنسان حينما يرى أفعى في بستان بحسب مفهوماته عن الأفعى يدرك خطرها، علمه أنها مخلوق قاتل، أو مؤذٍ ينقله إلى الاضطراب، واضطرابه منها ينقله إلى عمل، وهو أن يقتلها، أو يهرب منها، لكنْ تصوّرْ إنسانًا على كتفه عقرب، وقلت له أنت بالحرف الواحد: احذر، على كتفك عقرب، فبقي هادئاً، وبقي مبتسماً، والتفت نحوك، وقال لك: شكرًا على هذه الملاحظة، أنا أتمنى أن أكافئك عليها، بربك هل فهم ما قلته له.

الأستاذ زياد:

بالطبع لا، لم يحسب حسابَ المخاطر.

الأستاذ راتب:

لا يمكن أن يكون الحال إلا بعد الإدراك السليم، ولا يمكن أن يكون السلوك إلا بعد الحال الصحيح، إذاً تدرك فأضطرب فتسلك، أنا حينما أدرك أنا هذا ذنب يجب أن أندم عليه، وأن أضطرب له، ندمي الصحيح، واضطرابي الصحيح يحملني على أن أقلع عنه، إذاً هو حال بعد العلم.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحقيقة كما قلت في حلقات سابقة: كلما صغر الذنب في نظر المذنب كبر عند الله، وكلما كبر الذنب في نظر المذنب صغر عند الله، إذاً المنهج في التوبة أن نستعظم الذنب كي يكون عند الله صغيراً، فمثلاً ربنا سبحانه وتعالى يصف عباده المتقين فيقول:

(كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18))

(سورة الذاريات الآية: 17 - 18)

وفي آية أخرى:

(الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آَمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (16) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ(17))

(سورة آل عمران الآية: 16 - 17)

فعلى الرغم مما هم عليه من التقوى وصلاح الحال

(وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

فالمؤمن يرى ذنبه كبيرًا، كيف بكم أيها الإخوة لو علمتم أن عملاق الإسلام عمر بن الخطاب، وقد بشره الله بالجنة، وقد أودع النبي صلى الله عليه وسلم أسماء المنافقين عند أحد أصحابه، وهو سيدنا حذيفة بن اليمان، كيف بهذا الخليفة الراشد عملاق الإسلام يأتي حذيفة، ويقول له: يا حذيفة، بربك اسمي مع المنافقين ؟ من عظم قدر الله عنده، لشدة خوفه من الله، فكلما عظم الذنب عند المؤمن صغر عند الله، ذلك أن المؤمن لشدة توقيره لله وتعظيمه له يخشى أن يقع في ذنب دون أن يدري، لذلك بعض التابعين قال: " التقيت بأربعين صحابياً، ما منهم واحد إلا وهو يخشى على نفسه النفاق، بل إن بعض علماء القلوب يقول:: إن المؤمن الصادق يتقلب في اليوم الواحد في أربعين حالاً، والمنافق يستقر في حال واحد أربعين عامًا، فتبدل أحواله وقلقه واضطرابه هذا دليل تعظيمه لله، أيعقل أن يسأل عمر بن الخطاب حذيفة بن اليمان: بربك اسمي مع المنافقين ؟ هذا الذي يرتكب الذنوب ولا يبالي هذا ميت، قال تعالى:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل الآية: 21)

علامة موته أنه يرتكب الكبائر ولا يبالي، بينما علامة حياة المؤمن أن كلمة قالها في غير محلها لا ينام الليل من أجلها، وهذه النفس اللوامة التي أقسم الله بها، لذلك الحديث كما ذكرت في حلقة سابقة عَن

الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ جَاءَهُ وَفْدُ هَوَازِنَ قَامَ فِي النَّاسِ فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ:

((أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ جَاءُونَا تَائِبِينَ، وَإِنِّي رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ ذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ اللَّهُ عَلَيْنَا، فَقَالَ النَّاسُ: طَيَّبْنَا لَكَ))

[رواه الترمذي]

أيها الإخوة الكرام، نحن نشير إلى إيمان المؤمن بشدة خوفه من الذنب، وباستعظام ذنبه، ونتألم أشد الألم من إنسان يرتكب الذنوب الكثيرة، ولا يعبأ بها، فهذا دليل ضعف إيمانه.

يقول الطبري: إنما كانت هذه صفة المؤمن لشدة خوفه من الله، ومن عقوبته، لأنه على يقين من الذنب، وليس على يقين من المغفرة الذنب، يقين وقع به، أما المغفرة غير متقين أن تقع له، أو أن يكرمه الله بها، فالذنب متقين بينما المغفرة ليست يقينية.

الأستاذ زياد:

فضيلة الشيخ الدكتور محمد راتب النابلسي، كيف لنا أن نعمل على إصلاح ذنوبنا التي وقعنا فيها في الماضي ؟

الأستاذ راتب:

واللهِ هذا سؤال وجيه جداً، حينما يتوب العبد توبة نصوحًا ينسي الله حافظيه والملائكة وبقاع الأرض كل خطاياه وذنوبه، إذا رجع العبد إلى الله ناد منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلانًا، فقد اصطلح مع الله، قضية أن نؤمن برحمة الله، وأن رحمة الله وسعت كل شيء، وأنه ما من ذنب مهما كبر إلا ورحمة الله أكبر منه، هذا الشيء يملأ قلوبنا ثقة بالله عز وجل.

(لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (87))

(سورة يوسف الآية: 87)

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

(سورة الزمر الآية: 53)

ولكن ينبغي أن نستعظم الذنب، لا أن نستصغره، إذا استصغرناه كبر عند الله، وإن استعظمناه صغر عند الله، في صحيح البخاري عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنْ الشَّعَرِ إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْمُوبِقَاتِ، قَالَ أَبُو عَبْد اللَّهِ: يَعْنِي بِذَلِكَ الْمُهْلِكَاتِ))

[البخاري]

فكأن كل مستوى من مستويات الإيمان له تصنيف للذنوب، فالذنب الذي يرتكبه صحابي جليل قد نراه نحن حسنة، وهو عنده ذنب، عَنْ حَنْظَلَة الْأُسَيِّدِيِّ قَالَ:

((لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ ! مَا تَقُولُ ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا ذَاكَ ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ، سَاعَةً، وَسَاعَةً، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

[مسلم]

الأستاذ زياد:

يخشى على نفسه من النفاق.

الأستاذ راتب:

من النفاق نعم.

الأستاذ زياد:

فما كان جواب رسول الله ؟

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ، سَاعَةً، وَسَاعَةً، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

هناك من يفهم ساعة وساعة، ساعة طاعة، وساعة معصية، والعياذ بالله، ليس هذا هو المقصود، ولكن ساعة تألق وساعة فتور، المؤمن مستقيم على أمر الله دائماً، لكن تأتيه ساعة تألق، فيطير فرحاً بها، وتأتيه ساعة فتور، فينكمش، لأن الله عز وجل لم يكن في مكانته الرفيعة عنده هذا الذي يؤلمه.

الإمام علي كرم الله وجه يقول: **" إن للنفس إقبالاً وإدباراً**، لم يقل إن للنفس طاعة ومعصية، إقبال وإدبار، فإذا أقبلت فحملوها على النوافل، وإذا أدبرت فحملوها على الفرائض، فكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا فترت همتهم، أو ضعف إقبالهم يعدون هذا ذنباً كبيراً، بينما بعض المؤمنين في آخر الزمان يرتكب المعصية الصارخة والواضحة واليقينية والجلية، ويقول: الله غفور رحيم، هذا من ضعف الإيمان.

الأستاذ زياد:

قالَ أبُو هُرَيْرَةَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً))

[البخاري]

وفي رواية أخرى: أكثر من مئة مرة.

فما هو استغفار رسول الله ؟ ومن ماذا يستغفر رسول الله، وهو الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟

لعل علماء القلوب أشاروا إلى ذنب النبي صلى الله عليه وسلم أنه كلما عرف الله درجة من الدرجات، ثم ارتقت معرفته إلى درجة أعلى يستحي من الله بالدرجة الدنيا، هو يعرف الله درجات متتالية متعاظمة، فأنت حينما تظن إنسانًا في مستوى، وهو فوق هذا المستوى تشعر بذنب ارتكبته في حقه، فلعل ذنب النبي صلى الله عليه وسلم أنه كلما تاقت نفسه إلى معرفة الله، ورأى من كمال الله ما رأى، ثم ارتقى إلى درجة أعلى فرأى رؤية أوسع وأشمل يستحي من الله بالدرجة التي سبقت هذه الدرجة، هذا لعله ما يفسر أن النبي عليه الصلاة والسلام يستغفر الله من ذنبه سبعين مرة أو مئة مرة.

الأستاذ زياد:

وهذا قد يكون تقريباً لفهم العامة من الناس بأن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وهو المعصوم عن الذنب يستغفر، فما الحال بالنسبة لنا ؟ علينا أن نكثر من الاستغفار والتوبة، وأن نجعل لكل ساعة توبة.

الأستاذ راتب:

سأقرب هذا المعنى، لو أن غربالاً له عين لها قُطر معين، لو أن هذا القطر سنتيمتر، فالبطيخ لا يمرّ عبر هذا الثقب، جوز الهند لا يمر، لكن يمر العدس، فكل إنسان له مستوى في استقامته، فهناك ذنوب لا يقترفها، وذنوب يتساهل بها، الأنبياء معصومون عصمة تامة عن أن يخطئوا، كأن غربالهم سطح مستوٍ، لكن نحن كل واحد له مستوى من الاستقامة تتناسب مع إيمانه، فمستوى استقامته لا يمرر ذنباً معيناً، بل يمرر ذنباً أصغر، فنحن كمؤمنين علينا أن نستغفر من الذنوب التي اقترفناها أو مرت، فكلما ضاقت عين هذا الغربال، كلما ضاقت ثقوبه كلما ارتقى المؤمن، وكأن الإيمان حلقة واسعة جداً، كل من دخلها فهو مؤمن، لكن ضمن هذه الحلقة الواسعة جداً حلقة أخرى كل من دخل في الحلقة الأخرى كان مستقيماً، وفي هذه الحلقة الثانية مركز هم الأنبياء، فإذا دخلوا إليها فهم معصومون، فالأنبياء معصومون، والأولياء محفوظون، ما الفرق بين العصمة والحفظ ؟ النبي لا يخطئ لأن الله عصمه، ولأنه يبلغ عن ربه، ولأن الله أمرنا أن نأخذ عنه، لكن الولي كيف يكون محفوظاً، أي لا تضره

معصيته، بمعنى أنه سريعاً ما يتوب منها، وسريعاً ما يستغفر الله منها، وهي في الأعم الأغلب في الصغائر لا في الكبائر، وعن غير قصد وتصميم، إذاً قالوا: النبي معصوم، والولي محفوظ، أما الذي يقترف المعاصي وهو يعلم أنها معاصي فهذا منبوذ عند الله عز وجل.

الأستاذ زياد:

إذاً نعود لنسأل: كيف يمكن لنا الإصلاح بالنسبة للذنوب التي وقعنا بها في الماضي ؟ الندم، الاستغفار، التوبة النصوح.

الأستاذ راتب:

بادئ ذي بدء، إذا كان الذنب متعلقًا بحق آدمي، أو بحق مخلوق كائنًا من كان فلا بد من إصلاح هذا الذنب، كدَين يجب أن تؤديه، هناك كلمة قلتها ظلماً وعدواناً ينبغي أن أستغفره من هذه الكلمة، فلذلك الذنب الذي وقع في الماضي يجب أن أصلحه، والذي يلفت النظر هو أن الله عز وجل في آيات عديدة ربما تزيد على ثماني آيات.

(ثُمّ إِنّ رَبّكَ لِلّذِينَ عَمِلُوا السّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنّ رَبّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ(119))

(سورة النحل الآية: 119)

متى يغفر ؟ حينما تؤمن، وتتوب، وتصلح، أما هذه التوبة الساذجة فلمجرد أن تقول: تبت إلى الله يتوب الله عليك، لا، لا بد من أن تؤمن أولاً، وأن تتوب ثانياً، وأن تصلح الذنب ثالثاً

(إِنّ رَبّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رّحِيم)

وإلاّ فالفهم ساذج للتوبة، أنا حينما أقلع عن الذنب، وحينما أودي الحق الذي اغتصبته من أخي، وحينما أستسمح منه إن تكلمت عليه في غيبته، حينما أؤمن، وحينما أقلع، وحينما أصلح، أرجو الله بعد الإيمان والتوبة والإصلاح أن يغفر لي ذنبي، هذه الحقيقة المرة، وأنا أقول دائماً الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - منهج التائبين - الحلقة 07 - 30: التحذير من محقرات الذنوب.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-12-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

قالوا: الشيطان ذكي جداً، فيوسوس للإنسان أن يكفر، فإذا رآه على إيمان وسوس له أن يشرك، فإذا رآه على توحيد وسوس له أن يبتدع، فإذا رآه على سنة وسوس له أن يرتكب كبيرة، فإذا رآه على طاعة وسوس له أن يرتكب صغيرة، فإذا رآه على ورع وسوس له بالمباحات أن ينغمس فيها، فإذا رآه على زهد بقيت ورقة رابحة في يده، وسوس له أن يتحرش المؤمنين، فبين كفر وشرك وابتداع، وكبيرة وصغيرة، والغرق في المباحات، ثم التحريش بين المؤمنين، لكن الحقيقة الثابتة أنك إذا سرت على طريق عريض، وعن اليمين وادٍ سحيق ما هي الصغيرة ؟ أن تحرك المقود سنتيمترًا نحو اليمين، فإذا ثبت هذا السنتيمتر كان المسير إلى الوادي، مع أن التحريك طفيف، لكن هذا التحريك الطفيف إذا ثبت قادني إلى الوادي، ما هي الكبيرة ؟ تحريك تسعين درجة فجأة على الوادي، السنتيمتر صغيرة، لذلك من أدق الأحاديث الشريفة عَنْ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:

((نَعَتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عِرْقِ النَّسَا أَنْ تُؤْخَذَ أَلْيَةُ كَبْشٍ عَرَبِيٍّ لَا عَظِيمَةٌ وَلَا صَغِيرَةٌ، فَيُذِيبهَا، فَتُجَزَّأُ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ، فَيَشْرَبَ عَلَى رِيقِ النَّفْسِ كُلَّ يَوْمٍ جُزْءًا))

(مسند الإمام أحمد)

الصغيرة إذا أصررت عليها انقلبت كبيرة، أما الكبيرة تهلك فوراً، أما الصغيرة تهلك بعد حين، لذلك من صفات المؤمن أنه لا يصر على ذنب، والدليل أن الله عز وجل قال:

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا)

(سورة آل عمران)

لو أن الإنسان لم يرتكب جريمة، ولم يشرب الخمر، ولم يزنِ، ولم يسرق، لكن هناك من الذنوب مالا يعد ولا يحصى، هذه إذا اجتمعت على الرجل تهلكه، لذلك عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ...))

(مسند الإمام أحمد)

ولعلي وضعت يدي على مشكلة العالم الإسلامي، في العم الأغلب هؤلاء المسلمون في شتى أقطارهم القتلة منهم قليلون جداً، أن يقتل، أن يزني، أن يشرب الخمر، أن يسرق، لكن محقرات الذنوب كثيراً ما يفعلونها، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ))

العود وحده لا ينضج طبخاً، ولكن الأعواد إذا اجتمعت تكون ناراً عظيمة، هذه مشكلة المسلمين، الكبائر تركها على شيء من الخوف من الله، لكن الصغائر فعلها وأصر عليها، فكانت حجاباً بينه وبين الله.

لو أن خط كهرباء انقطع، ومربوط بهذا الخط آلات كثيرة، ثلاجة، ومكيف، وسخان.... لو أنه انقطع مترًا أو ميليمترًا ! الأثر واحد، فالإنسان سواء حجب عن الله بجريمة ارتكبها، أو بسرقة سرقها، أو بزنى اقترفه، أو حجب عن الله بغيبة أو نميمة، النهاية أنه حجب.

لذلك أثر محقرات الذنوب كأثر كبائر الذنوب في النهاية، هو محجوب، لكن يوجد تعليق لطيف: الإنسان أيحجب عن الله ببضعة ذنوب صغيرة ؟ إذا كان محجوباً فيحجب بالكبائر، وليس بالصغائر، أيحجب بالصغائر، وبإمكانه أن يتلافاها ؟ هناك من يصافح النساء، ومن يملأ عينيه من الحرام ومن يسهر ومن يتكلم عن الناس كلاماً غير منضبط، يقول لك: ماذا فعلت ؟ أنا لم أزنِ، ولم أسرق، ولم أرتكب فاحشة، هذا الذي قلته في هذه السهرة مجموعة ذنوب كبيرة جداً.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ))

(صحيح البخاري)

المذيع:

أيزول ذلك بالاستغفار ؟ ما هو علاج ذلك الحال ؟

الأستاذ:

لابد من الاستغفار والإقلاع والعزم على ألا أعود إلى هذا الذنب، لكن هذا الذي يقول: أنا كل ما جلست في جلسة، وارتكبت أخطاء أستغفر وأستغفر، هذا كالمستهزئ بربه !

المذيع:

عندما يعزم على ذلك !

الأستاذ:

حينما يعزم على أن يعاود الذنب، ثم يستغفر فهذا يستهزئ بالله عز وجل، أما حينما أقع في الذنب عن غير قصد مني أستغفر فيغفر الله لي، أما حينما أعزم على أن أستغفر من الذنب كل حين فهذا نوع من الاستهزاء بالله عز وجل.

المذيع:

وهنا يقول الله تبارك وتعالى:

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ)

(سورة النساء)

الأستاذ:

كلمة من قريب كلمة دقيقة جداً، العلماء قالوا: لابد من أن تتوب من ذنبك، فإذا أخرت التوبة ساعة فلابد من أن تتوب من شيء آخر، هو تأخير التوبة.

المذيع:

هل لمجرد أن يقول المؤمن: أستغفر الله العظيم وأتوب إليه يكون قد تاب من ذنبه ؟

الأستاذ:

بقلب حاضر ! وله أن يقول ما شاء بلسانه، ولكن لا يقبل الله توبته بلسانه إلا بقلب خاشع.

المذيع:

لقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فَعَنْ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّه عَنْه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((مَنْ أَتَمَّ الْوُضُوءَ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَالصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ))

(مسند الإمام أحمد)

الأستاذ:

هذا شيء صحيح، فهو كلام النبي صلى الله عليه وسلم، والنبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

المذيع:

كفارة لما بينهن، هل تكفر الذنوب التي ترتكب ؟

الأستاذ:

نعم بين الصلاتين، وبين الجمعتين، وبين الصيامين.

المذيع:

ولكن المرء لا يقصد أن يتوب بين الصلاتين.

الأستاذ:

لو لم يتب، حينما يؤدي الصلاة التالية، ويستغفر الله من ذنب وقع قبل الصلاة، فالصلاة التالية كفارة لما بين الصلاتين ما لم ترتكب الكبائر، وما لم يعزم على أن يعيد الذنب كل مرة، ويستغفر منه، قد يقع

به مرة ثانية عن غير قصد، أما حينما ينوي أن يعاود الذنب مع الاستغفار فالله عز وجل لا يقبل هذا الاستغفار، إنه استهزاء بالله عز وجل.

المذيع:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((التَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ))

[ابن ماجه]

هي الذنوب الصغيرة.

الأستاذ:

إذا تاب العبد توبة نصوحًا أنسى الله حافظيه والملائكة وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه، والتائب حبيب الله، التائب حقق الهدف الذي من أجله خلق الإنسان، خلقه ليرحمه، فإذا قبل هذا الإنسان رحمة الله عز وجل فكأنه حقق الهدف من خلق الإنسان، الله عز وجل خلقنا ليسعدنا، وليرحمنا، وليعطينا، ولينعم علينا، فالذي يقبل عطاء الله ورحمته وإنعامه وكرمه فقد حقق الهدف من خلقه، لذلك:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِكُمْ بِضَالَّتِهِ إِذَا وَجَدَهَا))

(سنن الترمذي)

يجب أن تعلم علم اليقين أنك إذا تبت إلى الله فرح الله بك.

أنت ترى قلب الأم، ولدي، حبيبي، هل أصابك من ضرر ؟ هناك قصص إن شاء الله سأرويها في حلقات لاحقة كيف أن الأم هذا المخلوق الذي يعد قلبها آية من آيات الله الدالة على عظمة الله !

النبي عليه الصلاة والسلام مر بامرأة تخبز بالتنور، وإلى جانب التنور ابنها الصغير، كلما وضعت رغيفاً في التنور ضمته وقبلته وشمته، هكذا تروي الكتب: مرّ سيدنا موسى قال: يا رب ما هذه الرحمة؟ قال: يا موسى هذه رحمتي أودعتها في قلب الأم وسأنزعها منها، فلما نزع الله الرحمة من قلب الأم وبكى ابنها ألقته في التنور ! عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّه عَنْه

((قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ، أَخَذَتْهُ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا، وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ ؟ قُلْنَا: لَا، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا))

(صحيح البخاري)

أنا حينما أعرف رحمة الله عز وجل، وأنه يحبني إذا تبت إليه، ويفرح بي، فلابد من أبادر إلى التوبة، أريد أن أقول: إن محقرات الذنوب تهلك صاحبها، وهذه مشكلات المسلمين في العالم الإسلامي، قلما

يقع المسلم الذي على شيء من الالتزام بكبيرة، لكن الصغائر كثيرة جداً في حياتنا، ونتيجة الصغيرة كالكبيرة تحجب عن الله عز وجل.

عَنْ جَابِرِ بْن عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ:

((قَدْ يَئِسَ الشَّيْطَانُ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُسْلِمُونَ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ))

(أحمد)

لم يكن في العالم الإسلامي عبادة أوثان، ولكن رضي فيما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم، الشيطان يرضى أن تخضع للصغائر، لأنها تحجبك عن الله عز وجل، هذه حقيقة مسلّم بها في الطريق إلى الله، الذنب يحجب، أما حينما تمشي في طريق الإيمان أسعد شيء في حياتك هذا الإقبال على الله، والاتصال به، فحينما تحجب معنى ذلك هناك ذنب أصبته.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دارالفتوى - منهج التائبين - الحلقة 08 - 30: التحذير من المجاهرة بالذنب وما عواقبها.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-12-04

بسم الله الرحمن الرحيم

الحقيقة كما أن الطاعات تتفاوت مراتبها ودرجاتها بحسب العمال ذاتها، وبحسب العامل، وبحسب الوقت، وبحسب السر، وبحسب الجهر، فالمعاصي أيضاً تتفاوت مراتبها وآثامها عند الله عز وجل ووزرها بحسب العامل الذي فعلها، وحرمة الزمان، وحرمة المكان، والجهر والإسرار.

مبدئياً هناك من يوصف بالمعصية، وهناك من يوصف بالفجور، ما الفرق بين العاصي والفاجر ؟ العاصي يفطر في رمضان فيما بينه وبين الله، غلبته نفسه، أو شق عليه الصيام، أما المجاهر فهو الذي يفطر أمام الملأ، وفي الطريق، فالذي يرتكب معصية، ويجهر بها يرتكب معصيتين، يرتكب المعصية ذاتها، ويرتكب معصية أخرى وهي المجاهرة بها، إنه حينما اجترأ عن الله عز وجل، وأظهر المعصية شجع ضعاف الإيمان أن يقترفوا هذه المعصية، وأوضَحُ مثلٍ في رمضان، فقبل خمسين عاماً تقريباً لا يجرؤ إنسان أن يتناول شيئاً في نهار رمضان، أما حينما كثر العصاة والمفطرون صار تناول الطعام في نهار رمضان شيئًا سهلاً جداً، المجاهر يشجع ضعاف الإيمان أن يقترفوا هذا الذنب، يحملون إثمهم وإثم من قلدهم في هذا الذنب، والمجاهر كما يقال: لا غيبة له، اذكر الفاجر بما فيه يحذره الناس، فهناك معصيتان، المعصية الأساسية بحسب الشرع الإسلامي، ومعصية أخرى هي الجهر بها، لأن في الجهر بها تشجيعاً للناس على اقترافها، لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ))

(صحيح البخاري)

ليس في ديننا أن تعترف بذنب لإنسان أو لآخر، اجعل هذا الذنب بينك وبين الله، اقبل ستر الله لك، الله عز وجل سترك، وأبعد مكانتك عن أن تلوكها الألسن، فلماذا يفضح الإنسان نفسه ؟ هاتان معصيتان.

المذيع:

حتى ولو استفتى رجال الدين أو رجال العلم الشرعي، وقال لهم: ارتكبت ذنباً، فما الحكم في هذا ؟

الأستاذ:

يجزئه أن يسأل الشيخ المفتي عن صديق له ارتكب ذنباً، وقد كلفه أن يسأل له عن حكم هذا الذنب، بهذه الطريقة يستر نفسه.

المذيع:

قد يرتكب ذنباً آخر بأنه يرتكب كذبة، ولو كانت صغيرة.

الأستاذ:

لا، هذا ليس كذباً مما نهى عنه الشرع، يقول: لي صديق فعل كذا، ما سمى اسم الصديق، هو يوارّي عن نفسه، في المعاريض مندوحة عن الكذب، حينما كان النبي صلى الله عليه وسلم يهاجر مع سيدنا الصديق، وسأل رجل الصدّيِق: من هذا الرجل ؟ وكان دمه صلى الله عليه وسلم مهدورًا، ومئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، فقال الصدّيق: هو رجل يهديني السبيل، فأنا حينما أقع ـ لا سمح الله ـ في معصية، ولا أحب أن تشيع عني هذه المعصية، وأسأل مفتياً حول حكمها، أنا أواري بأن صديقاً لي سألني عن حكم هذا الذنب، فما حكمه يا شيخنا العزيز ؟ الشيخ يعطي الحكم فقط، دون أن يعرف هذا المستفتى أن الذي أمامه هو واقع في هذا الذنب، هذا أسلوب مقبول عند الله عز وجل.

المذيع:

المجاهرة بالذنب هي معصية بحد ذاتها، وفجورها اجتراء على الله سبحانه وتعالى، ولكن ذكرتم أيضاً المعصية بحسب مكانها وزمانها، أيْ للمكان حرمة وللزمان حرمة.

الأستاذ:

الذنب في المسجد له عقاب مضعّف ! والذنب في رمضان له عقاب مضاعف، وتحرش بامرأة تلوذ بك لها عقاب مضاعف، الذي يزني بحليلة جاره له عذاب مضاعف، الذي يزني بالمغيب عنها زوجها عقابه مضعف، كما أن الطاعات تتفاوت في ثوابها بحسب التضحية، وبحسب الصبر والصوارف عنها، كذلك المعاصي تتفاوت في إثمها، فللزمان حرمة، وللمكان حرمة، وللشخص الذي عصيت الله معه حرمة.

هذا الذي يدعّ اليتيم ذكره الله كنموذج لذنب كبير، اليتيم ينبغي أن تحسن إليه، فإن لم تحسن إليه فأنت بحقه عاص، فكيف إذا ضربته ؟ فكل ذنب له مستوى.

المذيع:

ومن يرتكب الذنب في المسجد أو في المسجد الحرام.

الأستاذ:

في المسجد الحرام نية الذنب ذنب ! الله عز وجل لكرمه لا يحاسب إلا على العمل، إلا في بيت الله الحرام.

(وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (25))

(سورة الحج)

هناك النية فقط، بل إن الله عز وجل يقول:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا)

(سورة النور)

ما فعل فاحشة ! ولا نطق بها، ولا اغتاب أحداً، لكن يتمنى من أعماقه أن تشيع الفاحشة بين المسلمين، قال: هذا ليس مسلماً، هو في خندق آخر غير خندق المسلمين، هل هناك أمّ على وجه الأرض تتمنى فضيحة ابنتها ؟ فإن وجدت مثل هذه الأم فحتماً ليست أمّها، حينما تتمنى أمٌّ شكلاً فضيحة ابنتها، هي ليست أماً قولاً واحداً، وكل مؤمن يتمنى أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا قولاً واحداً ليس مؤمناً، المؤمن يغار على مجتمع المؤمنين، يغار على سمعتهم، لا يحب أن تشيع الفاحشة فيهم، وهناك مجتمعات غبية تحب الفضائح، حينما يقبضون على فضيحة يروجون لها أيّما ترويج، فالمؤمن ستّير، هكذا ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم، فعَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ الْمَازِنِيِّ قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي مَعَ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّه عَنْهمَا آخِذٌ بِيَدِهِ، إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ، فَقَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي النَّجْوَى ؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: (هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)))

(صحيح البخاري)

مما يقرب العبد إلى التوبة، ومما يقربه من رحمة الله أنه فعل ذنباً، ولم يظهره للناس،، إذا بُليتم بالمعاصي فاستتروا، هذا الإنسان على شيء من الخوف من الله،

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك العمل في المقام شنيع

لـو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب يطيع

أنا أتمنى أن أذكر إخوتنا الشباب: قد يقول صديق لصديقه: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، هو لا يريد أن تشيع الفاحشة، لكن يريد أن يستأنس، ما حكم هذا العمل ؟ ماذا أفعل ؟ حتى هذا فيه شبهة كبيرة، لأن الشباب حينما يلتقون، ويستمع كل منهم إلى أخطاء صديقه كأنه يستأنس بالخطأ والمعصية،

ويراها شيئًا طبيعيًا وعامًا وموفورًا، أما حينما يحافظ الإنسان على بقاء المسلمين، ويستفتي أولي العلم، وبشكل فيه كناية لا تصريح هذا مما يضمن سلامة المجتمع المسلم.

المذيع:

الستر مطلوب والسؤال مطلوب.

الأستاذ:

اسأل واستتر، فالمجاهرة الذنب ذنب آخر، واجتراء على الله.

توجد ملاحظة مهمة جداً: من هذه التي إذا زنت ترجم ؟

المذيع:

التي تأتي وتقول: أنا زنيت.

الأستاذ:

معلوم لديكم أن الذي يزني وهو غير محصن يجلد مئة جلدة، أما الذي يزني وهو محصن فيرجم حتى الموت، لكن قد يسأل سائل: متى نقيم الحد على الزاني ؟ الزاني الذي يشهد أربعة رجال أنه زنى بشكل فاضح، هذا الذي يزني أمام الناس يزني، ولا يغلق الباب، لمجرد أن يغلق الباب نجا من عقوبة الرجم، فعقوبة الرجم ليست للزاني المحصن، للزاني المحصن الفاجر، الذي يزني على مرأى من الناس.

المذيع:

لكن ثبت في السيرة النبوية أن أحدهم جاء لرسول الله، وقال له: إني زنيت.

الأستاذ:

هذا لا يتعارض مع ما قلت، ذلك أن الإنسان ليس من واجبه الديني أن يعترف بذنبه، لكن شدة الورع التي نجدها عند هؤلاء الأصحاب هي التي حملتهم أن يعترفوا بهذا الذنب، أما كإنسان مسلم عادي فهل هو مكلف إذا وقع في ذنب أن ينقله إلى الإمام ؟ لا، ليس مكلفاً، يقبل ستر الله له، لكن هناك حالات خاصة، أنا أفرق دائماً بين الحكم الشرعي وبين الحالات الخاصة، هذا الذي اعترف بذنبه، وطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجمه حتى الموت هذه حالة خاصة.

المذيع:

إذاً لا تعد مجاهرة ؟

الأستاذ:

لا هي من نوع آخر، المسلم ليس مكلفاً أن يعترف بذنبه من دون أن يحقق معه، لأنه قبل ستر الله عز وجل، هذه رحمة للعباد، حينما أشعر أن الله ستره أعطاه فرصة.

يروى أن أحد الرجال جاء سيدنا عمر متلبساً بالسرقة، قال: والله هذه أول مرة، قال: كذبت، إن الله لا يفضح من أول مرة، لعلها الثامنة، فمن رحمة الله بالإنسان أنه يعطيه فرصة، لذلك المؤمن حينما يتوب من الذنب يشعر أن الله ستره.

سمعت أن أحد الرجال التقى سيدنا عمر، وكانت أخته قد زنت، وأقيم عليها حد الجلد، جاءها خاطب، فاستشار عمر، قال: يا أمير المؤمنين، أذكر له ما كان منها ؟ قال: والله لو ذكرت له لقتلتك ! إن الله يحب الستر، فأنا لست مكلفاً أن أبوح بذنب سترني الله به، الحكم الشرعي شيء، والموقف الشخصي شيء آخر.

سيدنا الصديق حينما شرب لبناً، وعلم أنه من مال حرام تقيّأه، التقيؤ حكم شرعي؟ لا موقف شخصي.

سيدنا عمر حينما هاجر جهاراً، وتحدى المشركين، هل هذا حكم شرعي ؟ لا، الحكم الشرعي فعله النبي صلى الله عليه وسلم حينما هاجر سراً، لو أن النبي صلى الله عليه وسلم هاجر كعمر، وتحدى المشركين لعدّ اقتحام الأخطار واجباً، و لعدّ أخذ الحيطة حراماً، و لهلكت أمته من بعده.

النبي صلى الله عليه وسلم مشرع، وأنا أفرق دائماً بين الحكم الشرعي وبين الموقف الشخصي، وقد يكون الموقف الشخصي راقياً جداً، لكنه ليس حكماً شرعياً.

المذيع:

كالتي زنت، وطلبت إقامة الحد عليها، وقال عنها النبي صلى الله عليه وسلم وعن توبتها: إنها تعدل توبة أهل المدينة.

الأستاذ:

هذا صحيح، ويسمى موقفًا شخصيًا.

نحن نخاطب عامة المسلمين، لو أن إنسانًا ارتكب خطأ فليس مكلفاً أن يرفعه إلى أولي الأمر، أما أولوا الأمر إذا رُفع إليهم فلا عفا الله عنهم إن عفوا ! إذا رفع هذا الخطأ الموجب للحد إلى أولي الأمر ينبغي أن يقيموا حدود الله عز وجل، أما المسلم فليس له أن يرفع ذنبه إلى أولي الأمر مادام الله قد ستره، أنا ألح على الستر، أربعة أخماس الطريق إلى الله حقق بالستر.

بالمناسبة أستاذ زياد، الإنسان لا يغفر ! لو أن إنسانًا جاهر بذنبه، وتاب منه بعد حين تبقى سمعته ملوثة إلى يوم القيامة، وتبقى صورة الذنب ماثلة عند الناس إلى يوم القيامة، فالبطولة أن أستر الذنب الذي ارتكبته في ساعة ضعف، فإذا تبت إلى الله قبل الله توبتي، وبقيت سمعتي كما هي، لكن الحالتين اللتين ذكرتهما من امرأة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم طلبت منه إقامة الحد، ومن إنسان أيضاً طلب منه إقامة الحد، وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أنهما تابا توبة تسع أهل المدينة، هذا موقف شخصي، وأنا بينت الفرق بين الموقف الشخصي وبين الموقف الشرعي.

مرة صحابيان وقعا في أسر مسيلمة الكذاب، فمسيلمة هذا ادعى النبوة، قال لأحدهما: أتشهد أني رسول الله ؟ فقال: ما سمعت شيئاً، فقطع رأسه، وقال للثاني: أتشهد أني رسول الله ؟ فشهد له أنه رسول الله، الآن البطولة كيف شرح النبي صلى الله عليه وسلم هذين الموقفين ؟ قال: أما الأول فقد أعز دين الله فأعزه الله، ماذا نتوهم حال الثاني ؟ قال: وأما الثاني فقد قبل رخصة الله، ما كلفه الله فوق ما يطيق، فكأن الحد الأدنى أن تنجو برأسك من قتل بسبب دينك، لكن الحد الأعلى أن تضحي من أجل الحق، الحد الأدنى قسري، والحد الأعلى طوعي، أرأيت إلى عظمة هذا الدين ؟ ما كلفك فوق ما تطيق.

الدين يسع المضحّين ويسع المعتدلين، يسع المتفوقين، ويسع أصحاب القصد والتوفيق، فأنا حينما أطالب بمعصية، وأهدد بالقتل، لي أن أنجو من القتل بطريقة أو بأخرى، ولا يؤاخذني الله عز وجل، وسيدنا عمار حينما نطق بكلمة الكفر، قال له النبي الكريم صلى الله عليه وسلم: لا عليك، فإن عادوا فعد.

وقد قال الله في حقه:

(إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ)

(سورة النحل)

هذا دين الله يسع جميع الخلق.

لكن كنت مرة أعلق على هذه القصة، أن الأول أخذ أجراً كبيراً جداً، الذي ضحى بحياته من أجل عقيدته، وأما الثاني فقد أخذ أجراً، لكنه قليل بحسب رغبته في السلامة، ولكل درجات مما عملوا.

نحن نريد من هذه الحلقة أن نؤكد أن الذنب ذنب، وأن الجهر به ذنب آخر، وأنك لست مكلفاً أن ترفع ذنبك لأولي الأمر، لأنك لم تعبأ بستر الله لك، لأن الله لحكمة أرادها أعطاك فرصة لكي تتوب، وليس في إسلامنا شيء اسمه إشاعة الفاحشة، والاعتراف بالذنب، الذنب نتوب منه، ولا نشيعه بين الناس.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - منهج التائبين - الحلقة 09 - 30: التوبة النصوح - أركانها وشروطها.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-12-05

بسم الله الرحمن الرحيم

التوبة النصوح هي التوبة التي لا رجوع عنها، والتوبة الأولى هي أهون توبة على المذنب، كأن الحجاب الذي كان بينه وبين الله يهتك في ثانية، وكأن الله عز وجل يلقي في روعه أنه غفر له، وأنه قبل، وكأن أحمالاً كالجبال أزيحت عن كاهله، ذلك أن الإنسان حينما يسأل الله قبول التوبة يجيبه الله عز وجل بقبولها، يقول: يا رب، لقد تبت إليك، يقول: عبدي، وأنا قد قبلت، وقد ورد في بعض الآثار أن الله عز وجل يخاطب بعض أنبيائه يقول: يا داود، لو يعلم المعرضون انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطعت أوصالهم من حبي، ولماتوا شوقاً إلي، هذه إرادتي في المعرضين فكيف في المقبلين؟

المذيع:

سبحان الله، وهو الغني عن عباده !

الأستاذ:

حينما ناجى أحد العارفين ربه قال: يا رب، إذا كانت رحمتك بمن قال: أنا ربكم الأعلى فرعون ألم يقل الله:

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44))

(سورة طه)

أحد العارفين يقول: يا رب، إذا كانت رحمتك بمن قال: أنا ربكم الأعلى، فكيف رحمتك بمن قال: سبحان ربي الأعلى ؟ وإذا كانت رحمتك بمن قال: ما علمت لكم من إله غيري، فكيف رحمتك بمن قال: لا إله إلا الله ؟

التوبة النصوح من ثمارها اليانعة أن الله ينسي بقاع الأرض والملائكة جميعاً كلهم خطايا المذنب وذنوبه، إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً، فقد اصطلح مع الله.

والله أخ زياد، أنا أشعر أن التوبة النصوح هي عرس المؤمن، يوم الفرحة الكبرى، أنه فتح مع الله صفحة جديدة، أن هذا الماضي كله أصبح في طي النسيان، لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

(سورة الزمر)

مهما يكن ذنبك كبيراً فرحمة الله أوسع من ذنبك ! ألم يقل الله عز وجل:

(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلّ شَيْءٍ)

(سورة الأعراف)

فالتوبة النصوح هي التوبة التي تعقد من قبل عبد تألم أشد الألم من ذنبه، ثم عقد العزم على ألا يعود لمثل هذا الذنب مادام حياً، هذه التوبة النصوح تشعر التائب أن جبالاً كانت جاثمة على صدره مهما وأزيحت عنه، ولا دل على ذلك من تصوير النبي صلى الله عليه وسلم، وكان عليه الصلاة والسلام سيد البيان، تعلمنا في الجامعة أن أعلى نص في اللغة العربية القرآن الكريم، ويليه الحديث الشريف، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش))

(ورد في الأثر)

وهذا أسلوب رائع في البلاغة، تأكيد المديح بما يشبه الذم، النبي عليه الصلاة والسلام صوّر أعرابياً يركب ناقة عليها طعامه وشرابه، فلما أدركه التعب جلس ليستريح، أفاق فلم يجد الناقة، فأيقن بالهلاك، فصار يبكي حتى أخذته سنة من النوم، فأفاق فرأى الناقة فاختل توازنه فقال: يا رب أنا ربك وأنت عبدي ! عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((لَلّهُ أَشَدّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمّ قَالَ مِنْ شِدّةِ الْفَرَحِ: اللّهُمّ أَنْتَ عَبْدِي، وَأَنَا رَبّكَ أَخْطَأَ مِنْ شِدّةِ الْفَرَحِ))

(صحيح مسلم)

فالتوبة النصوح توبة في الأعماق، ويسبقها ندم شديد، وتتبعها سعادة لا توصف، ومن ألطف ما قاله العلماء في التوبة النصوح قول ابن القيم رحمه الله تعالى: **" ما الظن بمحبوب لك تحبه حباً شديداً أسره عدوك، وحال بينك وبينه، وأنت تعلم أن العدو سيسومه سوء العذاب، ويعرضه لأنواع الهلاك، وأنت أولى به منهم، وهو غرسك وتربيتك، ثم إنه انفلت من عدوه، ووافاك على غير ميعاد، فلم يفاجئك إلا وهو على بابك يتملقك، ويطربك، ويستعينك، ويمرغ خديه على تراب أعتابك، فكيف يكون فرحك به، وقد اختصصته لنفسك، ورضيته لقربك، وآثرته على سواه ؟ ولست الذي أوجدته، وخلقته، وأسبغت عليه نعمك، والله عز وجل هو الذي أوجد عبده، وخلقه، وكونه، وأسبغ عليه نعمه، وهو يحب أن يتمها عليه، فيصير مظهراً لنعمه قابلاً لها شاكراً لها، محباً لوليها مطيعاً له عابداً له معادياً لعدوه مبغضاً له عاصياً له ".**

هذا كلام طيب حول ما ينبغي أن نعلمه عن ذات الله عز وجل حينما يتوب عبده المؤمن إليه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِكُمْ بِضَالَّتِهِ إِذَا وَجَدَهَا))

(سنن الترمذي)

وينبغي أن أضيف إلى هذا الموضوع حكاية حكاها أحد العلماء قال: رأى في بعض سكك المدينة باباً قد فُتح، وخرج منه صبي، يستغيث، ويبكي، وأمه خلفه تطرده حتى خرج، فأغلقت الباب في وجهه، ودخلت فذهب الصبي غير بعيد، ثم وقف مفكراً، فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أخرج منه، ولا من يأويه غير والدته، فرجع مكسور القلب حزيناً، فوجد الباب مرتجًا، فتوسده، ووضع خده على عتبة الباب، ونام، فخرجت أمه فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه، والتزمته تقبّله، وتبكي، وتقول: يا ولدي، أين تذهب عني ؟ ومن يأويك سواي ؟ ألم أقل لك لا تخالفني ؟ ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة بك والشفقة عليك، وإرادة الخير لك، ثم أخذته، ودخلت فتأمل قول الأم: لا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة والشفقة، وتأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم، عَن ابْنِ عُمَرَ قَالَ:

((كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِهِ فَمَرَّ بِقَوْمٍ فَقَالَ : أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَرْحَمَ بِعِبَادِهِ مِنَ الْأُمِّ بِوَلَدِهَا...))

(سنن ابن ماجة)

وأين تقع رحمة الأم من رحمة الله عز وجل الذي وسعت رحمته كل شيء ؟

شيء متعلق بهذا الموضوع، هو أن الذي يرضي الله عز وجل أن نبادر سريعاً إلى التوبة النصوح، ولعلي أذكر الإخوة المستمعين بأن خصائص التوبة العلم والحال والعمل، فكلما كان العلم أعمق، وأمتن، وأقوى كان الندم أشد، وكلما كان الندم أشد كانت التوبة أكثر متانة وأطول أمداً، فالتوبة النصوح سهلة جداً، ولكن العبرة أن يثبت الإنسان عليها، وسهل جداً في كل مجالات الحياة أن تصل إلى شيء، ولكن البطولة أن تبقى فيه، سهل أن تصل إلى القمة، ولكن البطولة أن تبقى في القمة، سهل أن تنجح ولكن البطولة أن تبقى ناجحاً، وأعيد، وأكرر: إن أهون توبة يتوبها الإنسان أول توبة.

المذيع:

هل هناك توبة ثانية ؟

الأستاذ:

حينما يقع في الذنب نفسه كأنه نقض التوبة، عندئذ يجد صعوبات في أن يتوب ثانية، أنا أنصح الإخوة

الكرام من يتابعنا في هذا البرنامج أنه إذا عقد العزم على التوبة النصوح بطولته لا في عقد العزم عليها، بل في متابعتها وفي الاستمرار عليها.

ما من حاج يذهب إلى بيت الله الحرام ؟ وحينما يقترب من الحجر الأسود يقول: عهداً لك يا رب على طاعتك، فإذا عاد من الديار المقدسة، وعاد إلى ما كان عليه، فكأنه نقض هذا العهد، وكأن الله عز وجل يعتب على عباده المؤمنين حينما يقول:

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (102))

(سورة الأعراف)

فالتوبة النصوح أساسها المتابعة، أساسها الثبات، ومادام الإنسان مع الله يشعر بقوة من الله تمده، ألم يقل الله عز وجل في سورة الفاتحة:

(إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ (5))

(سورة الفاتحة)

هذا النبي الكريم يوسف عليه السلام ماذا قال:

(وَإِلّا تَصْرِفْ عَنّي كَيْدَهُنّ أَصْبُ إِلَيْهِنّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33))

(سورة يوسف)

معنى ذلك أن المؤمن إذا آمن إلى الله الإيمان الصحيح، وتاب إلى الله توبة نصوحًا ينبغي أن يبقى مفتقراً إلى الله بأن يمده بقوة يثبت بها على هذه التوبة، لأن مؤمنين لا يعدون ولا يحصون تابوا، ونقضوا التوبة، فما كان لهم عند الله من عهد.

المذيع:

سؤالي هنا فضيلة الشيخ دكتور محمد راتب النابلسي: هل يتوب المرء من ذنب بعينه ؟ أم أنه يتوب عن معصية الله سبحانه وتعالى ؟

الأستاذ:

إذا كان سالكاً طريق الإيمان، وزلت قدمه في موضوع محدد يتوب من هذا الذنب بالذات، أما إذا كان شارداً عن الله في الأصل فهذا الإنسان يحتاج إلى توبة عامة عن كل ما نهى الله عنه، هناك من يشرد عن الله شروداً كثيراً، فإذا أراد أن يتوب ينبغي أن يتوب عن كل معصية من دون تحديد، أن يلتزم أمر الله وبابه، أما إذا كان سالكاً طريق الإيمان، وزلت قدمه في موضوع محدد يمكن أن يتوب من هذا الذنب بالذات.

المذيع:

نذكر أن أيضاً من أركان التوبة ما كان بين المرء وأخيه الإنسان من حقوق يجب أن يؤديها له، أو أن يتسامح مع هذا الإنسان.

الأستاذ:

حينما تحدثنا في حلقة سابقة عن أن من أركان التوبة العلم والحال والعلم، فالعمل وزعناه إلى ثلاثة أبواب: عقد العزم على ألا يفعل هذا الذنب في المستقبل، والإقلاع عنه في الحاضر، وإصلاح ما مضى، إصلاح ما مضى أن تؤدي الحقوق إلى أصحابها، ذلك لأن حقوق العباد مبنية على المشاحة، بينما حقوق الله مبنية على المسامحة.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - منهج التائبين - الحلقة 10 - 30: تكرار التوبة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-12-06

بسم الله الرحمن الرحيم

تحدثنا في الحلقة السابقة عن التوبة النصوح، وهي التوبة التي لا رجوع عنها، ولكن الإسلام واقعي، الإسلام يسع كل المسلمين، الآن دخلنا في موضوع آخر، الأصل والأكمل أن تكون التوبة نصوحًا، لا عودة فيها، ولكن لو أن شاباً سألنا ماذا أفعل ؟ وقعت في الذنب مرة ثانية، هل الحكمة أن نيئسه من رحمة الله ؟ أم أن نفتح له أبواب رحمة الله عز وجل ؟ هذا موضوع حلقة اليوم، الأكمل ما قلناه في الحلقة السابقة، الأكمل أن تكون التوبة نصوحاً، الأكمل ألا يرجع الإنسان عن توبته، لأنه دخل في أبواب رحمته، الأكمل أن يفتح العبد المذنب مع الله صفحة جديدة، فإذا زلت قدمه، وهذا من ضعف الإنسان، وأعاد الذنب مرة ثانية، من له غير الله ؟ لمجرد أن ييئس الإنسان من قبول توبته يفجر، والأمر يكون في حيز صغير، فإذا هو في متاهة كبيرة، فرحمة الله جل جلاله كانت كحبل النجاة، يتمسك به العاصون، كانت كصمام الأمان، كانت كقارب النجاة، فلابد من أن نؤكد للإخوة المستمعين أنك إذا أعدت الذنب فأعد التوبة، وليس لك إلا الله.

(وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ)

(سورة الشورى)

ورد في الصحيحين من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ: أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ، وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ، فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ، أَذْنَبْتُ، أَوْ أَصَبْتُ آخَرَ، فَاغْفِرْهُ، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْبًا قَالَ: قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ، أَوْ قَالَ: أَذْنَبْتُ آخَرَ، فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثَلَاثًا، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ))

(صحيح البخاري)

كأن النبي عليه الصلاة والسلام وهو الصادق المصدوق عن ربه يؤكد لنا أن رحمة الله واسعة، وأنه لابد من أن نصل إليه، أن نلجأ له، وأن نحتمي به، وأن نركن إلى رحمته، وفي حديث آخر عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال:

((يا رسول الله، أحدنا يذنب، قال: يكتب عليه قال: ثم يستغفر منه، ويتوب، قال: يغفر له، ويتاب عليه، قال: فيعود، فيذنب، قد يكتب عليه، قال: ثم يستغفر منه، ويتوب قال: يغفر له، ويتاب عليه، قال: فيعود، فيذنب قال: يكتب عليه، ولا يمل الله حتى تملوا))

(الحاكم في المستدرك، والطبراني في المعجم الأوسط)

المذيع:

أبواب التوبة مفتوحة على المؤمن، من كمال إيمانه، ورقي إيمانه، وتألق إيمانه أن يوقن حق اليقين بأن التوبة مقبولة بإذن الله تعالى، وأن الله سبحانه وتعالى يقبل التوبة مهما تكررت، ومهما تكرر الذنب.

الأستاذ:

ذلك أن الله عز وجل يقول:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

(سورة النساء)

هذه إرادة الله !

(وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (27))

بل إن في الحديث القدسي:

((إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها، وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

المذيع:

هنا بعض المحاجين يقولون لك: طالما أن إرادة التوبة هي من عند الله سبحانه وتعالى فمن أين تأتي إرادة الذنب ؟ هل الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نذنب ؟

الأستاذ:

حاشا لله.

(اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (28))

(سورة الأعراف)

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148))

(سورة الأنعام)

هذه الآية أصل في نفي الجبر، والجبر عقيدة فاسدة، لو توهمناها لكنا في ضلال مبين.

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (27))

خلقنا ليرحمنا، بدليل قوله تعالى:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود)

أن نتوهم أن الله أراد الذنب لنا هذا مستحيل، وألف ألف مستحيل، أراد الخير لنا، أراد الهداية لنا، ولكننا مخلوقات أنعم الله علينا بنعمة الاختيار ليثمّن عملنا، فالإنسان مخير، وأساس الذنب كما بحثنا هذا في أول حلقة أن كائناً أودعت فيه الشهوات، ومعه منهج، فتحرك بدافع من شهوته من دون منهج، تماماً كالذي يقود مركبة بلا مقود، فيها محرك قوي هي الشهوة، أما المقود هو المنهج، فمركبة تتحرك بلا مقود مصيرها حادث مروّع، فكل إنسان يتحرك في شهوة أودعها الله فيه هي في الأصل حيادية، ليرقى بها إلى رب الأرض والسماوات، هي شهوة بمثابة سلم نرقى به، أو دركات نهوي بها، هذا هو أصل الذنب، كائن مخير، لذلك لا تجد لا في الملائكة، ولا في الجمادات، ولا في الحيوانات تكليف، ولا ذنب ولا توبة، مخلوقات مسيرة، الإنسان والجن من بين مخلوقات الله جميعاً منحوا نعمة الاختيار ليثمن عملهم، وأودعت فيهم الشهوات لتكون سلماً لهم إلى رب الأرض والسماوات، فتحركوا بدافع من شهواتهم بدون منهج يسيرون عليه فوقعوا في هذه الذنوب، هذا فلسفة الذنب، أما أن يريد الله ذنباً للإنسان،

ألقاها في اليم مكتوفاً وقال له إياك إيّاك أن تبتل بالماء

العوام له كلمات هي الكفر بعينه، يقول لك شارب الخمر: طاسات محدودة بأماكن معدودة، من قال هذا؟ هذا كلام إبليس، فكل كلمة يقولها العوام ينبغي أن تقاس بالقرآن، فإن وافقته نقبلها، وإن عاكسته نركلها بقدمنا، لابد من عقيدة سليمة، والعقيدة السليمة أساس العمل الصالح، ولو أن هناك عقيدة لا تنعكس عملاً فاعتقد ما شئت، ولكن لأن كل انحراف في العقيدة يقابله انحراف في السلوك.

إذاً لابد من أن نمحص عقائدنا، وأن نعرف الله عز وجل.

((ابن عمر، دينك دِينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

المذيع:

هنا في الحديث النبوي الشريف الذي صحت روايته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في صحيحي البخاري ومسلم عن العبد الذي أذنب ثلاثاً، وتاب من ذنبه، في بعض روايات الحديث هناك خاتمة له " فليعمل ما شاء "، أي هل يا تُرى يعمل ما شاء، هكذا على الإطلاق، يذنب ويتوب، يذنب ويتوب ؟

الأستاذ:

أنا أفهم هذا التذييل في الحديث فهماً لعلي أكون مصيباً به، حينما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام عن سيدنا عثمان حينما جهز جيش العسرة قال:

((ما ضرّ عثمان ما فعله بعد اليوم))

(الترمذي)

كأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: بلغ مرتبة من القرب من الله أنه قلما يخطئ، فحينما يذنب ويتوب، ويذنب ويتوب، ويذنب ويتوب، كأنه آن له ألا يذنب، أما أنا لا أفهم الحديث على أنه مهما عاش إلى أمد طويل يذنب ويتوب، كلما أذنب، وتاب ضعفت علاقته بالله عز وجل، ولعل هذا هو الصواب، هناك قول آخر: عن علي رضي الله عنه قال: **" خياركم كل مفتن تواب قيل فإن عاد ؟ قال: يستغفر الله فيتوب، قيل فإن عاد ؟ قال: يستغفر الله ويتوب، قيل حتى متى ؟ قال: حتى يكون الشيطان هو المحسور ".**

لا تكن عوناً للشيطان على أخيك، بل كن عوناً لأخيك على الشيطان، هذا معنى المؤمن يهب الأمل للمذنبين.

والذي تعرفونه كثيراً أن الذي سأل راهباً عن إنسان قتل تسعة وتسعين رجلاً، هل له من توبة ؟ قال له: لا، فكمل به بالمئة ! أما العالم الآخر الذي سئل أمره أن يخرج من أرض يذنب فيها إلى أرض فيها قوم صالحون، العالم الآخر عالج أصل المشكلة، وكأن الله عز وجل حينما يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119))

(سورة التوبة)

العالم الحقيقي يبحث عن سبب الذنب، البيئة السيئة، رفقاء السوء، المثيرات التي يعيشها الإنسان، هذه كلها تدفعه إلى الذنب فأنت إن أردت أن ترفع مستوى إنسان أبعده عن أسباب الذنب، فالهروب من أسباب الخطيئة خير من أن تهرب من الخطيئة نفسها.

حينما قال الله عز وجل:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

(سورة الإسراء)

لمَ لمْ يقل: لا تزنوا ؟ حينما قال الله عز وجل:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة)

لمَ لمْ يقل: فلا تعتدوها ؟ ذلك أن للمعصية وهجاً، أنا أضرب مثلاً دقيقًا: وزير كهرباء في بلد ما هناك خط توتر عالي ثمانية آلاف فولت، لابد من وضع لوحة تحذر المواطنين، هذا التيار له حرمة، أو دائرة، أو حيز، إن دخل فيه الإنسان أصبح قطعة من الفحم، فهذا الوزير يضع اللوحة ممنوع مس التيار، أم ممنوع الاقتراب منه ؟ ممنوع الاقتراب منه، لذلك قال تعالى:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

شهوة جنسية تشبه صخرة في رأس جبل متمكنة، أنت إذا دفعتها لك أن تدفعها، ولكن لن تستقر إلا في قاع الوادي، أنت حينما تتساهل بممهدات الفاحشة في الأعم الأغلب يقع فيها الإنسان، فلذلك حينما أنصح الناس بالتوبة أنصحهم أيضاً بالبعد عن أسباب الذنب، البيئة الفاسدة، الرفيق السيئ، الصحافة الماجنة، القصص الإباحية، متابعة الأفلام التي لا ترضي الله، هذه كلها تودي إلى المعصية، فالبطولة أن أبتعد عن أسباب المعصية، وللسيد المسيح كلمة رائعة يقول: الشريف هو الذي يهرب من أسباب الذنب، لا من الذنب نفسه، فغض البصر، وعدم الخلوة طريق لحفظ الفرج، هناك أساليب كثيرة إن طبقها الإنسان ابتعد عن الفاحشة، فأنا كإنسان أدعو الناس إلى الله عز وجل أقول لهم: توبوا، ولكن يجب أن أبين لهم أنه ينبغي أن يبتعدوا عن مظان المعصية، وعن أماكن المعصية، وعن العصاة، بل إن العلماء يقولون: إن صحبة الأراذل تجرح العدالة.

((فمن عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته))

[ورد في الأثر]

فإن ظلم الإنسان الآخرين، أو كذبهم، أو أخلف وعده معهم، سقطت عدالته، لكن العلماء ذكروا أن هناك أشياء كثيرة تجرح العدالة لا تسقطها، مما يجرحها صحبة الأراذل، والتنزه في الطرقات، والحديث عن النساء، وتطفيف بتمرة، وأكل لقمة من حرام، ومن بال في الطريق، من مشى حافياً، من أكل في الطريق، العلماء عددوا أحوالاً كثيرة تجرح العدالة، لكن أريد من هذا اللقاء من هذا الذي يجرح العدالة أن نصحب الأراذل، ومعنى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119))

هذا الذي يعصم الإنسان عن الذنب، وفي الحديثين المشهورين الذي قتل تسعة وتسعين رجلاً، التوجيه النبوي أن العالم الآخر أبعده عن مواطن الربا وعن البيئة، فأنت لن تستطيع أن تستقيم على أمر الله إلا إذا كنت في بيئة صالحة، فقل لي من تصاحب أقل لك من أنت.

المذيع:

هل ندخل اليأس إلى قلوب من هم في بيئة قد تكون غير صالحة ؟

الأستاذ:

هنا يوجد توجيه: أنا حينما يكون قدري أن أكون في بيئة سيئة ينبغي أن أكون في برج أخلاقي عنهم، لا في برج فكري، أنا أعيش معهم، لكن لا أقع في سقطاتهم، ولا أنغمس في شهواتهم، لا تذل قدمي كما يذلون، هناك من يعيش في بيئة لا ترضيه، هذا قدره، لكن حينما يبتعد بأخلاقه عن سقطات من حوله الله عز وجل يعينه على الطاعة.

المذيع:

أتحدث عن إنسان أذنب مع هذه البيئة العاصية المذنبة، ولكنه أراد أن يتوب هل لنا أن نعطيه إرشاداً عدا أن يتخلى عن هذه البيئة ؟

الأستاذ:

نرشده، ونقول له كما قال الله عز وجل:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ)

(سورة الكهف)

هو معهم بجسمه، لكنه لا يطيعهم، ولعل في هذا إرشاد تربوي كبير جداً.

المذيع:

أريد أن أضع الإصبع على الجرح، لنقُل: فتاة مغلوب على أمرها، والدها يشرب الخمر، يقول لها: أحضري لي كأس الخمر، وهذا غالباً ما يقع، وهي تنهج منهج الله، وملتزمة بطاعته، وبرفض معصيته، وترجو رضاه، فماذا تصنع ؟

الأستاذ:

قبل أن أجيب على هذا السؤال أبين حكمة الله في هذا التخليط، قد ينجب فتاة طاهرة من أب سيئ، وقد ينجب أب جيد فتاة سيئة، الحكمة من ذلك أن هذا الأب حينما يرى ابنته الطاهرة المستقيمة الملتزمة لعله يتذكر الله عز وجل، ما خلّط الله الصالح مع الطالح في أسرة واحدة إلا ليكون الصالح مذكراً وقدوة للطارح، وكم من فتاة تاب أبوها على يديها، كم من زوج سيئ تاب على يد زوجته، هذا التخليط هناك حكمة تربوية رائعة منه: أنت كمعلم تضع الطالب الجيد إلى جانب الطالب السيئ، فلعله يأخذ منه بعض أخلاقه الفاضلة، أما لو وضعت سيئين في جانب واحد يحدث انفجار، فالتخليط من حكم الله العظمى، نحن نقول لهذه الفتاة الطاهرة التي تعرف الله عز وجل: حينما تتصلين بالله عز وجل الصلة المتينة هذه تعطيك حكمة ومقاومة عالية جداً، وتعطيك لساناً طليقاً في الحق، فلعل هذه الفتاة، وهي في بيئة سيئة يهديها الله عز وجل إلى طريق قويم لإصلاح أبيها، أنا أقول: لكم لا يمكن أن تستقر حقيقة الإيمان في قلب مؤمن إلا وأن تعبر عن نفسها بحركة نحو الآخرين، المؤمن ليس سلبياً: وليس متقوقعاً: وليس منسحباً من الحياة.

أنا أذكر كما تفضلت أباً شارب الخمر كلما رأى ابنه يصلي يضربه، ومازال هذا الابن ينصح أباه عشرات السنين إلى أن تاب على يده، وعرف قيمته، فأحد شيوخ الأزهر علمته نملة ! دخل الأزهر فلم ينجح في الامتحان فنوى أن يبتعد عنه، فرأى نملة صعدت إلى هدفها ثلاثاً وأربعين مرة، وهي مصرة !

أعرف قصة صاحب ملهى الشام، له بنت لا تأكل من طعامه أبداً، ولا يمكن أن ينالها من مال أبيها شيء، ولو طلبت المليون منه لم يتردد في إعطائها هذا المبلغ، لكنها رأت ماله حراماً فاستقامت على أمر الله، والمؤمن دون أن يشعر هو داعية كبير باستقامته، الدعوة بالعمل أبلغ من الدعوة باللسان، العفة والأمانة والصدق دعوة، هذا الذي ينبغي أن يكون عليه من كان قدرهم أن يعيشوا في بيئة سيئة.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - منهج التائبين - الحلقة 11 - 30: التوبة النصوح (تحصين النفس من المعصية ودواعيها).
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-12-07

بسم الله الرحمن الرحيم

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا))

[البخاري، مسلم، الترمذي، أبو داود، أحمد، مالك، الدارمي]

أنا حينما أصدق في طلب الحقيقة أصل إليها، وحينما أصدق في التوبة ألهم سبلها، وحينما أصدق في العلم أصل إلى ينابيعه كأن هذا قانون إلهي، كأن هذا من سنن الله الجارية في خلقه، الصدق يهدي إلى البر، وأن المرء لا يزال يصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، يعني يمارس الصدق.

وهناك رواية أن الصدق يهدي مطلقاً، يهدي إلى كل شيء كيف أن الله عز وجل قال:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

[سورة الإسراء: الآية 9]

هذا مطلق، والمطلق على إطلاقه، وأحياناً تكون البلاغة في الإطلاق، أنا حينما أصدق في التوبة أهتدي من قبل الله إلى مقوماتها، عند العوام كلمة لها معنى لطيف، الإنسان حكيم نفسه، أنا حينما تزل قدمي في هذا البيت ينبغي ألا أدخله، حينما أعصي مع هؤلاء الشباب ينبغي ألا أصاحبهم، حينما أرتكب خطأً بمطالعة هذا الكتاب ينبغي ألا أطالعه، حينما أحجب عن الله لمخالفة ألممت بها من متابعة هذا البرنامج ينبغي ألا أتابعه، فلا يمكن أن أثبت على التوبة إلا إذا عرفت مصادر الذنب، وابتعدت عن أسباب الذنب، الابتعاد عن أسباب الذنب أكبر حصن للمؤمن التائب، عندي شيء آخر هو البديل، لابد من البديل أنا حينما تطوق نفسي كما أودع الله في من شهوات لأرقى بها إلى الله عز وجل تتوق نفسي إلى المرأة أتزوج، تتوق نفسي إلى المال أعمل، فحينما أبتعد عن مظان المعصية، وأهيئ البديل أكون قد حصنت نفسي في هذه التوبة النصوح، النبي عليه الصلاة والسلام له ملمح رائع، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ، قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ))

[مسلم، البخاري، أبو داود، أحمد]

إذاً لابد من مفارقة نواحي الذنب، تحليل دقيق جداً في حياة المؤمن أنا هنا أخطأت بسبب هذا المجلس بسبب هذه الصداقة بسبب هذا الحفل بسبب هذا اللقاء، أنا حينما أكشف أسباب الذنب أبتعد عن أسباب الذنب، البديل أن يكون لي بيئة صالحة من المؤمنين، قال تعالى:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28))

[سورة الكهف: الآية 28]

في نقطة دقيقة جداً هو أن الإنسان إذا جلس بين أربعة جدران دون أن يرى طعاماً، ودون أن يسمع به، ودون أن يشم رائحته يجوع، لأن الدافع إلى الطعام داخلي، لذلك شرع لنا أن نأكل ما حرم الله علينا عند الضرورة، قال تعالى:

(فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ)

[سورة البقرة: الآية 173]

ولكن الدافع إلى الجنس ليس من داخل الإنسان من خارجه، لذلك ليس في ديننا الزنا الاضطراري أبداً، يأتي هذا الدافع من الإثارة الخارجية، لذلك من غض بصره دخل في حصن حصين، من ابتعد عن مجالس المنكر دخل في حصن حصين، من ابتعد عن رفقاء السوء دخل في حصن حصين، من ابتعد عن أدب إباحي دخل في حصن حصين، من ابتعد عن أعمال فنية لا ترضي الله عز وجل دخل في حصن حصين، من صحب الأتقياء دخل في حصن حصين، فأنا حينما أعرف أسباب الذنب، وأبتعد عن أسبابه أكون قد حصنت نفسي، إلا أن الفكرة التالية، والتي ألح عليها كثيراً، أنه ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناةً نظيفة تسري خلالها، أي إنه ليس في الإسلام حرمان إطلاقاً، هؤلاء الشاردون الواهمون يتوهمون أنك إذا تبت إلى الله حرمت من كل شيء، وكأن عدم التوبة فيها بحبوحة، وفيها انطلاق، وفيها اطلاع على ما في الحياة.

هكذا يتصور البعض.

أنت حينما تتوب إلى الله كل شيء أودعه الله فيك جعل له قناةً نظيفةً تسري خلالها فأنت لا تعاني الحرمان، إذا كنت تائباً إلى الله عز وجل فأنا لا يسعني إلا أن أؤكد على البعد عن أسباب الذنب، وتوفير البديل الشرعي حتى نكون سلكنا في طريق التوبة، ذلك أن المجتمع المسلم ينبغي أن يحصن أفراده من كل معصية عن طريق هذا الأمر الإلهي:

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ)

[سورة النور: الآية 32]

قال علماء الأصول: حينما يأتي الأمر بواو الجمع هذا أمر موجه إلى كل الأمة، فكل مجتمع ينبغي أن تبحث قيادته عن طريق إحصان الشباب، هذا يعني توفير البيوت، توفير الأعمال، تيسير الأمور، أن

نتعاون على إحقاق الحق، أن نتعاون على توفير فرص العمل للشباب، أن نتعاون على أن نتعاون على تحصينهم، وكلاً في نطاقه ومسؤوليته.

فهذا أمر موجه إلى الأمة بأكملها، والأمر الموجه إلى الأمة موجه حكماً إلى أولي الأمر في الأمة:

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ)

[سورة النور: الآية 32]

هناك تعبير يستخدم تجفيف، لابد من أن نجفف مصادر المعصية، لابد من أن نجفف مصادر المعصية أنا الذي يحيرني أن العالم الغربي بأكمله حينما يعالج قضية الإيدز يبحث عن مصول، وعن أدوية، ولا يفكر أحدهم ثانية واحدة أن البعد عن المعصية والزنا والشذوذ أكبر حجاب بين الإنسان وبين هذه الأمراض، فهم يعالجون النتائج، ولا يعالجون الأسباب.

كأن مدينة فيها مياه ملوثة، وهناك أمراض لا تعد ولا تحصى، فكل همّ القائمين على هذه المدينة أن يأتوا بالأطباء والمستشفيات والأجهزة، ويغيب عنهم أن هذه المياه الملوثة، لو منعوها لانتهى الأمر، فتجفيف مصادر المعصية أهون بكثير من معالجة العصاة بعد أن يرتكبوا المعصية، شيء يحير في هذه المجتمعات، كل دواعي المعصية في أبهى حللها، في أبهى نشاطاتها، ونقول للشباب: يجب أن تتوبوا، إذاً لابد من أن يقوم المجتمع بأكمله على حفظ أخلاق الشباب، وعلى تيسير الزواج، أمة لا يستطيع الشاب أن يتزوج فيها إلا بعد الثلاثين، إلا بعد الخامسة والثلاثين، هذه أمة ينبغي أن تعاني ما تعاني.

المذيع:

إذاً لنعطي مثالاً آخر غير الزواج، فضيلة الشيخ الدكتور محمد راتب النابلسي، البعض يقع في معصية التعامل مع المصارف الربوية، أين البديل ؟ البديل تقول لي المصارف الإسلامية، وهل من يضمن لي أنها تتعاطى، وتجري عقوداً مطابقة للشريعة الإسلامية، وهكذا دواليك، ولكن هناك أموراً كثيرة مستجدة هي من الشبهات يحوم حولها المرء يقع فيها ويقع بمعصيتها أم لا ؟

أنت وضعت يدك على الجرح الحقيقة، هناك مشكلتان كبيرتان يعاني منهما الإنسان اليوم، قضية الجنس، وقضية المال، كسب المال أكبر مشكلة يعاني منها الشباب اليوم، ثم الجنس، الجنس ذكرت قبل قليل وسائل الاحتياط من الوقوع في معاصي الجنس، أما المال فلابد من توفير الأعمال للشباب، حينما قال سيدنا عمر لأحد ولاته: ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب ؟ قال: أقطع يده، قال: إذاً، إن جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك، قال له: يا هذا إن الله قد استخلفنا عن خلقه لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإن وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها في الطاعة قبل أن تشغلك في المعصية.

كلام حكيم.

شيء يلفت النظر، ما من معصية في القرآن الكريم توعد الله مرتكبيها بالحرب كأكل الربا، قال تعالى:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

[سورة البقرة: الآية 297]

ألا يلفت النظر الله يحارب آكل الربا، ذلك لأن المال إذا ولد المال تجمع المال في أيدٍ قليلة، وحرمت منه الكثرة الكثيرة، عندئذ ينتشر الفسق والمجون، وبيوت الدعارة، والسرقة، والاحتيال، والغش، وما إلى ذلك، ماذا نفعل ؟ ينبغي أن تلد الأعمال المال، لا أن يلد المال المالَ، فنحن أمام طريقين، إما أن نكسب المال من عمل، وإما أن نكسب المال من ربا، كسب المال من عمل يوفر فرص عمل للشباب، افتح محلاً تجارياً أنت تحتاج إلى موظف، وإلى مراسل، وإلى من يصلح لك مركبتك، وإلى من تستأجر منه مستودعاً، شئت أم أبيت، أي عمل ستستخدم آخرين، لذلك الدخل من الأعمال موزع بين الناس، أما الدخل من الربا فيأخذه صاحبه وحده، وكأن مشيئة الله أرادت أن يكون المال متداولاً بين الناس، كما أننا نشجع الشباب على الزواج عن طريق تسهيل أسبابه، وتأمين البيوت، وتأمين الأثاث، يجب أن نشجع على استثمار المال من خلال الأعمال لا من خلال الربا، إذاً نحن حينما نحصن شبابنا من الزنا، ونحصن شبابنا من الحاجة والفقر نكون قد قدمنا أسباب التوبة.

إذاً البعد عن دواعي المعصية هو العلاج السليم لاستمرار التوبة، وأن تكون هذه التوبة نصوحاً، ومطابقة، وثابتة.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - منهج التائبين - الحلقة 12- 30 : أثر الاستغفار وهيئته.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-12-08

بسم الله الرحمن الرحيم

بادئ ذي بدء، هناك آية دقيقة جداً هي إجابة عن سؤالكم القيم، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33))

[سورة الأنفال: الآية 33]

الشق الأول من الآية قال العلماء: إذا فهمنا الآية، والنبي عليه الصلاة والسلام بين ظهرانيهم نفهمها بشكل أو بآخر، ولكن كيف نفهمها إذا انتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الدار الآخرة ؟

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال: الآية 33]

أجمع العلماء على أنه مادامت سنة النبي صلى الله عليه وسلم مطبقة في حياتهم، في بيوتهم، في أعمالهم، في حلهم، في ترحالهم، في أفراحهم، في أتراحهم، في كسب أموالهم، في إنفاق أموالهم، في اختيار زوجاتهم، في تطليق زوجاتهم، في تربية أولادهم، فهم في بحبوحة من عذاب الله، وبشكل أو بآخر:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

[سورة النساء: الآية 147]

الإنسان إذا شكر وآمن كأن الله عز وجل خلق الكون وسخره له تسخيرين، تسخير تعريف، وتسخير تكريم، رد فعل التعريف أن نؤمن ورد فعل التكريم أن نشكر، فإذا آمنا، وشكرنا حققنا الهدف الذي من أجله خلقنا، فلمَ العذاب ؟ طبيب أخذ قراراً أن يستأصل كلية متوقفة عن العمل، لو أنه صوّرها قبل العملية بساعات فإذا بها تعمل قبل العملية بساعات هل يستأصلها ؟ مستحيل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً (147))

[سورة النساء: الآية 147]

فحينما تزل أقدامنا، وحينما نعصي ربنا يسوق لنا الله الشدائد، هناك آيتان كل منهما يلفت النظر، الآية الأولى:

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

[سورة التوبة: الآية 118]

والآية الثانية:

(تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ)

[سورة البقرة: الآية 160]

كيف نفهم الآيتين ؟ الآية الأولى: تاب الله عليهم ليتوبوا، أي ساق لهم من الشدائد ما حملهم على أن يتوبوا.

والآية الثانية: تابوا فتاب عليهم، أي قبل توبتهم، ومن أسماء الله الحسنى أنه تواب، ومن معاني التواب أنه يسوق الشدة لعبده كي يحمله على التوبة، لأنك إذا رأيت ألف تائب فاعلم علم اليقين أن تسعين بالمئة منهم التجؤوا إلى الله عقب مشكلة ساقها الله لهم، فتاب عليهم ليتوبوا.

أنت حينما تقيم الإسلام في بيتك في بحبوحة من عذاب الله، لو أن القدم زلت في ساعة غفلة، والمؤمن كما يقال مذنب تواب، وكل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون، ذلك أن الإنسان أودعت به الشهوات، فحينما يغفل عن الله لحظة تزل قدمه، فالإنسان المؤمن في بحبوحة إقامة منهج الله، وفي بحبوحة الاستغفار، فما دام يستغفر فهو في بحبوحة ثانية، البحبوحة الأولى بحبوحة الالتزام بمنهج الله، أما لو زلت قدمه فالبحبوحة الثانية أن يستغفر، لو انتزعنا مثلاً واقعياً، جاء ابن بجلائه إلى أبيه عقب الامتحان النصفي، وقد نال الصفر في الرياضيات، أراد الأب أن يقيم عليه النكير، وأن يؤدبه تأديباً ما بعده تأديب، فإذا بالابن يصفر لونه، ويكمد، ويهتم، ويتألم أشد الألم، وعنده مبلغ مدخر، أرادا أن ينفقه على دروس خاصة لكي يتقوى بهذه المادة، حينما يرى أبوه هذا الابن متألمًا أشد الألم، نادمًا أشد الندم يعقد العزم على أن ينفق ما عنده كي يرفع مستواه في هذه المادة، الأب يتوقف عن معالجته.

شيء منطقي عندما يرى الله من العبد ندماً ألماً وخوفاً وحياءً وانكماشاً من عبده المذنب يتوقف العلاج، بل إن هناك آيةً دقيقةً جداً، قال تعالى:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

[سورة الزخرف: الآية 79]

أذكر قصةً لا أنساها، أن أحد التجار تقاعد من عمله، وترك تجارته لابنه، فالابن ارتكب خطأً كبيراً في شراء بضاعة، اشترى بضاعة من إنسان في البادية، اشترى الصوف، فهذا الإنسان ليس عنده ما يكفي كي يدقق في الحسابات، أعطاه أوزاناً كلها غير صحيحة، فهذا الإنسان دفع ثلثي ثمن البضاعة، وتلاعب على هذا الأعرابي، بعد أن خرج قال له هذا الأعرابي كلمة أخافته، لعلك احتلت علي، لا أسامحك، فقال لي هذا الرجل: بقيت كلمة هذا البدوي ترن في أذني مسافة ساعتين، وأنا أقود السيارة، أرجع إليه، أم لا أرجع، ماذا أفعل ؟ إلى أن أخذت قراراً، قلت له: ماذا فعلت ؟ قال: ما فعلت شيئاً، أقسم بالله أنه ما أتم هذه الكلمة إلا وهو وسط بركة من الدماء، انقلبت به المركبة، وتناثر الصوف، وجرح، وسال دمه، آية دقيقة جداً:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

[سورة الزخرف: الآية 79]

مادمت في شك، ما دمت في أخذ ورد، في صراع، مادمت في ندم، مادمت في خوف فأنت في بحبوحتين، في بحبوحة أن تكون ملتزماً، قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

[سورة النساء: الآية 147]

وفي بحبوحة أن تكون نادماً، فالعلاج متوقف، أما حينما يتباهى الإنسان بالمعصية، ويذكرها، ولا يبالي بها، وحينما تصغر عنده تكبر عند الله، وحينما تكبر عنده تصغر عند الله، لذلك البطولة ليست في التوبة، بل في دوام الاستغفار، وكأن الاستغفار من شيم المؤمن، النبي عليه الصلاة والسلام علّمنا إن صلينا أن نستغفر، تستغفر من ماذا ؟ أنت في طاعة، لعلك في الصلاة سهوت، لعل إقبالك لم يكن محكماً، لعلك شردت عن الله عز وجل، إذا حججنا البيت نستغفر، إذا صمنا نستغفر، أية عبادة كان عليه الصلاة والسلام يستغفر، أيْ يصحبها بالاستغفار، كي نستغفر الله من تقصيرنا، وكأن الله عز وجل حينما يقول:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23))

[سورة المعارج: الآية 23]

هل يعقل أن نصلي دائماً ؟ هناك صلوات خمس، هناك آية:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9))

[سورة المؤمنون: الآية 9]

وهناك آية:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23))

[سورة المعارج: الآية 23]

كأن دوام الصلة بالله عن طريق الاستغفار، وعن طريق الدعاء، والدعاء مخ العبادة، أنت حينما تدعو الله فأنت في عبادة، ذلك أن إنساناً لا يمكن أن يدعو إنساناً إلا إذا آمن بوجوده، وأن إنساناً لا يمكن أن يدعو إنساناً إلا إذا أيقن أنه يسمعه، وأن إنساناً لا يمكن أن يدعو إنساناً إلا إذا كان قادراً على حل مشكلته، وأن إنساناً لا يمكن أن يدعو إنساناً إلا إذا كان هذا المدعو يحب أن يحل هذه المشكلة، ويرحمك، فلمجرد أن تدعو الله عز وجل فأنت مؤمن بوجوده، وبسمعه، وبقدرته، ورحمته، هذا معنى قول الله عز وجل:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ)

[سورة الفرقان: الآية 77]

الدعاء كما قال عليه الصلاة والسلام هو العبادة، فأنا حينما أداوم على الاستغفار، وحينما أداوم على الدعاء فإنني مع الله، ومن كان مع الله كان الله معه، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ هذه الشحنة الروحية

المستمرة عن طريق الاستغفار، وعن طريق الدعاء تهبك رؤية صحيحة، وتهبك قراراً سديداً، وتهبك حكمة فائقة، هذا كله يؤكد أن دوام الاستغفار أحد أسباب الثبات على التوبة.

المذيع:

ودوام الاستغفار ما شئت أن تستغفر، في ليلك ونهارك، ومقامك وترحالك، فضيلة الشيخ محمد راتب النابلسي، هيئة الاستغفار هو سؤال من إحدى الأسئلة، أننا نقول: أستغفر الله، وأتوب إليه، مع العقد والعزيمة، وحضور القلب، ويزل لسان المرء بمعصية ما، بغيبة ما، بكلام ما، ويقول فوراً: أستغفر الله العظيم، وأتوب إليه، هل أزيل هذا الزلل، أو هذه المعصية، والله أعلم طبعاً، ولكن هل هذا الاستغفار من موجبات العفو عنها ؟

الأستاذ:

هناك ملاحظتان، أنا حينما أتوهم أنني أخطئ ما شاء لي أن أخطئ، وعقب كل خطأ أستغفر الله، هذا الاستغفار مرفوض، أنا أخطئ ما شاء لي أن أخطئ، وأنا أخطئ كمبدأ، كسلوك يومي ثابت مستمر، أنا حينما أخطئ كسلوك ثابت يومي مستمر، وعندي معلومات من الدين، أنك إذا استغفرت، وتاب الله عليك فهذا الاستغفار مرفوض من أصله، أما حينما أخطئ دون أن أقصد، وحينما أخطئ دون أن أعاود الخطأ، وحينما أخطئ دون أن أنوي أن أتابع الخطأ، وأستغفر، يغفر الله لي إذا كان الذنب بيني وبين الله، أما إذا كان بيني وبين العباد فلابد من أداء الحقوق أو المسامحة، المشكلة أن الناس يفهمون الدين فهماً مغلوطاً، قال تعالى:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49))

[سورة الحجر: الآية 49]

لكن الله عز وجل يتابع ويقول:

(وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50))

[سورة الحجر: الآية 50]

أنا لا يمكن أن أوظف هذه التوجيهات النبوية كي أستبيح المعاصي، هذا شيء مستحيل.

أضرب لك بعض الأمثلة، أنا حينما أركب طائرةً أول مرة في حياتي كي أحج بيت الله الحرام، وحينما أضع ثياب الإحرام في المحفظة الكبيرة، وحينما أطلبها وقت الإحرام فلا آخذها، مستحيل أن آخذها لأن المحفظة الكبيرة مع البضاعة، في الشحن.

إذاً أنا أدخل الآن منطقة الحرم غير مُرتدٍ ثياب الإحرام، الشرع مرن سمح لي أن أذبح هدي الجزاء، وأن أتلافى دخولي بيت الله الحرام من دون ارتداء ثياب الإحرام، أن أجبر هذا الكسر.

لو جاء غني، وقال: أنا ما دام يجوز أن أذبح شاةً مقابل ارتدائي الثياب الكاملة أنا سأذبح مئة ألف شاة، هذا لا يقبل منه، لا يمكن أن يكون الاستغفار بالمعنى الدقيق سبباً لمتابعة المعاصي، لا يمكن أن يقبل الله الاستغفار كسبب لمتابعة المعاصي، أما أنا حينما أعصي دون أن أصر، وحينما أعصي دون أن أفكر أن أعاود المعصية، وأستغفر أجد الله غفوراً رحيماً، أما حينما أستخدم الاستغفار كمبرر لمعاودة المعصية فهذا لا يمكن أن يقبله الله عز وجل، هذا استهزاء بالدين.

المذيع:

وما هي أفضل مواضع الاستغفار ؟

الأستاذ:

قال تعالى:

(سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي)

[سورة يوسف: الآية 98]

انتبه العلماء إلى سَوْفَ، كأن هناك وقت، وفي الحديث الصحيح القدسي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ؟))

[متفق عليه]

أفضل وقت للاستغفار وقت السحر، وهناك ساعات الإجابة كساعة يوم الجمعة، وفي أيام رمضان، في قيام الليل، عند الشدة، في السجود، في بيت الله في، وقت فضيل، في مكان فضيل، كأن الله سبحانه وتعالى اصطفى بيته الحرام ليشيع فيه الصفاء على كل مكان، واصطفى شهر رمضان ليكون فيه الصفاء فيه في كل الأيام، لابد من وقت تشعر أن الله عز وجل معك، وهذا كما قلت قبل قليل معنى قوله تعالى:

(سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي)

[سورة يوسف: الآية 98]

والله عز وجل يقبل استغفارك، ولو أن شفتيك مطبقتان، يمكن أن تناديه بقلبك:

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً (4))

[سورة مريم]

الله معك.

سيدنا يونس أين خاطب الله ؟ وهو في بطن الحوت، أحياناً يقتني الإنسان هاتفاً خلوياً، في أماكن محددة ليس هناك تغطية، لكن الله مع الإنسان في أي مكان، وهو في بطن الحوت، قال تعالى:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88))

[سورة الأنبياء]

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - منهج التائبين - الحلقة 13- 30: العهد على التوبة النصوح.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-12-09

بسم الله الرحمن الرحيم

حينما يواقع بعض من الشباب المعصية، وتكويه نارها يتحرك وازع الإيمان في قلبه، ويحترق ندماً وتألماً، ويشعر أن نفسه الضعيفة أوقعته بالمعصية، عندئذ ينطلق إلى أن يعاهد الله عز وجل ألاّ يقارف هذه المعصية، أو أن يصوم، أو أن يفعل من الخيرات ما شاء له أن يفعل، الحقيقة أن هذا الشاب لما زلت قدمه شعر بضعف نفسه، فسلك طريقاً لا أقيّمه الآن، يعاهد الله، فإذا زلت قدمه مرةً ثانية ضعفت ثقته في نفسه، فإذا عاهد الله أن يصوم، وصام، وفعل المعصية ضعفت نفسه، ولم تثق بهذا الصيام الذي صامه لعله ينجيه من هذه المعصية، إذاً هذا المسلك ينبغي أن يبنى على معرفة بنتائج الذنب، لأن الإنسان يحب نفسه، يحب وجوده، يحب سلامة وجوده، يحب كمال وجوده، يحب استمرار وجوده، حينما يدقق المرء في المضاعفات التي تبنى على الذنب يبتعد عن الذنب قناعةً، لأن الشهوة قد تكون قائمة، ولكن العقل الراجح والأخطاء الكبيرة تبعده عنها، وهذا شأن في حياتنا، أنت حينما تبتعد عن شيء محبب لك، مع أنك تخاف عواقبه، تبتعد عنه بلا جهد كبير، لو أن طبيباً منعك من أكلة تحبها، لاشك أنك تستجيب لهذا التوجه، لحرصك على سلامتك، وعلى سعادتك، فأنا أرى أن يكثر الشاب معاهدة نفسه أن يدع المعاصي من دون أن يقف على أخطارها، وعلى نتائجها الوبيلة، هذا شيء لا يجدي، لذلك يعد العلم سبباً منجياً من كل معصية، بل إن أهل النار وهم في النار كانوا يقولون:

(لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10))

[سورة الملك: الآية 10]

مرةً ذكرت أنه لمصلحة وطنية منع إخراج العملة الصعبة من بلدنا، وكان العقاب شديداً، السجن عشرين سنة، أذكر أن ألفي مستورد تركوا هذه الحرفة، لماذا ؟ لأنه ولو أن في الاستيراد ربحاً وفيراً، لكن ليس مستعداً أن يمضي عشرين سنة في السجن، أنت في تعاملك مع مخلوق قوي أجريت موازنة، وعرفت الأرباح والخسائر، فأنا ألح على الإخوة الشباب ألا يكثروا من معاهدة الله عز وجل على ترك المعاصي، بل أن يتعمقوا في نتائج المعاصي، لأنّ عِظَمَ الذنب يعرف بعظم العقوبة، لنأخذ مثالاً على ذلك.

لو عرف المحصن عقوبة الزنا في حقه، وهي الرجم حتى الموت فعِظَم هذه العقوبة تعرّفه بعظم الذنب، فيقلع عنه، ويستغفر، ويتوب.

المشكلة هي الجهل: الجاهل يفعل بنفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به.

لنقل أن العقوبة لا تطبق، كحد الزنا، أو حد السرقة في بعض بلداننا، وهي منسية أو منفية، هنا وازع الإيمان، بأن هذه العقوبة سينالها في الآخرة، إن لم تكن في الدنيا.

بعضهم قال: إن لم يطبقها السلطان طبقها الواحد الديان، أنا حينما أعيش في مجتمع لا تقام فيه الحدود، لكن الله يتولى بذاته إقامة الحدود، أعرف رجلاً أخذ بيده اليمنى مالاً حراماً من ضعيف لا يقوى على أن يقاضيه، قطعت يده اليمنى في حادث سير، أنا لا أعمّم، لكن الله عز وجل يتولى بذاته معاقبة المسيئين، ويتولى ردعهم، ويلقي في روعهم أن هذا من أجل هذا، قال تعالى:

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)

[سورة التغابن: الآية 11]

وعلة هذه المصيبة، قال تعالى:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

[سورة التغابن: الآية 11]

الشاب حينما يقلع عن المعصية ينبغي أن يقلع عنها قناعةً أنها مدمرة، نحن في حياتنا الدنيا في علاقاتنا اليومية، في كسب أرزاقنا، في علاقاتنا مع الأقوياء ننصاع لأمرهم خوفاً من عقابهم الشديد، فلذلك أنا أرى أن الشاب ينبغي أن يتعمق في العلم، أن يتعمق في معرفة أخطار المعاصي، لا أن يعاهد الله كلما ألمّ بمعصية، ثم ينتكس، ثم يعاهد، ثم ينتكس، ثم بعد حين ينتقل إلى حالة في علم النفس غريبة، حالة اللامبالاة، هذا بعد الصراع المديد يوصله الصراع إلى حالة ميؤوس من شفائها، لا يبالي لشيء، وهذه الحالات منتشرة في مجتمعات المسلمين، عاهد وانتكس، وعاهد وانتكس، ضعفت ثقته بنفسه، وضعفت مقاومته للمعصية، وأصبح مقطوعاً عن الله، وعاش هائماً على وجهه، أما حينما يطلب الإنسان العلم حينما يتحقق من أخطار المعصية، فيبتعد عنها انطلاقاً من حبه لذاته، لذلك إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم.

أقول لكم مرة ثانية أعدى أعداء الإنسان الجهل، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، سأضع بين أيديكم بعض الآيات:

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ)

[سورة النور: الآية 53]

أنت ما شأنك، والقسَم هذا أمر معروف، لا تقسم، لا تعاهد، بادر إلى طاعة الله دون أن تقيد نفسك بقيود لن تستطيع تحملها ما دمت لا تعلم حقيقة الذنب، ما دام الإنسان لا يعلم حقيقة الذنب، وأخطار الذنب، وما الذي يترتب عليه من الذنب، وما ينتظره من عقوبة في هذا الذنب، ما دام ليس متعمقاً في معرفة هذه الأمور فأن يقسم، ويعاهد هذا لا يقدم ولا يؤخر، ولكن هذا القسم وتلك المعاهدة تزيده بعداً عن الله، وتزيده شعوراً بضعف نفسه، وتزيده يأساً من قبول الله له.

آية ثانية:

(وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (77))

[سورة التوبة]

كأنني أوضح للإخوة الشباب أنه لا تبالغ في معاهدة الله، ولا بالأقسام، ولا بالأيمان، هذه لا تحول بينك وبين المعصية، أما الذي يحول بينك وبين المعصية فانطلاقاً من حبك لذاتك، أن تعرف أخطار المعصية، أن تعرف ما تترتب عليه هذه المعصية من شقاء دنيوي وأخروي.

بل إن هذا الذي ينذر لله نذراً إن نجح ليفعل كذا، إن نجا من هذا المرض ليفعل كذا، كأن النبي عليه الصلاة والسلام لم يحبذ هذا النذر، تقرب إلى الله بصدقة، واطلب من الله الشفاء، لذلك حتى النذر يستخرج به من البخيل ما يستخرج، إذاً لا يجوز أن ينذر خاصة بالطاعات، لا أقول: لا يجوز، لكن ليس مستحباً، ولكن في الطاعات أحدهم يقسم أنه سيؤدي الصلاة إن وفقه الله سبحانه وتعالى في الأمر الفلاني، سيؤدي الصلاة النافلة، المفروضة، أي يتوب إلى الله، ويلتزم، لا نذر في الفريضة، فقد يفهم من هذا على غير محمله.

المذيع:

نعم محور هذا اللقاء إن شاء الله أن الشاب ينبغي أن يعرف أخطار المعصية لا أن يكثر العهد والقسم والنذر، ألاّ يواقعها، نفسه تضعف.

الأستاذ:

الإنسان كما قلت قبل قليل: انطلاقاً من حبه لذاته يحرص على سلامته وسعادته، فحينما يعرف الأخطار المترتبة على هذه المعصية يبتعد عنها باختياره، وبقوة إرادته، وبقناعته، أنا لست من أنصار القمع، من أنصار الإقناع، لا تقمع نفسك، أقنعها، إنك إن قمعتها تتفلت منك، وتتمرد عليك، لكنك إن أقنعتها تلتزم.

المذيع:

ومن ثم قمعتها، أي قهرتها بالطاعة.

الأستاذ:

جيد، لكن القمع تستعين به بعد أن تعرف مضار الذنب، أفرق الآن بين العابد والعالم، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((فَقِيهٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ))

[الترمذي، ابن ماجه]

ذلك أن العابد مقاومته هشة سريعاً ما تخترق سريعاً ما تضعف نفسه، لكن العالم معه سلاح كبير، وهو العلم، لذلك الشيطان مدخله على العابدين أضعاف مضاعفة، لكن مدخله على العلماء ضعيف جداً، لأن العالم عرف الحقيقة، فكن عالماً، أو متعلماً، أو مستمعاً، أو محباً، ولا تكن الخامس فتهلك، الناس رجلان، عالم ومتعلم، ولا خير فيما سواهما.

سيدنا علي يقول: يا بني، العلم خير من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، يا بني، مات خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة.

لو أردت أن تحل المشكلات الطاحنة التي يعاني منها الإنسان لوجدت أن الجهل يقع في الأسباب الأولى لهذه المشكلات، نجهل، فنعصي، فنندم، فنشقى، فلذلك العلم سلاح المؤمن، ويظل المرء عالماً ما طلب العلم ما طلب العلم، فإذا ظن أنه علم فقد جهل.

المذيع:

فضيلة الشيخ الدكتور محمد راتب النابلسي النصيحة، العلم، ولكن أيضاً يصحبه طاعة، المباشرة بالطاعة، وليس فقط عدم تكرار المعاهدة، والقسم، والعلم هنا فقط بعواقب الذنوب، أم أن العلم بقدرة الخالق سبحانه وتعالى.

الأستاذ:

الحقيقة أن العلم كلمة مرنة جداً، لاشك أن هناك علما يعينك على الدنيا، كعلوم الأرض، لكن العلم الذي ورد في القرآن وفي السنة الصحيحة هو معرفة الله عز وجل، إنك إن عرفت الآمر، ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر، لكنك إن عرفت الأمر، ولم تعرف الآمر تفننت في التفلت من الأمر، لذلك أنا حينما أتحدث عن العلم أقصد العلم بالله تعالى، لأنك إن عرفته أطعته، محال وألف محال أن تعرفه، ثم لا تحبه، ومحال وألف محال أن تحبه، ثم لا تطيعه.

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في القياس لشنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعتـه إن المحـب لمن يحب مطيع

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - منهج التائبين - الحلقة 14- 30: الحسنة تمحو السيئة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-12-10

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان له نفس بالغة الدقة، قال تعالى:

((وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

[سورة الشمس]

أنا لا أصدق أن يفهم واحد من هذه الآية أن الله خلق فيها الفجور، أو خلق فيها التقوى، ولكن معنى الآية الدقيق أن الله جل جلاله فطر الإنسان فطرةً عالية بحيث لو فجرت تعرف أنها فجرت، وهذه الآية أصل في الفطرة، فالإنسان لأنه فُطر فطرةً عالية حينما يخطئ تعذبه نفسه، حينما يخطئ يشعر بعقبة الذنب، حينما يخطئ يخجل من ربه حينما، يخطئ ينكمش، حينما يخطئ يصاب بعقدة النقص، حينما يخطئ يختل توازنه، ماذا نفعل بشاب كان شاردًا عن الله فتاب إلى الله ؟ لا أقول: توبة نصوحًا، ولكن بعد أن تاب إلى الله توبةً زلت قدمه ثانيةً، وقلت: في الحلقة السابقة: ضعفت نفسه، ضعفت ثقته بنفسه، ورأى نفسه كاذباً، ما الذي يمكن أن يرمم هذا الضعف ؟ ما الذي يمكن أن يدفع هذا الوهن ؟ ما الذي يمكن أن يزيل ذاك الحجاب ؟ ما الذي يمكن أن يرفع هذا الإنسان في المرة الأولى ؟ قال: يا رب، تبت، فتاب الله عليه هذه المرة، بعد أن تاب الله عليه وقع في الذنب ثانيةً، ماذا يفعل ؟ يأتي القرآنُ والنبيُّ عليه الصلاة والسلام ليبين أنك إذا أسأت فأحسن، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ

((أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (أَقِمْ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلِي هَذَا ؟ قَالَ: لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ))

[البخاري، مسلم، الترمذي، أبو داود، ابن ماجه، أحمد]

كأن هذا قانون في النفس، لو أسأت إلى صديق ـ لا سمح الله ولا قدر ـ ثم رأيت ابنه على وشك الغرق، فألقيت بنفسك، وأنقذته، هذا الإنقاذ ينسيك الإساءة، والأب ينسى إساءتك بعد إنقاذ ابنه، هذا قانون للنفس، فالإنسان حينما تضعف نفسه، حينما تضعف ثقته بنفسه، حينما يحجب عن الله لذنب أصابه، حينما تزل قدمه، حينما ييئس أن يقبل الله توبته، نقول له: أحسن

(إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)

الحسنات يذهبن السيئات، هذه وصفة نفسية للذي اختل توازنه، لكن مشكلة الذي اختل توازنه أن هناك عدة أساليب لاستعادة هذا التوازن، أسلوبان شيطانيان، وأسلوب رحماني، الأسلوب الرحماني أن تفعل عملاً طيباً تستعيد به التوازن، الحسنة تمحو السيئات.

لكن الأسلوب الشيطاني أن تعتقد عقيدة زائغة تغطي انحرافك ـ لا سمح الله ولا قدر ـ أو تطعن في كل الناس كي تؤكد لهم أن الإنسان الطيب غير موجود، فهناك أسلوب الطعن في الآخرين، وهذا أسلوب شيطاني، أو أسلوب أن تعتقد عقيدة زائغة تغطي هذا الانحراف، لكن الأسلوب الرحماني أن تتبع السيئة الحسنة فتمحوها، لذلك عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ...))

[الترمذي، أحمد، الدارمي]

أنا أعلق على هذا الحديث تعليقاً لطيفاً: قال بعضهم لي: هناك إسلام جغرافي، قلت: هذا مصطلح لم أعرفه سابقاً، قال: في بلده مطيع لله، فإذا سافر إلى بلد غربي ولا رقابة عليه غرق في المعاصي والآثام، فهذا إسلامه إسلام اجتماعي، إسلام خوف من الفضيحة عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ...))

[الترمذي، أحمد، الدارمي]

أينما كنت عليك أن تتقي الله،

((وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ))

يبدو أن طبيعة النفس أنه حينما أفعل عملاً طيباً عقب عمل سيئ فهذا العمل الطيب يغطي ذلك السيئ، وهذا قانون نفسي، لذلك عن عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ مَثَلَ الَّذِي يَعْمَلُ السَّيِّئَاتِ، ثُمَّ يَعْمَلُ الْحَسَنَاتِ كَمَثَلِ رَجُلٍ كَانَتْ عَلَيْهِ دِرْعٌ ضَيِّقَةٌ، قَدْ خَنَقَتْهُ، ثُمَّ عَمِلَ حَسَنَةً فَانْفَكَّتْ حَلْقَةٌ، ثُمَّ عَمِلَ حَسَنَةً أُخْرَى فَانْفَكَّتْ حَلْقَةٌ أُخْرَى، حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى الْأَرْضِ))

[أحمد]

واللهِ أحياناً يرتكب الإنسان معصية فتضيق نفسه ضيقاً لو وزع على أهل بلد لكفاهم، وهذا ما يعنيه علماء النفس بالكآبة، إنها مرض العصر، الكآبة مخالفة الفطرة، لو أنك في مجتمع لا يقيم وزناً للدين، ولا يقيم وزناً لمعصية رب العالمين، وارتكب الإنسان كل المعاصي والآثام من يعاقبه ؟ تعاقبه نفسه التي بين جنبيه يشعر بالضيق:

(وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ)

[سورة التوبة: الآية 25]

هؤلاء الثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله وصفهم الله بأنهم ضاقت عليهم الأرض بما رحبت.

أنا حينما أرتكب معصية، وليس في مجتمعي من يحاسبني عليها فنفسي تحاسبني، أريد أن أوضح ذلك بمثل،

أنا حينما أقود شاحنة، ومعي عشرون طناً وزناً، أصِل إلى جسر عليه لوحة كتب عليها: " الحمولة القصوى عشرة أطنان "، دقق، أنا إن كنت جاهلاً ألتفت، هل هناك شرطي يخالفني ؟ لا، لا تبحث في هذا الأمر، الجسر نفسه يعاقبك، سوف تنهار مركبتك في هذا الجسر، أنت لا تنظر إلى العقوبة، أنت إذا كنت أمام توتر عالٍ، مكتوب: " ممنوع الاقتراب من التيار "، فمن الغباء الشديد أن تتصور أنك إن مسسته، ولم يكن هناك من يحاسبك نجوت من العقوبة، التيار نفسه يعاقب من مسه.

فالإنسان حينما يرتكب الذنب يحجب عن الله، وحينما يحجب عن الله يشعر بضيق لو وزع على أهل بلد لكفاهم، وهذه مشكلة المشكلات، قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

[سورة طه: الآية 124]

لو أن في الأرض كلها واحداً يعرض عن الله، وهو سعيد لكانت هذه الآية باطلة، هي قانون، هناك تطبيق شمولي:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

[سورة طه: الآية 124]

ولذلك حسن العلاقة بالله أساس الدين، حسن العلاقة بالله سببها طاعته، فإذا زلت القدم، وكان الإنسان قد وقع في هذا الذنب من قبل فلابد من ترميم، والترميم:

((وَأَتْبِعْ السّيّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالِقِ النّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ))

وإذا أسأت فأحسن، وهذا توجه نبوي، وقد أراد أحد أصحاب رسول الله السفر، فقال:

((يا رسول، الله أوصني ؟ قال له: اعبد الله، ولا تشرك به شيئاً، قال: يا رسول الله زدني قال: إذا أسأت فأحسن، قال: يا رسول الله، زدني قال: استقم، ولتحسن خلقك))

[الحاكم في المستدرك، والطبراني في الأوسط عن معاذ]

إذاً الاستقامة هي عين الكرامة.

لنحدد الحسنات هي كثيرة، وأنواعها وأبوابها كثيرة.

يمكن أن تكون هدية تقدمها لمن أسأت إليه، دقق في العلاقات الاجتماعية أحياناً، أخطئ مع صديقي.

إن أسأت بينك وبين الله سبحانه وتعالى فصلّ صلاةً نافلة، توضأ عقب الزلة، وصلّ ركعتين لله عز وجل، وقد ورد في بعض الأحاديث عَنْ عَلِيٍّ يَقُولُ: إِنِّي كُنْتُ رَجُلًا إِذَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ حَدِيثًا نَفَعَنِي اللّهُ مِنْهُ بِمَا شَاءَ أَنْ يَنْفَعَنِي بِهِ، وَإِذَا حَدّثَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ اسْتَحْلَفْتُهُ، فَإِذَا حَلَفَ لِي صَدّقْتُهُ، وَإِنّهُ حَدّثَنِي أَبُو بَكْرٍ، وَصَدَقَ أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ:

((مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، ثُمّ يَقُومُ فَيَتَطَهّرُ، ثُمّ يُصَلّي، ثُمّ يَسْتَغْفِرُ اللّهَ إِلّا غَفَرَ اللّهُ لَهُ))

[الترمذي، ابن ماجه، أحمد]

إذاً أنا حينما أخطئ أبادر إلى الصلاة، هذه واحدة، وحينما أملك مالاً أتصدق بهذا المال، والصدقة قربة إلى الله، إذا كنت شاباً فقيراً أصوم، إذاً أتوضأ، وأصلي، أو أصوم، أو أتصدق، أو أخدم في المسجد، أنظف هذا المسجد تقرباً لله عز وجل، أو أمشي مع أخ في حاجته، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، وأبواب الخير لا تعد ولا تحصى، لمجرد أن يعلم الله من عبده المذنب رغبة أن يسترضيه الله يسترضى، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنّ الصّدَقَةَ لَتُطْفِئُ غَضَبَ الرّبّ، وَتَدْفَعُ عَنْ مِيتَةِ السّوءِ))

[الترمذي]

بادروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطاها، والصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد الفقير.

هذا باب مفتوح واسع جداً، باب الحسنات، حينما يسيء الإنسان يتصدق، يعين ضعيفاً، يرى يتيماً، يصوم إن كان فقيراً جداً، يصلي، يقرأ القرآن، يخدم في مسجد، يقدم عملاً طيباً لإنسان متعب، فأبواب الخير لا تعد ولا تحصى، ولكن الذي أتمنى أن يكون واضحاً عند الإخوة المستمعين أن الله جل جلاله يسترضى، بينما القوي لا يسترضى، ولا يقبل أن تتوب إليه، ولا يقبل أن يعفو عنك، وقد استعاذ النبي من إمام سوء، إن أحسنت لن يقبل، وإن أسأت لم يغفر، واستعاذ من جار سوء، إن رأى خيراً كتمه، وإن رأى شراً أذاعه.

بينما ربنا جل جلاله ينمي الخير الصغير، لو أن الإنسان ينطوي على خير قليل ينميه الله عز وجل، يظهر الجميل، ويستر القبيح، هذه صفات الله عز وجل.

إذاً الإنسان حينما يتوضأ، ويصلي يكون قد كفّر عن ذنبه، حينما يتصدق يكون قد كفّر عن ذنبه، حينما يصوم يكون قد كفّر عن ذنبه، حينما يخدم في بيت من بيوت الله يكون قد كفّر عن ذنبه، حينما يمشي في حاجة أخ مؤمن يكون قد كفّر عن ذنبه، والله جل جلاله يسترضى، لكن هناك شيء لطيف جداً، هو أن الصلوات الخمس كما قال عليه الصلاة والسلام في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ ؟ قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: فَذَلِكَ مَثَلُ الصّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللّهُ بِهِنّ الْخَطَايَا))

[البخاري، مسلم، الترمذي، النسائي، أحمد، الدارمي]

كأني أدخل في موضوع جديد الآن، أن الصلوات الخمس مكفرات لما بينهن ما لم ترتكب الكبيرة، وصلاة الجمعة إلى صلاة الجمعة مكفرات إلى ما بينهن، وكذلك صيام رمضان إلى رمضان مكفر لما بينه، هذه التوبة الآلية ـ إن صح التعبير ـ شيء طبيعي جداً، وهذا من كرم الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - منهج التائبين - الحلقة 15- 30: التوحيد سبب في التوبة النصوح.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-12-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أولاً: قالوا: نهاية العلم التوحيد، ونهاية العمل التقوى، وقالوا: ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد. بل إن الإيمان بالله خالقاً شيء وتوحيد الله شيء آخر، وشتان بين الإيمانين، إن الإيمان بالله خالقاً شأن معظم الناس، وربما كان هذا الإيمان ضعيف الأثر في سلوك الإنسان، ولكن الإيمان بأن الله واحدًا في ذاته، وواحدًا في أفعاله، وواحدًا في صفاته، وبأن الله جل جلاله بيده مقاليد السماوات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله، وهو الذي في السماء إله، وفي الأرض إله، ومالكم من دونه من ولي، ولا يشرك في حكمه أحدًا.

عندما يعتقد المرء اعتقاداً جازماً أن الله وحده المتصرف، وأن يد الله فوق أيديهم، وأنه:

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنّ اللّهَ رَمَى)

[سورة الأنفال: الآية 17]

حينما يعتقد أن الله وحده هو الذي يرفع، ووحده هو الذي يخفض، أن الله وحده هو الذي يعز، وأن الله وحده هو الذي يذل، أن الله وحده هو الذي يعطي، وأن الله وحده هو الذي يمنع، حينما تعتقد أن الله بيده كل شيء، أقرب شيء إليك، وأبعد شيء منك، أقل شيء في نظرك، وأكبر شيء في نظرك، أنت حينما ترى أن الله وحده يتصرف تقطع علاقتك من بني البشر، وتربطها بخالق البشر، المشكلة أن الله جل جلاله حينما وصف فحوى دعوة الأنبياء جميعاً قال:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنّهُ لَا إِلَهَ إِلّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25))

[سورة الأنبياء: الآية 25]

تصور أنك دخلت إلى دائرة كبيرة فيها مئة موظف، وأن معاملتك لا يمكن أن يوافق عليها إلا المدير العام بالذات، وبمقابلته شخصياً، هل تتصرف إلى سواه ؟ هل تبذل ماء وجهك لغيره ؟ هل تترجى موظفاً صغيراً لا يقدم ولا يؤخر ؟ هل تتضعضع أمام مدير عام في دائرته ؟ أبداً أنت حينما توقن أن الأمر كله بيد الله تتجه إلى الله وحده، لذلك ما الذي يبعدك عن التوبة ؟ الشرك، ما الذي يقرب من التوبة؟ التوحيد، حينما أرتكب خطأً، وأخشى أن يفتضح فأتصل بإنسان، وأضمن أن يسترني فأنا مشرك، حينما آكل مالاً حراماً، وأغطي هذا العمل بعلاقة مع قوي فأنا مشرك، أما حينما أعرف أن الله وحده هو الفعّال، عند الغربيين الله خلاق، وليس فعالاً، هم يعتقدون وهماً أن الله خلق القوي والضعيف، وترك الضعيف للقوي، لا.

(اللّهُ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62))

[سورة الزمر: الآية 62]

كل شيء بيده، قال تعالى:

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا)

[سورة الأنعام: الآية 59]

هذا الإيمان أن الأمر بيد الله، وأن الأمر راجع إلى الله، وأن الله يعطي ويمنع، ويرفع ويخفض، ويضر وينفع، لكن علماء التوحيد جزاهم الله خيراً تمنوا على المؤمنين ألاّ يذكروا الضار إلا مع النافع، والمعطي إلا مع المانع، المانع المعطي، الضار النافع، المذل المعز، ذلك أن الله يذل ليعز، ويمنع ليعطي، ويبتلي ليجزي، في إحدى خطب النبي عليه الصلاة والسلام: يقول:

((إن هذه الدنيا دار التواء، لا دار استواء، ومنزل ترح، لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

[الديلمي في الفردوس عن ابن عمر]

أنا حينما أعرف أن الأمر بيد الله، وأنه ما يقع شيء في كون الله إلا بأمره ترتاح نفسي، ويخف الضغط علي، ويذهب الحقد من قلبي، من الذي يرتكب الخطأ، ولا يتوب منه ؟ الذي يرى الله بعيدًا، حينما يرى أن الأمر ليس بيد الله، بيد زيد أو عبيد، وأن الذي يعطي أو يمنع فلان أو علان، هذا الذي يخشى عليه ألاّ يتوب، فحينما أوحد الله عز وجل أجد نفسي مسوقاً إلى التوبة إليه، أبعد الناس عن التوبة المشركون، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي، أما إني لست أقول: إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً، ولكن شهوة خفية، وأعمال لغير الله))

[ورد في الأثر]

المشكلة ليست في الشرك الجلي، الشرك الجلي لا وجود له في العالم الإسلامي، مضى وانتهى.

قلتم: إن خشي أحد الفضيحة ذهب إلى فلان، وترجاه، وطلب منه أن يستره، ولكن قد يقع المرء في مثل ذلك، ولكن يأخذ بالأسباب.

هذا لا شائبة عليه، الأصل أني تبت إلى الله، وأخذت بأسباب الستر، فذهبت إلى فلان، ورجوت منه أن يسترني، هذا شيء طبيعي، أما حينما لا أعبأ بهذا الدين، ولا أندم على الذنب، ولا أتوب منه، لكن هذا الذنب يعاقب عليه القانون، سأذهب إلى شخص قوي كي يغطي هذا الانحراف، أما حينما آخذ بالأسباب بعد أن تبت إلى الواحد الديان فهذا شيء لا شيء فيه إطلاقاً.

وكثيراً ما تقع هذه الأمور في حياتنا عندما يتجه بالأمر أحدهم لشخص معين يعلم أنه من الممكن أن يساعده، ولكن بداءةً الأصل التوجه لله سبحانه وتعالى في التوبة الصادقة النصوح، بل إن شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام لا تقبل إلا للموحدين، إلا من ماتوا غير مشركين بالله.

الحقيقة أنه في أول حلقة كما أذكر بينت أن هناك ذنباً لا يغفر، وهو الشرك، هذا الذنب لا يغفر إلا إذا تاب منه صاحبه، إنني حينما أشرك أتجه إلى غير الله، وليس عند غير الله شيء.

لا أسمح لنفسي أن أقيم هذه الموازنة، لكن سأقيمها موضحاً الحقيقة، إنسان مشرك لم يذنب، مقطوع عن الله، إنسان موحد، وأنه أذنب خير عند الله من ذاك المشرك، الإنسان حينما يوحد الله، وتزل قدمه يتوب، فيقبل، أما ذلك مستغن عن الله، المشرك مستغن عن الله، لو فرضنا أنه ذكي جداً، وأراد الحفاظ على سمعته ومكانته، وهذا النموذج موجود، لا يصلي، ولا يصوم، لا يعبأ بالدين إطلاقاً، لكن يعبد ذاته، بدافع من عبادة ذاته يخشى على سمعته، فلا يكذب مثلاً، ولا يفعل شيئاً قبيحاً، هو يحافظ على مكانته، لكنه محجوب عن الله، لكن تجد مؤمناً موحداً ارتكب خطأً على خطأ، المؤمن أقرب إلى الله من هذا الذي على صواب، العبرة أن تكون مع الله، أنا لا أقول هذا الكلام كي نخطئ، معاذ الله، لكن أبين أن الإنسان حتى ولو أخطأ، وكان موحداً فالطريق إلى الله سالك، إذا أخطأ، وكان موحداً فباب المغفرة مفتوح، إذا أخطأ، وكان موحداً باب التوبة مقبول، هذا الذي أريده.

والإيمان هو رأس العمل، لا يقبل أي عمل مهما كان حسناً، ومهما كان سامياً وراقياً إلا إذا كان من مؤمن، أو يصحبه إيمان قوي، بأن هذا العمل لوجه الله تعالى.

الآن عندنا شيء يعانيه المسلم، إذا ذهب إلى بلاد الغرب يجد صدقاً، يجد أمانةً، يجد إنجاز العمل في وقته المحدد، يجد إتقاناً بالصنعة، يؤخذ بهذه الأخلاق، ومع هذا يجد الزنا، وشرب الخمر، وكل الموبقات، يرتكبها هؤلاء وهم مرتاحون، أما إذا تعاملوا مع الآخرين كانوا صادقين، وكانوا أمناء، وما إلى ذلك، الحقيقة أن هذا مطب كبير يقع فيه المسلمون، أحياناً هناك أخلاق ذكية لا علاقة لها بالدين إطلاقاً، لا تقدم ولا تؤخر، ولا تقرب ولا تبعد، أنا حينما أكون ذكياً، وأجد أن الصدق يزيد في أرباحي، وأن إتقان الصنعة ترفع من اسم معملي، وأن إنجاز وعدي يجعلني موثوقاً عند الآخرين، أنا لا أعبد الله، أنا أعبد مصلحتي.

أنا قلت مرةً، وكنت في بلاد الغرب: إن كل إيجابياتهم إسلامية، لا لأنهم مسلمون، ولكنهم لأنهم عبدوا المال من دون الله، فوجدوا بذكائهم أن تطبيق الأعمال الطيبة تزيد أرباحهم، أما إذا استفِزّوا، أو إذا تضاربت مصالحهم ينقلبون كالوحوش الكاسرة، فأنا لا أريد أخلاق الأذكياء.

مثلاً، لو جئنا بمدير معمل ملحد، لكنه ذكي جداً، وراقبنا شهراً تصرفاته، وجئنا بمدير معمل مؤمن إيماناً قوياً، قد نفاجأ أن سلوك الشخصين متشابهان، لكن الفارق كبير في البواعث، المؤمن يطبق منهج

الله، لأنه يعبد الله، منطلقاته إيمانية، فله الدنيا والآخرة، أما ذاك أراد الدنيا فقط، واستخدم ذكاءه للدنيا فله الدنيا، وماله في الآخرة من خلاق، ينبغي ألاّ نخدع بشخص ليس مؤمناً، متفلت، واقف في المعاصي والآثام، ولكن تعجبنا أخلاقه، هذه أخلاق الأذكياء.

وهنا يقولون لك: إن الدين المعاملة، فيقارنون بهذا الحديث الشريف أخلاق هذا الإنسان، ويقولون: إنه يطبق الدين، فالدين المعاملة.

لابد من أن يكون هذا التطبيق نابعاً من إيمانه بالله، لا نابعًا من مصلحته الذاتية، هذا الذي ألح عليه.

والجدير بنا نحن المؤمنين أن نطبق هذه الأخلاقيات التي يدعونا إليها الإسلام، لا أن تكون أخلاقاً ذكية، ولكن تكون أخلاق إيمانية.

إن طبقناها تألقنا، وانتشر الإيمان، أنا متأكد أن الجاليات الإسلامية في العالم الغربي لو أنها أقامت منهج الله عز وجل لكانت من أكبر الدعاة إلى الله، الناس لا يعجبون بصلاتنا، ولا بصيامنا، ولكن يعجبون بمعاملتنا، بل إن الله عز وجل حينما قال في دعاء قرآني:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة الممتحنة: الآية 5]

ما معنى هذه الآية ؟ المؤمن حينما يكذب ـ لا سمح الله ولا قدر ـ أو حينما لا يتقن عمله، أو حينما لا ينجز وعده، ماذا يفعل ؟ يفتن الكافر بكفره، الكافر يرى مؤمناً مقصراً، غير متقن لعمله، غير منضبط بسلوكه، فيتوهم أنه هو الصحيح، وأنه هو الحق، يتشبث بكفره، ويتوهمه حقاً، ويطعن في إيمان المسلم، ويتوهمه باطلاً، هذه مشكلة، فنحن الآن لا نحتاج إلى من يلقي الكلام، نحتاج إلى من يعامل، أنا أقول دائماً: أنا ألح على الدعوة الصامتة، الدعوة الصامتة لا كلام فيها، أما الاستقامة فدعوة، الأمانة دعوة، الوفاء دعوة، الصدق دعوة، إتقان العمل دعوة، إنجاز الوعد دعوة، الرحمة دعوة، هذا الذي أقوله، ولا ينتشر الإسلام إلا بهذه الأخلاق، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام حينما عين عبد الله بن رواحة، وأرسله ليُقيّم تمر خيبر أراد اليهود أن يرشوه بحلي نسائهم، فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَبْعَثُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ إِلَى خَيْبَرَ فَيَخْرُصُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَهُودِ خَيْبَرَ، قَالَ: فَجَمَعُوا لَهُ حَلْيًا مِنْ حَلْيِ نِسَائِهِمْ، فَقَالُوا لَهُ: هَذَا لَكَ، وَخَفِّفْ عَنَّا، وَتَجَاوَزْ فِي الْقَسْمِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، وَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَمِنْ أَبْغَضِ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيَّ، وَمَا ذَاكَ بِحَامِلِي عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ، فَأَمَّا مَا عَرَضْتُمْ مِنْ الرَّشْوَةِ فَإِنَّهَا سُحْتٌ، وَإِنَّا لَا نَأْكُلُهَا، فَقَالُوا: بِهَذَا قَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ))

[موطأ مالك]

أنا أرى أن الدعوة الصامتة هي الدعوة الحقيقية إلى الله، كما قال سيدنا جعفر: **" كنا قوماً أهل جاهلية، نأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونسيء الجوار، ونعبد الأوثان، ونقطع الرحم، ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته، وصدقه، وعفافه، فدعانا إلى الله لنعبده، ونوحده، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، والدماء ".**

[أحمد عن أم سلمة]

فأنا أقول في نهاية هذه الحلقة: أنا حينما أوحد أكون أقرب إلى التوبة النصوح، أما حينما أشرك شركاً خفياً أكون أبعد ما يكون عن التوبة النصوح، أنا حينما أوحد لا أرى إلا الله، ولا أرى ملجأ منه إلا إليه، فأتوب إليه، فحينما يضعف التوحيد أمارس كل ما أريد، وأغطي أفعالي التي لا ترضي الله بعلاقات وبوساطات، وما إلى ذلك.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - منهج التائبين - الحلقة 16- 30: مصاحبة الأخيار سبب في التنوبة النصوح.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-12-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

كمنطلق لهذا الموضوع، عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ قَالَ...:

((لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ ! مَا تَقُولُ ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَ اللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا ذَاكَ ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً، وَسَاعَةً، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

[مسلم]

هذه حقيقة، ذلك أن النفس تتأثر بما حولها، عش مع التجار تتمنّ أن تكون تاجراً، عش مع مدرسي الجامعات تتمنّ أن تكون مثلهم، عش ـ لا سمح الله ولا قدر ـ مع فاسق، إذا أدمنت العلاقة معه قد تشتهي أن تكون مثله، هنا مشكلة الإنسان، البيئة خطيرة جداً، لذلك كأن الله يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)

[سورة التوبة: الآية 119]

ثم يبين طريقة التقوى:

(وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119))

[سورة التوبة: الآية 119]

فما لم تُحِط نفسك بالمؤمنين الصادقين، بالمستقيمين بالأتقياء فلن تستطيع أن تطيع الله عز وجل، لذلك تعد صحبة الأخيار في حد ذاتها عملاً صالحاً، وهذا يؤكده قول الله عز وجل بعيداً عن أسباب نزول هذه الآية لو أخذنا نصها:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28))

[سورة الكهف: الآية 28]

أنا لا أبالغ أن أحد أكبر أسباب التوبة أن تكون مع الصالحين، تتمنى أن تكون مثلهم، تتمنى طهرهم، تتمنى عفافهم، تتمنى استقامتهم، تتمنى أن تكون محباً لله مثلهم، تتمنى أن تكون عارفاً لله مثلهم، فلذلك صحبة الأخيار في حد ذاتها عمل صالح، وإذا قرأت القرآن تجد شيئاً لا يكاد يصدق:

(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)

[سورة المائدة: الآية 51]

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ)

[سورة آل عمران: الآية 28]

كأنك تنسلخ من كل الإيمان لو أنك صحبت الأراذل، واستمرأت العلاقة معهم، وألفت مجالسهم، فلذلك أنا لا أقبل من مؤمن أن تكون مجاملته للناس على حساب دينه، أنا مؤمن بطريقة اسمها طريقة شد الحبل، إذا كنت مع قوم، وبإمكانك أن تشدهم إلى الحق وإليك فاجلس معهم، أما إذا أمكنهم أن يشدوك إلى باطلهم فابتعد عنهم، وهذا المثل هو ضابط دقيق في العلاقة بالناس.

أحد الأئمة الكبار عقد باباً في أشهر كتبه، وهو إحياء علوم الدين، عقد باباً في الموازنة بين الاختلاط والعزلة، فتبين أنه إذا كنت في قوم، وبإمكانك أن تؤثر فيهم، وأن تأخذهم إلى الحق فكن معهم، أما إذا كان بإمكانهم أن يأخذوك إلى الباطل ففر بدينك، هذا هو الضابط.

ولكن أن يكون على يقين من نفسه وثقة بأنه إذا كان معهم سيسوقهم إلى درب الخير والصلاح.

لو لم يكن على يقين، وفي أول لقاء جروه إلى باطلهم يجب ألاّ يعود إليهم مرةً ثانية، إذا ما كان على يقين، هناك مؤشرات، أشياء تدل على أنه ضعيف فانساق إليهم، لو شاركهم في لعب النرد فهو كما قال عليه الصلاة والسلام، عَنْ بُرَيْدَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ فَكَأَنَّمَا غَمَسَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِهِ))

[أبو داود، ابن ماجه، أحمد]

فلمجرد أن تلعب معهم النرد، وأن تستمع إلى الغيبة والنميمة منهم، وأن تشاهد ما لا يرضي الله عز وجل على الشاشة الصغيرة في حضرتهم فقد انساق الإنسان إليهم، واقتنصوه، وأخذوه إلى جادتهم.

إذاً عليه أن يختار من الصحبة الأخيار ليساعد ذلك على ثبات توبته، وعلى توبته من الأصل،فإذا صاحب الأشرار ساقوه إلى درب الشر، والعياذ بالله.

هناك أحاديث واضحة وضوح الشمس في هذا الموضوع، فعَنْ أَنَسٍ قَالَ:

((كَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَيَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَى قِيَامُ السَّاعَةِ ؟ وَأُقِيمَتْ الصَّلَاةُ، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ قَالَ: أَيْنَ السَّائِلُ عَنْ السَّاعَةِ ؟ قَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟ قَالَ:

مَا أَعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرِ عَمَلٍ لَا صَلَاةٍ: وَلَا صِيَامٍ: إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبّ، قَالَ أَنَسٌ: فَمَا رَأَيْتُ الْمُسْلِمِينَ فَرِحُوا بَعْدَ الْإِسْلَامِ بِشَيْءٍ مَا فَرِحُوا بِهِ))

لمجرد أن تحب الله ورسوله، وأن توالي المؤمنين، وأن تعادي الكافرين، لمجرد أن يكون ولاؤك للمؤمنين، ولو كانوا ضعافاً وفقراء، وأن يكون تبرؤك من المنحرفين، ولو كانوا أقوياء وأغنياء، هذا بحد ذاته عمل عظيم، لذلك في الإسلام شيء خطير جداً اسمه الولاء والبراء، كأن النبي عليه الصلاة والسلام يبين هذا في بعض الأحاديث الصحيحة، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[البخاري، مسلم، الترمذي، النسائي، ابن ماجه، أحمد]

فأنا حينما أوالي المؤمنين، وأكون معهم، وأحبهم، وأدافع عنهم، فأنا أعيش معهم، الشيء الثابت أن البيئة تشد الإنسان إليها، ولا أجد إنساناً مستقيماً محصناً من المعصية إلا بفضل بيئة تحيطه، هذا مع اعتقادي أن عظماء الناس يؤثرون في البيئة، وأوسطهم لا يتأثرون، بها لكن عامة الناس يتأثرون بها، أنت بين أن تتأثر بها، وهذا شأن دهماء الناس وسوقتهم، وألاّ تتأثر بها، وهذا شأن من كان على شيء من الإيمان، ولكن البطولة ما فعل الأنبياء والمرسلون، تركوا بصمات واضحة في البيئة، أنت بين أن تؤثر، وبين ألا تتأثر، وبين أن تنساق وراء البيئة، فهذه الصرعات التي تأتينا من الغرب من يتأثر بها ؟ دهماء الناس وسوقتهم، أما الذين لهم مبادئ كبيرة، والذين لهم رؤى صحيحة فلا يتأثرون، أما الدعاة الكبار يؤثرون، وقد تجد داعيةً ترك أثراً كبيراً في الحياة، علاقة الإنسان مع البيئة علاقة دقيقة جداً.

المذيع:

هل تنصحون بأن يتخذ كل إنسان شيخاً له أو رفيقاً من الدعاة لكي يكون محصناً بالعلم والتقوى ؟

الأستاذ:

والله أنا أنصح أن تصاحب الصالحين سواء أكانوا شيوخاً، أو كانوا مؤمنين صادقين، العبرة أن يكون الذي تصاحبه أعلى منك علماً، وخلقاً، وصلة بالله عز وجل، قال بعض علماء القلوب: " لا تصاحب من لا ينهض بك إلى الله حاله، و لا يدلك على الله مقاله "، يعني لا تصاحب إلا من تنتفع بصحبته، الإنسان لا ينبغي أن يهدر مستواه إلى مستوى لا يليق به قل لي من تصاحب أقل لك من أنت، أنا أتمنى أن أصحاب الحرف أحياناً لهم أصدقاء من حرفتهم، ومن مهنهم يجلسون، ويتكلمون في هموم الحرفة، وكأن سمرهم امتداد لعملهم، هؤلاء لا يرتقون، أنا أنصح أصحاب الحرف الأطباء مثلاً والمهندسين

والمحامين والمدرسين والتجار أن يخالطوا المؤمنين، أن يرتادوا المساجد، يجب أن ينتقلوا من جوّهم من جو التجارة، من جو الطب، من جو المحاماة، إلى أجواء دينية، لاشك أن كل واحد من الإخوة المستمعين حينما يحضر درس علم في المسجد يشعر براحة كبيرة، ما هي هذه الراحة ؟ هذه الراحة ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام حينما ذكر عن ربه عز وجل:

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته، ثم زارني، وحق على المزور أن يكرم الزائر))

[ورد في الأثر]

أنت حينما تصحب الصالحين ينعقد عندك عزم أكيد على أن تنهج نهجهم، وأن تمشي في طريقتهم، وأن تقلدهم، إذاً هي خطوة نحو التوبة ما الذي يغريك بالصالحين ؟ أن تصحبهم، لو أن شاباً صحب الأراذل من الناس لا يخطر في باله ولا لدقيقة في السنة أن يتوب إلى الله أبداً، كلما صحب الإنسان من مستوى دون مستواه لا يفكر أن يرتقي بمستواه، أما حينما تخالط من هو أرقى منك علماً، من هو أعلى منك قدراً عند الله، من هو أقرب إلى الله منك، تشتهي سمته الحسن، تشتهي علمه، تشتهي تواضعه، تشتهي حكمته، تشتهي ما ينطوي عليه من علم غزير، أنت لا يمكن أن تندفع إلى شيء إلا إذا أغراك هذا الشيء، من هنا تأتي صحبة الصالحين كباب من باب التوبة، أنت إن لم تصاحب الصالحين فلا تفكر أن تتوب لرب العالمين.

إذاً صحبة الأخيار هي سبب هذا المنهج، منهج التوبة والاستقامة، العكس لو فترت هذه الصحبة، وقلت في تكرارها، وفي المكوث مع الصالحين، وارتياد المساجد، وحضور مجالس العلم.

لا أدري لمَ خطرت لي هذه الفكرة، كنت أقولها قديماً، إما أن تكون عبداً لله، وإما أن تكون عبداً لعبد لئيم، لابد من العبودية، فإن لم تكن لله فأنت عبد لعبيده اللؤماء، الآن لابد من صحبة الإنسان في أصل تكوينه اجتماعي هو إنسان، لأنه مفتقر إلى من يجلس معه، لذلك لو أننا أفردنا إنسانا في مكان، حجزناه عن الصوت، وعن الضوء، وعن الوقت، وعن الأخبار عشرين يوماً يختل توازنه العقلي، فالإنسان أصله اجتماعي شئت أم أبيت، فقياساً عن المقولة الأولى: إن لم تكن عبداً لله فأنت عبد لعبد لئيم، وإن تكن تصحب الصالحين فأنت حتماً تصحب غير الصالحين، لا يوجد حالة ثالثة، إما أن تصحب الصالحين، وإما أن تصحب غير الصالحين، الفرق صارخ، لا أقول واضح، صارخ، أنت إن صحبت الصالحين أغروك بالطاعة، أغروك بالقرب من الله، أغروك بطلب العلم، أغروك بطلب الآخرة، أما إن صحبت غير الصالحين تتمنى معاصيهم تستمرأها، تراها هينة، هذا لاحظته واضحاً جداً حينما سافرت إلى أمريكا، تجد هذا الذي أقام بينهم ردحاً من الزمن ألف أخلاقهم، وألف تفلتهم، وألف استهانته بمعصية الله تعالى، كلمة واضحة جداً، الصاحب ساحب، قل لي من تصاحب أقل لك من أنت، البديل

خطير جداً، أنا حينما لا أصحب الصالحين، وأصحب المنحرفين، مع مداومة صحبتي لهم أشتهي ما هم فيه، أو في الحد الأدنى لا أكبر معاصيهم، لا أستعظمها، أراها هينة، والإنسان حينما يألف قوماً يتخلق بأخلاقهم، ويتعلق بمبادئهم، إن صح التعبير، هم ليس لهم مبادئ، بتفكيرهم أو بفلسفتهم للحياة، فلذلك أنا لا أظن أن شاباً يمكن أن يلتزم منهج الله عز وجل، أو أن يكون قريباً من الله إلا بصحبة شباب مؤمن مثله، أما إذا أراد أن تزل قدمه، والشيء الذي أحب أن أؤكده أن طريق القمة وعر جداً، وصعب جداً، ولكن طريق الانزلاق منها سهل جداً، ما يبنيه إنسان بصحبة الصالحين في شهر يهدمه صديق سوء في يوم، ما يبنيه إنسان من خلال صحبة الصالحين في شهر يهدمه من صحبة الطالحين في يوم فالعمل التخريبي سهل جداً.

إذاً عليه المثابرة كي لا تفتر عزيمته، ولا تفتر ثقته بنفسه، وهذه العلاقة تبقى مع رب العالمين. بشكل واقعي، هذا الهاتف الخلوي إن لم تشحنه لا ينطق، وهذا المؤمن إن لم تشحنه بصحبة الصالحين ينتهي إيمانه.

المذيع:

أشكركم جزيل الشكر فضيلة الشيخ محمد راتب النابلسي، أشكر المستمعين على حسن إصغائهم، وحسن متابعتهم لبرنامجنا، هذا منهج التائبين، غداً نتابع بإذن الله الحديث عن التوبة ومسبباتها وموجباتها، أشكركم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - منهج التائبين - الحلقة 17- 30: العلاقة بين التوبة والدعوة1.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-12-13

بسم الله الرحمن الرحيم

الحقيقة الأولى: أن الإنسان فطر فطرة كاملة، فالذي أمر به، والذي نهي عنه متوافق توافقاً تاماً مع فطرته، بل إن تطابق منهج الله مع فطرة الله تطابق ثابت وشامل وكامل وحتمي، والدليل أن الله سبحانه وتعالى قال:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فطرَ النَّاسَ)

(سورة الروم)

أن تقيم وجهك للدين حنيفاً هو نفسه البرنامج الذي فطر عليه الإنسان، ماذا نستنتج من هذه الحقيقة التي تؤكدها هذه الآية ؟ أن الإنسان إذا خرج عن بنيته الفطرية، إذا خرج عن منهج ربه فكلاهما واحد، إذا خرج عن مبادئ فطرته، أو خرج عن منهج ربه يعاني من حالة نفسية اسمها اختلال التوازن، يختل توازنه، ولا شيء أصعب على النفس من أن تنهار من داخلها، قد يكون الإنسان أمام الخلق متماسكاً، لكنه إذا كان منهاراً من الداخل نشأ عنده أمراض كثيرة، تظهر بقسوة بالغة، أو ردود فعل قاسية جداً، تظهر بضياع، وتشتت وصراع مزمن مع كآبة، وما هذه الكآبة التي يتحدث عنها الناس إلا هي مظهر لخروج الإنسان عن مبادئ فطرته.

ماذا ينبغي أن يفعل الإنسان إذا خرج عن مبادئ فطرته، أو خرج عن منهج ربه ؟ وكلاهما واحد.

العلاج الناجع الذي تعالج به هذا الخلل هو أن تتوب إلى الله، ولكن هناك من يحاول أن يستعيد هذا التوازن، لا من خلال التوبة، ولكن من خلال سوء الظن بالآخرين، ليوهم نفسه أن الخطأ هو الأصل، وأن الذين يظهرون للناس الصلاح، وهم ليسوا كذلك، هذا محاولة إصلاح الخلل، ولكن محاولة ليست صحيحة، أو أن يتعلق الإنسان بعقيدة زائغة لا أصل لها في الدين ليريح نفسه، فبعض أهل الكتاب تعلقوا بأنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، والمسلمون تعلقوا بمفهوم للشفاعة ساذج، افعل ما شئت، والنبي الكريم صلى الله عليه وسلم يشفع لك.

الحقيقة أن التعلق بعقيدة زائغة، أو سوء الظن بالآخرين مسلكان خاطئان لاستعادة التوازن الذي اختل من خروج الإنسان عن منهج ربه، أو عن مبادئ فطرته، هذا إن لم يكن المرء داعية إلى الله، إن كان مؤمناً من مجموع المؤمنين، مسلماً من مجموع المسلمين، كيف إذا دعا إلى الله، ولم يطبق ما يدعو إليه؟ أعتقد أن الخلل الذي سوف يعاني منه أضعاف مضاعفة.

ورد في بعض الآثار:

((ابن آدم عظ نفسك فإذا وعظتها فعظ غيرك وإلا فاستحي مني، تعصي الإله وأنت تظهر حبه، ذاك لعمر في القياس شنيع، لو كان حبك صادقاً لأطعته، إن المحب لمن يحب يطيع))

ولكن يتوهم الإخوة المؤمنون أن الدعوة إلى الله قاصرة على الدعاة الكبار، وعلى خطباء المساجد، وعلى من يعمل في حقل الدعوة، وعلى المنظِّرين الإسلاميين، وعلى رجال الفكر المسلمين، وهذه فكرة ليست صحيحة.

أول مفاجأة لعل الإخوة المستمعين قد يفاجؤون بها أن الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، وكل مسلم لا يدعو إلى الله هو لا يتبع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل من لا يتبع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم هو في حقيقة الأمر لا يحب الله، وليس في الدين مجال كي ندلي بآراء شخصية، إن هذا العلم دين، دين الله، ولا يسعه إلا النص الصحيح الموثق الواضح الدلالة.

المذيع:

يقولون: إن الدعوة في حق كل مؤمن فرض عين، ولكن بتوضيح بسيط في حدود ما يعلم.

الأستاذ:

في حدود ما يعلم، ومع من يعرف.

ما كلفك الله أن تكون عالماً كبيراً، ولا أن تحمل أعلى شهادة في الشريعة، ولا أن تكون خطيباً مفوّهاً، أنت كمسلم في أي مستوى ثقافي، وفي أي حرفة أنت فيها أنت مكلف بدعوة إلى الله من نوع فرض العين، وسوف آتي بعد قليل على الدعوة إلى الله التي هي فرض كفاية.

أنا الآن أتحدث عن الدعوة إلى الله كفرض عين، لابد من أن تدعو إلى الله، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً...))

(صحيح البخاري)

فيا رب مبلغ أوعى من سامع، ولقول الله عز وجل:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف)

فمن لم يدعو إلى الله على بصيرة، وكلمة بصيرة أن تدعو إلى الله بالدليل، وبالتعليل، وبأسلوب علمي، وباللطف والإحسان.

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران)

أدعو إلى الله على بصيرة كما دعا النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بأساليبه اللغوية، والعلمية، والتربوية، والاجتماعية.

فمن لم يدعُ إلى الله على بصيرة فليس متبعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن لم يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم فليس محباً لله بدليل قوله تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

(سورة آل عمران)

الأمر واضح كالشمس، لكن هذه الدعوة التي هي فرض عين لا يطالب المسلم بها إلا في حدود ما سمعه من الحق، ونحن في هذا الدين العظيم عندنا عبادة تعليمية هي خطبة الجمعة، وإخوتنا الكرام يتوهمون أنهم إذا دخلوا إلى المسجد عقب انتهاء الخطبة، وتابعوا مع الإمام ركعتين يتوهمون أنهم أدوا هذه الفريضة، وأنا أصر على أن هذه الفريضة لم تؤدَّ بالمعنى الذي أراده الله، ذلك أن الله عز وجل حينما قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ)

(سورة الجمعة)

أجمع علماء التفسير على أن ذكر الله خطبة الجمعة، أية خطبة من دون استثناء فيها شرح آية، أو شرح حديث، أو بيان حكم، أو معالجة موضوع إسلامي، فهذا الذي يصلي، ويحضر خطبة جمعة، وأخذ منها آية واحدة، لو أنه بلغ هذه الآية طوال الأسبوع مع من يعرف، مع أقربائه، مع أولاده الصغار، مع بناته، مع زملائه، مع أصدقائه، مع جيرانه، مع من يلتقي في ندوة، في سفرة، في وليمة، يكون قد أدى هذه العبادة، الدعوة إلى الله كفرض عين، أما الدعوة إلى الله كفرض كفاية فهذه مهمة العلماء المتفرغين المتخصصين الذين آتاهم الله فكراً عميقاً، ونفَساً طويلاً في الدعوة، وفصاحة وبياناً، وتفرغوا لشأن الدعوة، هؤلاء معهم كل الأدلة التفصيلية، ومعهم رد على كل الشبهات التي تطرح على الإسلام، هؤلاء الدعاة الكبار مهمتهم كما قلت قبل قليل فرض كفاية، إذا قام به البعض سقطت عن الكل، هذا الموضوع لا يعنينا في هذه الحلقة، يعنينا الدعوة إلى الله كفرض عين، المسلم العادي الذي ليس له أي نشاط دعوي إذا خرج عن مبادئ فطرته، أو عن منهج ربه يختل التوازن، فكيف إذا خرج من يدعو إلى الله، ولو دعوة بمستوى فرض العين عما يقول ؟ إن اختلال توازنه أشد وأكبر.

المذيع:

بمعنى آخر، وللتوضيح أكثر، أنكم تدعون المسلم الذي يدعو لنقل أهل بيته وأولاده إلى أداء الصلاة، والالتزام بما أمر الله به، وهو يعمل عكس ذلك، هنا يختل توازنه، وهذا ما يظهر من اختلال توازنه الداخلي.

الأستاذ:

كما قال سيدنا علي: " بين الحق والباطل أربعة أصابع "، بين أن تقول رأيت، وبين أن تقول سمعت،

الحقيقة أن الناس لا يتعلمون بآذانهم، بل بعيونهم، لغة العمل أبلغ من لغة القول، لو أن أباً متكلماً فصيحاً ألقى على ابنه آلاف محاضرة في الصدق، كل هذه المحاضرات تهدم إذا قال لابنه: إذا طرق الباب أحدٌ فقل له: أنا لست هنا في البيت ! فالإنسان لا يتعلم إلا بعينيه، لذلك عظمة الأنبياء أنهم كانوا قدوة للناس، كانوا مثلاً عليا، ولا ينجح أبٌ في تربية أولاده إلا إذا كان قدوة لأولاده، ولا ينجح معلم في تربية تلاميذه إلا إذا كان قدوة لهم، جاء على البشرية آلاف المصلحين ألفوا الكتب، لكن لم يحدثوا شيئاً في المجتمع، لكن الأنبياء وهم قلة فعلوا فعل المعجزات لسبب بسيط جداً، أنهم فعلوا ما قالوا، لم يجد المدعو مسافة بين أقوالهم وأفعالهم، لم يجد مسافة بين سرائرهم وعلانيتهم.

المذيع:

فضيلة الشيخ الدكتور محمد رابت النابلسي، عنوان هذه الحلقة وموضوعها علاقة التوبة، وثبات التوبة النصوح الصادقة مع الدعوة إلى سبيل الله، وبخاصة المسلم العادي الذي بحقه الدعوة إلى سبيل الله فرض عين، في حدود ما يعلم، وبحق من يعرف، ما علاقة ذلك بالتوبة وثبات التوبة ؟

الأستاذ:

لأنه والله أعلم حينما سعد بقرب الله عز وجل، فإذا خالف ما يدعو إليه اختل توازنه فشعر بضيق، والحقيقة الدعوة إلى الله لا تقوم على معلومات فحسب، بل تقوم على روحانية أساسها الاتصال بالله، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، الدعوة إلى الله لا يتمتع بمعلومات دقيقة، بقدر ما يحتاج إلى صلة بالله عز وجل، والحقيقة الثابتة الصارخة أن الإنسان لمجرد أن يقع في ذنب فقد حجب عن الله، فإذا وقع من يدعو إلى الله لا سمح الله ولا قدر في مخالفة حجب عن الله، وأصبح يتكلم مما في دماغه من معلومات، وعندئذ لا يؤثر.

الحقيقة أن الدعوة إلى الله أساسها إحداث أثر في المستمعين، هذا الأثر لا يتأتى من معلومات دقيقة تحفظها، بل يتأتى من حال مع الله تكتسبه من خلال اتصالك به، فأنا أقول: لا يمكن أن يحدث أثراً في مجتمعه إلا بشرطين، أن يكون مطبقاً لما يلقي على الناس، وأن يكون مخلصاً فيما يلقي على الناس، التطبيق والإخلاص يهب الكلام قوة تأثيرية عجيبة، فكم تجد من عالم ينطوي على علم غزير، ولأنه ليس مطبقاً لعلمه لا يحدث أثراً ولا في طفل صغير، بينما الذي ينطوي على معلومات متواضعة، لكنه مطبق لها بالتمام والكمال، إذا نطق بها هز الصخر، وهز أعتى الأشخاص، وأثر في أقسى القلوب، القضية قضية تطبيق وإخلاص، فالذي يدعو إلى الله يحتاج إلى هذا الإخلاص وهذا التطبيق، وإلا اختل توازنه أشد مما يختل توازن المسلم إذا خرج عن منهج ربه أو مبادئ فطرته.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - منهج التائبين - الحلقة 18- 30: العلاقة بين التوبة والدعوة2.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-12-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

مشكلة معظم الشباب أنهم إذا استمعوا إلى داعية ناجح موفق، أو إذا استمعوا إلى نصوص دينية صحيحة تحث على الدعوة إلى الله ينشأ في أنفسهم رغبة صادقة أن يكونوا من الدعاة إلى الله، ثم يكتشفون في أنفسهم أخطاء كثيرة، وتقصيرات بالغة، فيتهمون أنفسهم أنهم ليسوا أهلاً للدعوة إلى الله، ينشأ صراع عميق ومستمر في نفوس هؤلاء الشباب الذين هم على شيء من الإيمان يحثهم على أن يكونوا أعلاماً في هذه الأمة، أو على كشف لأخطائهم التي يخجلون بها أمام الله عز وجل، من هذا الصراع تنشأ مشكلة، هذا الشاب قد يتوهم، أو قد يجتهد أنه ليس أهلاً للدعوة، فيعرض عنها كلياً، أو يرجئها إلى وقت لاحق، والذي يحصل أنه ينسحب من حقل الدعوة، وهذا الإرجاء يستمر إلى مالا نهاية، فإذا هو مقيم على بعض أخطائه، وعلى انحرافاته، صغرت أو كبرت، العبرة أنه انسحب من حقل الدعوة بدعوة، على أنه ليس أهلاً لهذه الدعوة.

المذيع:

بدعوة أنه إذا رأى منكراً لا ينكره، ولا يدعو إلى إنكاره، ولا يأمر بمعروف، ولا ينهى عن منكر، تكون النتيجة هكذا !

الأستاذ:

الحقيقة أنه من زاوية معينة معه الحق، لأن الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3))

(سورة الصف)

ماذا يعاني العالم ؟ ولو خرجنا قليلاً أشد معاناة للبشر من دول قوية تكيل بمكيالين، تعامل جهة ترتكب الجرائم تلو الجرائم، وتغطيها بصمت غير معقول، بينما جهة أخرى ترتكب خطأ أقل مما ارتكبت الجهة الأولى، فتقيم عليها النكير، لا شيء يسحق النفس، ويؤلمها كأن يكال لها بمكيالين، فهذا الشاب، وهذا منطلقه، وأنا معه إلى حد ما، لأن الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3))

والآية الثانية:

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44))

(سورة البقرة)

آيتان في الكتاب، وحديث في السنة يقسم الظهر، عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: قِيلَ لِأُسَامَةَ: لَوْ أَتَيْتَ فُلَانًا فَكَلَّمْتَهُ، قَالَ: إِنَّكُمْ لَتُرَوْنَ أَنِّي لَا أُكَلِّمُهُ إِلَّا أُسْمِعُكُمْ، إِنِّي أُكَلِّمُهُ فِي السِّرِّ دُونَ أَنْ أَفْتَحَ بَابًا لَا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ، وَلَا أَقُولُ لِرَجُلٍ أَنْ كَانَ عَلَيَّ أَمِيرًا: إِنَّهُ خَيْرُ النَّاسِ، بَعْدَ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالُوا: وَمَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ ؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ:

((يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ، مَا شَأْنُكَ ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ))

(صحيح البخاري)

وفي حديث آخر أيضاً،

((لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله))

(ورد في الأثر)

إن رأى الناس منحرفين غارقين في المعاصي، يأكلون أموال بعضهم بعضاً، يعتدون على أعراض بعضهم بعضاً، إن لم يمقت الناس في ذات الله فليس مؤمناً، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً.

هناك آيتان وحديثان يؤكدان أن المسافة الكبيرة بين ما تقول و بين ما تفعل، هذا عند الله شيء كبير، ولكن لهذا الموضوع تفصيلات مهمة جداً، لكن ماذا نعمل ؟ الآن شاب غلب على أمره معصية، وهو مكلف أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، بل إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي الفريضة الثالثة، وهي علية خيرية هذه الأمة، فحينما قال الله عز وجل:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

ما علة هذه الخيرية ؟

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران)

هناك مشكلة، إنسان غلبته نفسه، وارتكب معصية، ثم رأى صديقه واقعا في هذه المعصية، يسأله: ما حكم الشرع في هذا ؟ هل ينبغي أن يبقى ساكتاً ؟ هو مرتكب هذه المعصية مثله.

الآن ننظر إلى الحكم الشرعي، ماذا ينبغي أن يفعل المسلم ؟ إذا سئل عن منكر واقع فيه، يصمت، أو يقر هذا المنكر، أو ينهى عن هذا المنكر.

أخ زياد، هناك حقيقة دقيقة جداً، موقف المؤمن من المعروف أن يفعله، وأن يدعو إليه، وموقف المؤمن من المنكر أن يبتعد عنه، وأن ينكره، نحن نسأل، هناك شرطان في المعروف، أن أفعله، وأن آمر به، والمنكر أن أدعه، وأن أنهى الناس عنه، لو أنني قصرت في الجانب الأول هل يلغى الجانب الثاني ؟ لا، لو أنني اقترفت الجانب الأول المنكر هل يلغى الجانب الثاني في إنكار المنكر ؟ الجواب لا،

فالحكم الشرعي شئنا أم أبينا، أحببنا أم كرهنا، أعجبنا أم لم يعجبنا لابد من إنكار المنكر، والأمر بالمعروف، بصرف النظر مبدئياً عن ما إذا كنت تقيم هذا المعروف، أو تقع في هذا المنكر، لكن أنا أقول: والله شعور صعب جداً، ومؤلم حينما تقول شيئاً، ولا تفعله، وتنهى عن شيء وتفعله، الشرع يأمرك أن تقول: هذا منكر، أو هذا فرض، بصرف النظر عن كونك فعلته أم لم تفعله، وبصرف النظر عن قوة التأثير، أو عدم التأثير، الله جل جلاله أهلك بني إسرائيل لماذا ؟ قال:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ)

(سورة المائدة)

كان عدم التناهي عن منكر فعلوه سبب هلاكهم، فلذلك لا يحق لأحد أن يدع الأمر بالمعروف إن لم يكن يفعله، ولا يحق لأحد أن يترك النهي عن المنكر إن وقع فيه.

المذيع:

لا قدر الله، لو أن أحدهم ممن يدعون إلى الله، وإلى سبيله سئل في أمر، وهو قد يكون لا قدر الله يقترفه، فبماذا يجيب ؟

الأستاذ:

لابد من إنكاره، ويرجو الله عز وجل أن يعينه على تركه، لكن أيضاً حينما يسأل عن منكر اقترفه يجيب بأنه منكر، لعل هذا باعث إلى التوبة، وكأنه يقترب من باب التوبة، لكن أعجبني قول أحد الشعراء:

ولو لم يعظ في الناس من هو مذنب فمن يعظ العاصين بعد محمد

إذا لم يتكلم إنسان بكلمة الحق إلا إذا كان مستقيماً استقامة تامة معنى ذلك أنْ تلغى الدعوة إلى الله كلياً، لأن مقام النبوة هو العصمة، بينما مقام المؤمنين هو الذنب، المؤمن مذنب تواب، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))

[الترمذي]

المؤمن لا شك أنه يقع في الصغائر، ومن دون أن يصر عليها، وسريعاً ما يتوب منها، لذلك قالوا: النبي معصوم، والولي محفوظ، معنى محفوظ أنه لا تضره معصية، بمعنى أنه يكشفها في وقت مبكر، ويتوب منها لتوه، ويستغفر الله عليها كثيراً، وقد يدفع صدقة، أو يصوم يوماً، أو يتقرب إلى الله بعمل صالح حتى يغفر الله له هذا الذنب، فالمؤمن محفوظ، لكن النبي معصوم.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - منهج التائبين - الحلقة 19- 30: الآمر بالمعروف لا يحتقر مقترف الذنب1.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-12-15

بسم الله الرحمن الرحيم

الحقيقة أننا وصلنا من خلال حلقات سابقة إلى أن تأخير التوبة ذنب أيضاً يضاف إلى الذنب الذي ينبغي أن تتوب منه، وأن عدم إنكار المنكر منكر آخر يضاف إلى المنكر، لكن اليوم القضية تختلف.

أنا ـ والحمد لله ـ مؤمن، لي صديق، لي أخ، لي قريب، لي جار، لي إنسان يلوذ بي، يقترف ذنباً المرة تلو المرة، أنا ماذا ينبغي أن أفعل ؟ الحقيقة أن هناك حديثًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم والله يقصم الظهر، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَعْمَلَهُ))

(سنن الترمذي)

الإنسان أحياناً تأخذه العزة بالطاعة لا بالإثم، لك أن تعتز بطاعتك.

يروى أن الإمام الحسن كان يمشي بإحساس عال جداً، قال له: أكِبرٌ يا رسول الله ؟ قال: لا هذا عز الطاعة.

لك أن تعتز بطاعتك، ولكن هذه العزة بالطاعة لا تحملك على أن تحتقر عاصياً لله، لعل هذا العاصي يتوب بعد حين، ويسبقك، مادام قلبه ينبض، وفي عمره بقية فباب التوبة مفتوح على مصراعيه، والإنسان حينما يتوب إلى الله قد يحرق المراحل حرقاً، لذلك قال بعض العارفين: **" رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً، خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً "**، الذي يقترف ذنباً مغلوب على أمره، ويبكي أشد البكاء، ويندم أشد الندم، وتتمزق نفسه أشد التمزق، هو أقرب إلى الله من إنسان يطيع الله مع الكبر ! فالاستكبار ولو كان في الطاعة مرفوض عند الله، وصاحبه محجوب عن الله، فالعبرة أن أكون مع الله، وأنا في قمة الطاعة.

الحقيقة أن الإنسان حينما يستقيم أمامه منزلق الغرور، أنا كنت أقول دائماً: بلوغ القمة صعب جداً، كأن القمة هي قمة جبل، والطريق إليه وعر، والصعود حاد، وصخور، وغبار، وأكمات وحفر، لكنك إذا وصلت إلى القمة يمكن أن تنزل منها في ثانية بسبب الغرور ! والغرور هو داء الناجحين في الحياة، حتى التائب ينظر إلى من حوله يراهم يقترفوا المعاصي يحتقرهم يعيرهم يستعلي عليهم، ثم يفاجئ أنه وقع في الذنب الذي اقترفوه.

المذيع:

قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَعْمَلَهُ))

هذا معنى دقيق جداً لهذه الآفة التي قد تصيب كثيرين حقيقة، ليتنا نفصل أكثر، لا تشجيعاً على المعصية، لنقل: ذلّ المعصية، وانكسار العاصي خير من استكبار الطائع، نركز على أن الطاعة فرضًا واجبًا، وصلة بالله عز وجل، ولكن إذا رافقها الاستكبار فهي مرفوضة.

الأستاذ:

سيدنا يوسف هو نبي ومعصوم، فحينما نجاه الله من مطب امرأة العزيز ماذا قال: هل قال: إن بإرادتي القوية امتنعت عنها ؟ هل قال: أنا بعلمي الغزير ؟ ما قال هذا، قال:

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33))

(سورة يوسف)

إنه استعان بحفظ الله له، أرأيت إلى هذا التواضع ؟ استعان بحفظ الله له، بتأييد الله له، هل من المعقول نبي كريم أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم أن يقول:

(وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35))

(سورة إبراهيم)

المشكلة أن هذا الذي يقترف المعاصي والآثام هو إنسان مثلنا، وقد يكون مفكراً، وعاقلاً، وذا ذكاء كبير، ولكن أنت حينما يعينك الله على طاعته ينبغي أن تذوب شكراً له، حينما يعينك الله على عمل صالح تذوب شكراً له، قلت لكم قبل قليل: سيدنا يوسف قال:

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33))

سيدنا موسى حينما سقى المرأتين ما قال ؟ هذا عمل عظيم أنا فعلته، أنا خططت له، أنا رتبته، أنا عندي خبرات متراكمة، لا، قال:

(رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24))

(سورة القصص)

الحقيقة، وأنا أحتاج أن أذكرها الآن: المؤمن أمام امتحانين دقيقين جداً، امتحان بدر وامتحان حنين، امتحان بدر الافتقار إلى الله:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران)

امتحان حنين قال أصحاب رسول الله، وفيهم رسول الله: لن نغلب اليوم مِن قلة، اعتدوا بقوتهم وبعدَدِهم، فقال تعالى:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25))

(سورة التوبة)

أنا أستنبط أن كل مؤمن يعاني في اليوم الواحد ـ ولا أبالغ ـ مئات الامتحانات، في كل موقف تواجهه مشكلة، في كل أمر عصيب يعانيه، إذا قال: أنا، تخلى الله عنه، وأوكله إلى نفسه، وإذا قال: الله، تولاه الله، فنحن كل يوم بين التولي والتخلي، تقول: أنا، يتخلى عنك، تقول: الله، يتولاك، وأنا في قمة الطاعة، وفي قمة القرب من الله ينبغي أن أعترف أن هذا فضل من الله.

هذا موقف الأنبياء، نبي كريم أكبر نبي أعده قدوة للشباب، سيدنا يوسف في موضوع معين متعلق بالمرأة، هو غير متزوج، والتي تدعوه إلى نفسها سيدته، وهي بارعة الجمال، وليس من صالحها أن يفوح هذا الأمر، ثم إنه غريب، والغريب يشعر بحرية في حركته، ثم إنه عبد، وغير متزوج، والتي دعته سيدته، العلماء عدوا أكثر من عشرة أسباب تعينه على أن يقترف هذا المنكر، فقال:

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف)

الحقيقة أن الشاب أحياناً يؤخذ من المرأة، والرجل الكبير يؤخذ من المال، وأكبر معصيتين في الحياة معصية متعلقة بالمرأة، ومعصية متعلقة بالمال.

المذيع:

الكلام أيضاً ينسحب على النساء، معصية تتعلق بالرجل وهكذا، لأن الحديث عندما يطلق بالتخصيص.

الأستاذ:

قاعدة التغليب تجعل كل خطاب للرجال هو خطاب للنساء حكماً، إلا في حالات خاصة، هناك أحكام خاصة بالمرأة، أما إذا قال الله:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة التحريم)

أيضاً أيتها المؤمنات حكماً، فأنا أريد أنك إذا وفقت على توبة نصوح ينبغي أن تذوب شكراً لله على أنه امتن عليك بهذه التوبة، وعلى أنه أعانك عليها، وعلى أنه قبلها منك، وعلى أنه ثبتك عليها، هذه نعمة، لكن أحياناً شاب ليس ناضجاً يعينه الله على طاعة من الطاعات، فإذا رأى من حوله مقصراً فيها عيّره، واستعلى عليه ووبخه، بل الأغرب من ذلك يتألّى على الله، يقول له: لن يغفر لك هذا الذنب ! الغيب لا يعلمه إلا الله، سوف أذكر بعض الأحاديث الواجب أن أذكرها الآن:

عَنْ جُنْدَبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَ

((أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ))

(صحيح مسلم)

كلمة كبيرة أن تعتز بطاعتك اعتزازا غير طبيعي، وأن تحتقر من يعصي الله، وهو مغلوب على معصيته، لعل الله يقبل هذا العاصي يقبل توبته، ويغفر له، ولعل الله يحبط عمل المتكبر.

أنا الآن أتكلم عن أخلاق التائب، ينبغي أن تكون أخلاقه مشبعة بالتواضع، ينبغي أن يره فضل الله عليه، وأن يعتقد اعتقاداً جازماً أنه لولا أن الله أعانه على هذه التوبة لما كانت هذه التوبة، ينبغي أن يشكر الله على أن بصره، وأعانه، وقبل منه، فإذا رأى إنساناً شارداً تائهاً ينبغي أن يأخذ بيده.

أنا لا أنسى قول سيدنا عمر لأحد أصدقائه، وقد ترك الحجاز، وذهب إلى الشام، وعاقر الخمر، وتفلت من منهج الله، فكتب له كتاب: أحمد الله إليك، قابل التوب، غافر الذنب، شديد العقاب، ذي الطول، وما زال يستعطفه، ويذكره بماضيه حتى بكى بكاء شديداً، وأقلع عن ذنبه، وعلم عمر ذلك، فقال: هكذا اصنعوا مع أخيكم إذا ضل، كونوا عوناً له على الشيطان، ولا تكونوا عوناً للشيطان عليه.

فأنا حينما أتوب، وأشعر أن الله قبل توبتي ينبغي ألا أحتقر العصاة، ينبغي أن آخذ بيدهم، أنا أذكر أن النبي عليه الصلاة والسلام جاءه شارب خمر، وقد أقذعوا له في القول، فقال: دعوه، فإنه يحب الله ورسوله، ما نفى عن شارب الخمر محبة الله، لكنه أكد أنه مغلوب على أمره.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

((أُتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ، قَالَ: اضْرِبُوهُ قَالَ: أَبُو هُرَيْرَةَ، فَمِنَّا الضَّارِبُ بِيَدِهِ، وَالضَّارِبُ بِنَعْلِهِ، وَالضَّارِبُ بِثَوْبِهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ، قَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: أَخْزَاكَ اللَّهُ، قَالَ: لَا تَقُولُوا هَكَذَا، لَا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ))

[البخاري]

أنا أريد أن الأخ المؤمن إذا رأى عاصياً ينبغي أن يستوعبه، أن يكون له قلب كبير.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - منهج التائبين - الحلقة 20- 30: الآمر بالمعروف لا يحتقر مقترف الذنب2.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-12-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

الحقيقة أن موضوع التألّي على الله موضوع دقيق جداً، ينطلق هذا الموضوع من أن النبي عليه الصلاة والسلام كان عند أحد أصحابه، وكان قد توفاه الله، اسمه أبو السائب، سمع امرأة تقول من وراء الستار: هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله.

النبي عليه الصلاة والسلام كلامه تشريع، وفعله وسكوته تشريع، لو أنه سكت على قولها لكان هذا صحيحاً وتشريعاً، أما أنا كمؤمن لو رأيت منكراً، ولم أستطع أن أنكره بلساني ولا بيدي أنكرته بقلبي، ولا شيء علي، أنا سكوتي لا يعد تشريعاً، لكن النبي صلى الله عليه وسلم وحده لأنه مشرع، ولأن الله أمرنا أن نأخذ منه كل شيء، أقواله، وأفعاله، وإقراره، لو أن النبي صلى الله عليه وسلم سكت على قولها لكان كلامها صحيحاً، عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدٍ الْأَنْصَارِيُّ أَنَّ أُمَّ الْعَلَاءِ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِهِمْ قَدْ بَايَعَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَتْهُ

((أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ طَارَ لَهُ سَهْمُهُ فِي السُّكْنَى حِينَ أَقْرَعَتِ الْأَنْصَارُ سُكْنَى الْمُهَاجِرِينَ، قَالَتْ أُمُّ الْعَلَاءِ: فَسَكَنَ عِنْدَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ، فَاشْتَكَى، فَمَرَّضْنَاهُ، حَتَّى إِذَا تُوُفِّيَ، وَجَعَلْنَاهُ فِي ثِيَابِهِ، دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمَهُ ؟ فَقُلْتُ: لَا أَدْرِي، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَّا عُثْمَانُ فَقَدْ جَاءَهُ وَاللَّهِ الْيَقِينُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِهِ، قَالَتْ: فَوَاللَّهِ لَا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا، وَأَحْزَنَنِي ذَلِكَ، قَالَتْ: فَنِمْتُ فَأُرِيتُ لِعُثْمَانَ عَيْنًا تَجْرِي، فَجِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ذَاكِ عَمَلُهُ))

(صحيح البخاري)

كلمة (أرجو) إذا قلت: لقد أكرمك الله فقد تألّيتِ على الله، أما إذا قلت: أرجو الله أن يكرمه فقد دعوت له بالخير.

المذيع:

أليس ذلك من باب حسن الظن بالله ؟

الأستاذ:

صحابي جليل كان مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزواته، لكن مقام الألوهية يقتدي أن يعلم المستقبل وحده، لكن مقام البشرية من حقه أن يتفاءل، أن يرجو لا أن يجزم، هي جزمت قالت: لقد أكرمك الله، قال: ومن أدراك أن الله أكرمه، قولي أرجو الله أن يكرمه، وأنا نبي مرسل لا أدري ما يفعل بي ولا بكم، ليس هذا من باب الظن بالله لا، ويرجو رحمة الله ويرجو أن يكون من أهل الجنة، ولكن أن تجزم على المستقبل هذا ممنوع، والعكس صحيح، أن يعد الآخرين بالنار وأن الله لن يغفر لك هذا تألي عن الله.

والتألّي عن الله ينطلق من جهلٍ بالله، وبأصول العقيدة، ومن كِبْر، من أنت حتى تتألّى على الله ؟ قال: قولي أرجو الله أن يكرمه وانتهى الأمر، لذلك من أدب الصحابة الكرام أن أحدهم إذا سئل عن أحد يقول: والله أظنه كذا وكذا، ولا أزكي عن الله أحداً

(فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى)

سيدنا الصديق عندما عيّن سيدنا عمر خليفة من بعده جاء من يلومه على هذا التعيين، سيدنا عمر شديد جداً، فقال: أتخوفونني بالله ؟ والله لو أن الله سألني: لمَ استخلفته لقلتُ: واللهِ استخلفت عليهم أرحمهم، لكن هذا علمي به، فإذا بدّل، وغيّر فلا علم لي بالغيب.

لو تألّهت على الله، بأن وصفت إنساناً من أهل الجنة تكون قد انحرفت في عقيدتك، وفي قولك، فكيف إذا تألّيت على الله، وحكمت عليه أنه من أهل النار ؟ واللهِ في تاريخ دعوتي ما يزيد على عشرين حالة من الحالات الانحرافية إلى أقصى الحدود، ومع ذلك حينما عادوا إلى الله قبِلهم الله عز وجل، فالتألّي على الله جهل بالعقيدة، وسوء أدب مع الله، وتطاول على الله، ولكن من شأن المؤمن أنه يحب الطائع، ويبغض العاصي، وهذه علامة إيمانه، لو أن إنسانًا هوي الكفرة حشر معهم، لا ينفعه عمله شيئاً، لا يعقل أن يحب مؤمن عاصيًا زانيًا شاربَ خمر متطاولا على الله، إن أحبه كان هذا علامة فقْدِ إيمانه.

العلماء فرقوا بين أن تبغضه وبين أن تبغض عمله فقط، كحال الأم مع ابنها، تكره عمله، فإذا عاد إليها تائباً قبلته، وضمّته إلى صدرها.

أذكر أن عملاق الإسلام عمر بن الخطاب، وقبْل أن أذكر آخر القصة أبدأ من أولها، أحد الذين فقدوا ابناً لهم أسيراً في معركة بدر عمير بن وهب، هذا من أشد الكفار بغضاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، جلس مرة مع صفوان بن أمية، وفي مكان خال قال عمير لصفوان: لولا أولاد أخشى عليهم العنت من بعدي، ولولا ديون ركبتني لا أطيق سدادها لذهبت، وقتلت محمداً، وأرحتكم منه، صفوان ذكي جداً، وغني، فاستغل هذه النقطة، قال: أما أولادك فهم أولادي ما امتد بهم الأمر ، وأما ديونك فهي علي بلغت ما بلغت، فامض لِمَا أمرت، تكفل بأبنائه وديونه، سقى سيفه سماً ليقتله بضربة واحدة،

وركب ناقته وتوجه إلى المدينة، وقد تسألني: كيف يجرؤ على دخول المدينة، هناك حجة معه، له ابن أسير، وأولياء الأسرى يأتون لفك أسراهم، وصل إلى المدينة بعد أيام عديدة، لمحه عمر فقال: هذا عدو الله جاء يريد شراً، وذهب به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: يا رسول الله، هذا عدو الله جاء يريد شراً، سيدنا رسول الله نبي عظيم، قال: يا عمر أطلقه، فأطلقه، قال: ابتعد عنه، فابتعد عنه، قال: ادنُ مني يا عمير، فدنا منه، قال: سلم علينا، قال: عمتَ صباحاً يا محمد ! قال: قل: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فأجاب بغلظة ما بعدها غلظة، قال: لست بعيداً عن سلامنا يا محمد، هذا سلامنا، قال: يا عمير، ادنُ مني ما الذي جاء بك إلينا ؟ قال: جئت لفك ابني من الأسر، قال: وهذه السيف التي على عاتقك ؟ قال: قاتلها الله من سيوف، وهل نفعتنا يوم بدر ؟ قال: يا عمير، ألم تقل لصفوان: لولا ديون ركبتني ما أطيق سدادها، ولولا أولاد أخشى عليهم العنت من بعدي لذهبت، وقتلت محمدًا، وأرحتكم منه ؟ ماذا فعل عمير ؟ وقف ! وقال: أشهد أنك رسول الله، لأن هذا الذي جرى بيني وبين صفوان لا يعلمه أحد إلا الله، وأنت رسوله، وأسلمَ.

الشاهد في القصة، أن سيدنا عمر قال: دخل عمير على رسول الله، والخنزير أحب إليّ منه، وخرج من عنده، وهو أحب إلي من بعض أولادي !

المؤمن الصادق لا يكره العاصي، يكره عمله فقط، الإنسان إذا أطاع الله حلت كل مشكلته، بل في الأثر:

((إذا رجع العبد إلى الله نادٍ مناد في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً، فقد اصطلح مع الله))

والله الذي لا إله إلا هو لا أجد كلمة هنيئاً لك لأي أخ إلا إذا تاب إلى الله.

المذيع:

هذا من حلاوة الإيمان أن يحب المرء لا يحبه إلا لله،

الأستاذ:

عَنْ أَنَسٍ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

(صحيح مسلم)

وهذا يقودنا إلى موضوع خطير في الدين، الولاء والبراء، ينبغي أن توالي المؤمنين، ولو كانوا ضعافاً وفقراء، وينبغي أن تتبرأ من الكفار والمشركين، ولو كانوا أغنياء وأقوياء، قضية انتماء، أنا أنتمي إلى مجموع المؤمنين، أنا أدافع عنهم، أحل بعض مشكلاتهم، أما أن أنسحب منهم، وأن أتعاون مع عدو لهم من أجل مصالحي، والله الذي لا إله إلا هو من تعاون مع أعداء المؤمنين من أجل مصالحه

المادية أقول: والله لقد خرج من الإيمان، وهذه خيانة كبيرة جداً، بل إن معركة المسلمين اليوم معركة نكون أو لا نكون، معركة بقاء أو فناء، لأن أعداءهم أقوياء جداً، وأغنياء، وأذكياء جداً، ولا يرحمونهم، فنحن حينما نوالي المؤمنين فينبغي ألا نكره العصاة لذاتهم، بل نكره عملهم فقط، وهكذا كان عليه الصلاة والسلام وكان قمة في جلب أعدائه.

أذكر أن عكرمة بن أبي جهل، فرعون هذه الأمة وصف به أعدى أعداء النبي من دون استثناء، فقال لأصحابه بعد أن جاءه عكرمة مسلماً: جاءكم عكرمة مسلماً، فإياكم أن تسبوا أباه، فإن سب الميت يبلغ الحي، ولا يبلغ الميت، ما هذا الأدب ؟ تلطف معه من دون ذكره بسوء، بل سيدنا يوسف لما جاءه إخوته إلى قصره قال لهم:

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ)

(سورة يوسف)

هو في الحقيقة كان بالجب، وكان بالسجن، الجب أخطر، الإنسان في السجن حياته مضمونة، وطعامه مضمون، لكنه في الجب حياته ميؤوس منها، فلم يذكر الجب لئلا يذكر إخوته بما فعلوه معه، وهذا من أدب النبوة.

فالحقيقة أن المؤمن لا يكره العاصي لذاته يكره عمل العاصي، ولمجرد أن يتوب هذا العاصي إلى الله يصبح هذا العاصي التائب أقرب إليه.

المذيع:

من عيّر أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله، هذه هي عواقب أن يعيّر المرء أخاه، وخاصة عندما يتحول هذا إلى فضيحة، عندما تكون نصيحته له فضيحة أمام الناس لذنب اقترفه، أو لمعصية قارفها.

الأستاذ:

يوجد موضوع دقيق ـ لا سمح الله ولا قدر ـ لو أن لي أخاً مصابًا بمرض جلدي، هل أحقد عليه ؟ بالطبع لا، بل أتمنى له الشفاء، هناك معاصٍ كأنها أمراض، فالمؤمن الكامل كأنه طبيب، الطبيب الكامل لا يحقد على مرضاه، لكن يعالجهم.

دخل إلى بستان أحدِ الأنصار رجلٌ، فأخذ ما ليس له، فهذا الأنصاري ساقه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: هذا سارق يا رسول الله، قال له: هوّن عليك، هل علّمته إذا كان جاهلاً، وهل أطعمته إذا كان جائعاً ؟

لابن مسعود كلمة رائعة جداً، قال: **" إذا رأيتم أخاكم قارف ذنباً فلا تكونوا أعواناً للشيطان عليه، تقول: اللهم أخزه، اللهم العنه، لكن سلوا الله العافية له، فإن أصحاب محمد كنا لا نقول في أحد شيئاً**

حتى نعلم على ما يموت، فإن ختم له بخير علمنا أنه قد أصاب خيراً، وإن ختم له بشر خفنا عليه عمله ".

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دار الفتوى - منهج التائبين - الحلقة 21 - 30: عبادة الله فيما أقامك.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-12-17

بسم الله الرحمن الرحيم

لعل جزءاً أساسياً على الإجابة على هذا السؤال الدقيق أن نعرف أن الله سبحانه وتعالى أمرنا أن نعبده، ومن أدق مفهومات العبادة أن نعبده فيما أقامنا، وقد سماها بعض العلماء عبادة الهوية، فإذا أقام الله العبد قوياً عبادته الأولى أن ينصف الضعيف، وإذا أقامه غنياً عبادته الأولى أن ينفق من ماله، وإذا أقامه عالماً عبادته الأولى أن يعلم الناس، هذا بعد أداء الفرائض.

نعم، أما إذا أقامها امرأة فأول عبادة لها أن ترعى زوجها وأولادها، ذلك أن في الإسلام شيئاً هو ذروته وسنامه، إنه الجهاد، وقد قال عليه الصلاة والسلام يخاطب امرأةً يقول:

((اعلمي أيتها المرأة وأعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

أرأيت إلى الجهاد، وهو ذروة سنام الإسلام ! أعلى عبادة في الإسلام أن تجاهد نفسك وهواك أولاً، وهذا الجهاد جهاد النفس والهوى، وأن تعلم الناس أمور دينهم، وهذا الجهاد الدعوي، وقد سماه الله جهاداً كبيراً فقال تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً (52))

[سورة الفرقان: الآية 52]

ثم الجهاد القتالي.

أرأيت إلى امرأة ترعى زوجها وأولادها هي عند الله عز وجل في جهاد، لذلك لا يقبل الله من امرأة عبادة تتناقض مع هويتها، هذه المرأة جعلها الله زوجة لزوج عليها واجبات كثيرة، أولاً أن تحصنه، كانت الصحابية الجليلة إن أرادت قيام الليل تسأل زوجها بادئ ذي بدء، ألك بي حاجة ؟ لشدة فقهها في الدين، المرأة المؤمنة تتزين لزوجها، وتعتني به، وتبذل له من نفسها ما يريد كي تحصنه، وتبعده عن معصية لا ترضي الله، بينما المرأة التي تهمل نفسها، ولا تعتني بمظهرها، ولا تعامل زوجها العبادة التي أمرها الله بها إنها تخالف منهج الله فيما أقامها، قاعدة أن الله لا يقبل عملاً صالحاً إلا إذا أديت الفرائض، فمثلاً هل يقبل الله من عبد قيام الليل، وقد ترك الصلوات الخمس ؟ مستحيل.

المذيع:

طبعاً لا.

أنا أعتقد، ولعلي على صواب أن المرأة التي تهمل زوجها وأولادها، ولا تعتني بمظهرها، ولا تلبي رغبة زوجها، ولا تربي أولادها التربية الصالحة، هذه إن أرادت أن تكون داعيةً هي تتناقض مع نفسها، لأنها تخالف أمر الله فيما أقامها.

فالمرأة عبادتها الأولى أن تحسن رعاية زوجها وأولادها، وعبادتها الأولى أيضاً أن تسهم في إعفاف المسلمين، فثيابها جزء من دينها، وقد خلق الله المرأة محببة للرجال، فإذا خرجت في الطريق تبرز مفاتنها لشباب بينهم وبين الزواج عشرون عاماً، هذه تثير فتنةً لا ترضي الله عز وجل، إن كان خروجها يتناقض مع منهج الله عز وجل فهي عاصية، لذلك حينما تكون المرأة مستورةً، بمعنى أنها لا تظهر مفاتنها للأجانب، ثم تلبي حاجات زوجها التي أمر الله بها وأولادها عندئذ تكون قد عبدت ربها العبادة التي أقامها الله فيها، وكما أن الله لا يقبل نافلةً ما لم تؤدَ الفريضة، كذلك لا يقبل الله من امرأة حضور دروس علم ولقاءات دعوية، وهي قد أهملت زوجها وأولادها، بل إنني أرى أن المرأة التي تعتني بزوجها وأولادها هي أقرب إلى الله من امرأة أهملت زوجها وأولادها، واعتنت بعباداتها النافلة، أنا أذكر قصة تكاد لا تصدق.

المذيع:

نرجو لها أن تكون أقرب إلى الله سبحانه وتعالى من التي...

الأستاذ:

امرأة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم سوف تصبح السيدة الأولى في المجتمع الإسلامي، عندها أولاد أيتام، قالت: يا رسول الله، أخاف إن كنت زوجةً لك أن أهملهم، وأخاف إن اعتنيت بهم أن أهملك، فاعتذرت، هذه امرأة بطلة اعتذرت عن أن تكون زوجة رسول الله لعلمها أن عليها واجباً لا حدود له مع أولادها، وأمام زوجها، فيا أخي الكريم هذه المرأة التي تهمل زوجها، وقد تحمله على معصية دون أن تشعر، وقد تجعله يطلق بصره في الحرام، وقد تجعله يأنس للقاء لا يرضي الله في إعراضها عنه، ولانشغالها عنه، هذه لا تفقه شيئاً في الدين.

المذيع:

ونحن نتحدث عن منهج التائبين، وعن أخلاق التائبين، فضيلة الشيخ هنا نتحدث عن أمر دقيق قد يصادف بعض الأسر، ليس الأمر مقتصراً على المرأة التي تابت إلى الله، والتزمت بمنهج الله، العكس صحيح، الزوج تاب إلى الله، والتزم بمنهج الله، وهو يحقر زوجته التي ما تزال تقترف المعاصي، هل له أن يحقرها ؟ هل له أن يهملها ؟ ظناً منه أنها سترضيه بالتوبة إلى الله ؟

الأستاذ:

والله الذي أراه أنه كما كان شارداً عن الله، ثم تفضل الله عليه، ودله على طريق الإيمان كما صبر الله

عنه، ينبغي أن يصبر عليها، وكما تفضل الله عليها فدلها على طريق الهدى، وكأن الله صبر عليها، ينبغي أن تصبر على زوجها، من سوء الأدب مع الله، ومن عدم الحكمة أن المرأة إذا تابت إلى الله بدأت تعيير زوجها، لكن ينبغي أن تنصحه برفق، وفيما بينها وبينه، بل إن المرأة إذا أهملت زوجها أوهمته أن دينها هو العقبة في مودتها له، لو أن المرأة التائبة التي عرفت ربها، وتحجبت، واستقامت على أمره، وكان زوجها غارقاً في المعاصي والآثام، فاعتنت به، وصبرت عليه هو بشر من لحم ودم، يراها تصلي، يراها تحب الله، يراها تتلو القرآن، وهو غارق في المعاصي، عنايتها به، وإكرامها له على معصيته قد تجلبه إلى الدين، ما هذا الدين ؟ أما حينما تسيء إليه، لأنها مؤمنة تبعده عن الدين.

مرة سألني أخ، قال لي: عندي ولدان، أحدهما عاق، أريد أن أكافئ الأول، وأحرم الثاني، قلت له: تزيد العاق عقوقاً، أما إذا عدلت بينهم على اختلاف موقفهم منك فلعلك تحمل هذا العاق على أن يكون باراً بك، لذلك المشكلة ليست في البيان والتقريع والتأنيب، المشكلة في المعاملة، والله أنا أقسم لك إن أناساً كثيرين أعرفهم سبب توبتهم زوجاتهم، زوجته مؤمنة مستقيمة، واحتوته، واستوعبته، وآنسته، وخدمته، فكان إكرامها له سبب هدايته وتوبته، لكن أنا أقول لك كلمة دقيقة جداً: إن المرأة مستقلة في دينها عن زوجها، كيف ؟ لو أن زوجها أمرها بمعصية فلا يقبل الله منها أن تقول له يوم القيامة: يا رب، هكذا أمرني، ساق الله لنا قصة شهيرة، قال تعالى:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11))

[سورة التحريم: الآية 11]

من فرعون ؟ أكبر طاغية في الأرض، من فرعون ؟ الذي قتل أبناء بني إسرائيل، واستحيا نسائهم، ومع ذلك بكل جبروته وطغيانه لم يستطع أن يحمل زوجته على عبادته.

في هذه القصة ملمحان دقيقان:

الملمح الأول: هو أن المرأة مستقلة في دينها عن زوجها، لا يقبل منها أن تقول: هو أمرني، لعل هذا في ذمته، لا، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

الملمح الثاني الخطير: أنها لم تتركه بقيت زوجته تخدمه، معنى ذلك أن المرأة إذا وجدت زوجها غارقاً في المعصية فواجبها أن تعامله كزوجة صالحة أن تؤدي الذي عليها، وأن تطلب من الله الذي لها.

هذا الزوج الغارق في المعاصي إذا منع زوجته من مجلس علم أو نشاط عام مع أخواتها الناشطات في المجتمع الإسلامي، هل تقول: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ؟

لا أنا أقول شيئاً آخر لا يمكن أن ينعكس دين زوجته عليه خدمةً ورفقةً ومودةً، ويمنعها عن هذه المجالس لا يمكن، أما إذا انعكست هذه المجالس عليه غلظةً واستعلاءً وكبراً وتقريعاً وإهانة وإهمالاً

لابد من أن يمنعها، تصور أن الدين جعلها متكبرة، أن الدين جعلها مهملة، أن الدين جعلها قاسية، إذاً يمنعها، أنا والله متأكد مما أقول: لا يمكن لامرأة لها مجلس علم تحضره، أو لها أستاذة تعلمها إلا انعكس دينها على زوجها خدمة ورقة ورحمة وتواضعاً لا يمكن أن يمنعها، أنا من خلال تجربتي المتواضعة حينما يتفوق أحد طلابنا في التعليم الثانوي يقول له أبوه: خذ أخاك معك إلى المسجد، أما حينما يرسب في المدرسة، وهو من رواد المسجد يمنعه من المسجد، هذه قاعدة، أنت على ثغرة من ثغر الإسلام، فلا يؤتين من قبلك، كل مسلم حقيقةً هو سفير المسلمين، فإذا أعطى عن الإسلام صورةً متألقة أحب الناس الإسلام.

مثلاً: موظف في محل، إذا ذهب ليصلي، وغاب ساعتين، يمنعه صاحب العمل من الصلاة في المسجد، أما إذا غاب عشر دقائق، وحاسب نفسه على الدوام حساباً عسيراً، يشجعه على الصلاة في المسجد، نحن لسوء فهمنا، ولسوء حكمتنا ننفر الناس من الدين، كما أن هناك داعية إلى الدين، هناك منفر من الدين، فالمرأة التي تتمسك بدينها، وهذا فرض، لكن مع تمسكها في غلظة وفي شدة وفي استعلاء، أول من يكره دينها زوجها.

ليكن إسلامنا كإسلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه الذي أحب محمداً فأحب الإسلام، فأسلم، أو كإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي أحب الإسلام، فأحب محمداً، فأسلم، وهكذا من باب الحب يمكن أن نصنع المعجزات في مجال الدعوة، وفي مجال التوبة، وفي كل مجالات الخير.

أسرة فقيرة جداً ليس في بيتها ماء ساخن، فهذه الزوجة تؤدي واجبها اتجاه زوجها، وتستيقظ قبل الفجر، تسخن له الماء، تدعوه إلى الصلاة برقة بالغة، هو من لحم ودم، الزوجة التي أكرمها الله بالحكمة، أكرمها الله بالفقه، تدعو إلى الله برفق ونعومة، لا أنسى أنا من جاء لملك ليعظه، فقال له: سأغلظ عليك، فقال له: ولِمَ الغلظة يا أخي ؟ لقد أرسل الله من هو خير منك إلى من هو شر مني، أرسل موسى إلى فرعون، فقال له: قل له قولاً ليناً، الكلام اللطيف، نحن نفهم الدعوة إلى الله تحتاج إلى عنف، وإلى قسوة، وإلى توبيخ، وإلى تقريع لا، الدعوة إلى الله تحتاج إلى لطف:

(فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44))

[سورة طه: الآية 44]

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دارالفتوى - منهج التائبين - الحلقة 22 - 30 : توجيه المربون للتائبين.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-12-18

بسم الله الرحمن الرحيم

لابد من أن ننطلق من آية محكمة في القرآن الكريم من أجل هذا الموضوع، قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

[سورة آل عمران: الآية 159]

هذه الآية تكاد أن تكون معادلة رياضية، أي يا محمد بسبب رحمة استقرت في قلبك كنت ليناً لهم، فلما لنت لهم التفوا من حولك، وأحبوك، لو كنت منقطعاً عنا لامتلأ القلب قسوةً، ولانعكست القسوة غلظة وفظاظة، فانفضوا عنك، وكأن المعادلة اتصال، رحمة، لين، التفاف، انقطاع، قسوة، غلظة، انفضاض.
هذا الكلام موجه لكل أب، ولكل معلم، ولكل مرشد، ولكل داعية، ولكل قائد، ولكل من يعمل وتحت إمرته أناس كثر، حينما يتصل العبد بربه يمتلئ القلب رحمة على من حوله، قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (107))

[سورة الأنبياء: الآية 107]

فإذا رحمهم كان ليناً معهم، انعكست الرحمة ليناً، يا داود، ذكر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، أنا لا أفهم موعظة لا يسبقها إحسان، لأن الإحسان قبل البيان، لا يستطيع الأب الذي أهمل ابنه لم يؤدِ ما عليه اتجاهه، لم يحسن اسمه، ولا تربيته، ولم يعلمه القرآن، ولم يعطه حاجاته الأساسية، وأهمله، وتركه لرفاق السوء، مثل هذا الأب لا يستطيع أن ينتظر من ابنه أن يكون باراً، كأن الأب عق ابنه قبل أن يعقه ابنه، فلذلك حينما يؤدي الأب الذي عليه ينتظر من ابنه أن يكون باراً، وحينما يؤدي الابن الذي عليه ينتظر من الأب أن يكون باراً فالإحسان قبل البيان، والقدوة قبل الدعوة، فكل أب اتصل بالله، وامتلأ قلبه رحمة فانعكست ليناً، التف أولاده حوله، وأحبوه.

ومن مفارقات الحياة أن الأب البخيل ـ لا سمح الله ـ يضن على أولاده بحاجاتهم الأساسية، يتمنون موته، فإذا ألمّ به مرض، وجاء الطبيب، وقال: القضية بسيطة، يتألمون، يتمنون أن يكون المرض عضالاً ليستريحوا من بخله، بينما الأب الكريم الرحيم المحسن الحكيم يتمنى أولاده أن يموتوا، ويبقى، هذه حقيقة ثابتة في العلاقة بين الآباء والأبناء، الأب المؤمن يعرف واجباته اتجاه أولاده، والابن المؤمن يعرف واجباته اتجاه أبيه وأمه، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تكون العلاقة بين الآباء والأبناء علاقة منضبطة فيها إحسان، وفيها رحمة، وفيها عطاء، وفيها تضحية، إلا إذا عرف الأب واجباته اتجاه

أولاده، وإلا إذا عرف الابن واجباته اتجاه أبيه وأمه، هذا هو المنطلق، المنطلق أن نعرف الله، وأن نتصل به، عندئذ نعرف ما لنا وما علينا.

المذيع:

لنتأمل صورةً أخرى، فضيلة الشيخ الدكتور محمد راتب النابلسي، رجل تاب إلى الله سبحانه وتعالى بعد سنوات من الغفلة والمعصية، وقبل اللهُ ـ والعلم عند الله ـ توبته، يأمر أولاده وأبناءه بالتزام منهج الله، ويصر على ذلك، ويعمل جهده ليكونوا كذلك، ويطلب منهم أن يكونوا أولياء، بادئ ذي بدء أين الحكمة ؟ كيف يتصرف ؟ كيف يتعامل ؟

الأستاذ:

الحكمة يا سيدي هي توجيهات النبي صلى الله عليه وسلم، علموا أولادكم، ولا تعنفوهم، فإن المعلم خير من المعنف.

أنت حينما تجد في ابنك انحرافاً ـ لا سمح الله ـ أمام شيئين، إما أن تضربه بقسوة، وإما أن تأمره أن يفعل كذا وكذا بلا تعليل، وبلا رقة، وبلا رحمة، إنه يزداد نفوراً من هذه التوجيهات، والله أعرف أباً قمع بناته في حياته على ارتداء الحجاب، قمعهن قمعاً، ولم يعلمهن حكمة الحجاب، ولا فضل الحجاب، ولا ثواب المرأة المحجبة، ولا ماذا ينتظرها من زوج صالح، قمعهن بارتداء الحجاب، فلما مات هذا الأب تفلتت بناته تفلتاً لا يعقل، لأنه سلك معهن أسلوب القمع، ولم يسلك معهن أسلوب الموعظة الحسنة، فأنا أؤمن أن الأب لا يستطيع أن يقنع ابنه أن يلتزم الصواب والحق والخير إلا إذا كان قدوةً له أولاً، وكان محسناً له ثانياً، أما إذا قصر الأب في أداء ما عليه فالابن لم يستفد من هذه النصائح، فالإحسان قبل البيان، والقدوة قبل الدعوة.

المذيع:

إذاً التوجيه بأن يكون قدوةً.

الأستاذ:

التعليم لا في التعنيف، التعنيف قمع، أخطأ أضربه، وأعنفه وأسبه، هذا سلوك فيه خطر كبير، يعود عليك بالشر في الدنيا والآخرة، أبين له، والأب لا ينجح مع أولاده بتربيته إلا إذا حاسبهم على واحدة، وغض بصره عن عشرة، لو أنه أثقل عليهم بالنصائح لكرهوا وجوده، وكرهوا نصيحته، لابد أن تكون النصيحة من حين إلى آخر، أغض البصر عن واحدة، وأدقق في واحدة.

المذيع:

أسمح لنفسي أن أقول: إن هذا القول قد يأخذه بعض المتشددين بأنه تفلت وتفريط ولين في غير موضعه، ما القول في ذلك ؟

الأستاذ:

أنا واعذرني فيما أقول أعدّ أن أكثر أخطاء الأبناء سببها الآباء، في الأصل ما الذي يحصل ؟ ينجب الأب ابناً يهمله لسنوات طويلة، ثم يصحو، وقد بلغ سن المراهقة، أهمله من سن الخامسة، لم يكن معه، لم يألف أباه، لم يألف مجالسه، لم يألف حركاته الطيبة، أبعده عنه، ارتاح من دونه، هذه مشكلة، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الزموا أولادكم))

أنا دعيت إلى نزهة، شيء مريح لي أن أدع ابني في البيت، وفي غيبتي سيعيش مع أصدقاء السوء، يتعلم منهم من بذاءتهم، من انحرافهم، من قصص ماجنة، أنا مرتاح مع أصدقائي في نزهة، أما حينما آخذ ابني معي، ويتمتع بما أتمتع، ويرى أدبي في السلوك والمعاملة، أنا أكون قد نقلته إلى مستوى راقٍ، فالزموا أولادكم، تحتاج إلى جهد، لكن ثمارها يانعة جداً، أما لو أنك تخليت عن ابنك الذي يحصل أن الآباء يهملون أبناءهم، وهم صغار، يتعلمون من أصدقائهم، ومن رفقائهم كلمات وسلوكًا لا يرضي الله عز وجل، فلذلك حينما يفاجأ الآباء بانحراف أولادهم لا يحتملون، فيكونون قساةً عليهم، أنا أطمئنهم أن انحراف أبناءهم في البداية سببه الآباء، أما حينما يستيقظ بعد فوات الأوان يكون قد انتهى كل شيء. أنا أتمنى على الإخوة المستمعين وعلى الآباء والأمهات بالذات أن ينتبهوا إلى أولادهم في سن مبكرة جداً، وإلا بعد أن يعوج الابن بسبب إهمال والديه لن يستطيع أن يقومه أبوه بكلمة قاسية، ولا بضرب مبرح، انتهى الأمر.

المذيع:

هناك قواعد على قدر كبير من الأهمية في التربية قواعد إسلامية تربوية، أرساها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنهجه، بقوله، بفعله، هل لنا من بعض هذه الأمور وخاصةً كما ذكرتم، يصحو هذا الأب من غفلته، ويرى أبناءه على هذا التفلت عن منهج الله.

الأستاذ:

كان عليه الصلاة والسلام في بيت أحد أقربائه فصاحبة البيت نادت ابنها، وقال: تعال هاكَ، أي تعال خذ، ولم يظهر ما في يديها، فالنبي عليه الصلاة والسلام سألها: ماذا أردت أن تعطيه ؟ قالت: تمرة، وأرته إياها، قال: أما إنك لو لم تفعلِ ذلك لعدت عليك كذبة.

مرة جاءني صديق قريب من أمريكا، ومعه ابنه، فيبدو أن ابنه كان صعب الانقياد، أزعج جدته، قالت له جدته: اسكت، و مساءً سآخذك إلى مكان جميل، فصدقها، وسكت، وانتظر المساء، فلم تأخذه معها، فهو ابن صغير، قال: أنت كذابة.

نحن نعطي وعودا، انتظر، اسكت، سوف أعطيك، سوف آخذك إلى مكان جميل، الأب الذي وفقه الله في تربية أولاده لا يمكن أن يعد أولاده شيئاً إلا ويلبيه لهم، وإلا فقد مصداقيته.

فهذه تربية الأولاد مسؤولية كبيرة تحتاج إلى علم، وتحتاج إلى فهم، وتحتاج إلى دراية وحكمة حتى يغدو هذا الابن ملتصقاً بأبيه، معجباً به، يمشي بهديه.

المذيع:

لنقل: استجاب هذا الولد لأبويه بالتزام منهج الله، هل يشقان عليه بمنتهى الطاعات والنوافل، وصورة العبادة التي يريدونها له بأسمى حللها ؟

الأستاذ:

هذا من عدم حكمتهم، تعلم أيها الأخ الكريم جزاك الله خيراً أن التكاليف الشرعية تبدأ في سن البلوغ، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام أمرنا أن نكلف أبناءنا تكاليف تربوية، ندربه على الصيام في وقت مبكر، فإذا صام نصف النهار قبلناه منه، نعلمه الصلاة، فإذا صلى الفرض قبلناه منه، فلابد من التدرج، خالق الأكوان حينما حرم الخمر حرمها بالتدريج مع أصحاب رسول الله، قال:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى)

[سورة النساء: الآية 43]

لم يحرمها دفعة واحدة، مع أنها منسوخة كلها ؟ بقيت كي تعلم الدعاة إلى الله، وتعلم الدعاة كيف يربون أبناءهم، لابد من مرحلة فيها حل وسط بين التفلت والتمسك، إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، سددوا وقاربوا، هذا السلوك ناجح جداً مع الأبناء، حينما يرى الابن أن الدين ليس شيئاً ثقيلاً عليه فالأب يعظ، وينصح من حين إلى آخر، ويغض بصره من حين إلى آخر، حتى يملك قلب ابنه، أما إذا قسا عليه، وطالبه بأوامر هو لا يفعلها هذه المشكلة، أحياناً الأب يطالب ابنه بأوامر هو لا يفعلها.

يا أيها الرجل المعلم غيــره هلا لنفسك كان التعليــم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيــها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
لا تنهى عن خلق وتأتي مثلــه عار عليك إذا فعلت عظيم

هذه كلمة صادقة للآباء الأب لمجرد أن يكون قدوةً ويكون رحيماً يفعل في أولاده المعجزات، يجب أن يكون قدوةً، وأن يكون حكيماً ورحيماً، ومحسناً، إن أدى هذا صار كلامه يسري في أبنائه كالسحر.

المذيع:

وهناك نقطة دقيقة جداً، أن يلزم أولاده، البعض يلزم المسجد، يلزم مجلس علم، والبعض الآخر يلزم المقاهي، ويلزم ما يلزم، ويهمل أبناءه، أين الحكمة، أين الميزان في هذا ؟

الأستاذ:

والله حينما يهمل أولاده سواء أكان الأب في المسجد، وقد أهمل أولاده، أو كان في ملهى ـ لا سمح الله ـ وأهمل أولاده فإهمال الأولاد ذنب كبير لا يغفره أن تكون في المسجد، الأمر سيان، خذه معك إلى المسجد، أنا والله عقب خطبة الجمعة أقدم لأي طفل جاء مع أبيه قطعة حلوى ثمينة، وقد يكلفنا الشيء الكثير، لكن هذا نوع من الترغيب.

ما معنى المسجد ؟ يعني فيه طعام طيب، أكلة طيبة، بتعبير الأطفال قطعة حلوى، وفي العيد أقدم لكل طفل جاء مع أبيه إلى المسجد قطعة حلوى، ومبلغا من المال ورقا جديدا، أنا أريد أن أدع خبرةً مريحةً عند الطفل إذا أتى إلى المسجد، وأمنع أحداً أن يضعه في الصف الآخر، أسمح له أن يقف في الصف الأول، وأسأله عن اسمه، وعن حاله، وعن دراسته، وعن معلمه، لأن هؤلاء الأطفال أحباب الله، ولا تأتي هذه النفس إلا بالإحسان، المحسن حكيم، أما الواعظ القاسي فغير حكيم، ولن يستطيع أن يصل إلى شيء.

وهناك حكمة كبيرة، من سنة سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما يؤدي الفرض في المسجد، ويؤدي ركعتا السنة في المنزل، لا يكون البيت قبراً، الفرض في المسجد، والسنة في البيت، يكون قد أحيا هذا البيت بذكر الله كي يتعلم الأبناء، ويألفون هذا.

لو أن إنساناً صلى مع زوجته وأولاده في البيت، لو تركهم، وصلى في المسجد لا يصلون، بعض العلماء يعد هذه الصلاة صلاة جماعة، إذا أيقظت زوجتك وأولادك، وصلوا معك فبعض العلماء يعد هذا من صلاة الجماعة.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دارالفتوى - منهج التائبين - الحلقة 23 - 30: صور من الواقع.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-12-19

بسم الله الرحمن الرحيم

قضية الخطبة بين الخاطب ومخطوبته تنتظمها علاقة ذكرها الله عز وجل، وذكرها النبي عليه الصلاة والسلام، ذكرها الله عز وجل في قوله تعالى:

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

(سورة النور)

وقد نتوهم أن هذا حكم تكويني، ليس كذلك، هو حكم تكليفي، لو أن هذه الآية حكم تكويني ماذا نفعل بزوج صالح مع زوجة سيئة ؟ أو زوجة صالحة ولية مع زوج سيئ ؟ العلماء أجمعوا على أن هذه الآية لا تعني أنها حكم تكويني، بل إنها تعني أنها حكم تكليفي، أي احرصوا يا عبادي.

المذيع:

لنشرح هذا المصطلح حكم تكويني وحكم تكليفي.

الأستاذ:

الأحكام التكوينية أفعال الله، بينما الأحكام التكليفية أوامره ونواهيه، أنا في طريق وضعت لوحة في أوله مكتوب عليها: " ممنوع المرور "، هذا أمر تكليفي، الطريق مفتوح، وبإمكاني أن أسير فيه، لكن أتحمل جزاءً مِن قِبل واضعي قوانين السير، فاللوحة ممنوع المرور، هذا حكم تكليفي، أما إن وجدت أربع مكعبات إسمنتية قد أغلقت الطريق نقول: هذا حكم تكويني، أنا لا أستطيع أن أتجاوزه، لوجود كتل إسمنتية تحول بيني وبين السير في هذا الطريق، فالحكم التكويني أفعال الله، بينما الحكم التكليفي أوامره ونواهيه، ولله المثل الأعلى، فحينما يقول الله عز وجل:

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

هذا حكم تكليفي، أي ينبغي أن يكون الطيبون للطيبات، احرصوا يا عبادي على أن يكون الطيبون للطيبات، هذا أصل في هذا الموضوع، ثم إن النبي عليه الصلاة والسلام يقول في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ، لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ))

(صحيح البخاري)

يوجد حديث فيه تفصيلات أكثر:

((من تزوج المرأة لجمالها أذله الله ـ لجمالها فقط لم يعبأ بدينها، ولا بأخلاقها، ولا بتربيتها ـ ومن تزوجها لمالها أفقره الله، ومن تزوجها لحسبها زاده الله دناءة، فعليك بذات الدين تربت يداك))

(ورد في الأثر)

هذه آية وهذا حديث.

الطرف الآخر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))

(سنن الترمذي)

عندنا فتاة ينبغي أن نبحث عن شاب ذي دين وخلق، وعندنا شاب ينبغي أن نبحث له عن فتاة مقبول أن تكون جميلة، وأن تكون ذات حسن ونسب، ولكن ينبغي أن تكون دينة، وهذا هو الأصل في القبول، لكن الذي يحصل أن شاباً أعجب بفتاة، تعامى عن تفلتها من منهج الله، فلما أصبحت عنده أعطاها أوامر مشددة دون أن يمهد لها، عندئذ يواجه مشكلة عويصة لا حل لها، هي متشبثة بما هي عليه قبل الزواج، وهو يريد أن يحملها بالعنف والقوة والقهر، وتهديدها بالطلاق بالالتزام بمنهج الله عز وجل، هذا موقف غير حكيم إطلاقاً.

المذيع:

كيف نعالج هذه المشكلة ؟

الأستاذ:

نحن في الأصل نعالجها وقاية لا نقع فيها.

مرة سأل معاوية بن أبي سفيان عمر بن العاص رضي الله عنه قال: ما بلغ من دهائك ؟ قال: والله ما دخلت مدخلاً إلا أحسنت الخروج منه، فقال له معاوية: لست بداهية، أما أن والله ما دخلت مدخلاً أحتاج أن أخرج منه.

الإنسان العاقل يتزوج امرأة لا يحتاج أن يطلقها، الأقل عقلاً إن تزوج امرأة، ولم تكن كما تتمنى بحكمته يصلحها، فأنت بين أن تتزوج امرأة وفق أهدافك تماماً، هذا يحتاج إلى بحث طويل، وإلى صبر مديد، لكن إن أخذت امرأة، ولم تكن كما تتمنى ينبغي أن تعاملها بالرفق.

(كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ)

(سورة النساء)

آية دقيقة جداً، فأنت حينما تهتدي إلى الله، والذين حولك لم يكونوا كذلك، كيف أن الله صبر عليك ؟ ينبغي أن تصبر عليها، لذلك الزوجة يمكن أن تقمعها، ولكن ماذا تدري ماذا تفعل في غيبتك ؟ ولكنك إذا علمتها، وربيتها كانت في غيبتك كحضرتك.

هذه قضية مهمة جداً، الزوج القاسي جداً والقامع تفعل زوجته أمامه ما يريد، فإذا ولّى ظهره فعلت ما تريد.

نحن فيما يتعلق بشأن الخطوبة ينبغي أن أبين لمخطوبتي بادئ ذي بدء أنني مسلم ملتزم، وأن هناك أشياء لا يمكن أن أقبل بها، أنا أتسامح مع الخطيب ألا يوهم مخطوبته بطاعته، وهي في بيت أهلها، أن يعد وجودها في بيت أهلها استمراراً للماضي، في أثناء الخطبة ينبغي أن يبين لها أنني مسلم ملتزم، لا أسمح بالاختلاط، ولا بكذا ولا بكذا، يوجد أشياء ممنوعة في حياتنا، وأشياء مباحة، نأخذ منها بقدر، وأشياء واجبة علينا أن ننفذها، لماذا كانت الخطوبة تمهيداً للزواج ؟ ليست الخطوبة من أجل أن يستمتع بها فقط، من أجل أن يبين لها مبادئه وقيمه، وعاداته وتقاليده، وما ينبغي وما لا ينبغي.

أنا لا أنسى هذه المرأة التي خطبها زوجها فقامت، وخطبت قالت: " أما بعد، فيا أبا أمية، إنني امرأة غريبة، لا أعرف ما تحب، وما تكره، فقل لي ما تحب حتى آتيه، وقل لي ما تكره حتى أجتنبه، ويا أبا أمية، لقد كان لك من نساء قومك من هي كفء لك، وكان لي من رجال قومي من هو كفء لي، ولكن كنت لك زوجة على كتاب الله وسنة رسوله، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فاتّق الله فيّ، وامتثل قوله تعالى:

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

كلام طيب ! فأنت في فترة الخطوبة ينبغي أن تبين لهذه الفتاة التي تعلقت بك ما ينبغي وما لا ينبغي، ما يجوز وما لا يجوز، أنا أعد من حكمتك أيها الخاطب أن تتساهل معها وهي في بيت أهلها، لكن حينما تبين لها كل ما تريد منها إذا جاءت إلى البيت ينبغي أن تلتزم، وإلا تنشأ مصائب تنتهي بالطلاق، ومن بعض الأحاديث:

((تزوجوا ولا تطلقوا))

أنا أفهم هذا الحديث فهماً دقيقاً: تزوج امرأة إذا اختارها من أسرة متفلتة تُرتكب المعاصي في هذه الأسرة كما يشرب الماء.

المذيع:

على رجاء أن يقومها، وأن يصلح حالها، وهي كذلك على رجاء أن تصلح حاله، في حال كانت الصورة معكوسة، فما رأيكم ؟

الأستاذ:

لا ننتظر المعجزات، فتاة نشأت عشرين عاماً في بيت متفلت أشد التفلت، وليس في البيت قيمة دينية واحدة، وليس فيه صلاة ولا صيام، وفيه اختلاط يفوق حد الخيال، وفيه انسلاخ من الدين شديد، أنا لا أعتقد أن هذه الفتاة يمكن أن أغامر، وأخطبها، وأصلحها، أما إذا عندها بذرة، عندها رغبة أن تكون

ملتزمة، أنا أتقدم لخطبتها، حينما أشعر أن هذه الفتاة تريد أن تكون صالحة، لكن بيئتها سيئة، هذه ممكن أن آخذها لأصلحها، أما حينما يعجبني في فتاة جمالها فقط، ولا أعبأ ببيئتها ولا بتربيتها ولا بأهلها، ولا بتفلتهم عندئذ سوف أدفع الثمن باهظاً، حينما تأتي إلى بيتي.

المذيع:

عليه أن يهيئ الأسباب لزواج ليس بعده طلاق.

الأستاذ:

الأكمل أن يتزوج امرأة لا يحتاج إلى تطليقها، والأقل كمالاً أن يتزوج فتاة ليست على ما يريد، لكنه يحملها على ما يريد بالحكمة والموعظة الحسنى، وهذه امرأة لها شعور، ولها فكر، ولها عقل، ولها قلب، فأنا حينما أطرق بابَ عقلها تارة، وباب قلبها تارة، وحينما أكون محسناً لها، وقدوة لها لا شك أنها سوف تنصاع إلى أمري، أما حينما أكون أنا أتبع شهوتي، ثم ألزمها أن تكون عفيفة طيبة فهذا شيء مرفوض، وهو واسع الانتشار، هو يطلق لبصره العنان، ويتكلم ما يريد، ويلتقي مع من يريد، ويطيل الحديث مع من يريد، فإذا نظرت إلى رجل عنفها، ووبخها وأدبها، كن لها قدوة أنت، كما أنك تتمناها عفيفة طاهرة ينبغي أن تراك أنت عفيف طاهر.

لذلك من أروع الآيات في هذا الموضوع:

(وَلَهُنّ مِثْلُ الّذِي عَلَيْهِنّ بِالْمَعْرُوفِ)

(سورة البقرة)

حتى إن ابن عباس رضي الله عنه يقول:

((والله إني أتزين لزوجتي كما أحب أن تتزين لي))

(وَلَهُنّ مِثْلُ الّذِي عَلَيْهِنّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرّجَالِ عَلَيْهِنّ دَرَجَةٌ)

درجة القيادة، لا كما بين جندي وقائد جيش ! بل بين رتبتين فقط، لا بين أقل رتبة وأعلى رتبة، هذه الدرجة الواحدة درجة القيادة، بل إن الله عز وجل يقول:

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

(سورة الطلاق)

تأمرها وتأمرك، تنصحها وتنصحك، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام كان قدوة لنا حينما استشار زوجته أم سلمة حينما أراد أن يعتمر، ومنع أن يعتمر، وأصبح هناك اتفاقية بينه وبين قريش، فلما أمر أصحابه أن يحلقوا رؤوسهم، وأن يتحللوا تألموا ألماً شديداً فتلكؤوا، فذهب دخل إلى خيمته غاضباً قالت له يا رسول الله: احلق وتحلل أنت وهم يتبعوك، فأخذ بنصيحة أم سلمة، هكذا !

المذيع:

هنا تصح المقولة: إن الوقاية خير من العلاج، هذا الخاطب عليه أن يتخير بحسن اختيار الزوجة أو المخطوبة، وإلا لا عليه أن يفاجئها بأوامره ونواهيه، ويريدها على منهج الله كما هو عليه بعد أن تصبح في ذمته وفي منزله، هنا يأتي الاتفاق على هذه الأمور في أثناء فترة الخطوية التي جعلت لذلك.

الأستاذ:

أخطر شيء في حياة الإنسان اختيار زوجته، لأنها ستغدو أم أولاده، فإذا أنجب منها ولداً كان الفراق صعبًا جداً، الطفل يتمزق، أما أنا فيمكن أن أغير مركبتي من حين إلى آخر، وأغير بيتي.

أقول مرة ثانية: حرفة الإنسان وزوجته ألصق شيئين به، فكلما كان اختياره متأنياً وموفقاً سعد بزوجته إلى أمد طويل، وكلما كان متسرعاً في اختيار زوجته شقي بها، وشقيت به.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دارالفتوى - منهج التائبين - الحلقة 24 - 30 : سلوك التائب في المجتمع.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-12-20

بسم الله الرحمن الرحيم

الحقيقة أن المؤمن دون أن يشعر، وقد أقول: دون أن يكون داعية إلى الله، لأن الصدق وحده دعوة، والأمانة وحدها دعوة، والعفة وحدها دعوة، فنحن نريد أن نؤكد هذه الحقيقة أن الإيمان ما إن تستقر حقيقة الإيمان في قلب المؤمن إلا وتعبر عن ذاتها بحركة إلى الآخرين، ليس في الأرض مؤمن سكوني بعيد عن الحياة، منسحب، متقوقع، انعزالي، سلبي، لا يمكن أن تكون هذه صفات المؤمن، المؤمن إيجابي، يعاشر الناس، يخالطهم، يحتمل أذاهم، لكن هذا التائب له ميزة، قد تكون دعوته دعوة صامتة، وأنا أرى الآن أن الدعوة الصامتة أبلغ من الدعوة الناطقة، ذلك أن الأنبياء جاؤوا بالكلمة، وبالكلمة قلبوا وجه الأرض، وحققوا المعجزات، ولكن مع شديد الأسف أن هذه الكلمة في عصور الضياع، والهرج، والمرج، والكذب، والتدوير، والتزوير، والنفاق فقدت مصداقيتها، فكأن الكلام لم يعد يؤثر كما ينبغي، ما الذي يصلح هذا الخلل في الدعوة البيانية ؟ يصلح هذا الخلل الدعوة الصامتة، فأنا أتأثر أشد التأثر لموقف صادق، أو موقف عفيف.

جاءتني رسالة من إنسان أقسم لي إنه عقب سماع درس في الأمانة أعاد إلى ورثة عشرين مليون ليرة سورية، دون أن يملكوا عليه سنداً أو بينة ! هذا الأمين بعمله يفوق حد الخيال.

حدثني أخ جاء من واشنطن قال: سائق مغربي نسيت سيدة عنده محفظة لها في عشرة آلاف دولار في سيارته، ذهب إلى قسم الشرطة في (نيوجرسي) وقدم هذه المحفظة لرئيس القسم، لكنه كان واعياً جداً، طلب منه إيصالاً أو نسخة عن إيصال ليرى أين ستكون هذه الأمانة، وما مصيرها ؟ الذي حدثني به أخ كريم، أنه جمع طلاب بعض المدارس، وجاء حاكم الولاية، وسأل الطلاب: لو أنكم وجدتم في مركبة مبلغاً من المال ماذا تفعلون به ؟ فقالوا بشكل عفوي: نأخذه، فقال: لكن هذا السائق المسلم أعاد عشرة آلاف دولار !

أحياناً موقف أمين أو عفيف أو صادق يفوق آلاف المحاضرات، نحن الآن بحاجة إلى دعوة صامتة، المشكلة أن التائب حينما غض بصره، وضبط لسانه، وضبط دخله وإنفاقه، حينما انتظمت حياته آلاف المبادئ والقيم إنسان متميز، وصارخ في حياته، الشيء الممنوع لا يفعله، لو هددته، وما شئت أن تهدد.

المؤمن الصادق لا تغريه سبائك الذهب اللامعة، ولا ترهبه سياط الجلادين اللاذعة، إنه عرف الله، واستقام على أمره، فهذا الذي تاب إلى الله لأنه صادق، صدقه دعوة إلى الله دون أن يشعر، لأنه أمين أمانته دعوة إلى الله، لأنه عفيف عفته دعوة إلى الله دون أن يشعر، ذلك أن الصدق والأمانة والعفاف

أركان الأخلاق، هذا المؤمن إذا حدثك فهو صادق، وإذا عاملته فهو أمين، وإذا استثيرت شهوته فهو عفيف، لذلك سيدنا جعفر حينما سأله النجاشي عن رسول الله قال:

((أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الرحم، ونسيء الجوار، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته، وصدقه، وعفافه، ونسبه، فدعانا إلى الله لنعبده، ونوحده، ونخلع ما كان يعبد آبائنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء))

[أحمد عن أم سلمة]

فعجبي من أن هذا الصحابي الجليل العملاق سيدنا جعفر حينما كلفه النجاشي أن يعرفه بدين الإسلام أنْ ذكر له قيمه الخلقية، وكأن النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال:

((بني الإسلام على خمس...))

[متفق عليه عن ابن عمر]

فكأن الخمس شيء، والإسلام بناء أخلاقي كامل، بل إنه من زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان. أنا لا أصدق أن إنساناً يشد إلى الدين من صلاة المصلي، ولا من صيام الصائم، ولكن يشد إلى الدين من معاملة المؤمن، معاملة المؤمن متميزة حين ينعكس إيمانه صدقاً وإخلاصاً وأمانة ووفاء بالعهد وإنصافاً.

رجل في أثناء موسم الحج هناك دية المقتول خطأ بحادث سير ضعف ديته قبل موسم الحج، ديته في الحج مائتا ألف ريال، واللهِ سمعت هذه القصة، وتأثرت لها تأثراً بالغاً: إنسان يركب مركبته، في طريق فرعي ظهر منها شاحنة، فيها رجل وامرأته وبنتان، فلما ظهرت مقدمتها في الطريق الفرعي خفف سرعته، فلما بدا لسائق الشاحنة أن يقف وقف مديداً، ولم يتحرك، فأعاد سرعته العالية، بعد أن رفع سرعته العالية تقدم فجأة فحدث حادث، فماتت زوجته وولداه، ترتبت على هذا السائق الذي ضرب هذه المركبة الصغيرة ستمئة ألف ريال، أي ما يزيد على عشرة ملايين ليرة سورية، ماذا قال له هذا البدوي حينما جاء أولوا الأمر، الشرطة ؟ قال: والله الحق علي، وخسر بهذه الكلمة عشرة ملايين ليرة.

الحقيقة عصرنا فيه تقدم وكومبيوتر، وصواريخ وأقمار صناعية، وفضائيات وأجهزة حديثة جداً، لكن هذا العصر مع كل تفوقه العلمي والتكنولوجي فيه لؤم وقسوة، وأنانية وتأكيد الذات، بينما العصور السابقة الإسلامية فيها نبل ورحمة وإنصاف، فنحن لا نستطيع أن نشد الناس إلى الدين بصلاتنا وصيامنا فقط، نشدهم إلى الدين بإنصافنا ورحمتنا ومعاملتنا.

سيدنا صلاح الدين الأيوبي حينما فتح القدس لم يسفك دماً حراماً، بل إن امرأة جاءته وقد فقدت ابنها ظل واقفاً حتى أعادوا لها ابنها ! الحقيقة أن التائب دون أن يشعر داعية إلى الله، ودعوته صارخة

ومؤثرة، لأن الناس كما قلت في حلقة سابقة: يتعلمون بعيونهم لا بآذانهم، ولغة العمل أبلغ من لغة القول، أنت حينما تأتمر بأمر الله طلباً لرحمة الله وحفظه وتوفيقه، لكن من أدراك أن الذي رآك تغض بصرك، أو أن الذي رآك تؤدي ما عليك بالتمام والكمال، أو أن الذي رآك تعف عن محارم الله، هذا الذي يتأثر ما هذا الإنسان ؟

أنا أذكر أن هناك اسمًا لامعًا جداً في أمريكا اسمه، جيفري لانك، هذا عالم رياضيات من قمم علماء الرياضيات، وهو ملحد، جاءته شابة شرق أوسطية محجبة حجاباً كاملاً في أيام الصيف الحارة، يقول هذا العالم: إن فتيات أمريكا في الصيف شبه عرايا، هذه جاءته من الشرق الأوسط، وهي محجبة حجاباً كاملاً، قال: عندها قناعات عالية جداً، حتى إنها خالفت ما هو عليه بنات جنسها، قال: ثم إنني شعرت بقدسيتها، ثم إنني لم أجرؤ على أن أحدق في وجهها، ثم إنني شعرت برغبة جامحة أن أخدمها، ثم عكفت على قراءة كتب المسلمين، قرأ تفسير القرآن وقرأ السنة، وانتهى به المقام إلى أن يكون الآن من أكبر دعاة أمريكا ! وحينما زرت أمريكا كنت على موعد معه، لكن لم يتح لي أن ألتقي به.

ما الذي دفعه إلى أن يسلم ؟ هذه الفتاة المحجبة، الفتاة لم تتكلم بكلمة.

المذيع:

وجد أن وراءها عقيدة صلبة، وإيمان راسخ.

الأستاذ:

كنت مرة في الحج، فأشاروا إلى إنسان ألماني غربي يطوف حول البيت، له قصة رائعة، سكن عنده شاب من دمشق في بيته، وعندهم لا مانع أن تكون علاقة بين من يسكن عندهم وبين ابنته، له فتاة جميلة جداً، المشكلة أن هذا صاحب البيت لم يستطع أن يرى هذا الشاب يحدق مرة في ابنته ! غير طبيعي، يسكن معهم، وهو في البيت، وليس هناك قيود إطلاقاً، فجرى حوار بينه فكان إسلام هذا الرجل على يد هذا الشاب، ما الذي دفعه إلى حواره ؟ غض بصره فقط.

المذيع:

سبحان الله العظيم ! الذي يسر على يد هذا الشاب هدى هذا الرجل.

الأستاذ:

حجاب هذه الفتاة سبب هداية أكبر عالم رياضيات ملحد، والآن من أكبر الدعاة بأمريكا جيفري لانك، وألف كتاباً ثميناً جداً درست بعضه في دمشق، وبالمقابل هناك قصة أخرى لشاب مقيم في أمريكا بسبب الدراسة، رأى فتاة أعجبته جداً، فاستأذن والدها أن يتزوجها، فلما علم الأب ذلك توعده أنه إذا تزوجها ليس ابنه، وسيحرمه من الإرث، فتألم ألماً لا حدود له، ثم اقترح عليه مرة ثانية أنها إذا أسلمت هل يقبل؟ فالأب وافق، فاشترى كتباً إسلامية مترجمة إلى اللغة الإنجليزية، ودفعها إليها كي تقرأها، وتسلم

فيتزوجها، هي ذكية جداً، قالت له: لابد من أن أقرأها بعيدة عنك حتى لا تكون ضاغطاً علي، فجرى بينهما اتفاق على أن تبتعد عنه أربعة أشهر لتقرأ هذه الكتب، فإن قنعت بالإسلام أسلمت، وتزوجها، هو بدأ يعد هذه المدة بالساعات ! بل بالدقائق، ومضت هذه الأشهر والتقى بها، وكانت المفاجأة الصاعقة أنها أسلمت، ولكنها لن تتزوجه، لأنه ليس مسلماً !

هذه قصة معاكسة، حينما عرفت الإسلام رأته ليس مسلماً، فأنت حينما تطبق الإسلام تدعو إلى الله، وأنت لا تشعر، وحينما تخالفه تنفر من هذا الدين، وأنت لا تشعر، هذا ما أردنا أن نؤكده في هذا اللقاء.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دارالفتوى - منهج التائبين - الحلقة 25 - 30: الذنوب أسباب هلاك الأمم والتوبة حفظ هذه الأمم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-12-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الله عز وجل:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41))

(سورة الروم)

هذه الآية خطيرة جداً، في أنها تؤكد أن الفساد من صنع البشر، خالق البشر كل شيء أبدعه خير عميم، لكن الإنسان حينما أودعت فيه الشهوات، وأعطي منهجاً ليضبطها وضع المنهج وراء ظهره، وتحرك بلا منهج، وقع الفساد في الأرض، وهذا الفساد في الأرض.

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

فالباء باء السبب، والله عز وجل كان من الممكن أن يفسد الإنسان، ولا يذيقه نتائج فساده، إذاً لا يتوب، لكن شاءت حكمة الله عز وجل أنه إذا فسد أذاقه نتائج فساده لعله يتوب قال:

(النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41))

ولو استعرضنا الآيات القرآنية التي تتحدث عن أسباب هلاك الأمم لوجدنا هناك أسباباً كثيرة، في مقدمة هذه الأسباب التكذيب بما جاء به الأنبياء، وقد قال الله عز وجل:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً (35) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً(36))

(سورة الفرقان)

أحد أكبر هلاك الأمم التكذيب برسالات الأنبياء، ولكن هناك قضية خطيرة جداً، ذلك أنه في العالم الإسلامي لا تجد مؤمناً واحداً يكذب بما جاء به الأنبياء، ولكن هناك بما جاء بالتكذيب العملي، لو تتبعت حياة المسلمين لا تجد في حياتهم ما يؤكد إيمانهم بالآخرة، ولا ما يؤكد بأن الله يراقبهم، وسيحاسبهم، سلوكهم لا يتناسب مع ما يدّعونه من إيمان، هذا التكذيب العملي أخطر بكثير من التكذيب اللفظي، إنك إن كذبت بلسانك فهناك من يحاورك ويقنعك، لكنك حينما تعترف أن هناك يوماً آخر، وأن هناك حسابًا ونارًا، ولا نجد في عمل هذا الإنسان ما يؤكد إيمانه فهذا التكذيب الخطير الذي لا يكشف، لذلك العلماء قالوا: هناك كبائر ظاهرة، وهناك كبائر باطنة، الكبائر الظاهرة الإنسان يتوب منها سريعاً لأنها ظاهرة، ولكن كبائر القلب كبائر باطنة كالكبر والاستعلاء ورد الحق، فحينما أقول التكذيب أقصد التكذيب العملي في العالم الإسلامي، يؤكد هذا المعنى قول النبي عليه الصلاة والسلام، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ:

((خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَقَالَ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ ؟ قَالَ: قُلْنَا: بَلَى، فَقَالَ: الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ))

(سنن ابن ماجة)

أما إنني لست أقول: إنكم تعبدون صنماً، ولا حجراً هذه انتهت، ولكن شهوة خفية وأعمال لغير الله، أنا لا أخشى من التكذيب اللفظي، قد يظهر كاذب من حين إلى آخر فيكذب، هؤلاء قلة قليلة هم في مزبلة التاريخ، لكن الذي يقلق المسلم الذي يتمنى أن يعم الخير على كل المسلمين، الذي يقلق هذا المسلم أنك لا تجد في حياة الناس اليومية، ولا في تعاملهم، ولا في بيوتهم، ولا في تجاراتهم، ولا في سفرهم، ولا في علاقاتهم ما يؤكد إيمانهم باليوم الآخر.

الشيء الثابت أن الإنسان يتعامل مع الواقع بإدراك انفعال سلوك، أنا لا أنفعل إلا إذا كان إدراكي صحيحاً، كما أنني لا أتحرك إلا إذا كان انفعالي صحيحاً، ولعل من أبسط الأمثلة أنك إذا رأيت وأنت في بستان أفعى فعلامة إدراكك أنها أفعى لدغتُها قاتلة أنك تضطرب، وعلامة اضطرابك أنك تتحرك إما لقتلها، وإما إلى الهروب منها، كأن هذا قانون.

لذلك لو أن الناس أيقنوا أن الله يعلم، وسيحاسب، وسيعاقب لا يمكن أن يعصيه أحد، بل إن الله عز وجل حينما قال:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (12))

(سورة الطلاق)

كأن الله اختار من بين أسمائه الحسنى اسمين فقط القدير والعليم، حينما تعلم، وتوقن أن علمه وقدرته تطولك فلا يمكن أن تعصيه، هذا جانب من جوانب أسباب هلاك الأمم، التكذيب.

المذيع:

هل تؤخذ الأمة بذنب بعض الناس ؟

الأستاذ:

مستحيل ! لأن الله عز وجل يقول:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام)

ولأن الله عز وجل يقول:

(فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ)

(سورة العنكبوت)

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17))

(سورة سبأ)

ولأن الله عز وجل يقول:

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (61))

(سورة الزمر)

ولكن تؤخذ الأمة أحياناً بمعصية بعض أفرادها إذا أقرتهم على ذلك.

المذيع:

تقولون: إن من أسباب هلاك الأمم التكذيب، وسنستعرض بقية الأسباب، ولكن هنا لا يمكن أن نعمم أن كل المسلمين في عالمنا الإسلامي يكذبون تكذيباً فعلياً، هناك مجموعة كبيرة أيضاً من الأمة الإسلامية تلتزم منهج الله، وتعمل بما شرعه، وأمر به، فكيف تؤخذ الأمة بذنب البعض ؟

الأستاذ:

أنا أرفض المقولة الشائعة بين عامة المسلمين: أن البلاء يعم، أنا أرى أن البلاء خاص، والإكرام خاص، والآية دقيقة جداً:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

لا تحمل نفس حِمل نفس أخرى.

(فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ)

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17))

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ)

ولكن قال ربنا عز وجل:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (117))

(سورة هود)

ما قال صالحون ! فهذا الذي ينسحب من المجتمع، ولا يعنيه أمر هدايته، ولا يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر، ولا يحمل هم المسلمين هو مستقيم وحده، وانتهى الأمر، هذا يؤخذ بجريرة غيره، لأنه ترك فريضة سادسة، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ترك فريضة كبيرة، فأنا حينما أقول: أخذ الناس جميعاً بتكذيبهم الأنبياءَ بمعنى أن الباقين أقروهم على أعمالهم، سيدنا عمر يقول: " والله لو أن قرية ائتمرت على قتل واحد لقتلتهم به جميعاً.

أستاذ زياد، تصور أن حريقاً نشب في حي من أحياء بلدة ما، فالذي يسكن في الطرف الآخر من الحي قال: أنا ليس عندي ماء، إن لم يخرج من بيته، ويساهم في إطفاء النار في أول الشارع النار سوف تصل إليه، لعل هذا معنى قوله تعالى:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

(سورة الأنفال)

هذا الذي لم يقترف هذه المعصية، وأهلكه الله، لأنه لم ينهَ عنها، ولم يتمعر وجهه حينما يراها، ولم يعبأ بنشوب المعصية بين المسلمين، هذا ذنب أيضاً، لكن بشكل عام التعميم من العمى، لا يعمم إلا أعمى، في كل بلد هناك طيبون وصالحون، ودعاة إلى الله صادقون وملتزمون، هناك من يخاف الله، لكن حينما يغلب على الأمة فسادها وانحرافها وتفلتها من منهج ربها عندئذ تستحق الهلاك، لكن المستقيم له معاملة خاصة.

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (61))

قال تعالى أيضاً:

(وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً (37) وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً (38) وَكُلّاً ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلّاً تَبَّرْنَا تَتْبِيراً (39) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً (40))

(سورة الفرقان)

تكذيب رسالات الأنبياء أحد أكبر أسباب هلاك الأمم، والتكذيب قولي وفعلي، وأنا أرى أن التكذيب الفعلي أخطر من التكذيب القولي، لأن التكذيب الفعلي يدعوك إلى أن تجيبه، أن تحاوره، وتأتيه بالدليل والبرهان، لكنه يعلن أنه مؤمن بالآخرة، فإذا دققت في حياته اليومية لم تجد أثراً لهذا الإيمان، تماماً لو أنك ذهبت إلى طبيب، وعالجك، وكتب لك دواءً، وأنت بلباقة عالية أثنيت عليه، وعلى علمه، لكنك لم تشترِ الدواء، لأنك لست مقتنعاً بوصفته، عدم شراء الدواء هو تكذيب بعلمه، مع أنك بالغت في احترامه، وفي الثناء عليه، فما يقوله الإنسان، ولا يعمل به لا قيمة له إطلاقاً، لذلك لم يكن في حياة النبي صلى الله عليه وسلم نفاق، لأن المؤمنين كانوا ضعاف، فالنفاق متى يكون ؟ إذا أصبح المؤمنون أقوياء، وهناك من له مصالح معهم، فينافق لهم، لم يكن هناك نفاق، فلذلك كان التكذيب صريحًا، وهذا ملمح خطير في أن الله عز وجل حينما أرسل أنبياءه كانوا في بداية الأمر ضعفاء، لماذا ؟ لو جعلهم أقوياء لآمن الناس بهم جميعاً، لا عن قناعة بدعوتهم، ولكن خوفاً منهم، لذلك أيعقل أن يمر النبي صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه، وهو يعذب، ولا يستطيع أن يفكه من هذا العذاب ؟ مهلاً آل ياسر، فإن موعدهم الجنة.

حينما يكون موضوع التوبة سبباً من أسباب هلاك الأمم، يكون حجم التوبة وثمارها كبيرة جداً في حياة المؤمن، لأن هلاك الإنسان شيء مدمر، فإذا تاب الإنسان من سبب من أسباب هلاكه فقد نجا من عذاب الدنيا وشقاء الآخرة، فرداً كان أو مجتمعاً.

المذيع:

ذكرتم بأن التوبة حينما يكون موضوعها سبباً كبيراً من أسباب هلاك الأمم، أي سبب هلاك الأمم من ذنب كبير، وهذا الذنب كان موضوع التوبة ومنطلق التوبة.

الأستاذ:

يقول ابن عباس كلامًا رائعًا: قال: " ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة "، وحينما نقرأ القرآن الكريم نجد أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً (147))

(سورة النساء)

أي إن الإنسان حينما يؤمن الإيمان الحق، وحينما يشكر الشكر الحق، فقد حقق سبب وجوده في الحياة، عندئذ تنتهي المعالجات كلها، سبب هلاك الأمم أن تقترف المعاصي والآثام، وأن يكذب الأنبياء، فحينما نصدق، ونستقيم على أمر الله نكون قد تلافينا سبب هلاكنا.

وهناك فكرة دقيقة جداً، وهي أن الأمة أو الفرد إذا وقعوا فيما يوجب هلاكهم فهناك أنواع كثيرة جداً لهلاكها، قد يكون بعارض طبيعي، كزلزال، أو فيضان، أو صقيع، أو جفاف، أو بمشكلات داخلية، أو بعدوان خارجي، هذه منوعة في أشكالها، لكن متحدة في سببها، حينما ترتكب الأمة سبب هلاكها، قد يأتي الهلاك من طرق كثيرة، ولا ينفع حذر من قدر، ولكن ينفع الدعاء مما نزل، ومما لم ينزل.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دارالفتوى - منهج التائبين - الحلقة 26 - 30: الترف من أسباب هلاك الأمم.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-12-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

العبرة أن يكشف الإنسان سر وجوده في الدنيا، فإذا ظن أن الدنيا دار استمتاع ونعيم تحرك حركة معينة، وإذا عرفها على حقيقتها أنها دار عمل، وليست دار جزاء، وأنها دار تكليف، وليست دار تشريف صحت حركته في الحياة، من أبلغ ما خطب به النبي عليه الصلاة والسلام في أصحابه أنه خطبهم مرة فقال:

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

(ورد في الأثر)

أنا حينما أذهب إلى بلد بعيد وأنزل في أحد فنادقه وأستيقظ في صبيحة اليوم الأول وأتناول طعام الفطور وأسأل إلى أين سأذهب هذا سؤال عجيب ! من أسأله يسألني: لماذا أتيت إلى هنا ؟ إن أتيت طالب علم اذهب إلى المعاهد والجامعات، وإن أتيت تاجراً اذهب إلى المعامل والمؤسسات، وإن أتيت سائحاً اذهب إلى المقاصف والمتنزهات، لا تصح الحركة إلا إذا عرف الهدف.

فالإنسان حينما لا يعلم سر وجوده في الدنيا، ولا يعلم غاية وجوده، ويظن أن الدنيا هي كل شيء، هي نهاية آماله، ومحط رحاله، لابد من أن يتحرك فيها حركة تدعو إلى استمتاعه بها، واقتناص لذّاتها، والانغماس في مباهجها، أما حينما يعلم حقيقة الحياة الدنيا أنها دار عمل، وليست دار أمل، أنها دار تكليف، وليست دار تشريف، ينطلق إلى ضبط سلوكه وفق منهج الله، وينطبق أيضاً إلى عمل صالح يكون ثمناً للقاء الله عز وجل، لذلك ربنا عز وجل حينما قال:

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا)

(سورة الإسراء)

وقد يسأل سائل: لماذا انصب الأمر على المترفين فقط ؟ ذلك أن الأقوياء والأغنياء والمترفين هؤلاء أعلام في المجتمع، فإذا فسقوا فسق الناس معهم، وإذا استقاموا استقام الناس معهم، من ألطف ما قرأت في هذا الباب أن سيدنا عمر رضي الله عنه حينما جاءته كنوز كسرى ووضعت أمامه تعجب فقال: **" إن الذي أدى هذا لأمين، كان إلى جانبه الإمام علي كرم الله وجهه قال: يا أمير المؤمنين أعجبت من أمانته لقد عففت فعفوا، ولو وقعت لوقعوا "، وفي رواية: " لو عففت لعفوا، ولو رتعت لرتعوا ".**

معنى ذلك أن هؤلاء المترفين أو الأقوياء أو الأعلام في المجتمع إن استقاموا استقام الناس، وإن اعوجّ اعوَجّ الناس ! وجه الله الأمر لهؤلاء المترفين فقال:

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً (16))

وهذا يقودنا إلى موضوع دقيق جداً، هو أن الإنسان حينما يمكن في الأرض، ويجعله الله غنياً، أو يجعله الله قوياً إن أحسن فله أجر مضاعف، وإن أساء فله عذاب مضاعف.

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (32))

(سورة الأحزاب)

والتي تتقي الله عز وجل من نساء النبي صلى الله عليه وسلم كما قال الله عز وجل يؤتيها أجرها مرتين.

هذا ينقلنا إلى أن الأب إذا استقام فله أجر مضاعف، لأن أولاده سيقلدونه في استقامته، وإذا انحرف فله وزر مضاعف، كل إنسان وكّله الله أن يقود مجموعة من الناس، ولو أنهم عشرة، إذاً هو قائد، فهو قدوة مقلّد، فإن أحسن فله أجر مضاعف، أجر استقامته، وأجر من استقام بسببه، وإن أساء فعليه وزر مضاعف وزره ووزر من قلده في هذا، لذلك قال الله تعالى:

(مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا)

(سورة النساء)

يحاسب حسابين.

المذيع:

فضيلة الشيخ الدكتور محمد راتب النابلسي، هنا ليتنا نتوقف عند قول الباري عز وجل:

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً (16))

(سورة الإسراء)

هنا ليتنا نفسر هذا الأمر، أمر الله للمترفين، هي مشيئة الله وإرادته عندما يريد أن يهلك قرية يهيئ لها الأسباب، بأن يجعل مترفيها يفسق فيها.

الأستاذ:

معاذ الله أن يريد الله ابتداءً إهلاك قرية، ثم يخلق أسباب هلاكها، هذا لا يليق بكمال الله أبداً، هذا ما نود أن نوضحه، لكن قالوا: إذا أردنا أن نهلك قرية، القرية حينما تشرد عن الله، وحينما تبتعد عن منهج الله، وحينما تغرق في المعاصي والآثام، وفي أكل المال الحرام، وفي الزنى والربا، وما إلى ذلك، كإنذار أخير، في هذه الآية تفسير رائع: أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا، لأن الله عز وجل يقول:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ)

(سورة الأنعام)

الصواريخ والصواعق.

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

(سورة الأنعام)

الزلازل والألغام.

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام)

ففي قراءة لهذه الآية:

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا)

كعلاج مرّ لانحراف هذه القرية، القرية منحرفة، ومتفلتة، وشاردة، ومكذبة، لكن كإنذار أخير، وكعلاج مرٍّ قبل الإهلاك أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا.

(أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا)

وضغطوا، وأكلوا أموال الناس بالباطل، وقهروا، وأذلوا، هذا علاج إلهي، ومن لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر ! حينما تأتي المصيبة، وهناك من يتعظ بها هذه أصبحت دواءً لا مصيبة، أما حينما تأتي المصيبة، ولا يتعظ بها أحد فنفس الإنسان أكبر مصيبة، من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر من هذه المصيبة، فالقراءة الثانية:

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا)

كعلاج مرٍّ.

كان عليه الصلاة والسلام يدعو فيقول: اللهم إني أعوذ بك من إمام سوء، إن أحسنت لم يقبل، وإن أسأت لم يغفر، اللهم إني أعوذ بك من جار سوء، إن رأى خيراً كتمه، وإن رأى شراً أذاعه، فتأمير المترفين الفسقة الظالمين، الذين يأخذون أموال الناس بالباطل يذلون الناس، هذا علاج إلهي، ذلك أن الناس إذا انحرفوا قيض الله لهم من يقهرهم، فإذا عادوا إلى الطريق الصحيح أزاح الله عنهم هذا الكابوس، فهذا المعنى الآخر دقيق جداً:

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا)

المترفون فسقوا، وأهل هذه القرية لم يرتدعوا، ولم يتعظوا، ولم يعودوا إلى ما أمرهم ربهم، إذاً كان هذا الإنذار الأخير، وقد أعذر من أنذر.

(فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً (16))

المذيع:

ومن هنا يأتي الدعاء لله سبحانه وتعالى: أن ولي علينا خيارنا، ولا تولي عينا شرارنا الأستاذ:

وقد ورد أيضاً أنه إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم سمحاءَكم، وأمركم شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأمركم إلى نسائكم، فبطن الأرض خير لكم من سطحها.

المعنى الأول:

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا)

وهم القدوة والنجوم في المجتمع، أمرناهم أن يتوبوا، ويستقيموا فلم يستقيموا، قلدهم الناس فاستحقوا الهلاك.

والقراءة الثانية:

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً)

النقطة الدقيقة أنا أخاطب الإخوة المستمعين، أن الأب قدوة والمعلم قدوة، ومن ولي أمر عشرة فهو قدوة، وليعلم هذا الذي جعله الله قدوة، ومكنه في الأرض أنه إذا أحسن فله أجره مرتين، وإذا أساء فله عقاب مرتين، له عقاب إساءته، وعقاب من قلده بإساءته، وإذا أحسن له أجر إحسانه، وأجر من قلده بإحسانه.

قضية طاعة الكبراء ثابتة في القرآن، قال الله عز وجل:

(وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (67))

(سورة الأحزاب)

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً)

(سورة إبراهيم)

إني ألح على هذا المعنى: معنى الممكن في الأرض، القوي الغني الذي ولي أمر عشرة، هذا إن أحسن له أجر مرتين، وإن أساء له عقاب مرتين.

المذيع:

وهل يعفى الضعيف الذي قلد المتمكن من عقوبة ذنبه ؟

الأستاذ:

لا، لا يعفى، كان تقليده سبب عقابه، لكن أودع الله فيه عقلاً، وأعطاه منهجاً، ذلك أنك إذا خرجت من بيتك تريد أن تبيع بيتًا لك، والتقيت بوسيط عقاري، وقال لك: هذا البيت قيمته كذا، هل تبيعه فوراً ؟ مستحيل، أنت في شؤون دنياك تتريث، وتسأل، وتوازن، وتبحث، لماذا في أمر دينك لا تسأل، ولا تبحث ؟ لو أن هذا الكبير الغني القوي ارتكب فاحشة أو سيئة، لماذا تقلِّده ؟ بل إنك لو اعتقدت اعتقاداً صحيحاً تقليداً لم يقبل منك ! ذلك أن الله لو قبل من الناس اعتقادهم التقليدي لنجا كل من انحرف عن

منهج الله عز وجل، وحجتهم أننا قلّدنا كبرائنا، لو أن الله قبل عقيدة تقليدية لكان كل من انحرف في عقيدته معذوراً عند الله عز وجل، والله عز وجل يقول:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد)

ما قال: فقل، هذه قضية في التوحيد مهمة جداً، حتى كان اعتقادك كان صحيحاً ولم تقبله بدليل، قبلته دون دليل وألقيته على مسامعك دون دليل، وحدثت الناس به من دون دليل، هذا الاعتقاد لا يقبل، لأنه لو قُبل لقُبل كل اعتقاد منحرف بحجة أن كبراءنا قالوا هكذا.

هذه نقطة تضع المؤمن أمام مسؤولياته، فلابد من البحث والتدقيق، ولابد من أن تتبع النبي صلى الله عليه وسلم عن دليل، والدليل على ذلك:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ)

(سورة يوسف)

وهذا يقودنا إلى الذي يستفتى فيفتي يقول: حرام وكفى، هذا كلام لا معنى له، لو أن مفتياً سئل: ما حكم هذه القضية ؟ يقول: يا أخي الكريم، هذه حكمها أنها حرام، لهذه الآية، هذه مباحة، لهذه الآية، هذه مكروهة، لهذه الآية، لابد من أن تطلب الدليل، وبالمناسبة أنا لا أقبل أن يكون في مكتبة المسلم كتاب فقه غير مدلّل، أحكام فقهية فقط، هذه الأحكام الفقهية فقط لا تقدم ولا تؤخر، ولا تعلمنا أن منهج الله منهج قوي أساسه كتاب كريم، وسنة نبوية مفصلة ومبينة، هذا يقودنا إلى أن العلم أصل في هذا الدين، وأن عالماً واحداً أشد على الشيطان من ألف عابد، وطلب العلم فريضة على كل مسلم، أي على كل مسلم ومسلمة، أي على كل شخص مسلم.

ننتقل إلى سبب آخر من أسباب هلاك الأمم، الحقيقة هذا السبب من أسباب الغلو في الدين، والدليل قول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَدَاةَ الْعَقَبَةِ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ:

((هَاتِ الْقُطْ لِي، فَلَقَطْتُ لَهُ حَصَيَاتٍ هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ، فَلَمَّا وَضَعْتُهُنَّ فِي يَدِهِ قَالَ: بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ))

(سنن النسائي)

الحقيقة أن الدين عندما أتى من عند الله عز وجل، وبينه النبي كان كنبع ماء صاف، فلما جرى هذا النهر، وصبت عليه الروافد، صبت عليه روافد مياه سوداء، لو نظرت إلى نهر في نهايته لوجدته أسود اللون من كثرة ما صب عليه من فروع ليست صافية، وليست جيدة.

إن أردت صفاء الدين فارجع إلى ينابيعه الأصيلة، فكل دين يضاف عليه ما ليس منه، وهذا ينقلنا إلى حقيقة دقيقة في التجديد، وهي أن التجديد في الدين يعني شيئاً واحداً، ولا يجوز أن نتجاوزه، أن تنزع من الدين كل ما علق به مما ليس منه، هذا هو التجديد، لأن الله عز وجل يقول:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

(سورة المائدة)

عدد القضايا التي عالجها الدين تام عدداً، وطريقة المعالجة كاملة نوعاً، ولا يمكن أن نضيف عليه، لأنه دين الله، ولا يمكن أن نحذف منه، لأنه دين الله، لكن سمح لنا باجتهادات فقهية تبعاً لبعض الظروف المستجدة، والتي تعود إلى أصول الدين.

الغلو في الدين أن تخرجه عن صفائه، وأن تخرجه عن تماسكه، وعن الدليل، أن تأتي بقضية فرعية صغيرة، وأن تجعلها أصلاً من أصول الدين، وتقاتل عليها، فالغلو في الدين أحد أسباب هلاك الأمم، فأنا حينما آخذ فرعاً من فروع الدين، وأكبّره، وأجعله أصلاً، وأقاتل من أجله، أنا شرذمت الأمة، وشققت صفوفها.

(إِنّ الّذِينَ فَرّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ)

(سورة الأنعام)

أحد أسباب هلاك الأمم الغلو في الدين، كأن من الإخوة المؤمنين إذا تفوق في إحدى جوانب الدين ينبغي أن يعد نفسه متفوقاً في أحد جوانبه، لا أن يجعل هذا الفرع الذي تفوق فيه هو الدين كله، هذا غلو، ويجعل بين الأمة تناحراً وعداوات وبغضاء، وكل من شق الصفوف، وجعل الأمة شيعاً وفرقاً وأحزاباً وطوائف هذا يخالف إرادة الله في جمع شمل هذه الأمة، وعلامة إخلاص الإنسان أنه يجمع ولا يفرق، أنه يكون سبب وحدة لا سبب تفرقة، والحقيقة أن أعداء المسلمين يتعاونون، وبينهم خمسة بالمئة قواسم مشتركة، ومع الأسف الشديد تجد المسلمين أحياناً يتقاتلون، وبينهم خمسة وتسعون بالمئة قواسم مشتركة، فالأولى أن نتعاون فيما اتفقنا، وأن يعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا، الأولى أن نتعاون فيما اختلفنا، وأن ينصح بعضنا بعضاً فيما اختلفنا.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دارالفتوى - منهج التائبين - الحلقة 27 - 30: الكفر بنعم الله سبب لهلاك الأمم.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-12-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

الحقيقة أن الله عز وجل حينما قال متحدثاً على لسان إبليس:

(قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17))

(سورة الأعراف)

وللعلماء وقفة متأنية عند هذه الآية، فإبليس ـ لعنه الله ـ مادام الإنسان شارداً عن منهج الله يتركه، مادام منغمساً في الملذات والمعاصي والآثام يتركه، فإذا تاب هذا الشاب إلى الله توبة نصوحًا، واصطلح مع الله، وعزم على السير في طريق الإيمان يتصدى له.

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16))

حينما يفكر الإنسان بالصلح والتوبة مع الله، ويعقد العزم على السير في طريق الإيمان يأتيه الشيطان. وبالمناسبة الشيطان سمح الله له أن يفعل ما يفعل، ويوظف له هذا الفعل لصالح المؤمن، فوساوس الشيطان قد تدفع المؤمن إلى مزيد من العلم، وقد تدفعه إلى مجالس العلم، وقد تدفعه إلى طلب العلم، فالشيطان يريد إضلال الإنسان وإفساده، ولكن الله يوظف هذه الرغبة وهذا السلوك لصالح المؤمن.

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16))

قلت قبل قليل: لهذه الآية ملمح خطير قال:

(ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

يقول الإنسان الشارد: التقدم والحداثة والعصرنة، وهذا عصر الكومبيوتر، وعصر الفضائيات، على حساب دينه، وكأن هذا الدين لا يلح لهذا العصر، فأحد أكبر أسباب الوسوسة، وإغواء الشيطان لبني الإنسان تزيين ما في العصر من مغريات، ومن تفلتات ومن شهوات، ومن تجاوزات لمنهج الله.

(ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

وإذا كان لهذه الأمة التي هداها الله تاريخ قديم فيه جاهلية جهلاء، الشيطان يزين لهذه الأمة تاريخها القديم، فأكثر الأمم الشاردة تعود إلى التاريخ القديم، تاريخ الوثنية والانحراف والتفلت، فهناك مصدران كبيران لإفساد الشيطان، أن يزين لأتباعه ما في العصر الحديث من سقطات وانحرافات وإباحية وآثام وشبهات وضلالات، أو ما في العصور السابقة قبل الإسلام من ضلالات أيضاً وانحرافات.

(لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

يأتيهم بالوسوسة، وضوءك لا يصح، فصلاتك لا تصح، فأنت هالك، قرأت الفاتحة، هناك شدة لم تتقنها، فقراءتك باطلة فصلاتك باطلة، هذا جانب من الوساوس.

(لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

قبضت راتبك من المصرف، والمصرف ماله حرام، أنت معلّم وموظّف، وقد أنجزت عملك بدقة وأمانة لا علاقة لك بمصدر المال، تأخذ مالك حلالاً، لكن الشيطان حتى يعيق إقبال الإنسان على الله يأتيه عن يمينه من جهة دينه وورعه، وعبادته وطهارته، وإيمانه بالله، يوسوس له، هذا الطفل الصغير ولد أعمى، ما ذنبه ؟ هذه عن أيمانهم.

(وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

المعاصي والآثام، فأصبح هناك أربع جهات.

من بين أيديهم ما في العصور الحديثة من الآثام والفسق، والفجور والانحراف، والانحلال والاختلاط، وما إلى ذلك، وما في العصور القديمة من جهل وانحراف، وعن أيمانهم ما في الدين من تأويلات باطلة، وأحكام جائرة في نظر بعضهم، أن هذه الصلاة لا تصح إلا بكذا، وعن شمائلهم المعاصي والآثام، ولكن الله أغفل جهتين، أغفل جهة العلو والجهة الأرضية، قال العلماء: هذا اجتهاد لطيف، أن الطريق إلى الله سالك، ومحصن من وساوس الشيطان، وأن طريق الافتقار إلى الله أيضاً طريق سالك ومحصن، فهناك جهتان آمنتان محصنتان، جهة العلو وجهة الافتقار إلى الله.

(مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

هذه جهات فيها وساوس، وفيها ضلالات، وما إلى ذلك، ورد في بعض الأحاديث القدسية:

((إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إلي بالمعاصي، وهم أفقر شيء إلي، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

[ورد في الأثر]

هل يمكن أن تقول لإنسان: خذ هذه الليرة، وعدّها ؟ كلام لا معنى له، لا تعدّ ! كيف يقول الله عز وجل:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

(سورة إبراهيم)

قال علماء التفسير: إن نعمة واحدة لو أمضيت كل حياتك في عدّ خيراتها وبركاتها لا تنتهي منها، النعمة الواحدة ! ثم إن الله عز وجل يقول:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

أي: أنتم عاجزون عن إحصاء بركات نعمة واحدة، فلأن تكونوا عاجزين عن شكرها من باب أولى. الأخ حينما ينجب مولوداً تأتيه هدايا كثيرة من أقربائه، لو جلس مع زوجته ليكتب قائمة لهذه الهدايا، من جاء بها، كتب قائمة، يا ترى إحصاء هذه الهدايا ومعرفة من أهداها أهون أم ردها في مناسبات قادمة، ودفع مبالغ طائلة كي ترد هذه الهدية ؟ فنحن عاجزون لا عن شكر النعمة، بل عن إحصائها فقط، فلأن نكون عاجزين عن شكرها من باب أولى.

المذيع:

هنا الكفر بنعم الله سبب من أسباب هلاك الأمم، وهل يكون شكر النعمة شكراً جماعياً من الأمة ؟ وكيف يكون ؟

الأستاذ:

يقول الله عز وجل:

(لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17))

(سورة سبأ)

لذلك حينما قال قوم سبأ:

(رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا)

(سورة سبأ)

من شدة الرخاء والأمطار، والنباتات والبساتين، والمياه الوفيرة والعذبة أصبحت بلادهم متصلة، أنت الآن إذا ذهبت إلى بلد جميل، وفيه خيرات وافرة، البناء يتصل، والمرافق تتصل، والحاجات تتصل، وكأنها بلدة واحدة.

(فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا)

عجب الناس من هذا الدعاء، أيعقل لإنسان عاقل أن يدعو على نفسه بالهلاك ؟ اجعل بلادنا قاحلة يا رب ! نحن في لبنان كما تعلمون يوجد مناطق متصلة كلها غابات وأبنية، وبيوت جميلة، ومرافق وخدمات، فهذه متصلة، لكن ما معنى:

(بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا)

أي: جاء الجفاف، فجفت الأشجار، وببس الزرع، وتباعد الناس في البنيان، قال علماء التوحيد: لا يعقل لإنسان أن يدعو على نفسه بالهلاك ! ما تفسير هذه الآية ؟ قالوا: هذا الذي يعصي الله لسان حاله يقول: يا رب، دمرني، أفقرني، لأن المعاصي والآثام سبب الفقر والدمار.

(ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17))

كمعنى فرعي يقول عليه الصلاة والسلام:

((إني لأكره المرأة تخرج من بيتها تشتكي على زوجها))

(ورد في الأثر)

عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ مِنْ غَيْرِ مَا بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ))

(مسند الإمام أحمد)

هذا كفر بالنعمة تقريباً، فقال الله عز وجل بعد أن أهلكهم:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

أيْ: عبرًا، وما هذه الآثار التي نراها بأعيننا كالأهرامات والمدرجات الرومانية، هذه الآثار أرادها الله أن تبقى لتكون عبرة لكل من أراد أن يعتبر.

والحقيقة أن هناك بحثًا لطيفًا في القرآن الكريم، أنني أحصيت كلمة أشد منهم قوة فوجدتها في تسع آيات حصراً، فكلما أهلك الله قوماً ذكرهم بأنه أهلك من هو أشد منهم قوة، إلا في آية واحدة رائعة: حينما أراد الله أن يهلك عاداً قال:

(وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

فقال الله لهم:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً)

(سورة فصلت)

وهذا استنباط قطعي، أن عاداً الأولى كانت أقوى الأمم، ليس فوقها إلا الله، فكل أمة أهلكها الله ذكرها بأمة أخرى كانت أقوى منها، أما حينما أهلك الله عاداً الأولى ذكرها أن الله هو أشد منها قوة، وهذه إشارة إلى أن عاداً بلغت أعلى درجة في القوة، وأية أمة أرادت أن تكون كعاد الأولى وادّعت القوة والغطرسة والكبر، كأن الله عز وجل يقول لها كما قال لغيرها:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً)

هناك سبب آخر يمكن أن يكون سبباً وجيهاً لهلاك الأمم هو النقص والتطفيف في الكيل والميزان، وإذا وسّعنا هذا الموضوع ليشمل الغش، والذي يلفت النظر أن سورة المطففين ذكرت هذا، قال تعالى:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ(4))

(سورة المطففين)

الشيء العجيب أن هذه السورة موجودة في جزء عم، في الجزء الثلاثين، وكل السور التي قبلها، والتي بعدها تبدأ بآيات كونية، وكأن هذه السورة تنفرد بحكم شرعي، فقال علماء التفسير: إذا كان عدم إيمانك بالله، وعدم أدائك للواجبات الملقاة على كاهلك تجاه ربك سبباً لهلاك الإنسان، فإنك إذا بخست حق امرئ، أو غششته فهذا يعد سبباً لهلاكك، إذا كان إنقاص الكيل والميزان سبباً لهلاك الإنسان فلأن يكون جهله بالله، وتفلته من منهجه مهلكاً من باب أولى.

المذيع:

هنا فيما يخص الفرد، وأما يخص الأمم فإذا طغت أمة، وجارت على بقية الأمم، وكالت بمكيالين، فهذا نوع آخر من أسباب هلاك الأمم، وإنزال العقوبة بهم.

الأستاذ:

هناك حديث شريف صحيح، شيء لا يكاد يصدّق، كأن النبي يعيش معنا، وأعد هذا الحديث من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

((يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ، لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمِ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ))

(سنن ابن ماجة)

الْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِم، مرض الإيدز أكبر شاهد على ذلك، وكأن النبي عليه الصلاة والسلام معنا **!** فأنا حينما أتوب من سبب كبير لهلاك أمة حصنت نفسي، وحصنت أمتي معي، وهذه الفقرات الأخيرة في هذا البرنامج الطيب إن شاء الله نوسع فيها الدائرة من توبة شاب إلى توبة أمة، من توبة مؤمن إلى توبة المؤمنين، لأنه كما ذكرتُ قبل قليل قول عباس رضي الله عنهما: **"ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة ".**

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دارالفتوى - منهج التائبين - الحلقة 28 - 30: الوقاية من الذنب1.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-12-24

بسم الله الرحمن الرحيم

الحقيقة أن في حياة المؤمن أشياء يقينية، وأشياء ظنية، فإذا اقترف ذنباً فقد يتوب، وقد لا يتوب، وقد يجره الذنب إلى ذنب أكبر، فالتوبة ظنية، أما إن لم يقترف ذنباً فالنجاة يقينية، لذلك قالوا: درهم وقاية خير من قنطار علاج.

إلا أن القضية الوقائية في التوبة تنطلق من معرفة الله، إن عرفت الآمر، ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر، أما إذا عرفت الأمر، ولم تعرف الآمر تفننت في التفلت من الأمر، أنا حينما أعرف جهة قوية ينتظرني عطاء كبير منها لو أطعتها، وينتظرني عذاب وبيل لو عصيتها، فمعرفتي لهذه الجهة القوية الحكيمة العادلة الرحيمة يقيني من أن أعصيه، مما يلفت النظر أن في القرآن الكريم ما يزيد على ألف وثلاثمائة آية تتحدث عن الكون، وعن خلق الإنسان والحيوان والنبات، وعن الأرض، وعن المجرات.

ألا يسأل عاقل: لمَ هذه الآيات ؟ وما سر وجودها ؟ وما الحكمة منها ؟ أيعقل أن يقول الله كلاماً لا يعنيه، أو لا معنى له، أو ليس له تطبيقات عملية ؟

مستحيل ! فأصل الدين معرفة الله، ولسيدنا بلال رضي الله عنه كلمة رائعة، يقول: " لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت "، أنا حينما أعرف من هو الله ؟ ما عظمة الله ؟ ما حكمته ؟ ما عدالته ؟ ما رحمته ؟ ما وعده ؟ ما وعيده ؟ أعد للمليار قبل أن أعصيه، الوقاية الوحيدة من أن أذنب أن أعرف الله، وقد تجد في القرآن الكريم أوامر، ونحن في علم الأصول كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، فحينما قال الله عز وجل:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمّ خُلِقَ (5))

(سورة الطلاق)

هذا أمر ! في اللقاء الزوجي الرجل يفرز خمسمئة مليون حوين، وتحتاج البويضة إلى حوين واحد، وتختار أقوى هذه الحوينات، هذه آية يقول الله عز وجل:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمّ خُلِقَ (5))

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً (25) ثُمّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً (27) وَعِنَباً وَقَضْباً (28) وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً (29) وَحَدَائِقَ غُلْباً (30))

(سورة عبس)

أمر إلهي !

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس)

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ)

(سورة آل عمران)

جاء الفعل بصيغة المضارع.

(وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

التفكر في خلق السماوات والأرض أحد أكبر الأبواب المفتحة لمعرفة الله، وهو أوسع باب إلى الله، وأقصر طريق إليه ! لأنك تواجه عظمة الله مواجهة رائعة، فيخشع قلبك، وتستعظم أن تعصيه، إن سر الوقاية من التوبة أن تعرف الله، وفرق كبير بين أن تعرف أمره وبين أن تعرفه، أن تعرف أمره يحتاج إلى أن تقرأ، وتكتب، وتحضر مجلسًا، وتطالع كتابًا، وتؤدي امتحانًا، لكن من أجل أن تعرفه لابد من أن تجاهد نفسك وهواك، وقد قيل: جاهد تشاهد، جعل الله لنا طرائق عدة لمعرفته، فخلقه أحد أسباب معرفته، وأفعاله أحد أسباب معرفته.

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (36))

(سورة النحل)

في الكون نتفكر، وفي أفعال الله ننظر، وفي القرآن الذي هو كلامه نتدبر، نعرفه من خلقه بالتفكر، ومن أفعاله بالنظر، ومن كلامه بالتدبر، وأضرب على هذا مثلاً:

في الإنسان غدة صغيرة لا يزيد وزنها على نصف غرام، هي ملكة الغدد في جسم الإنسان، اسمها الغدة النخامية، مربوطة بجسم تحت السرير البصري في الدماغ بمئة وخمسين ألف عصب ! إنها ملكة، كما أن الدماغ ملك الجهاز العصبي، وأوامره نبضات كهربائية، فالغدة النخامية ملكة الجهاز الهرموني، وأوامرها هرمونية، هل نصدق أن هذه الغدة تفرز تسعة أوامر هرمونية ؟ لو تعطل أي أمر لأصبحت حياة الإنسان جحيماً لا يطاق ! أول هرمون تفرزه هذه الغدة هو هرمون النمو، هذا الهرمون مؤلف من مئة وثمانية وثمانين حمضاً أمينياً، وذرات الكون لا تكفي لصنع ذرة حمض أميني صدفة ! هرمون النمو فيه مئة وثمانية وثمانون حمضاً أمينياً، هذا الهرمون ينبغي أن يكون في كل لتر من الدم نسبة لا تقل ولا تزيد على عشرة ميكروغرامات من هذا الهرمون، لو أن هذه النسبة نقصت لتقزم الإنسان، ولو زادت لتعلق الإنسان، وكلاهما مرضان خطيران، فمن خلال هذا الهرمون هرمون النمو يكون جسم الإنسان معتدلاً، وطوله معتدلاً، وأعضاؤه معتدلة، فلو أن هذا الهرمون قلّ عن هذه النسبة عشرة ميكروغرامات في اللتر الواحد لتقزم الإنسان، ولو زادت هذه النسبة لتعملق الإنسان، هذه الغدة النخامية التي هي ملكة الغدد تفرز هرمونًا آخر هو هرمون يحث الكظر، الكظر ماذا يفعل ؟ أنا حينما أرى شيئاً

مخيفاً، عدواً، أرى سلاحاً مشهراً علي، أرى نفسي سأذهب ضحية حادث سير، ما الذي يحصل ؟ صورة هذا الشيء الخطير تنطبع على شبكية هذا الإنسان، تنطبع إحساساً، لكن بحسب مفهومي عن هذا الشيء لو أني رأيت ثعباناً كبيراً، وعندي معلومات عن هذا الثعبان اقتبستها من دراستي، ومن خبراتي، ومشاهداتي مجموع الدراسات والخبرات والمشاهدات تكوّن مفهوم الثعبان، فالثعبان لدغته قاتلة، أنا حينما أرى ثعباناً تنطبع صورته على الشبكية إحساساً، وتنتقل هذه الصورة إلى المخ إدراكاً، فبحسب المفهومات التي في المخ أخاف، ما الذي يحصل الآن ؟ ملك الجهاز العصبي، وهو الدماغ يدرك أن هناك خطراً مميتاً، يعطي التماساً إلى ملكة الغدد الغدة النخامية أن تتصرف، الغدة النخامية ملكة، وعندها أتباع وموظفون، من أتباعها غدة الكظر التي فوق الكلية، هذه الغدة ما إن يأتيها أمر من الغدة النخامية أن تتصرف إلا وترسل أمر هرموني إلى القلب يرفع وجيب القلب من ثمانين ضربة في الدقيقة إلى مئة وخمسين ضربة، فالخائف يخفق قلبه، ومن أجل أن يتم تنقية الدم من غاز الفحم يأتي أمر آخر إلى الرئتين فيرفع وجيبهما كي تتناسب حركة الرئتين مع دقات القلب السريعة، الخائف يلهث، ويحتاج إلى طاقة ودم، فيأتي أمر ثالث من الكظر إلى الأوعية المحيطية في الجسم فتضيق لمعتها من أجل أن نوفر الدم إلى العضلات، فالخائف يصفر لونه، ويأتي أمر رابع إلى الكبد بإطلاق كمية سكر زائدة كي تكون طاقة لعمل استثنائي، ويأتي هرمون خامس إلى الكبد ليأمره بإفراز كمية استثنائية من هرمون التجلط، لئلا يسيل دمه بضربة واحدة، الإحساس والإدراك واتخاذ القرار وتوجيه الملكة، وهي توجه من دونها وهو الكظر، وإفراز خمسة أو ستة أوامر هرمونية إلى الأوعية والقلب والرئتين والكبد هذا يتم في أقل من ثانيتين ! هذا من أثر هرمون الكظر الذي يحثه على أن يأخذ دوره في الدفاع.

هناك هرمون آخر تفرزه هذه الغدة هو الهرمون الجنسي، وهو المسؤول عن تمايز الذكر عن الأنثى، هناك صفات أساسية وصفات ثانوية في الذكر، وهناك صفات أساسية وثانوية في الأنثى، الذي يدرج هذه الصفات في سن البلوغ هو الهرمون الجنسي الذي تفرزه هذه الغدة التي وزنها نصف غرام ! والتي ارتبطت بالجسم بمئة وخمسين ألف عصب، هناك هرمون آخر تفرزه هذه الغدة، هو هرمون لون الجلد، فالإنسان بين أن يكون أبيض ناصع، وبين أن يكون حنطياً، وبين أن يكون أسمر، وبين أن يكون ملوناً أو أسود اللون، فهرمون اللون تفرزه الغدة النخامية لتأمر خلايا تحت الجلد أن تصطبغ باللون المناسب، هناك هرمون تفرزه هذه الغدة وهو هرمون توازن السوائل، لو قصر هذا الأمر لاحتاج الإنسان إلى أن يمضي وقته كله إلى جانب الصنبور يشرب كميات خيالية من الماء، ثم يطرحها، فمن خلال هذا الهرمون يتم ما يسمى في علم الطب توازن السوائل، ثم إن هذه الغدة مسؤولة عن الولادة عند المرأة، فالولادة آلية معقدة جداً يتسع الحوض ميكانيكياً، ويتغير اتجاه الجنين ميكانيكياً، وتفرز هرمونات الحليب في جسم المرأة، العملية معقدة، ثم يتقلص الرحم تقلصاً متزامناً مبرمجاً لطيفاً، لأن

فيه الجنين ! فإذا خرج الجنين تقلص تقلصاً فجائياً شديداً جداً كي يمنع النزيف، قال بعض العلماء: لو انعكست الآية لماتت الأم ووليدها، قبل الولادة تقلص لطيف متزامن كي يُدفع الطفل إلى خارج رحم أمه، أما التقلص الثاني فأكثر من مئة ألف شريان انقطع، فلئلا ينزف دم الأم ينقبض الرحم انقباضاً شديداً حتى يغدو كالصخر ليمنع النزيف، هذا كله من آثار الغدة النخامية.

الحقيقة أن الله عز وجل له آيات دالة على عظمته، قال تعالى:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21))

(سورة الذاريات)

المذيع:

ومعرفة هذه الآيات، وتفكرها، وتدبرها، وإبصارها يكون مدعاة لعدم معصية الله، والوقوف عند حدوده.

الأستاذ:

أصل الدين معرفة الله، إن عرفت الله مستحيل وألف ألف مستحيل أن تعصيه، فالحديث في هذه الموضوعات حديث في الوقاية من الذنب، والوقاية من الذنب يقينية، بينما التوبة ظنية، الإنسان قد يتوب وقد لا يتوب.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دارالفتوى - منهج التائبين - الحلقة 29 - 30: الوقاية من الذنب2.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-12-25

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل أيام وقع تحت يدي مقالة علمية فيها ملمح دقيق وخطير، ذلك أن فرنسا قبل خمس وثلاثين سنة أقامت في صحراء الجزائر تفجيراً نووياً، هذا التفجير النووي كما تعلمون لهيب حارق، وضغط ماحق، لا يبقي شيئاً، لا نباتًا ولا حيوانًا ولا إنسانًا، فجرت هذه القنبلة قبل خمس وثلاثين عاماً في صحراء الجزائر، وشكّل هذا الانفجار حفرة كبيرة جداً، وشكّل كرة من النار تعلو مساحة شاسعة، ثم فوجئ بعض العلماء في نهاية هذا الانفجار بعقرب يمشي على أرض الانفجار ! شيء لا يصدق ! عكف علماء الحيوان ربع قرن على دراسة العقرب، فوجدوا أن العقرب يستطيع أن يبقى بلا طعام ولا شراب ثلاث سنوات متتالية، ووجدوا أن العقرب يستطيع كتم أنفاسه تحت الماء لمدة يومين كاملين، ووجدوا أن العقرب إذا وضع في ثلاجة في درجة عشر تحت الصفر، ثم نقل إلى رمل الصحراء المحرقة في درجة ستين يتكيف مع هذا التبدل الطارئ، ثم وضع في حمام من الجراثيم فلم يتأثر بها إطلاقاً، وكأنه في حمام بارد، ثم عرضوه لأشعة نووية تزيد ثلاثمئة ضعف عما يتحمله الإنسان فتحملها ! شرّحوه، ليس فيه دم، بل فيه مصل أصفر ! ماذا يعلّمنا هذا البحث العلمي ؟ يعلمنا أنه يمكن ألا نمرض إطلاقاً، إذا كان هذا العقرب عنده هذه الخصائص، وهذه من خلق الله عز وجل، لذلك يجب أن نؤمن أن الله سبحانه وتعالى حينما جعل الإنسان سريع العطب كي يحمله على التوبة، الله جل جلاله ثبت أشياء كثيرة ثبّت حركة الأفلاك، أنا أقول لك: بعد خمسمئة عام الشمس تشرق يوم ثلاثة أيلول في الساعة الخامسة وثلاث دقائق ! فحركة الأفلاك ثابتة، بل إن ساعة بيغ بن الشهيرة تضبط على حركة نجم من النجوم، ثبّت خصائص المواد، وخصائص المعادن، وخصائص البذور، ثبّت ملايين الأشياء والقوانين والأنظمة، كي يستقر النظام في الأرض، لكنه حرك الصحة والرزق كي يحملنا بهما على التوبة، فهذا العقرب مثلا لا يمكن أن نتصور أن هذا العقرب يمرض، كان في مكان الانفجار النووي، ولم يتأثر، هذا ينقلنا إلى شيء آخر.

إن الأشياء البسيطة جداً، والتي لا ننتبه إليها قد تكون آية من آيات الله الدالة على عظمته، أنت إذا كنت تمشي في طريق، وسمعت صوت بوق سيارة دون أن تشعر تتجه إلى الجهة المعاكسة لمصدر الصوت، ما الذي حصل ؟ في الدماغ جهاز بالغ التعقيد، هو الذي يستقبل الصوت من الأذنين، ويكشف التفاضل بين وصول الصوتين إليهما، فالتفاضل واحد على ألف وستمئة جزء من الثانية، فحينما تكون السيارة نحو اليمين، وتصدر صوتاً من خلال بوقها يصل إلى الأذن اليمنى قبل اليسرى، بفارق يساوي

واحدا على ألف وستمئة وعشرين جزءا من الثانية، هذا الجهاز يدرك التفاضل فيعرف جهة الصوت، فيعطي أمر للعضلات أن تتجه إلى الجهة المعاكسة.

أنا حينما تقدم لي وردة، أو تعطرني بنوع من العطر ما الذي يحصل ؟ هناك عشرون مليون نهاية عصبية، كل نهاية تنتهي بسبعة أهداب مغمسة بمادة مخاطية، هذه المادة المخاطية تتفاعل مع الرائحة، ويتشكل من تفاعلها شكل هندسي مثلث مكعب مستطيل أسطوانة، فهذا الشكل الهندسي هو الرائحة، ينتقل إلى الدماغ ليعرض على عشرة آلاف ذاكرة شمية ! فحيثما كان التوافق بين شكلين عرفت الرائحة، تقول: هذه رائحة الياسمين، أو رائحة الفل، أو زهر الحمضيات، كيف حصل هذا ؟ شيء بسيط جداً، فيوجد أشياء تلفت النظر.

إنسان سافر إلى بلاد بعيدة كأمريكا، وعاد إلى بلده، يقول: بقي يومين مضطرباً، ليله نهار، ونهاره ليل، ما الذي حصل ؟ العلماء قالوا: الإنسان في النهار يزداد استهلاك جسمه من الطاقة، وفي النهار ترتفع درجة حرارته نصف درجة عن المعدل الوسطي، وفي الليل تنخفض نصف درجة عن المعدل الوسطي، وفي النهار تزداد ضربات قلبه من عشر إلى عشرين ضربة في الدقيقة عنها في الليل، وفي النهار يزداد إدرار البول إلى ضعفين، أو إلى أربعة أضعاف عنه في الليل، وفي النهار يزداد نشاط الدماغ، ويضعف في الليل، وفي النهار تزداد كريات الدم البيضاء عنها في الليل، ويزداد استهلاك السكر ثلاثين بالمئة عنها في الليل، وفي الليل يزداد هرمون النمو، وهرمون الإخصاب، الإنسان بعقله يعرف أن الوقت نهار، والوقت ليل، لكن القلب كيف يعرف ؟ والرئتان ؟ والاستقلاب ؟ والغدد ؟ كل هذه الاختلافات بين الليل والنهار، الأجهزة الموكلة بإحداث هذا الاختلاف من يعرفه أن هذا الوقت ليل أو نهار ؟ كي تمارس نشاطها وفق الوقت.

الإنسان يدرك بعقله، لكن هذه الأجهزة لا تدرك بعقلها، في الإنسان ساعة بيولوجية، تستمد معلوماتها من قاع العين، فأنت في النهار تفتح عينيك، وتستقبل ضوء الشمس، فالوقت نهار، الساعة البيولوجية تبرمج هذه الأجهزة على أن ترفع نشاطها في النهار، وأن تخفضه في الليل، فيبرمج الإنسان في الليل قد تهبط ضربات القلب إلى خمسين ضربة، أو خمسة وخمسين، لكن في النهار ثمانون، لكن حينما نسافر إلى بلاد بعيدة في ساعاتك البيولوجية الوقت ليل، فأنت ترغب أن تنام، وهناك الوقت نهار، وفي ساعتك البيولوجية الوقت نهار، ترغب أن تعمل، الوقت هناك ليل، فإلى أن تعدل هذه الساعة برنامجها على التوقيت الجديد تحتاج إلى يومين، وهذه سماها علماء الطب الساعة البيولوجية، وهذه الظاهرة يعاني منها كل من سافر إلى بلاد بعيدة.

في الحقيقة في النهار يحب أن ينام، وفي الليل لا ينام أبداً، لأن ساعته البيولوجية تؤكد لكل أجهزته أن الوقت ليل أو أن الوقت نهار، هذا من آيات الله الدالة على عظمته.

المذيع:

عندما نعرف هذه الآيات الجدير بنا، والأولى ألا نعصي الخالق عز وجل، وتكون هناك توبة استدراكا للمعصية.

الأستاذ:

التوبة ظنية.

شيء آخر، أن القرآن الكريم هو كلام رب العالمين، ذكر الله فيه ثلاث توابل حصراً، من هذه التوابل الزنجبيل والمسك والكافور، فالزنجبيل ورد في قوله تعالى:

(وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً (17))

(سورة الإنسان)

والمسك ورد في قوله تعالى:

(خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26))

(سورة المطففين)

والكافور ورد في قوله تعالى:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً (5))

(سورة الإنسان)

لو أخذنا الزنجبيل على أنه مادة وردت في القرآن الكريم، ماذا قال عنه الأطباء ؟ ورد في كتب الطب القديمة أن الزنجبيل مسخن للجسم، معين على الهضم، مليّن للبطن، مطهّر ومقوٍّ، ينفع الزنجبيل في التهاب الحنجرة والرشح، ومسكن قوي للالتهاب المفاصل والمغص المعوي، ومضاد للغثيان، خلاصته المائية دواء جيد لأمراض العين.

هذا ما ورد في الكتب القديمة، ولكن ماذا في الكتب الحديثة، وهذا شيء يلفت النظر ؟ قال العلماء: الزنجبيل موسع للأوعية، والمرض القاتل هو تصلب الشرايين.

فضيق الشرايين لو أن الإنسان نجا من كل الأمراض ما الذي يميته في النهاية ؟ تصلب الشرايين، فالزنجبيل موسع للأوعية، منعش للقلب والتنفس، مقوٍّ لتقلص عضلات القلب، هناك حسابات دقيق لقوة عضلات القلب، أي هو مماثل تماماً لدواء شهير اسمه الديكوكسين، هذا الدواء مقوٍّ للقلب، إن آثار الزنجبيل في الجسم تشبه آثار هذا الدواء، ثم إن هذا الزنجبيل يمنع تجمع الصفيحات الدموية، أي يمنع الجلطات، إذاً هو مميع للدم، يفيد في أمراض الجلطات الدماغية والقلبية، وخثرات الأطراف، والذي يسافر إلى أماكن بعيدة محتمل أن يصاب بجلطة في رجله، أو أطرافه لطول الجلوس، لذلك ينصح ركاب الطائرات الخطوط طويلة جداً أن يتحركوا طوال هذه الرحلة، أو أن يلبسوا جوارب مطاطية.

شيء لا يصدق، أنه يخفض من ارتفاع الضغط الدموي والكوليسترول، لذلك العلماء قالوا: خير الدواء ما كان غذاءً، وخير الغذاء ما كان دواءاً.

فهذه الآيات الدالة على عظمة الله عز وجل إنْ في أنفسنا، وإنْ في طعامنا، وإنْ في المخلوقات التي حولنا، البعوضة ! إن الله عز وجل يقول:

(إنّ اللّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

(سورة البقرة)

البعوضة لها ثلاثة قلوب، قلب مركزي، وقلب لكل جناح، والبعوضة عندها جهاز رادار، فهي في وسط الظلام تتجه إلى جبين الإنسان مباشرة، وعندها جهاز تخدير، فإذا وقعت على جسمه تخدره لئلا يقتلها، ثم عندها جهاز فحص دم هناك دم لا يناسبها، تأخذ عينة من دمه وتفحصها، ثم عندها جهاز تمييع، لأن الدم اللزج لا يمر في خرطومها، فمن جهاز رادار، إلى جهاز فحص للدم، إلى جهاز تمييع للدم، إلى جهاز فحص واكتشاف له، ثم إن أجنحتها ترف أربعة آلاف رفة في الثانية الواحدة، إلى مستوى الطنين، ثم إن هذه البعوضة إن أرادت أن تقف على سطح أملس فلها في أطرافها محاجم مبنية على الضغط، كيف أنك تعلق على البلور مشجب أساسه تفريغ الهواء، ولها في أطرافها مخالب، إذا كان السطح خشن تستخدم مخالبها، وإن كان السطح ناعماً تستخدم محاجمها، ولها ثلاثة قلوب، ويرف جناحاها أربعة آلاف في الثانية، وعندها جهاز رادار، وجهاز فحص، وجهاز تخدير، وجهاز تمييع، فإذا قال الله عز وجل:

(إنّ اللّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

فهذه آية من آيات الله الدالة على عظمته، بل إن بعضهم قال:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة دارالفتوى - منهج التائبين - الحلقة 30 - 30: ثمرات التوبة وقصة لأحد العارفين بالله التائبين.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-12-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

الحقيقة أنك إذا دخلت إلى أحد المساجد، ورأيت المسجد ممتلئاً بالمصليين المنيبين، أنا أقول لك: أن تسعين بالمئة من هؤلاء ساقهم الله إلى بابه عن طريق تأديب أو مصيبة، لأن هذه المصائب سماها الله نعم باطلة، قال تعالى:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

(سورة لقمان)

ولولا أن الله يريد أن يتوب علينا، ولولا أنه قال:

(اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ)

(سورة البقرة)

ولولا أنه يفرح بتوبتنا لتفلت الإنسان، ولشقي في الدنيا والآخرة، حسب ما رغبت أن أروي قصة أحد التابعين الذين أصبحوا من كبار العارفين، من هؤلاء مالك بن دينار، سُئل مرة عن سبب توبته فقال: كنت شرطياً، ومنهمكاً على شرب الخمر، ثم إنني اشتريت جارية نفيسة وقعت مني أحسن موقع، فولدت لي بنتاً فشغفت بها، فلما دبت على الأرض ازدادت في قلبي حباً، وألفتني، وألفتها، قال: فكنت إذا وضعت الشراب بين يدي جاءت إلي، وجادلتني عليه وهرقته على ثوبي، فلما تم لها سنتان ماتت، فأكمدني موتها، وحزنت عليها حزناً كبيراً، فلما كانت ليلة النصف من شعبان، وكانت ليلة الجمعة، بت ثملاً من الخمر، ولم أصلّ فيها العشاء، فرأيت فيما يرى النائم كأن القيامة قد قامت، قد نفخ في الصور، وبعثرت القبور، وحشرت الخلائق، وأنا معهم، فسمعت حساً من ورائي، فالتفت فإذا بثعبان عظيم أعظم ما يكون، أزرق اللون، قد فتح فاه مسرعاً نحوي، فمررت بين يديه هارباً فزعاً مهرولاً، فمررت بطريقي بشيخ نقي الثوب، طيب الرائحة، فسلمت عليه، فرد السلام، فقلت: أيها الشيخ، أجرني من هذا الثعبان أجارك الله، فبكى الشيخ، وقال لي: أنا ضعيف، وهذا أقوى مني، وما أقدر عليه، ولكن أسرع، وادع الله عز وجل، فلعل الله ينجيك منه، فوليت هارباً على وجهي، فصعدت على شرف من شرف القيامة، فأشرفت على طبقات النيران، فنظرت إلى هولها، وكدت أهوي فيها من فزعي من هذا الثعبان العظيم، فصاح بي صائح: ارجع، فلست من أهلها، فاطمأننت إلى قوله، فرجعت، ورجع الثعبان يتبعني، فقال الشيخ: إني ضعيف، ولكن سر إلى هذا الجبل، فإن فيه ودائع المسلمين، فإن كان لك فيه وديعة فسوف تنصرك، قال: فنظرت إلى جبل مستدير من فضة، وفيه كوى مخرمة وستور معلقة، على كل

كوة وخوخة مصراعان من الذهب الأحمر، مفصلة بالياقوت، على كل مصراع ستر من الحرير، فلما نظرت إلى الجبل ولّيتُ منه هارباً، والثعبان من ورائي، حتى إذا قربت منه صاح بعض الملائكة، ارفعوا الستور، وافتحوا المصاريع، وأشرفوا، فلعل لهذا البائس فيكم وديعة تجيره من عدوه، فإذا الستور قد رفعت، والمصاريع، قد فتحت فظهر أطفال وجوههم كالأقمار، وقرب الثعبان مني فتحيرت في أمري، فصاح بعض الأطفال: ويحكم أشرفوا كلكم، فقد قرب منه عدوه، فأشرفوا فجاء فوج بعد فوج، فإذا أنا بابنتي التي قد ماتت أشرفت علي معهم، فلما رأتني بكت، وقالت: أبي والله، ثم وثبت في كفة من نور كرمية السهم حتى مثلت بين يدي، فمدت يدها الشمال إلى يدي اليمنى، فتعلقت بها، ومدت يدها اليمنى إلى الثعبان فولى هارباً، ثم أجلستني، وقعدت في حجري، وضربت بيدها اليمنى إلى لحيتي، وقالت: يا أبت

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ)

فبكيت، وقلت: يا بنية، وأنتم تعرفون القرآن **!** فقالت: يا أبت نحن أعرف به منكم، قلت: فأخبريني عن الثعبان الذي أراد أن يهلكني، قالت: ذلك هو عملك السوء، قويته، فأراد أن يغرقك في نار جهنم، قلت: فأخبريني عن الشيخ الذي مررت به في طريقي ؟ قالت: يا أبت ذاك عملك الصالح، أضعفته حتى لم يكن له طاقة بعملك السوء، قلت: يا بنية، وما تصنعون في هذا الجبل ؟ قالت: نحن أطفال مسلمين أسكنا فيه إلى أن تقوم الساعة، ننتظركم تقدمون علينا، فنشفع لكم، قال مالك: فانتبهت فزعاً، وأصبحت، وقد فارقت المسكر، وكسرت الآنية، وتبت إلى الله عز وجل، وهذا كان سبب توبتي، أي إن ابنته الصغيرة رمز لعمله الصالح، وإن الشيخ الضعيف رمز لعمله الصالح الذي لم يقوى على مدافعة عمله السيئ، وأن هذا الثعبان العظيم الذي سيهلكه هو عمله السوء.

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((يا قُييس، إن لك قريناً تدفن معه وهو حي، ويدفن معك وأنت ميت، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، قال: ما هو يا رسول الله ؟ قال: هو عملك))

(ورد في الأثر)

لذلك الموت يأتي فجأة، والقبر صندوق العمل.

المذيع:

كان موت ابنته بمثابة نعمة باطنة.

الأستاذ:

أنعمها الله عليه، وشفعت له، وذكرته بخطئه، وانحرافه الشديد.

على كل نحن لا نبني ديننا على المنامات، ولكن نستأنس بها أحياناً، نحن ديننا أساسه النصوص الصحيحة، والمنهج القويم، لكن مثل هذا المنام فيه معنى بليغ، وفيه تحذير من الله، وهذا يسوقنا إلى كلمة عن الأحلام التي يراها الإنسان.

إذا كان المؤمن مستقيماً على أمر الله، ورأى مناماً مخيفاً فهو من الشيطان، لا يعبأ به، وإن كان مستقيماً على أمر الله، ورأى مناماً مريحاً فهو بشارة من الله، أما إذا كان منحرفاً في سلوكه، ورأى مناماً مريحاً فهو من الشيطان، أما إذا رأى مناماً مخيفاً، وهذه حالة الإمام مالك بن دينار فهذا المنام تحذير من الله.

يروى أن الإمام مالك إمام دار الهجرة رأى في المنام ملك الموت، فسأله: كم بقي لي من عمري ؟ فأشار له بأصابعه الخمس، فلما استيقظ الإمام مالك قلق قلقاً شديداً، لا يدري أبقي خمس سنوات، أم خمسة أشهر، أم خمسة أسابيع، أم خمسة أيام، أم خمس ساعات، أم خمس دقائق، أم خمس ثوان، خمسة! فلما ذهب إلى بعض الأئمة، الإمام بن سيرين فيما يروى، وسأله عن هذا المنام قال له: لا يا إمام، يقول لك ملك الموت: إن هذا السؤال من خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله، إن هذا السؤال من الغيبيات التي لا يعلمها إلا الله، على كل الحقيقة أنّ الإنسان إذا ذكر سبب توبته يعطي تشجيعاً للمسلمين.

المذيع:

هنا فضل الجهر بالتوبة، أي إنه عندما يتوب خاصة إذا كان من علياء القوم يعطي مثلاً للعامة من القوم على أن يقلدوه، ويمتثلوا له.

الأستاذ:

ولكن هناك تحفظ، وهو أن الله سترني، ولا ينبغي أن أفضح نفسي، وليس في إسلامنا شيء اسمه الاعتراف والبوح، فالإنسان مغطى بستر الله عز وجل، إذا اختار من ذنوبه الذنب الذي لا يسقطه من عين الناس، وحدثهم به، وكيف تاب الله عليه فلا مانع، ولكنه ليس مكلفاً أن يحدث المذنب عن ذنوبه الكثيرة، وعن سقوطه في حمأة الرذيلة كي ينتفع الناس في هذا الذنب، الإنسان لا يغفر، فإذا بحث له ببعض الذنوب كلما نظر إليك تذكرها، لكن نحن قد نذكر أنه كان تائهاً وشارداً، وهكذا تاب بسبب نصيحة مثلاً، أو عمل صالح، أو موعظة بليغة، أو مرض ألمّ به، أنا أتمنى على التائبين من علية القوم إن حدثونا عن توبتهم أن يتحدثوا عن مناسبة توبتهم، لا عن ذنوبهم، إذا قال: كنت تائهاً، أو شارداً، أو مقترفاً للمعاصي كفى، أما أن يفصل تفصيلات ما أمره الله بها في شؤون معاصيه وذنوبه، ثم يجمل كيف تاب، لا، أنا أريد بالعكس، أريد أن يفصل في آلية التوبة.

حدثني أخ قال: والله لي عمل من أشد الأعمال دناءة، وسمى هذا العمل، لكنني تبت عند سماع شريط سمعته خمسين مرة، وفيه قصة مؤثرة عن إنسان أطلق بصره في الحرام، وملأ عينيه من الحرام، فأصابه الله بمرض ارتخاء الجفون، فهو لا يرى إلا إذا أمسك جفنيه بيديه، ورفعهما ! ويبدو أن هذا الإنسان الذي أخبرني عن توبته، له عمل مثل ذلك، فلما سمع هذه القصة تأثر بها، وكأن كل مذنب له مفتاح، هذا مفتاحه موعظة، وهذا مصيبة، وهذا مرض، وهذا مرض ابنته.

أعرف صديقاً متعلقاً بابنته تعلقاً لا حدود له، وكان شارداً وتائهاً عن منهج الله، فلما مرضتْ مرضاً عضالاً، ولم يبق طبيب إلا فحصها، اضطر إلى أن يبيع بيته، ويذهب إلى بلد بعيد، ولم تشفَ من مرضها، ثم خطرت له خاطرة هو وزوجته: لعلهما إذا تابا إلى الله، ورجعا إليه يشفي الله لهما هذه الفتاة التي تعلقا بها تعلقاً غير طبيعي.

الحقيقة أن هذا المرض بدأ يتراجع، لزم الصلاة، ودروس العلم، وتحجبت زوجته، وسلك طريق الإيمان، على أمل أن يشفيها الله بسبب توبتهما، وهذا الذي كان، والله بعد عشر سنوات زارني، وقدم لي دعوة لحضور عقد قران، فلبيت الدعوة، وألقيت كلمة في هذا العقد، وأنا خارج من مكان الاحتفال تبعني مودعاً، فخطر في بالي خاطرة، لعل هذه الفتاة التي تم عقدها الليلة لعلها هي التي مرضت، فقلت له بصيغة مألوفة: هي هي ! قال لي: هي هي! قلت: سبحان الله ! هذا المرض العضال جاء كالضيف، ألم بهذه الفتاة الرائعة، وحمل أبويها على التوبة، ثم انسحب مولياً، وكأنه لم يأتِ، وهذه من النعم الباطنة.

الله عز وجل ذكرنا بقوم عندهم بساتين وإنتاج زراعي كبير:

(أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (18))

(سورة القلم)

أرادوا أن يمنعوا حق الفقير، وأن يستأثروا بهذا المال، قال:

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20))

جاءتها موجة صقيع، وأحياناً تأتي موجة لثلاثين ثانية تتلف محاصيل بمئات الألوف، وبالملايين أحياناً موجة الصقيع.

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20))

كأنها مقطوعة، كأنها قد جنيت، في الصباح:

(فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (21) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (22))

(فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26))

ليست هذه بساتيننا، فلما تأكدوا أنها هي هي قالوا:

(بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27))

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (30))

(قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28))

لو أنكم سبحتم ربكم، وعرفتموه لما بخلتم بحق الفقير، ولما أتلف الله لكم محاصيلكم، وقد ورد في الحديث الشريف:

((ما تلف مال في بر أو بحر إلا بحبس الزكاة))

(ورد في الأثر)

(قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ(30))

أخ زياد، يوجد كلمة رائعة قال تعالى:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

أي إن كل عذاب أسوقه لعبادي من أول الخليقة إلى نهايتها هذه أسبابه، وهذه أهدافه، الله عز وجل غني عن تعذيبنا، وكان من الممكن أن ننعم بالنعم، ونحن غارقون في المعاصي، لكن شاءت حكمة الله أن تكون الدنيا دار ابتلاء، وأن نؤدب من خلال المصائب التي تأتينا، لذلك عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ:

((اسْتَضْحَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَضْحَكَكَ ؟ قَالَ: قَوْمٌ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ مُقَرَّنِينَ فِي السَّلَاسِلِ))

(مسند الإمام أحمد)

ما السلاسل ؟ هي الامتحان، هناك فكرة دقيقة: لو أنك مدير مؤسسة، وأردت أن تعين موظفا، من لوازم التعيين أنك تمتحنه لستة أشهر، فإن كان جيداً أبقيته، وإلا صرفته، هذا الموظف من أجل أن تمتحنه سوف تسجل عليه كل حركة وسكنة، فإذا اجتمعت سيئاته، وطغت على حسناته استغنيت عنه، هذا المنطق السليم، ولكن لو أن ابنك هو الموظف ماذا تفعل ؟ ليس الموضوع أن تسجل عليه السيئات، بل أن تصلحه، فعند أول خطيئة تأتي به، وتؤدبه، وتنبئه، وهكذا ربنا جل جلاله وهو رب العالمين. كان من الممكن أن ينزل الله آياته وقرآنه على الناس، ويبعث إليهم بالرسل كان وانتهى الأمر، وليفعلوا ما يشاؤون، لكن الله فضلاً عن أنه خلق لهم الكون معرفاً به، وأرسل لهم الرسل والأنبياء كان ثم الدعاة الصادقين، فضلاً عن الكتب التي أنزلت، هناك تأديب يومي، لذلك ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، ويعفو الله أكثر.

فأنا حينما أرى أن الله سبحانه وتعالى يسوق لعباده الشدائد من أجل أن يقفوا على بابه، ويصلوا إليه، فالشدائد كل شدة وراءها شَدّة إلى الله، وكل محنة وراءها منحة من الله، فحينما نفهم المصائب على هذا الفهم نكون قد فقهنا ديننا.

السيارة لماذا صنعت ؟ من أجل هدف واحد أن تسير، لماذا فيها مكابح ؟ والمكبح يتناقض مع هدف صنعها، المكبح ضمان لسلامتها، والمصائب كمكابح السيارة، فلولاها لهلكنا، فتأتي المصائب تردع الناس المنحرفين عن غيهم، وضلالهم، وعدوانهم، وظلمهم، فكأن الله سبحانه وتعالى رب كريم رحيم، يسوق لنا من الشدائد ما يحملنا به على التوبة، فإذا تبنا تاب الله علينا.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس